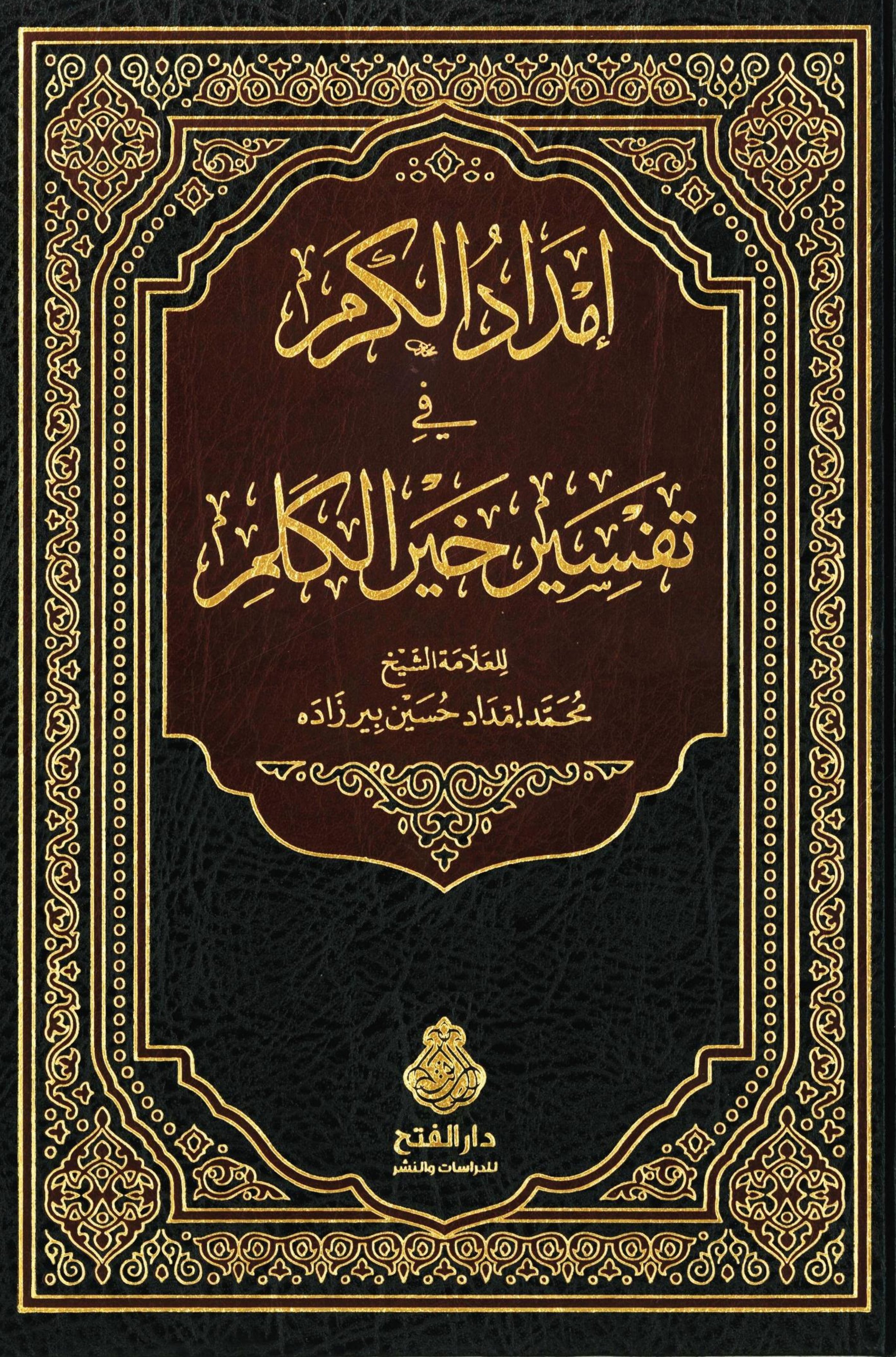


إمداد الكرم
في
تفسير خير الكلم
للعلامة الشيخ
محمد إمداد حسين بير زاده
دار الفتح
للدراسات والنشر

إمداد الكرم

في

تفسير خير الكلم

للعلامة الشيخ

محمد إمداد حسين بيرزاده

إمداد الكرم في تفسير خير الكَلِم
للعلامة الشيخ محمد إمداد حسين بيرزاده
نقله عن الأردية أ.د. إبراهيم محمد إبراهيم السيد
الطبعة الأولى: ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

قياس القطع: 17 × 24
الرقم المعياري الدولي: ٩٧٨-٩٩٥٧-٢٣-٤٢١-٨ : ISBN
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (١٧٥٧/٤/٢٠١٧)





دار الفتح للدراسات والنشر
هاتف: 4646199 6 (00962)
جوال: 777925467 (00962)
ص.ب: 183479 عمّان 11118 الأردن
البريد الإلكتروني: info@daralfath.com
الموقع على الشبكة الإلكترونية: www.daralfath.com

الناشر بالمملكة المتحدة:



Al-Karam Publications
Eaton Hall
Retford
Nottinghamshire
DN22 0PR
England, United Kingdom
Tel: +44 (0) 1777 702555
Email: info@alkarampublications.com
Website: www.alkarampublications.com



للعلامة الشيخ

محمد إمداد حسين بير زاده

نقله عن الأردية

أ.د. إبراهيم محمد إبراهيم السيد

الجزء السابع




بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس مضامين
المجلد السابع

فهرس مطالب
المجلد السابع

❋ ❋ ❋

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٧) سُورَةُ المُرسَلات

هذه السُّورةُ مكِّيّة، واسمُها: «المُرسَلاتُ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأولى منها.

الوعد بالقيامة

في بدايةِ هذه السُّورةِ أَقْسم اللهُ تعالى بخمسةِ أشياءَ مؤكِّدًا تأكيدًا تامًّا أنّ القيامةَ التي توعَدونَ بها ستقومُ يقينًا، ولهذا لا تشُكُّوا في قيامِها، وإنمّا استعِدُّوا لها. وبعدَ ذلك جاء بيانٌ لبعضِ أحوالِ القيامة وعلاماتِها، وكذا بيانٌ للعاقبةِ الوَخِيمة للذين أنكَروا القيامةَ من الأُمم السّابقة، حتى يَعتبرَ منها المنكِرون.

الإحياء من جديد

في الجزءِ الأوسَطِ من هذه السُّورةِ جاء ذِكرُ خَلْقِ الإنسان ومراحلِ نشأتِه، يعني: إذا كان اللهُ تعالى يستطيعُ أن يَخلُقَ من قَطْرةِ ماءٍ مَهينةٍ إنسانًا عظيمًا بهذا الشَّكل، فكيف لا يُمكنُه إحياؤه بعدَ موتـه ثانيةً؟

عقاب منكري القيامة

في الآياتِ من ٢٩ إلى ٤٠ جاء بيانُ تلك الأحوالِ التي سيمُرُّ بها مُنكِرو القيامة، وعندَما يرَوْنَ مصيرَهم السيِّئَ سيركَبُهم الخوفُ، ويحاولونَ الكذبَ، وعندئذٍ سيُسلَبُونَ

مقدِرتَهم على النُّطق، وتُمنَحُ هذه المقدِرةُ لأيديهم وأرجُلِهم، وهي التي ستقومُ ببيانِ حقيقةِ الأمرِ كلِّه، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [يس: ١٥]، يعني: أنّ أعضاءَ أبدانِنا شاهدُ عِيانٍ على كلِّ حركاتِنا وسَكَناتِنا، وتُسجِّلُ كلَّ تحرُّكاتِنا مثلَما تفعَلُ كاميراتُ المراقبة، ومَن سيحاولُ الكذبَ يومَ القيامة ستَفضَحُ هذه الأعضاءُ كذبَه، وتكشِفُه أمامَه.

ثواب الصالحين

في الآياتِ من ٤١ إلى ٤٤ جاء ذِكرُ الأجرِ العظيم للصَّالحين، يعني: أنّ اللهَ تعالى يَقبَلُ صالحَ أعمالِهم، ويُدخِلُهم الجنّةَ، حيث يستمتِعونَ بنِعَم الله المتنوِّعة.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة الفجر من يوم السبت ٤ ديسمبر ٢٠١٠م
الموافق ٢٧ ذي الحجة ١٤٣١هـ.

* * *

سورة المرسلات (٧٧)،

مكية (٣٣)، آياتها (٥٠)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ انْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾

١ ـ أَقْسم اللهُ تعالى ـ في بدايةِ هذه السُّورة ـ بخمسةِ أشياءَ، ولم تُذكَرْ أسماءُ هذه الأشياءِ الخمسةِ في القرآنِ الكريم، إلّا أنه جاء بيانُ صفاتِها، ولهذا اختَلَف

المفسِّرونَ فيما يتعلَّقُ بها، وقد رَجَّحتُ أنا في تفسيري ما قالهُ الحافظُ ابنُ كثير؛ لأنّ الأوضحَ عندَه أنّ الأشياءَ الثلاثةَ الأُولى تتعلَّقُ بالهواء، والشَّيئَيْنِ الأخيرَيْنِ يتعلَّقانِ بالملائكة(١).

أمّا الأشياءُ الثلاثةُ الأُولى فهي: أقسامُ الهواءِ اللَّطيفِ والمُفيد، والذي يأخُذُ أحيانًا شكلَ العاصفةِ التي تَضُرُّ، وأحيانًا ينشُرُ السُّحُبَ في مناطقَ مختلفةٍ، فتُمطرُ السماءُ على نطاقٍ واسع.

والقَسَمانِ الأخيرانِ هما للملائكةِ الذين يوضِّحونَ الحقَّ والباطل، ويُنزلُونَ الذِّكر، يعني: الوحيَ، على قلوبِ الأنبياءِ والرسُل حتى يُقيموا الحُجّةَ على الناس، فلا يستطيعُ أحدٌ أن يُنكرَ أنه جاءه نذيرٌ، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥].

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾

٢ ـ أَقْسم اللهُ تعالى بخمسةِ أشياءَ مؤكِّدًا تأكيدًا تامًّا أنّ القيامةَ التي توعَدونَ بها ستقومُ يقينًا، ولهذا لا تشُكُّوا في قيامِها، وإنّما استعِدُّوا لها.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾

٣ ـ جاء في هذه الآياتِ بيانٌ لبعضِ أحوالِ القيامة، يعني: أنّ نُورَ النجوم

---

(١) «والأظهر أنّ: «المرسلات» هي الرّياح، كما قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾ [الأعراف: ٥٧] وهكذا العاصفات، هي: الرّياح، يقال: عصفت الرّيح: إذا هبّت بتصويتٍ، وكذا النّاشرات، هي: الرّياح الّتي تنشر السّحاب في آفاق السّماء كما يشاء الرّبّ عزّ وجلّ. وقوله: ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۞ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۞ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ يعني: الملائكة» تفسير ابن كثير.

سيزُول، وستنشَقُّ السَّماء، وتتحطَّمُ الجبالُ وتتناثَرُ وتتطايَر، وعندَما تُجمَعُ الأُمَمُ كلُّها في ميدانِ الحَشْر في الوقتِ المحدَّدِ لذلك، سيكونُ الأنبياءُ والرسُلُ عليهم السَّلامُ جالسينَ هناك من أَجْل الشّهادةِ عليهم.

﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾

٤ ـ لماذا تَأَخَّر ظهورُ علاماتِ يوم القيامة؟ لأنّ يومَ القيامة يومُ الفَصْلِ القاطع، لهذا فإنّ الحِكمةَ من تأخيرِه هو أن يُكمِلَ الناسُ جميعًا المُدّةَ المحدَّدةَ لكلٍّ منهم في الحياة، ثم بعدَ ذلك يكونُ الفَصْلُ في إثابتِهم أو عقابِهم.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

٥ ـ هنا إظهارٌ للتعجُّبِ بقَصْدِ بيانِ أهوالِ القيامة وشدّتِها، يعني: الويلُ يومَئذٍ والهلاكُ ونارُ جهنَّم للمكذِّبين، وإذا لم يُصدِّقْ أهلُ مكَة بهذا، فعليهم أن يَعتبِروا من مصيرِ الأُمم السّابقة مثلَ: عادٍ وثمودَ وغيرِهما، فإذا كنّا قد أهلَكْناهم بالفعل، فيمكنُنا أن نُهلِكَكم أنتم أيضًا، ونحن نعاقبُ المجرمينَ هكذا دائمًا، وإذا أَفْلَتوا من العقابِ في الدُّنيا فلن يستطيعَ أحدٌ إنقاذَهم في الآخِرةِ من الوَيْلِ وسُوءِ العاقبة ونارِ جهنَّم.

﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾

٦ ـ يا أيُّها الإنسانُ، ألم تتفكَّرْ أبدًا كيف خَلَقْناكَ من قَطْرةِ ماءٍ مَهِينة، وقد أودَعْنا هذه القَطْرةَ رَحِمَ الأُمِّ لمدةٍ معيَّنة، أي: تسعةِ أشهرٍ تقريبًا، وفي رَحِم الأُمِّ خَلَقْنا لك الآذانَ والأعيُنَ والأيديَ والأرجُلَ وأعضاءَ البدنِ الأخرى، ووضَعْناها بشكلٍ جميل في أماكنِها، فجاء الإنسانُ بعدَها بصورةٍ مكتمِلة، وبرَغْم كلِّ هذا تُكذِّبون بقُدرتي، وبالتالي فإنّ مصيرَكم في الآخِرة الخَرابَ والهلاكَ والوَيْلَ ونارَ جهنَّم.

﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾

٧ ـ يا أيُّها الإنسانُ، لقد جَعَلْنا الأرضَ فِراشًا بطريقةٍ تُمكِّنُ من زَرْعِ المحاصيلِ لغذاءِ الأحياءِ من الناس، ويكونُ فيها قبرٌ للأمواتِ منهم، كما أنّنا نَصَبْنا على الأرضِ جبالًا عاليةً قويّةً، جَعلْنا بها كنوزًا من المعادن، وأجرَيْنا من هذه الأرضِ عيونَ الماءِ العَذْبِ وكذا الأنهارُ التي تُهيِّئُ للإنسانِ والحيَوانِ الماءَ للشُّرب، وفي هذا النِّظام للأرضِ والجبالِ آياتٌ لا حَصْرَ لها تدُلُّ على قُدرةِ الله تعالى، وبرَغْم ذلك إذا كذَّبَ الإنسانُ بقُدرةِ الله تعالى فليس له في الآخِرة سوى الوَيْلِ والهلاكِ ونارِ جهنَّم.

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾

٨ ـ جاءتِ الإشارةُ في هذه الآياتِ إلى الأحوالِ التي سيُضْطَرُّ مُنكِرو القيامةِ إلى مواجهتِها في ميدانِ الحَشْر، يعني: سيقالُ لهم: هيَّا إلى نارِ جهنَّم التي كنتُم تكذِّبونَ بها، فهي مَثْواكم، وسيَنتشرُ الدُّخَانُ الذي يتصاعَدُ من نارِ جهنَّمَ بحيث يحيطُ بالمُنكِرينَ من اليمينِ والشِّمال ومن فوقِهم، يعني: منَ الجِهاتِ الثلاث، ويتصوَّرُ المُنكِرونَ باديَ ذي بَدْءٍ أنّ هذا الدُّخَانَ ظِلٌّ، ولكنْ حين يَصِلُونَ إليه يعلَمونَ أنه ليس ظِلًّا يحميهم من حرارةِ الشمس ولهيبِ النار، وإنّما هو دُخَانُ نارِ جهنَّم التي ستُحرِقُهم.

﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾

٩ ـ عندَما ترتفعُ في الفضاءِ شُعُلاتُ النارِ وجَذَواتُها، وتصبحُ ضخمةً كأنّها القصورُ والقِلاع، ثم عندَما تتفجَّرُ وتتساقَطُ على أهلِ جهنَّم، فسيَبدو وكأنّ جِمالًا من النارِ ذاتَ لونٍ أصفرَ مائلٍ إلى السَّواء تتساقطُ عليهم، فتَحرِقُهم وتَشويهم شيًّا،

ومَن يُكذّبُ بيوم القيامةِ رَغْم سَماعِه بكلِّ هذه الأحوال، فكيف سيَنْجُو في ذلك اليوم من النار؟

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾

١٠ ـ ليس معنى هذا أنّ مقدرةَ المنكِرينَ على النُّطقِ ستُسلَبُ منهم فَوْرَ حضورِهم في ميدانِ الحَشْر، فالأمرُ ليس بهذا الشَّكل، وإنما سيُمنَحُونَ الفُرصةَ كاملةً للدِّفاع عن أنفُسِهم، ولكن حينَ يَكذِبونَ مثلَما بيَّنه القرآنُ الكريم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، عندَئذٍ يُختَمُ على أفواهِهم بسببِ كذِبِهم هذا، يعني: تُسلَبُ قوّةُ النُّطقِ لديهم، وتُمنَحُ لأيديهم وأرجُلِهم، وهذه بدَوْرِها ستُبيِّنُ حقيقةَ الأمرِ كلِّه، مثلما قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، يعني: أنّ أعضاءَ أبدانِنا شاهدُ عِيانٍ على كلِّ حركاتِنا وسَكَناتِنا، وتُسجِّلُ كلَّ تحرُّكاتِنا مثلَما تفعَلُ كاميراتُ المراقبة، ومن سيحاولُ الكذبَ يومَ القيامة ستَفضَحُ هذه الأعضاءُ كذبَه، وتكشِفُه أمامَه؟

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾

١١ ـ عندَما يُحكَمُ على المنكِرينَ بدخولِ جهنَّمَ يومَ القيامة سيقالُ لهم: اليومُ هو يومُ الفَصْل، وهو اليومُ الذي فُصِل فيه في أمرِ كلِّ مَن سَبَقُوكم من الناس، وليس في أمرِكم أنتم فقطْ، فقد كنتُم تُفلتُونَ من العقابِ في الدُّنيا عن طريقِ جاهِكم وسُلطانِكم وما تَحتالونَ من حِيَلٍ، أمّا الآنَ إن كانت لدَيْكم أيُّ طريقةٍ أو وسيلةٍ يمكنُكم من خلالِها الإفلاتُ من عذابي فاستعمِلوها إنِ استطعتُم، ولكن

تَذكَّروا جيِّدًا أنه لن تنفعَكم أيُّ وسيلةٍ أو طريقة، وسوف تَذوقُونَ العذابَ على إنكارِكمُ القيامةَ، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾ [الرحمن: ٣٣]، يعني: أنّ اللهَ تعالى سيقولُ للطُّغاة من الجِنِّ والإنسِ يومَ القيامة: إذا كنتُم تستطيعونَ الفِرارَ من أطرافِ السماواتِ والأرض لتُفلِتوا من قَبْضتي فافعَلوا، ولكنِ اسمَعوا جيِّدًا، ليس لديكُم المقدرةُ على أن تَخرُجوا من الكائناتِ بغيرِ إذني ومشيئتي، وعلى فَرْضِ المستحيلِ لو أنّكم حاوَلتُم القيامَ بهذا فأين تذهبون؟ إن مُلكي في كلِّ مكان، ولن تستطيعوا أبدًا الإفلاتَ من حسابي وعقابي.

إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٠﴾

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ﴾

١٢ ـ الذين يَتَّقُونَ اللهَ تعالى ويخشَونَه في هذه الدُّنيا، ولا يعصُونَه، سيُدخِلُهم اللهُ تعالى الجنةَ في الآخِرة، حيث توجَدُ الظِّلالُ الوارفةُ الظَّليلة، وعيونُ الماءِ العذبِ، والفواكهُ والثِّمارُ التي يُحبُّونَها، وسيقالُ لهم: هذه نِعَمُ اللهِ تعالى، كُلوا واشرَبوا منها واستمتِعوا بها، فهذا جَزاءٌ لكم على أعمالِكمُ الصّالحة التي كنتم تعمَلونَها في الدنيا، وهكذا يَجزي اللهُ تعالى من فَضْلِه وكرَمِه الذين يعمَلونَ الصّالحاتِ خيرَ الجزاء، أمّا الذين لم يتَّقُوا الله ولم يخشَوْه، وظَلُّوا يُنكرونَ الآخرةَ، فليس لهم اليومَ سوى الوَيْلِ والهلاك.

﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾

١٣ ـ أَرسَلَ اللهُ تعالى الأنبياءَ والرسُلَ عليهم السَّلامُ لهدايةِ بني الإنسان، وهم الذين أَخْبَروا الناسَ بأنّهم إن عصَوا اللهَ تعالى فسيكونونَ مجرِمينَ في حقِّه سبحانَه، ولهذا ليأكلوا ويستمتِعوا قَدْرَ استطاعتِهم في هذه الفترةِ المحدودةِ من الدنيا، ولينتفِعوا ويستفيدوا بما في الدُّنيا من أشياءَ، ولكنْ عليهم أن يَستعِدُّوا أيضًا للعقابِ على جرائمِهم، وما أن تنتهيَ المُهلةُ المحدَّدةُ لهم في الدُّنيا، سيُلقَى بهم في نارِ جهنَّم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾

١٤ ـ الذين يعصُونَ اللهَ تعالى، ولا يخضَعُونَ لأحكامِه، ليس لهم في الآخِرة سوى الوَيْلِ والهلاك.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾

١٥ ـ القرآنُ الكريمُ هو الكتابُ السَّماويُّ الأخيرُ بينَ كلِّ الكتُبِ التي أَنْزلَها اللهُ تعالى، وقد أوضَح اللهُ تعالى فيه طريقَي الحقِّ والباطل تمامَ الوضوح، فإذا لم يؤمنِ المنكِرونَ به رَغْمَ كلِّ هذا، فبأيِّ شيءٍ غيرِه سيؤمنونَ إذًا؟ ومعناه في غايةِ الوضوح، وهو أنّهم لن يؤمنوا بأيِّ كتاب.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ إشراقِ يوم الأحد ٥ ديسمبر ٢٠١٠م
الموافق ٢٨ ذي الحجة ١٤٣١هـ.

هذا، وقدِ اكتَملَ بفَضْل الله تعالى وكرمِه تفسيرُ سُورة «المرسَلات» في يومٍ واحدٍ فقط، يعني: من ٤ إلى ٥ ديسمبر، وكنتُ قد بدَأتُ تفسيرَ الجزءِ التاسع والعشرينَ من القرآنِ الكريم يومَ ٢٦ أكتوبر ٢٠١٠م، وفَرَغتُ منه اليومَ ٥ ديسمبر ٢٠١٠م، أي: اكتَملَ تفسيرُه في شهرٍ وتسعةِ أيام، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

❋ ❋ ❋

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(٧٨) سُورَةُ النَّبَإِ

هذه السُّورةُ مكِّيّة، واسمُها: «النَّبأُ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الثانيةِ منها.

القيامة حق

جاء التنبيهُ في بدايةِ هذه السُّورةِ وفي نهايتِها لمُنكِري القيامة بأنّ ما يعتقدونَه حولَ القيامةِ غيرُ صحيح بالمَرّة، وإنّما القيامةُ حقٌّ، وستقومُ في الوقتِ المحدَّدِ لها يقينًا، وسوف يَعلمُونَها هم أيضًا قريبًا؛ لأنّهم ما إنْ يموتوا حتى تتكشفَ لهم أحوالُ الآخِرة، وعندَما يرَى الكفّارُ في ذلك اليوم عاقبتَهم الوخيمةَ سيقولونَ: ليتَهم يكونونَ ترابًا ولا يوقَفُونَ للحساب، لكنّ النَّدَمَ في ذلك اليوم لن ينفَع بشيء.

قدرة الله تعالى

في الآياتِ من ٦ إلى ١٦ من هذه السُّورةِ جاء بيانٌ لبعضِ مظاهرِ قُدرةِ الله تعالى، والتي يصبحُ الإيمانُ بالقيامة سَهْلًا لمَن يتدبَّرُها ويتأمَّلُها، يعني: هل يَصعُبُ على الله الذي خَلَق الأرضَ والسماءَ واللَّيلَ والنهارَ والجبالَ والسَّحابَ والشمسَ أن يُحييَ الإنسانَ من جديدٍ مثلَما خَلَقَه أولَ مرة؟

الجنة والنار

في الآياتِ من ٢١ إلى ٣٦ جاء بيانُ أنّ الطُّغاةَ من الناسِ سيَخلُدونَ في جهنَّمَ

إلى الأبد، وكلَّما أصابَهمُ الظَّمأُ سُقُوا قَيْحًا وصَديدًا وماءً يغلي، وعلى العكسِ منهم فإنّ المتَّقينَ من الناسِ سيَخلُدونَ في الجنّة، حيث توجَدُ الفواكهُ والثمارُ المتنوِّعة، والأزواجُ في سنِّ الشبابِ وفي أعمارِ أزواجِهم، وكؤوسُ الشرابِ الطَّهورِ كذلك.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة الفجر من يوم الاثنين ٦ ديسمبر ٢٠١٠م
الموافق ٢٩ ذي الحجة ١٤٣١هـ.

❋ ❋ ❋

سُورَةُ النَّبَإِ (٧٨)،

مكية (٨٠)، آياتها (٤٠)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾

١ ـ عندَما دَعَا النبيُّ ﷺ كفّارَ مكّةَ إلى الإيمانِ بالنبإِ العظيم، أي: إلى الإيمانِ بيوم القيامة، أخَذوا يتساءلونَ فيما بينَهم: ما القيامةُ؟ وكيف يُمكنُ إحياءُ الناسِ بعدَ موتِهم؟ وهكذا ظَهَر الاختلافُ بينَ الكفّار.

١ ـ بعضُ الكفّارِ أنكَرَ القيامةَ بوضوح إنكارًا تامًّا، وكانوا يقولونَ مثلَما جاء في ألفاظِ القرآنِ الكريم: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩].

٢ ـ البعضُ الآخَرُ من الكفّارِ لم يُنكرِ القيامةَ إنكارًا تامًّا ولا بشكلٍ واضح، وإنّما لم يكنْ على يقينٍ إن كانت القيامةُ ستأتي أم لا، كانوا يقولونَ مثلَما جاء في ألفاظِ القرآنِ الكريم: ﴿مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢].

٣ ـ البعضُ الثالثُ من الكفّارِ كان يُنكرُ القيامَة، وفي نفسِ الوقتِ كان يظُنُّ أنه حتى لو جاءتِ القيامةُ فإنّ اللهَ تعالى سيُعاملُهم معاملةً طيِّبةً هناك، مثلَما أعزَّهم في الدُّنيا، وقد قال أحدُهم كما جاء في ألفاظِ القرآنِ الكريم: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾

٢ ـ في الآياتِ السّابقةِ بيَّن اللهُ تعالى أسئلةَ مُنكري القيامة، يعني: أنّهم يعتقدونَ أنّ القيامةَ لن تقومَ، وفي هذه الآياتِ أجابَ اللهُ تعالى بنفسِه عن أسئلتِهم هذه، يعني: أنّ اعتقادَهم ـ فيما يتعلَّقُ بالقيامةِ ـ غيرُ صحيح بالمَرّة، وإنّما القيامةُ ستأتي يقينًا، ثم قال مرَّتَينِ على سَبيل التأكيد: إنّ المُنكِرينَ أيضًا سوف يَعلَمونَ قريبًا أنّ الساعة حقٌّ؛ لأنّهم ما إنْ يموتوا حتى تتكشَّفَ لهم أحوالُ الآخِرة.

﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾

٣ ـ في الآياتِ التاليةِ ذَكَر اللهُ تعالى بعضَ العلاماتِ التي تدُلُّ على عظيم قُدرتِه وجمالِ حِكمتِه، على سَبيل المثال: رَغْمَ أنّ الأرضَ مستديرةٌ كالكُرة، لكنّ اللهَ تعالى جَعَلها كالفَراشِ من أَجْل فائدةِ الإنسان، ونَصَبَ عليها الجبالَ

كالأوتادِ لها، وجَعَل في هذه الجبالِ أيضًا كنوزًا من المعادنِ لفائدةِ الإنسانِ كذلك، ثم إنه خَلَق بني الإنسانِ أزواجًا، يعني: خَلَق منهم الذَّكرَ والأُنثى، فلو خَلَق الجميعَ ذكورًا، أو جَعَل الجميعَ إناثًا لَانقطَعتْ سلسلةُ النَّسلِ الإنسانيِّ، ولَحُرِمت هذه الأرضُ من بني الإنسان، والأمرُ الذي يستحِقُّ التّمعُّنَ في هذا هو: ألا يَقدِرُ اللهُ تعالى، الذي خَلَق هذه الأرضَ الواسعةَ والجبالَ الشامخةَ والإنسانَ الجميلَ، على أن يَخلُقَ الإنسانَ من جديد؟

الأرض كروية

الأرضُ ليست مُفَلطَحةً، وإنّما مستديرةٌ كالكُرةِ، وقد قال الإمامُ الرازي عامَ ٦٠٠هـ، أي: قبلَ ثمانِمائةٍ واثنينِ وثلاثينَ عامًا من اليوم(١): «إنّه ثَبَت بالدّلائلِ أنّ الأرضَ كُرَةٌ... والكُرةُ إذا كانت في غايةِ الكِبَر كان كلُّ قطعةٍ منها تشاهَدُ كالسَّطْح»(٢).

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾

٤ ـ وقتَ النهارِ يكونُ عقلُ الإنسانِ وتفكيرُه وعَيْناهُ وأذُناه ويَداهُ وقَدَماهُ وغيرُها مشغولةً في أمورِ كسبِ العيش، وعندَما يَفرُغُ الإنسانُ من هذه المشاغل ليلًا ويَخلُدُ إلى النَّوم، يُزيلُ النَّومُ كلَّ الإرهاقِ الذي أصابَ أعضاءَ بدنِه نهارًا، وكما أنّ اللِّباسَ يستُرُ بدنَ الإنسان، ويَحميه من آثارِ الحرارةِ والبرودة، كذلك يستُرُ اللّيلُ كلَّ شيء، ويختفي نورُ النّهار، ويتوقّفُ الصَّخَبُ الناتجُ عن حركةِ الناس، وتتلاشَى أصواتُ الطيورِ، ويَستعملُ الإنسانُ الملابسَ المناسبةَ لكلِّ فصلٍ

---

(١) أي: من وقت كتابة التفسير الأردي هذه الآية (المترجم).

(٢) التفسير الكبير، سورة الرعد (١٣): الآية ٣.

من الفصول، فيَحصُلُ على الراحةِ الكاملةِ والخَلوةِ التامَّة، ثم عندَما يَطلُعُ النَّهارُ ينهَضُ الإنسانُ نشيطًا من جديدٍ، وينصرفُ إلى البحثِ عن رزقِه، وهذا النظامُ الرائعُ للَّيل والنَّهارِ يدُلُّ دِلالةً قاطعةً على وجودِ مدبرٍ عظيم، يعني: اللهَ تعالى الذي جَعَل سلسلةَ اللَّيل والنهارِ هذه من أَجْل خَلْقِ التوازُنِ في نظام الحياة.

النوم نعمة عظيمة

يستفيدُ من النَّوم الفقيرُ والغَنيُّ على السَّواء، والذي يُعاني من الأرَقِ وعَدَم النوم، تتحوَّلُ حياتُه إلى جحيم، فيحاولُ النَّومَ مستعينًا بالحبوبِ المنوِّمة.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾

٥ ـ ألم تتفكَّروا أبدًا كيف أننا جَعَلنا السَّماءَ فوقَكم قويّةً مُحكَمةً، بحيثُ أنه لم يحدُثْ فيها تصَدُّعٌ ولم يُصِبْها ضَعْفٌ، رَغمَ مرورِ مئآتِ الآلافِ من السِّنينَ على خَلْقِها، وانظُروا كذلك إلى الشمسِ في الفَلَكِ تحتَ السماء، لم يَحدُثْ أيُّ نقصٍ في ضوئها ولا في حرارتِها، رَغمَ مرورِ مئآتِ الآلافِ من السِّنينَ على خَلْقِها، أفلا يستطيعُ اللهُ تعالى الذي خَلَق هذه السَّماءَ الواسعةَ وهذه الشمسَ الضَّخمةَ أن يُعيدَ خَلْقَ الإنسانِ الذي لا يتجاوزُ طولُه عدةَ أقدام؟

﴿لِنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾

٦ ـ لم يَخلُقِ اللهُ تعالى شيئًا عَبَثًا أبدًا، حتى أنّ الفضاءَ الذي تحتَ السَّماءِ هو أيضًا نعمةٌ عظيمةٌ من نِعَم اللهِ تعالى، إذْ عندَما ترتفعُ أَبخِرةُ الماءِ في هذا الفضاء، فإنّها تتحوَّلُ إلى سُحُبٍ، ثم تَسقُطُ بعدَ ذلك أمطارًا غزيرةً، وهو ما يَجعَلُ النباتاتِ والأشجارَ الكثيفةَ والبساتينَ تنمو وتَكبَر، ومنها يتهيَّأُ الغذاءُ للإنسانِ والحيَوان،

فإذا كان اللهُ تعالى لم يَخلُقِ الفضاءَ بلا هدفٍ أو مقصِد، فإنه ينبغي للإنسانِ أن يُفكِّرَ أنّ اللهَ تعالى لم يَخلُقْه هو أيضًا بلا مقصِدٍ أو هدف، ولا بدَّ أن هناك هدفًا من خَلْقِه، وهو الذي سيُحييه اللهُ تعالى يومَ القيامةِ ليحاسبَه عليه.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾

٧ ـ لن تقومَ السّاعةُ حتى يَستوفيَ كلُّ البشَر الذين أراد اللهُ تعالى خَلْقَهم الفترةَ التي حدَّدها اللهُ لهم في الحياة، ولهذا حدَّد اللهُ تعالى وقتًا ليوم القيامة، ولن تقومَ قبلَه، ولكنْ عندَما يَحينُ وقتُ مجيئها يُنفَخُ في الصُّورِ للمرةِ الثانية، وينهَضُ الناسُ جميعًا من قبورِهم أحياءً، ويَسيرونَ إلى ميزانِ العدلِ أفواجًا وصفوفًا.

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾

٨ ـ ستَتشَقَّقُ السَّماءُ في المراحلِ الأُولى لقيام الساعةِ وتتحوَّلُ إلى أبوابٍ كثيرة، يعني: سيُصيبُها التصَدُّعُ في كلِّ مكان، وتتفتَّتُ السَّماءُ وتَتطايَرُ، وتصبحُ كأنّها ذَرّاتُ الرِّمالِ الصَّغيرةُ الدَّقيقةُ التي تَبدو من بعيدٍ وكأنّها الماءُ، بينَما الحقيقةَ أنه لا وجودَ فيها للماءِ مطلقًا.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾

٩ ـ جَعَل اللهُ تعالى جهنَّمَ عاقبةً للطُّغاةِ ومصيرًا، ولهذا فإنّ جهنَّمَ تنتظرُ أولئك الطُّغاةَ، وحين يَدخُلُها هؤلاءِ يَخلُدونَ فيها فلا يَخرُجونَ منها أبدًا، مثلَما يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «أي: ماكثينَ في النارِ ما دامت الأحقابُ (أي: الأزمنة) وهي لا تنقطع»[1]، ومثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

---

(١) تفسير القرطبي.

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا﴾

١٠ ـ لن يتيسَّرَ لأهلِ جهنَّمَ برودةٌ تقيهِم حرارةَ نارِ جهنَّم، ولا حتى الماءِ الذي يشربون، وإنّما عندَما تشتدُّ حاجتُهم إلى شربِ الماء فإنّهم يُسقَوْنَ قَيْحًا وماءً يغلي، وهذا ليس ظُلمًا لهم، وإنّما هو عقابٌ يستحِقُّونَه على أعمالِهم.

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا﴾

١١ ـ لماذا يوضَعُ أهلُ النارِ في النار؟ في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ جاء بيانُ سببَيْنِ لهذا، يعني: أنّهم كانوا يُنكِرونَ يومَ القيامة، ولهذا لم يكونوا يتوقَّعونَ حسابًا، وكانوا يُنكرونَ اللهَ تعالى، ولهذا كانوا يكذِّبونَ بآياتِه.

﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا﴾

١٢ ـ اللهُ تعالى يَعلمُ تمامَ العِلم أعمالَ بني الإنسانِ جميعًا، كما أنه كَتَب كلَّ شيءٍ وحَفِظَه عندَه في اللَّوح المحفوظِ وفي صحائفِ الأعمالِ أيضًا، وسوف يكشِفُ يومَ القيامة كلَّ سيِّئةٍ من سيِّئاتِ المنكِرينَ أمامَهم واحدةً واحدة، وسيقالُ لهم: ذوقوا العذابَ على طُغيانِكم وعصيانِكم، ولن ينقُصَ من عذابِكم شيئًا الآنَ، وإنما سيَزيدُ طِبقًا لطُغيانِكم وعصيانِكم.

إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا ﴿٣٣﴾ وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا ﴿٣٥﴾ جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابٗا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ﴿٣٧﴾ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴿٤٠﴾

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾

١٣ ـ بعدَ ذِكرِ عقابِ العُصاةِ الطُّغاة، جاء ذِكرُ فَوْزِ المتَّقينَ والإنعاماتِ الخاصّةِ بهم، يعني: أنّ اللهَ تعالى أعَدَّ لهم جَنّاتٍ بها حدائقُ كثيرةٌ تمتلئُ بأنواع الفواكهِ والثِّمارِ بكثرةٍ، وبصفةٍ خاصّة بفاكهةِ العِنَب، ولهم فيها أزواجٌ في سنِّ الشَّبابِ وفي نفسِ أعمارِهم، وكؤوسٌ تَفيضُ بالخمر، ولكنّه ليس كخمرِ الدُّنيا الذي يُعطِّلُ حواسَّ الإنسانِ إذا شَرِبه، فيَهذي بكذبٍ وكلام تافِه، وإنّما يكونُ خمرُ الجنةِ هذا الذي لا نظيرَ له مما يزيدُ في جمالِ حديثِ الإنسان وحُسنِ أخلاقِه، وهذه النِّعَمُ كلُّها سيُنعِمُ اللهُ تعالى بها على المتَّقينَ جزاءً وِفاقًا ومكافأةً عظيمةً لهم على حسَناتِهم.

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾

١٤ ـ اللهُ تعالى ربُّ كلِّ شيءٍ في الأرضِ والسماء، وهو في غايةِ الرَّحمةِ يقينًا، ويَبلُغُ من عظَمةِ جلالِه يومَ القيامة أنّ جِبريلَ الأمينَ والملائكةَ جميعًا سيَقِفُونَ في صفوفٍ صامتين، ولن تكونَ لدى مخلوقٍ من مخلوقاتِ الأرض أو السَّماءِ الجُرأةُ على أن يَفتَحَ فاهَه بقَصْدِ الشّفاعةِ لأحد، إلا أنّ أولئك السُّعداءَ الذين سيأذَنُ اللهُ لهم بالشَّفاعةِ، هم فقطِ الذين يُمكنُهم أن يتكلَّموا في حضرةِ الله تعالى، وهؤلاءِ همُ السُّعداءُ الذين كانوا يقولونَ الحقَّ في الدُّنيا، ويقولونَ الحقَّ في ميدانِ الحَشْرِ كذلك. تُرى، من سيكونُ على رأسِ هؤلاء؟ اقرَأِ الحديثَ التاليَ وجدِّدْ به إيمانَك:

ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه: حدّثنا محمّدٌ ﷺ، قال: «إذا كان يومُ القيامةِ ماجَ النّاسُ بعضُهم في بعضٍ، فيأتُونَ آدمَ فيقولونَ: اشفَعْ لنا إلى ربِّك. فيقولُ: لستُ لها ولكنْ عليكم بإبراهيمَ فإنّه خليلُ الرّحمن. فيأتُونَ إبراهيمَ فيقولُ:

لستُ لها، ولكنْ عليكم بموسى فإنّه كَليمُ الله. فيأتُونَ موسى فيقولُ: لستُ لها ولكنْ عليكم بعيسى فإنّه رُوحُ الله وكلِمتُه. فيأتُونَ عيسى فيقولُ: لستُ لها ولكنْ عليكم بمحمّدٍ ﷺ، فيأتُوني، فأقولُ: أنا لها. فأَستَأذِنُ على ربِّي فيؤْذَنُ لي، ويُلهِمُني مَحامدَ أحمَدُه بها لا تَحضُرني الآنَ، فأحمَدُه بتلك المحـامدِ وأخِرُّ له سـاجدًا، فيقالُ: يا محمّد، ارفَعْ رأسَك، وقُلْ يُسمَعْ لك، وسَلْ تُعطَ، واشفَعْ تُشفَّعْ. فأقولُ: يا ربِّ، أُمّتي أُمّتي. فيقالُ: انطلقْ فأَخرِجْ مَن كان في قلبِه مثقالُ شعيرةٍ من إيمانٍ. فأَنطلِقُ فأفعَلُ، ثمّ أعودُ فأحمَدُه بتلك المحامد، ثمّ أخِرُّ له ساجدًا، فيقالُ: يا محمّد، ارفَعْ رأسَك، وقُلْ يسمَعْ لك، وسَلْ تُعطَ، واشفَعْ تُشفَّعْ، فأقولُ: يا ربِّ، أُمّتي أُمّتي. فيقال: انطلِقْ فأَخْرِجْ منها مَن كان في قلبِه مثقالُ ذرّةٍ أو خَرْدلةٍ من إيمانٍ. فأَنطلِقُ فأفعَلُ، ثمّ أعودُ فأحمَدُه بتلك المحامد، ثمّ أخِرُّ له ساجدًا، فيقالُ: يا محمّد، ارفَعْ رأسَك، وقُلْ يُسمَعْ لك، وسَلْ تُعطَ، واشفَعْ تُشفَّعْ. فأقولُ: يا ربِّ، أُمّتي أُمّتي. فيقولُ: انطلقْ فأَخرِجْ مَن كان في قلبِه أدنَى أدنَى أدنَى مثقالِ حبّةِ خَرْدلٍ من إيمانٍ فأَخرِجْه من النّار. فأَنطلِقُ فأفعَلُ»... «ثمّ أعودُ الرّابعةَ فأحمَدُه بتلك المحامد، ثمّ أَخِرُّ له ساجدًا، فيقالُ: يا محمّد، ارفَعْ رأسَك وقُلْ يُسمَعْ لك، وسَلْ تُعطَهْ، واشفَعْ تُشفَّعْ. فأقولُ: يا ربِّ ائْذَنْ لي فيمَن قال: لا إلهَ إلّا الله. فيقولُ: وعِزّتي وجَلالي، وكبريائي وعظَمتي، لَأُخرِجَنَّ منها مَن قال: لا إلهَ إلّا الله»[1].

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾

١٥ ـ أوضَحَ اللهُ تعالى الحقَّ من الباطل وميَّزَ بينَهما تمامًا عن طريقِ الأنبياءِ الكرام عليهُم السَّلام، وأَخْبَرَنا ـ بالإضافةِ إلى ذلك ـ أنّ القيامةَ حقٌّ، وأنّها آتيةٌ لا مَحالةَ، وأنكم سوف تُحاسَبُونَ فيها، وسوف تُثابُونَ أو تُعاقَبونَ فيها طِبقًا لأعمالِكم، ولهذا على كلِّ شخصٍ يريدُ أن يحصُلَ على قربِ الله تعالى في الجنّةِ أن يختارَ

(١) البخاري، كتاب التوحيد، باب ٣٦ برقم ٧٥١٠، ومسلم، كتاب الإيمان، باب ٨٤ برقم ١٩٣.

التقوى؛ لأنّها هي الطريقُ الذي يَحصُلُ الإنسانُ من خلالِها على القُربِ من ربِّه.

﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾

١٦ - يا أيُّها الإنسانُ، لقد أعلَمْناكَ بعذابِ يوم القيامة، وما أن يقعَ موتُك حتى تبدَأَ المراحلُ الأُولى من عذابِك، وسوف يُعرَضُ على كلِّ إنسانٍ كلُّ ما قام به من أعمالٍ مثلَ جهازِ الفيديو، وسوف يَرى كلَّ هذا بعينَيْه، وفي ذلك اليوم عندما يَرى الكافرُ مصيرَه السيِّئَ يتمنَّى لو أنه بقيَ ترابًا، ولم يُخلَقْ إنسانًا، لِما ابتُليَ بهذا العذابِ اليوم، ولكنّ النَّدمَ في ذلك اليوم لا قيمةَ له، ولهذا ينبغي لكلِّ إنسانٍ من الآنَ أن يتذكَّرَ الآخِرةَ بكلِّ جِدِّيّة، وأن يَستعدَّ لها بكلِّ ما يستطيعُ.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،

جامعةُ الكرَم، بريطانيا

بعدَ صلاة الفجر من يوم الأربعاء ٨ ديسمبر ٢٠١٠م

الموافق ٢ محرم ١٤٣٢هـ.

هذا، وقدِ اكتَملَ بفَضْل الله تعالى وكرَمِه تفسيرُ سُورة «النبأ» في يومَيْنِ فقطْ، أي: من ٦ إلى ٨ ديسمبر، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(٧٩) سُورَةُ النَّازِعَاتِ

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها: «النَّازِعاتُ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى منها.

القيامة حق

عندَما سَمِع الكفّارُ بأحوالِ القيامة قال بعضهم لبعضٍ ساخرينَ من الإسلام: كيف يمكنُ أصلًا أن يَتِمَّ إحياؤنا من جديدٍ بعدَ أن نكونَ قد مِتْنا وصِرْنا عظامًا باليةً؟ إنّ هذا غيرُ مُمكن.

في الآياتِ الأربعَ عشْرةَ الأُولى من هذه السُّورةِ أَقْسم اللهُ تعالى بخمسةِ أحوالٍ من أحوالِ الملائكة، مبيِّنًا بعضَ أحوالِ القيامة، يعني: في المراحل الأُولى من يوم القيامة حينَ يُنفَخُ في الصُّورِ النَّفخةَ الأُولى المُدَوِّية، تهتزُّ الكائناتُ كلُّها وتَرتعدُ، ويفنَى كلُّ شيءٍ عندَها، ثم بعدَ أربعينَ عامًا من هذه النَّفخةِ تُنفَخُ النَّفخةُ الثانيةُ في الصُّور، وعندَها يَنهَضُ الناسُ من قبورِهم أحياءً.

وفي الآياتِ الخمسِ الأخيرةِ من السُّورةِ جاء ذِكرُ القيامةِ ثانيةً، يعني: عندما يَرى المُنكِرونَ بأنفُسِهم القيامةَ، ينسَوْنَ لَهْوَ الدُّنيا ولعبَها، ويشعُرونَ وكأنّهم لَبِثوا في الدُّنيا نهارًا واحدًا أو مساءً واحدًا لا أكثرَ، يعني: أنّهم يَشعُرونَ بأنّ الحياةَ الدُّنيا كانت قصيرةً للغاية.

واقعة سيدنا موسى عليه السلام والفرعون

في الآياتِ من ١٥ إلى ٢٦ ذَكَّر اللهُ تعالى نبيَّه الحَبيبَ ﷺ بقصّةِ سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ، يعني: أنّنا كلَّمنا سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ في الوادي المقدَّسِ بطُوًى، وأَمَرناهُ أن يَذهَبَ إلى فِرعَونَ، وأن يَدعُوَه إلى الحقِّ والإنصاف؛ لأنه كان قد طَغَى وتَجبَّر، وادَّعى أنه الربُّ وعصَى ربَّه الحقيقيَّ، واستَعبَدَ بني إسرائيلَ واغتَصَب حقوقَهم.

دلائل القيامة

في الآياتِ من ٢٧ إلى ٣٣ جاء ذِكرُ بعضِ الدَّلائل على قُدرةِ الله تعالى لمُنكِري القيامة، يعني: أنَّ اللهَ تعالى الذي خَلَقَ السماءَ العظيمةَ والأرضَ الواسعةَ، لا يَصعُبُ عليه أن يَخلُقَ هذا الإنسانَ الصَّغيرَ من جدُيدٍ، وهو الذي خَلَقَه من قبلُ لأولِ مرة.

أحوال ميدان الحشر

في الآياتِ من ٣٤ إلى ٤١ جاء بيانُ أحوالِ ميدانِ الحَشْر، يعني: عندَما تقومُ السّاعةُ توضَعُ أمامَ كلِّ إنسانٍ صحيفةُ أعمالِه، فيقرَأُها ويتذكَّرُ كلَّ أعمالِه التي ارتكَبَها. فمَن تغاضَى عن الآخِرة ورَجَّح عليها الحياةَ الدُّنيا سيكونُ مصيرُه جهنَّمَ، ومنِ استعَدَّ للآخِرة حالَ حياتَه في الدُّنيا فسيكونُ مصيرُه الجنّةَ.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة الفجر من يوم الخميس ٩ ديسمبر ٢٠١٠م
الموافق ٣ محرَّم ١٤٣٢هـ.

سُورَةُ النَّازِعَاتِ (٧٩)،

مكية (٨١)، آياتها (٤٦)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾

١ ـ في بدايةِ هذه السُّورةِ أَقْسَم اللهُ تعالى بخمسةِ أحوالٍ من أحوالِ الملائكة، مبيِّنًا بعضَ أحوالِ يوم القيامة، حتى يزرَعَ في قلوبِ الكفّارِ خوفَ القيامةِ فيؤمنوا بها.

يقولُ سيِّدُنا عليٌّ كرَّم اللهُ وجهَه «والنّازعاتِ: الملائكةُ الّتي تنزِعُ أرواحَ الكفّار، قاله عليٌّ رضي الله عنه»[1]. ولأنّ أرواحَ الكفّارِ لا تريدُ أن تَخرُجَ من أجسادِهم،

(١) تفسير القرطبي.

لهذا يَتسلَّلُ معاونو مَلَكِ الموتِ من الملائكةِ إلى أوردةِ الكفّار، ويَسحَبُونَ أرواحَهم عَنْوةً.

﴿وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا﴾

٢ ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَبّاس رضي الله عنهما: «هي أنفُسُ المؤمنينَ عندَ الموتِ تنشَطُ للخروج، وذلك أنّه ما من مؤمنٍ يحضُرُه الموتُ إلّا وتُعرَضُ عليه الجنّةُ قبل أن يموتَ، فيَرى فيها ما أعَدَّ اللهُ له من أزواجِه وأهلِه من الحُورِ العِين، فهم يَدعُونَه إليها»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «الدُّنيا سِجنُ المؤمنِ وجنّةُ الكافر»[٢]، يعني: عندَما تُفَكُّ عُقدةُ عِقالِ الجَمَل فإنه يتحرَّرُ من قَيْدِه، ويمكنُه النهوضُ بسهولةٍ، وهكذا عندَما يُطلَقُ سَراحُ رُوح المؤمنِ من سِجن الجسَد، فإنّها تَخرُجُ منه بسهولةٍ وفرحة.

﴿وَٱلسَّـٰبِحَـٰتِ سَبْحًا﴾

٣ ـ يقولُ سيّدُنا عليٌّ رضي الله عنه: «هي الملائكةُ تَسبَحُ بأرواح المؤمنين»[٣]، يعني: أنّ الملائكةَ تَصطحِبُ أرواحَ المؤمنينَ سابحةً بها في الفضاءِ مُسرِعةً إلى الحضرةِ الإلهيَّة، مثلَما تَسبَحُ السَّمَكةُ في الماءِ مُسرعةً، إذْ حين تَسبَحُ السَّمكةُ في الماءِ لا يكونُ في طريقِها أيُّ عَقَبةٍ تُوقفُها، وهكذا عندَما تَسبَحُ الملائكةُ في الفضاءِ لا تكونُ في طريقِها أيُّ عَقَبةٍ تمنَعُهم.

---

(١) تفسير القرطبي.
(٢) مسلم، كتاب الزهد، باب ٥٣ برقم ٧٤١٧.
(٣) تفسير القرطبي.

﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾

٤ ـ في هذه الآيةِ أَقْسَم اللهُ تعالى بالملائكةِ جميعًا؛ لأنّ الملائكةَ جميعًا يُسارعونَ إلى تنفيذِ الأحكام الإلهيَّةِ متسابقِينَ.

﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾

٥ ـ في هذه الآيةِ أَقْسَم اللهُ تعالى بالملائكةِ الذين عُهِدَ إليهم بتدبيرِ الأمورِ الهامّةِ والمختلفة، وهم يدبِّرونَها كاملةً مكتمِلة.

﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾

٦ ـ بعدَ أنْ أَقْسَم اللهُ تعالى خمسَ مراتٍ بيَّنَ بعضَ أحوالِ القيامة، يعني: في المراحلِ الأولى من يوم القيامة حينَ يُنفَخُ في الصُّورِ النَّفخةُ الأولى المُدَوّية، تهتزُّ الكائناتُ كلُّها وتَرتعِد، ويفنَى كلُّ شيءٍ عندها، ثم بعدَ أربعينَ عامًا من هذه النَّفخةِ تُنفَخُ النَّفخةُ الثانيةُ في الصُّور، وعندها ينهَضُ الناسُ من قبورِهم أحياءً، وستَرتعِدُ قلوبُ المجرِمينَ من خوفِ هذا اليوم، وستكونُ أبصارُهم خاشعةً من النَّدم، أمَّا عبادُ الله الصّالحونَ فسيكونونَ مطمئِّنينَ فَرحين، مثلَما يقولُ اللهُ تعالى: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ﴾

٧ ـ عندما سَمِع الكفّارُ بأحوالِ القيامةِ قال بعضُهم لبعضٍ ساخِرينَ من الإسلام: كيف يمكنُ أصلًا أن يَتِمَّ إحياؤنا من جديدٍ بعدَ أن نكونَ قد مِتْنا وصِرْنا عظامًا باليةً، إنّ هذا غيرُ ممكن، ولو حَدَث هذا فعلًا فإنّ الحياةَ الآخِرةَ هذه ستكونُ سببًا للخسارةِ العظيمة لنا؛ لأنّنا لم نستعِدَّ لها بشيء.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾

٨ ـ كان الكفّارُ يعتقدونَ أنّهم عندَما يَصِيرونَ تُرابًا فلا يمكنُ إحياؤهم من جديدٍ، لكنّ هذا لا يَصعُبُ على الله تعالى القادِرِ المطلَق، بل إنّ هذا لا يزيدُ على مجرَّدِ زَجْرةٍ واحدة، فما أن يُنفَخَ بأمرِه النَّفخةُ الثانيةُ في الصُّورِ حتى يجتمعَ الناسُ جميعًا أحياءً في ميدانِ الحَشْر.

﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾

٩ ـ هنا ذَكَّر اللهُ تعالى نبيَّه الحَبيبَ ﷺ بقصّةِ سيِّدِنا موسى عليه السَّلام، يعني: أنّنا كَلَّمْنا سيِّدَنا موسى عليه السَّلامُ في الوادي المقدَّس بطُوًى، وأمَرْناهُ أن يذهبَ إلى فِرعَونَ، وأن يَدعوَه إلى الحقِّ والإنصاف؛ لأنه كان قد طَغَى وتَجبَّر، وادَّعى أنه الرَّبُّ وعصَى ربَّه الحقيقيَّ، واستَعبَدَ بني إسرائيلَ واغتَصَب حقوقَهم.

وهنا كذلك تسريةٌ عن قلبِ النبيِّ ﷺ عن طريقِ هذه الواقعة، بأنْ لا تغتَمَّ ولا تحزَنْ يا رسولَ الله ﷺ بسببِ مخالفةِ الكفّارِ لكَ وعِنادِهم معَك؛ لأنّ الأنبياءَ الكرامَ عليهمُ السَّلامُ من قَبْلِك قد واجَهوا مِثلَ هذه المشكلاتِ والمصاعب، كما أنّ مُلكَ الفِرعَونِ وجنودَه كانوا أكبرَ بكثيرٍ مقارنةً بكفّارِ مكَّة، فإذا كان الفرعونُ قد فَشِل في مواجهةِ سيِّدِنا موسى عليه السَّلام، فإنّ كفّارَ مكةَ ـ في نهايةِ المطاف ـ سيَجُرُّونَ أذيالَ الخَيْبة ويفشَلون أيضًا.

﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾

١٠ ـ اذهَبْ إلى فِرعَونَ، وادْعُهُ إلى التوحيدِ بالحِكمةِ والموعِظةِ الحسَنة، وأخبِرْه أنّ ربَّه واحدٌ، ولا يستحِقُّ العبادةَ أحدٌ سواه، ومَن يؤمنُ بربِّه ويتَّقيهِ، فإنّ اللهَ

تعالى يُطهِّرُه من الذُّنوب، ولهذا فإنّني قد أُرسِلتُ إليك نبيًّا، فإذا أردتَ أن يُطهِّرَكَ اللهُ من الذُّنوب، فقد جئتُكَ لأُرشِدَكَ إلى طريقِ ربِّك الحقيقيِّ، حتى تتَّقيَ أنتَ اللهَ وتخشاه، ويُطهِّرَكَ هو من الذُّنوب.

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾

١١ ـ قال الفِرعَونُ: لو أنّك أُرسِلتَ نبيًّا فأَرِني آيةً على ذلك، فألقَى سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ بعصَاهُ، فصَارت ثُعبانًا ضخمًا، ولكنّه معَ ذلك لم يؤمِنْ، وإنّما كذّبه وسَعَى كلَّ السَّعي لمخالفتِه.

﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾

١٢ ـ ثُم استدعَى الفِرعونُ كبارَ السَّحَرةِ من كلِّ أرجاءِ البلادِ لمواجهةِ سيّدِنا موسى عليه السَّلام، ثم جَمَع الرَّعيّةَ كلَّهم في ميدانٍ مفتوح وأعلن قائلًا: أنا ربُّكمُ الأعلى، فاعبُدوني أنا ولا تُطيعوا غيري، ثم هدَّد سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ قائلًا: لئن أصرَرْتَ على اتِّخاذِ إلهٍ غيري فسأسجِنُك، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾

١٣ ـ عندَما لم يَرجِع الفِرعَونُ عن طُغيانِه وتجبُّرِه حتى بعدَ أنْ رأى معجِزاتِ سيِّدِنا موسى عليه السَّلامُ الواضحة، أخَذَه اللهُ تعالى أخذًا قويًّا، فأَغْرقَه في البحر، وجَعَله عبرةً لأهلِ الدنيا، جَنْبًا إلى جَنْبٍ معَ العذابِ المقرَّر له في الآخِرة، وهو ما سيَلقاهُ في جهنَّم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾

١٤ ـ في هذه الواقعةِ عبرةٌ لكلِّ مَن يتَّقي اللهَ ويخشاه؛ لأنّ الذي يَطغَى ويتكبَّرُ سيكونُ ـ في نهايةِ المطاف ـ ذليلًا مَخْزِيًّا، ولهذا ينبغي للإنسانِ أن يَعرِفَ ربَّه الحقيقيَّ، وأن لا يتكبَّرَ أو يَطغَى في مقابلِه.

ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا﴾

١٥ ـ في الآياتِ التاليةِ قُدِّمت لمُنكِري القيامةِ بعضُ دلائلِ القيامةِ من خلال بعضِ آياتِ قُدرةِ الله تعالى، يعني: هل يَصعُبُ على اللهِ تعالى الذي خَلَق هذه السماءَ العظيمةَ القويَّةَ، التي لم يَحدُثْ لها أيُّ تصدُّع أو ضَعْف رغمَ مرورِ مئآتِ الآلافِ من السِّنينَ على خَلْقِها، أن يَخلُقَ من جديدٍ هذا الإنسانَ الصَّغيرَ الذي خَلَقه من قبلُ لأولِ مرة؟ هل خَلْقُكم من جديدٍ أكثرُ صعوبةً من خَلْقِ السَّماء؟

﴿وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا﴾

١٦ ـ جعَل اللهُ تعالى السَّماءَ مثلَ السَّقفِ المرفوع، ونَسبَ اللَّيلَ والنَّهارَ

إلى السَّماءِ لأنّ الشمسَ على ارتفاع إلى السَّماء، وبطُلوعِها وغروبِها يكونُ ضوءُ النَّهارِ وظلامُ اللَّيلِ.

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾

١٧ ـ بعدَ أن بيَّنَ اللهُ تعالى عظَمةَ السّماءِ والحِكمةَ من خَلْقِها، يُبيِّنُ في هذه الآياتِ أهميّةَ الأرض، يعني: أنّ اللهَ تعالى مَدَّ الأرضَ بحيث يَخرُجُ منها الماءُ العَذْب، وتَنبُتُ فيها النَّباتاتُ التي تهيِّئُ الغذاءَ للإنسانِ والحيَوان، ثم نَصَب فيها الجبالَ، وجَعَل فيها كنوزًا من المعادنِ يستفيدُ منها البشَر، وباختصار: فإنّ اللهَ تعالى قد خَلَق كلَّ هذه الأشياءَ لفائدةِ الإنسانِ والحيَوان، سواءٌ في ذلك الأرضُ والسَّماءُ، اللَّيلُ والنَّهار، وكلُّ إنسانٍ يستفيدُ بهده الأشياءِ في كلِّ لمحة، وإذا لم يشكرِ الإنسانُ اللهَ تعالى الخالقَ الحقيقيَّ لهذه النِّعَم، فهل هناك مَن هو أكثرُ منه جحودًا؟

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾

١٨ ـ عندما تأتي أكبرُ آفةٍ، يعني: عندَما تقومُ السَّاعةُ، توضَعُ أمامَ كلِّ إنسانٍ صحيفةُ أعمالِه، فيقرأُها ويتذكَّرُ كلَّ أعمالِه التي ارتكبها، وتمُرُّ من أمام عينَيْه حياتُه كلُّها كأنّها فيلمٌ يشاهدُه.

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾

١٩ ـ لن يكونَ يومَ القيامةِ إنسانٌ أعمًى أو أُمِّيًّا لا يقرَأُ، وإنّما سيكونُ كلُّ شخصٍ بصيرًا ويقرَأُ أيضًا، وسيقرَأُ كلُّ شخصٍ صحيفةَ أعمالِه بنفسِه، كما أنّ جهنَّم ستَظهَرُ لكلِّ شخصٍ أيضًا، فيراها المؤمنُ ويشكُرُ اللهَ تعالى الذي نَجّاه من جهنَّم، أمّا الكافرُ فيَراها ويزدادُ حسرةً وغَمًّا.

﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾

٢٠ ـ الذي تَعدَّى الحدودَ في عصيانِه لله تعالى، وفضَّل لَهْوَ الدُّنيا وعبَثَها اتِّباعًا لشَهَواتِه ورغَباتِه النَّفسانيّة، وأعرَضَ عن الآخِرة، فإنّ مصيرَه جهنَّم.

الشهوات والرغبات النفسانية

يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «وقال سَهْلُ بن عبدِ الله التُّستَريُّ: هواكَ داؤك، فإنْ خالَفْتَه فدواؤك. وقال وَهْبٌ: إذا شكَكْتَ في أمرَيْنِ ولم تَدرِ خيرَهما فانظُرْ أبعدَهما من هواكَ فأْتِه»[1].

تفضيل الحياة الدنيا

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن طلَبَ الدّنيا حَلالًا مُفاخِرًا مُكاثِرًا مُرائيًا لقيَ اللهَ وهو عليه غَضْبانُ، ومن طلَبَ الدُّنيا حلالًا استعفافًا عن المسألةِ، وسَعْيًا على عيالِه، وتعطُّفًا على جارِه لقيَ اللهَ يومَ القيامة ووَجْهُه كالقمرِ ليلةَ البدر»[2].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي الله عنهما: أخَذَ رسولُ الله ﷺ بمَنكِبي فقال: «كنْ في الدُّنيا كأنّك غريبٌ، أو عابرُ سَبيلٍ». وكان ابنُ عُمرَ يقولُ: إذا أمسَيْتَ فلا تنتظرِ الصّباحَ، وإذا أصبحتَ فلا تنتظرِ المساءَ (أي: فمَن يدري متى سيأتي الموت؟)، وخُذْ من صحّتِك لمرضِك، ومن حياتِك لموتِك»[3].

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الجاثية (٤٥): الآية ٢٣.

(٢) شعب الإيمان، ٧: ٢٩٨ برقم ١٠٣٧٤ – ١٠٣٧٥، وحلية الأولياء، ٨: ٢٣٥ برقم ١١٩٩٩.

(٣) البخاري، كتاب الرقاق، باب ٣ برقم ٦٤١٦.

ـ يقولُ سيّدُنا عليٌّ رضي الله عنه: «ارتَحَلتِ الدُّنيا مُدبِرةً، وارتَحَلتِ الآخرةُ مُقبِلةً، ولكلٍّ واحدةٍ منهما بَنُونَ، فكونوا من أبناءِ الآخِرة ولا تكونوا من أبناءِ الدّنيا، فانّ اليومَ عمَلٌ ولا حساب، وغدًا حسابٌ ولا عَمَل»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا عليٌّ رضي الله عنه عن الدُّنيا: «ليّنٌ مسُّها قاتلٌ سُمُّها»(٢).

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾

٢١ ـ الإنسانُ الذي ظَلَّ يتَّقي ربَّه؛ لأنه سيقفُ في يوم من الأيام أمامَه للحساب، ومَنَع نفسَه منَ اتِّباع هواها خوفًا من اللهِ وخَشْيةً منه، سيكونُ مصيرُه الجنّةَ.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾

٢٢ ـ لأنّ الكفّارَ كانوا يُنكِرونَ يومَ القيامة، لهذا فإنّهم عندَما كانوا يُخوَّفُونَ بعذابِ القيامة، كانوا كثيرًا ما يتساءلونَ ـ على سَبيل السُّخريةِ ـ قائلين: لو كنتَ صادقًا في دعواك، فأخبِرْنا متى تأتي القيامةُ التي تُخوِّفُنا منها؟ وعليه، قال اللهُ تعالى لنبيِّه الكريم ﷺ: لا علاقةَ لكَ بالإخبارِ عن تاريخ قيام الساعة؛ لأنّ عِلمَها عندَ ربِّك فقطْ.

الحكمة من إخفاء علم القيامة

يَنقُلُ العلّامةُ فخرُ الدِّين الرازي عن الباحثينَ والمحقِّقين قولَهم بأنّ «السببَ في إخفاءِ الساعة عن العباد أنّهم إذا لم يَعلَموا متى تكونُ كانوا على حَذَرٍ منها، فيكونُ ذلك أدعَى إلى الطاعة، وأزجَرَ عن المعصية»(٣). ولهذا السببِ أيضًا،

---

(١) البخاري، كتاب الرقاق، باب ٤.

(٢) التفسير الكبير، سورة آل عمران (٣): الآية ١٨٥.

(٣) التفسير الكبير، سورة الأعراف (٧): الآية ١٨٧.

أخفَى اللهُ تعالى وقتَ الموتِ عن عامّةِ الناس؛ لأنه إذا أُخبِر أحدٌ أنه سيموتُ بعدَ عَشْرِ سنواتٍ مثلًا، فمن الممكنِ أن يتغلَّبَ عليه الشّيطانُ، فيقرِّرُ أن يقضيَ تسعَ سنواتٍ من العَشْرِ في اللَّهوِ واللَّعب، ثم يتوبَ بعدَ ذلك، أو أن يتملَّكه الخوفُ من الموتِ بحيث يترُكُ كلَّ الأعمالِ ويتفرَّغَ للعبادةِ فقطْ، ويعيشُ أهلُ بيتِه في فقرٍ مُدقع، والحالتانِ غيرُ محمودتَيْنِ له. وباختصار: أخفَى اللهُ تعالى وقتَ قيام الساعةِ عن عامّةِ الناس حتى يعمَلوا على التخلُّصِ من الذُّنوبِ والآثام، أمّا الأنبياءُ عليهمُ السَّلامُ فقد طَهَّرهم اللهُ من الذُّنوبِ من الأصل، وهم يخشَوْنَ اللهَ تعالى في كلِّ حال، ولذا لم يكنْ هناك داعٍ لإخفاءِ وقتِ قيام السّاعةِ عنهم، وفي هذا الخصوصِ يقولُ الشَّيخُ أحمدُ الصَّاويّ: «إنّها من الأمرِ المكتوم الذي استأثر اللهُ بعِلمِه فلم يُطلعْ عليه أحدًا إلّا منِ ارتضاهُ من الرسُل... والذي يجبُ الإيمانُ به أنّ رسولَ الله لم ينتقلْ من الدُّنيا حتى أعلَمَه اللهُ بجميع المُغَيَّباتِ التي تَحصُلُ في الدُّنيا والآخِرة، فهو يعلَمُها كما هي عَيْنَ يقينٍ لِما وَرَد: «رُفِعَت ليَ الدنيا، فأنا أنظُرُ فيها كما أنظُرُ إلى كفِّي هذا»، ووَرَد أنه اطَّلع على الجنّةِ وما فيها والنارِ وما فيها، وغيرِ ذلك بما تَواتَرتْ به الأخبارُ، ولكنْ أُمِرَ بكِتمانِ البعض»(١). ولهذا، أَخْبَر النبيُّ ﷺ بعلاماتِ السّاعة، ولكنّه أخفَى وقتَها، كما أنّ إرادةَ الله تعالى هي أن تقومَ السّاعةُ بَغْتةً، وألّا يعلمَ الناسُ بها قبلَ وقوعِها، مثلَما جاء في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾ [طه: ١٥]، وبنفسِ الطريقة، أخفَى اللهُ تعالى وقتَ ليلةِ القَدْر، حتى يَقضيَ الناسُ أكثرَ عددٍ من الليالي في عبادتِه تعالى، كما أخفَى وقتَ قَبولِ الدُّعاءِ يومَ الجمُعةِ أيضًا، حتى يَقضيَ الناسُ أكبَر الوقتِ من يوم الجمُعة في ذِكرِه جَلَّ وعلا.

---

(١) حاشية الصاوي، سورة الأعراف (٧): الآية ١٨٧.

إنَّ اللهَ تعالى لم يحدِّدْ وقتَ القيامة أو الموت، حتى يتجنَّبَ الإنسانُ دائمًا ارتكابَ الذنوب، فربَّما يأتيه الموتُ في الوقتِ الذي يرتكبُ فيه ذنبًا.

بعض النصائح لتجنب ارتكاب الذنوب

- يقولُ سيِّدُنا عبدُ الله بنُ عَبّاس رضي الله عنهما: قال رسولُ الله ﷺ لرجلٍ وهو يَعِظُه: «اغتنمْ خمسًا قبلَ خمسٍ: شبابَك قبلَ هرَمِك، وصحّتَك قبلَ سَقَمِك، وغَناءك قبلَ فقرِك، وفراغَك قبلَ شُغُلِك، وحياتَك قبلَ موتِك»(١).

- عن أبي سعيدٍ، قال: دَخَل رسولُ الله ﷺ مُصَلّاهُ، فرأَى ناسًا كأنّهم يكتَشِرونَ، قال: «أمَا إنّكم لو أكثَرتُم ذِكرَ هاذِم اللّذّاتِ لَشَغَلكم عمّا أرى فأكثِروا من ذِكرِ هاذِم اللّذّاتِ، الموت، فإنّه لم يأتِ على القبرِ يومٌ إلّا تَكلَّم فيه فيقولُ: أنا بيتُ الغُربة، وأنا بيتُ الوَحْدة، وأنا بيتُ التُّراب، وأنا بيتُ الدُّود(٢)»، وقال سيّدُنا عُبَيدُ بن عُمَرَ رضي الله عنهما: «إنّ القبرَ لَيقول: يا ابنَ آدم، ماذا أعددتَ لي؟ ألم تَعلمْ أني بيتُ الغُربة وبيتُ الدُّود وبيتُ الوَحْدة؟»(٣).

- قال النبيُّ ﷺ، فيما رَواهُ سيّدُنا مَعقِلُ بن يَسَارٍ رضي اللهُ عنه: «ليس من يومٍ يأتي على ابنِ آدم إلّا ينادي: يا ابنَ آدم، أنا خَلْقٌ جديدٌ، وأنا عليكَ غدًا شهيدٌ، فاعمَلْ خيرًا فيَّ أشهَدْ لك غدًا، و إنّي لو قد مَضَيْتُ لن تَراني أبدًا، ويقولُ اللَّيلُ مِثلَ ذلك»(٤).

---

(١) المستدرك، الإمام الحاكم، ٤: ٣٤١ برقم ٧٨٤٦.

(٢) الترمذي، أبواب القيامة، باب ٢٦ برقم ٢٤٦٠.

(٣) كتاب الخراج، الإمام أبو يوسف، ١٨.

(٤) التفسير المظهري، سورة هود (١١): الآية ١٨.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو أُمامَة رضي الله عنه: إنّ فتًى شابًّا أتَى النّبيَّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله، ائْذَنْ لي بالزّنا، فأَقْبل القومُ عليه فزَجَروه وقالوا: مَهْ مَهْ! فقال: «ادنُهْ»، فدنا منه قريبًا، قال: فجلسَ، قال: «أتُحبُّه لأُمِّك؟» قال: لا والله، جَعَلني اللهُ فداءك. قال: «ولا النّاسُ يُحِبُّونَه لأمّهاتِهم». قال: «أفتُحِبُّه لابنتِك؟» قال: لا والله يا رسولَ الله، جَعَلني اللهُ فداءك. قال: «ولا النّاسُ يُحبّونَه لبناتِهم». قال: «أفتُحِبُّه لأُختِك؟» قال: لا والله، جَعَلني اللهُ فداءك. قال: «ولا النّاسُ يُحبُّونَه لأَخَواتِهم». قال: «أفتُحِبُّه لعمّتِك؟» قال: لا والله، جَعَلَني اللهُ فداءك. قال: «ولا النّاسُ يُحِبّونَه لعمّاتِهم». قال: «أفتُحِبُّه لخالتِك؟» قال: لا والله، جَعَلني اللهُ فداءك. قال: «ولا النّاسُ يُحبِّونَه لخالاتِهم». قال: فوَضَع يدَه عليه، وقال: «اللهُمَّ اغفِرْ ذنبَه، وطهِّرْ قلبَه، وحصِّنْ فَرْجَه»، قال: فلم يكنْ بعدَ ذلك الفتى يلتفتُ إلى شيءٍ، فقام الشابُّ وأبغَضُ ما يكونُ إليه أن يَزنيَ، وهو يقول: فواللهِ ما همَّتْ نفسي بشيءٍ من هذا إلّا ذَكَرتُ أُمِّي وأُختي وزَوْجتي[١].

ـ رأى رجلٌ أنّ نَفْسَه قد غلَبَـتْه وأنه أسرَفَ على نفسِه، فذَهَب إلى طبيبِ القلوب إبراهيمَ بن أدهمَ، وطَلَب منه أن يَعرِضَ عليه ما يكونُ زَجْرًا له عن فعل المعاصي، فقال إبراهيم: إنْ قَدَرتَ على خمسِ خِصال لن تكونَ من العاصِين، قال الرجل: هاتِ ما عندك، فقال له إبراهيمُ بنُ أدهم:

الأولى:

إن أردتَ أن تَعصيَ اللهَ فلا تأكلْ من رزقِه. فتعجَّبَ الرجلُ ثم قال متسائلًا:

---

(١) مسند أحمد، ٥: ٢٥٦، وتفسير الشعراوي، سورة النحل (١٦): الآية ١٢٥.

كيف تقولُ ذلك يا إبراهيمُ والأرزاقُ كلُّها من عند الله؟ قال: إذا كنتَ تعلمُ ذلك فهل يَجدُرُ بك أن تأكلَ من رزقِه وتعصيَه؟ قال: لا يا إبراهيم. هاتِ الثانيةَ. قال:

الثانيةُ:

إذا أردتَ أن تعصيَ اللهَ فلا تَسكُنْ بلادَه. فتعجَّبَ الرجلُ أكثرَ من تعجُّبِه الأول، ثم قال: كيف ذلك يا إبراهيمُ والبلادُ كلُّها ملكُ الله؟ فقال له: إذا كنتَ تعلمُ ذلك فهل يَجدُرُ بك أن تسكُنَ بلادَه وتعصيَه؟ قال: لا يا إبراهيم، هاتِ الثالثةَ. قال:

الثالثةُ:

إذا أردتَ أن تعصيَ اللهَ سبحانَه فانظُرْ مكانًا لا يَراك فيه اللهُ فاعصِه فيه، قال: كيف تقولُ ذلك يا إبراهيمُ وهو يَعلمُ السرَّ وأخفَى ويسمَعُ دَبيبَ النَّملةِ السَّوداء على الصَّخرةِ الصَّمّاء في الليلةِ الظَّلْماء؟ فقال: إذا كنتَ تعلمُ ذلك، فهل يَجدُرُ بك أن تعصيَه؟ قال: لا يا إبراهيمُ. هاتِ الرابعةَ. قال:

الرابعةُ:

إذا جاءَك مَلَكُ الموتِ لِيقبِضَ رُوحَك فقُلْ له: أخِّرْني إلى أَجَلٍ معدود، فقال الرجلُ: كيف تقولُ ذلك يا إبراهيمُ واللهُ سبحانَه يقول: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾؟ فقال: إذا كنتَ تعلمُ ذلك فكيفَ ترجو النَّجاةَ؟ قال: نعَمْ يا إبراهيم، هاتِ الخامسةَ. قال:

الخامسةُ:

إذا جاءَتْك ملائكةُ جهنَّم (الزَّبَانيَةُ) ليأخُذوك إلى جهنَّمَ فلا تذهَبْ معَهم، فما

كاد الرجلُ يستمعُ إلى هذه الخامسةِ حتى قال باكيًا: كفَى يا إبراهيم، أنا أستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه، ولَزِم العبادةَ حتى مات[1].

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾

٢٣ ـ إنّنا لم نُرسِلْك نبيًّا حتى تُخبِرَ الناسَ بوقتِ قيام الساعة، وإنّما أرسَلناكَ لكي تُنذِرَ الناسَ بالقيامة، وليس من الضَّروريِّ أن يَعرِفَ الناسُ وقتَ القيامةِ لكي يَخافوه ويتَّقُوه.

وقت القيامة والموت

يمكنُ من المِثالِ التالي فَهْمُ هذه الحقيقةِ بسهولةٍ ويُسر، يعني: مثلَما نَعلمُ جميعًا أنّ كلَّ إنسانٍ لا بدَّ ميِّتٌ في يوم من الأيام، ولكنْ لا يَعلمُ أحدٌ وقتَ موتِه، ومعَ ذلك نحن نُعلِّمُ الناسَ ونُرشدُهم إلى أنّهم لا بدَّ أن يُسرِعوا بالقيام بالأعمالِ التي ينبغي القيامُ بها قبلَ الموت؛ لأنّ الموتَ يأتي بَغْتةً، وعندَها لن تكونَ لديهم فرصةٌ لعملِ شيءٍ، وبنفسِ الطريقة فإنّنا جميعًا على يقينٍ من أنّ السّاعةَ ستقومُ يقينًا، ولكنّنا لا نَعلمُ وقتَ قيامِها، وبرَغْم ذلك فإنه ينبغي لنا أن نُواصلَ تعليمَ كلِّ شخصٍ وإرشادَه إلى أن يتَّقيَ القيامةَ، وأن لا يقومَ بعملٍ يندَمُ عليه يومَها.

إنّ الحُكمَ بإنذارِ الناس بيوم القيامةِ جاء لجميع الناس، ولكنّ الذين يستفيدونَ بهذا الإنذارِ ـ في الحقيقة ـ هم أولئك الذين يخافونَ يومَ الحساب.

﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾

٢٤ ـ عندما يَرى مُنكِرو القيامةِ يومَ القيامة بأنفُسِهم، ينسَوْنَ كلَّ لَهْوِ الدُّنيا

(١) الخطبة العصرية، إبراهيم محمد الجمل، ١٦٦.

ولعبَها، ويشعرونَ وكأنّهم لبِثوا في الدُّنيا نهارًا واحدًا أو مساءً واحدًا لا أكثرَ، يعني: أنّهم يشعرونَ بأنّ الحياةَ الدُّنيا كانت قصيرةً للغاية.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
قبلَ صلاة الفجر من يوم السبت ١١ ديسمبر ٢٠١٠م
الموافق ٥ محرَّم ١٤٣٢هـ.

هذا، وقدِ اكتمَل بفَضْل الله تعالى وكرَمِه تفسيرُ سُورة «النّازِعات» في يومَيْن فقط، أي: من ٩ إلى ١١ ديسمبر، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلام على سيِّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

❋ ❋ ❋

بسم الله الرحمن الرحيم

(٨٠) سورة عبس

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها: «عَبَسَ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأولى منها.

عبد الله ابن أم مكتوم

نَزَلتِ الآياتُ الأولى من هذه السُّورةِ تطييبًا لخاطرِ سيّدِنا عبدِ الله ابن أُمِّ مكتوم، والقصّةُ هي: أنه ذاتَ مرةٍ بينَما كان النبيُّ ﷺ يدعو سادةَ قُريشٍ: عُتبةَ وشَيْبةَ وأبا جَهْل والعباسَ بنَ عبدِ المطَّلب وأُميَّةَ بنَ خَلَفٍ والوليدَ بن المُغيرةِ وغيرَهم إلى الإسلام، إذْ جاء صَحابيٌّ أعمى هو سيّدُنا عبدُ الله ابنُ أُمِّ مكتوم رضي الله عنه إلى هناك وقال: يا رسولَ الله ﷺ، علِّمْني منَ العلم الذي عَلَّمك الله، واتْلُ علَيَّ من القرآن، وهكذا أخذ سيّدُنا عبدُ الله ابنُ أُمِّ مكتوم يُنادي على رسولِ الله ﷺ بصوتٍ مرتفع مكرِّرًا طلَبَه هذا[1]، وكان النبيُّ ﷺ مشغولاً في دعوةِ سادةِ قُريشٍ الذين كان يَحرِصُ على أن يُسلِموا، ولم يكنْ من المناسبِ أن يقطَعَ سيّدُنا عبدُ الله ابنُ أُمِّ مكتوم حديثَه ﷺ ليسأَلَ سؤالَه الذي سأَلَ، وعليه كان غَضَبُ النبيِّ ﷺ أمرًا

---

(١) «أتى رسول الله ﷺ ابن أمّ مكتومٍ، وعنده صناديد قريشٍ: عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشامٍ، والعبّاس بن عبد المطّلبٍ، وأميّة بن خلفٍ، والوليد بن المغيرة يدعوهم إلى الإسلام، رجاءً أن يسلم بإسلامهم غيرهم، فقال ابن أم مكتوم: يا رسول الله، أقرئني وعلّمني مما علمك الله وجعل يناديه ويكرر النّداء». تفسير الخازن، والتفسير الكبير، سورة عبس (٨٠): الآية ١.

طبيعيًّا، وهكذا ظَهَرت آثارُ الغضَبِ على وجهِه الشَّريف، وأعرَضَ عن سيِّدِنا عبدِ الله ابن أُمِّ مكتوم، وواصَلَ دعوتَه لسادةِ قُريش، فنَزَلت هذه الآياتُ. ولمزيدٍ من التفصيل راجعْ تفسيرَ الآياتِ الأولى من السورة.

القرآن نصيحة كله

في الآياتِ من ١١ إلى ١٦ جاء بيانُ فَضْل القرآنِ الكريم، يعني: أنّ القرآنَ الكريمَ نصيحةٌ كلُّه، وهو محفوظٌ عندَ الله تعالى في صُحُفٍ مكرَّمةٍ، والذي تَنقُلُه من اللَّوح المحفوظِ ملائكةٌ لهم عندَ الله تعالى مقامٌ من الشَّرفِ الخاصِّ والكرامةِ العظيمة.

كم هو جاحد الإنسان!

في الآياتِ من ١٧ إلى ٣٢ ذَكَّر اللهُ تعالى الإنسانَ ببعضِ نِعَمِه من خلالِ الحديثِ عن حقيقتِه وغذائه، يعني: كيف أنّ اللهَ تعالى خَلَقَه من قطرةٍ من ماءٍ مَهِين، وأَنْزل المطرَ فهيَّأَ له به غذاءه، وبالتالي ليس هناك مَن هو أكثرُ جحودًا ممَّن لم يؤمنْ بالله تعالى رَغْم كلِّ هذا.

ميدان الحشر

في الآياتِ من ٣٣ إلى ٤٢ جاء بيانُ أحوالِ ميدانِ الحَشْر، فعندَما يَنفُخُ سيّدُنا إسرافيلُ عليه السَّلام في الصُّورِ للمرةِ الثانية يَصدُرُ صوتٌ يُصِمُّ الآذانَ، وهو الذي يُنهِضُ الأمواتَ من هيبتِه أحياءً، ويجتمعُ الناسُ جميعًا في ميدانِ الحشر، وسيَرى كلُّ إنسانٍ في ذلك اليوم ماذا يَحدُثُ لإخوتِه وأبيه وأُمِّه وزَوْجِه وأولادِه وأصدقائه المقرَّبين، لكنّه سيكونُ مشغولًا بنَفْسِه إلى درجةٍ كبيرة، بحيث لا ينتبهُ مطلَقًا إلى السُّؤالِ عن أحدٍ آخَرَ.

الذين يتَّقُونَ اللهَ تعالى ويخَشْونَه في هذه الدُّنيا ولا يعصُونَه، ستكونُ وجوهُهم يومَ القيامة وَضّاءةً، وسيكونونَ سُعَداءَ فَرِحينَ بسَماع بُشْرى دخولِهمُ الجنّةَ، وعلى العكس منهم فإنّ الذين لا يتَّقُونَ اللهَ تعالى في هذه الدُّنيا، ويُضيِّعونَ حياتَهم في الفِسقِ والفجور، سيُبشَّرونَ بجهنَّم، فيَعُمُّ الحُزنُ والسَّوادُ وجوهَهم المُغْبرَّةَ.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة العشاء من يوم السبت ١١ ديسمبر ٢٠١٠م
الموافق ٥ محرَّم ١٤٣٢هـ.

❋ ❋ ❋

سُورَةُ عَبَسَ (٨٠)،

مكية (٢٤)، آياتها (٤٢)، ركوعها (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾

١ ـ عندما بَدَأَ النبيُّ ﷺ الدَّعوةَ إلى الإسلام في مكّةَ، كان سادةُ قُرَيشٍ هم أكبرَ عقَبةٍ في طريقِه، ولهذا كان يتمنّى لو أَسْلم أحدُ هؤلاءِ السّادةِ فربَّما دَخَل

في الإسلام آخَرونَ بسببِه، وهكذا يَسهُلُ عليه الدَّعوةُ إلى الإسلام قليلًا، مثلَما رُويَ عن سيّدِنا عبدِ الله بن عُمرَ رضي الله عنهما، من أنّ النبيَّ ﷺ دَعَا بهذا الدُّعاء: «اللّهُمَّ أعِزَّ الإسلامَ بأحبِّ هذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إليك: بأبي جَهْلٍ أو بعُمَر بن الخطّاب»[١]؛ لأنّ هذَيْنِ كانا زعيمَيْنِ مقبولَيْنِ لدى أهلِ مكّةَ، فلو أَسْلَم أحدُهما لَأضافَ ذلك إلى المسلمينَ قوّةً. على أيِّ حال، «دعا رسولُ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم لعُمرَ بن الخَطّاب، أو لأبي جَهْلٍ بن هشام، فأصبح عُمَرُ وكانتِ الدّعوةُ يومَ الأربعاء، فأَسْلم عُمرُ يومَ الخميس»[٢]، ولمزيدٍ من التفصيل عن إسلام سيّدِنا عُمرَ بن الخطّابِ رضي الله عنه راجع تعارُفَ سُورةِ طه (٢٠).

لقد كان النبيُّ ﷺ حريصًا على أنْ يُسلِمَ ولو سيِّدٌ واحدٌ من سادةِ قُريش، ولكنْ تصادَفَ ذاتَ مرّةٍ أنْ تيسَّرتْ للنبيِّ ﷺ فرصةُ دعوةِ هؤلاءِ جميعًا دَفْعةً واحدة، إذ كانوا مجتمِعينَ في مجلسٍ واحد، وكان في هذا المجلسِ عُتبةُ وشَيْبةُ وأبو جَهْلٍ والعبّاسُ بنُ عبد المطَّلب وغيرُهم[٣].

اعتادَ الناسُ بصفةٍ عامّة أن يتَّبِعوا سادَتهم في الأمرِ الذي يُسلِّمُونَ به، طِبقًا للقولِ المشهورِ: «الناسُ على دينِ مُلوكِهم»، ولهذا الغَرَض كان النبيُّ ﷺ منهَمِكًا تمامًا في دعوةِ هؤلاءِ السّادةِ إلى الإسلام، وفجأةً جاء صَحابيٌّ أعمى هو سيّدُنا عبدُ الله ابن أُمِّ مكتوم رضي الله عنه إلى هناك وقال: يا رسولَ الله ﷺ، عَلِّمْني من العِلم الذي عَلَّمك اللهُ، واتْلُ علَيَّ من القرآن، وهكذا أخَذ سيّدُنا عبدُ الله ابنُ

---

(١) الترمذي، أبواب المناقب، باب ١٨ برقم ٣٦٨١.

(٢) البداية والنهاية، ٢: ٣١.

(٣) «وعنده صناديد قريشٍ: عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام، والعبّاس بن عبد المطّلب، وأميّة بن خلفٍ، والوليد بن المغيرة، يدعوهم إلى الإسلام». التفسير الكبير.

أُمِّ مكتوم ينادي على رسولِ الله ﷺ بصوتٍ مرتفع مكرِّرًا طلَبه هذا[١]، وكان النبيُّ ﷺ مشغولًا في دعوةِ سادةِ قُريشٍ الذين كان يَحرِصُ على أنْ يُسلِموا، ولم يكنْ من المناسبِ أن يقطَعَ سيِّدُنا عبدُ الله ابنُ أُمِّ مكتوم حديثَه ﷺ ليسأَلَ سؤالَه الذي سأَلَ، وعليه كان غَضَبُ النبيِّ ﷺ أمرًا طبيعيًّا، وهكذا ظَهرت آثارُ الغَضَبِ على وجهِه الشَّريف، وأعرَضَ عن سيِّدِنا عبدِ الله ابنِ أُمِّ مكتوم، وواصَلَ دعوتَه لسادةِ قُريش، فنَزَلت هذه الآياتُ.

وقد فَصَّل العلّامةُ الرازي القولَ في تفسيرِ هذه الآيات، وخُلاصتُه: أنّ المستحِقَّ الأَصْليَّ للعتابِ هو سيّدُنا عبدُ الله ابنُ أُمِّ مكتوم رضي الله عنه، إذ إنه هو الذي لم يُراعِ آدابَ النبوَّة، وتَدخَّل في الدَّعوةِ إلى الإسلام، لكنّ العتابَ جاء للنبيِّ ﷺ لأنّ من الممكنِ في مِثل هذا الموقفِ أن يُفهَمَ - على سَبيل الخطأ - أنّ النبيَّ ﷺ يُفضِّلُ الدُّنيا على الدِّين بتفضيلِه الأغنياءَ على الفقراء[٢].

ويقولُ العلّامةُ إسماعيلُ حقِّي في تفسيرِ هذه الآيات: «إنّ فعلَ ابنِ أُمِّ مكتوم كان ذنبًا ومعصيةً، وما فَعَله النبيُّ عليه السَّلامُ كان واجبًا، فكيف عاتَبَه اللهُ على ذلك؟ قيل: إنّ الأمرَ وإن كان كما ذُكِر إلّا أنّ ظاهرَ ما فَعَله الرسولُ عليه السَّلامُ يُوهمُ تقديمَ الأغنياءِ على الفقراء، وقلّةَ المبالاةِ بانكسارِ قلوبِ الفقراء، وهو لا يليقُ

---

(١) «أتى رسول الله ﷺ ابن أمّ مكتومٍ وعنده صناديد قريشٍ: عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام، والعبّاس بن عبد المطّلب، وأميّة بن خلفٍ، والوليد بن المغيرة يدعوهم إلى الإسلام، رجاءً أن يسلم بإسلامهم غيرهم، فقال ابن أم مكتوم: يا رسول الله، أقرئني وعلمني مما علمك الله، وجعل يناديه ويكرر النّداء». تفسير الخازن، والتفسير الكبير، سورة عبس (٨٠): الآية ١.

(٢) «أنّه كان مأذونًا في تأديب أصحابه، لكن هاهنا لمّا أوهم تقديم الأغنياء على الفقراء، وكان ذلك ممّا يوهم ترجيح الدّنيا على الدّين، فلهذا السّبب جاءت هذه المعاتبة». التفسير الكبير.

بمنصبِ النُّبوة؛ لأنه تَرْكُ الأفضَل كما أُشيرَ إليه سابقًا، فلذا عاتَبَه اللهُ تعالى»[١].

وقال الثَّوري: فكان النّبيُّ ﷺ بعدَ ذلك إذا رأى ابنَ أُمِّ مكتومٍ يَبسُطُ له رداءه ويقول: «مرحبًا بمَن عاتَبَني فيه ربِّي». ويقولُ: «هل من حاجةٍ»؟ واستَخْلَفَه على المدينةِ مرّتَيْنِ في غزوتَيْنِ غزاهُما[٢].

﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾

٢ ـ يعني: لو أنّك أيُّها النبيُّ ﷺ التفَتَّ إلى هذا الصَّحابيِّ الأعمى، لَحصَلَ على مزيدٍ من الطَّهارةِ بتعليمِك له، ولاستفادَ كثيرًا من نُصحِك.

﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾

٣ ـ لكنَّك تهتمُّ كثيرًا بالكافرِ الذي يُعرِضُ عن الإسلام لكي يُسلمَ، معَ أنه إذا لم يَقبَلْ هذا الكافرُ الإسلامُ فلا حَرَجَ عليكَ ولا لَوْم؛ لأنك أدَّيتَ حقَّ تبليغ الدَّعوة، وبالتالي يتوقَّفُ الأمرُ على الكافرِ نفسِه، إن شاء آمَنَ، وإلّا فلا.

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ﴾

٤ ـ أمّا المؤمنُ الذي يُهروِلُ إليكَ سعيًا وراءَ تعلُّم القرآنِ الكريم، وقلبُه يمتلئُ خوفًا من الله تعالى، عليك أن تُقدِّرَه، إذ إنّ تجاهُلَه لا يليقُ بشأنِك.

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾

٥ ـ بلا شكٍّ القرآنُ المَجيدُ نصيحةٌ كلُّه، وقد أَبْلغتَ أنت هذه النصيحةَ إلى

---

(١) تفسير روح البيان.
(٢) تفسير القرطبي.

الناس، والآنَ ليس من مسئوليَّـتِك أن تَجعَلَ أحدًا يؤمنُ بك رَغْمًا عنه، وإنّما مَن شاء فلْيَقبَل النَّصيحةَ ويَحصُلْ على النَّجاة.

﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾

٦ ـ القرآنُ المَجِيدُ كتابٌ مكرَّمٌ غايةَ التكريم، وهو محفوظٌ عندَ اللهِ تعالى في صُحُفٍ مكرَّمةٍ ذاتِ مقام رفيع، وهذه الصُّحُفُ فوقَ كلِّ شكٍّ وشُبهة، ومنزَّهةٌ عن كلِّ عيبٍ ونَقْص، ولا تَطالُها أيدي الشياطينِ أبدًا.

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾

٧ ـ القرآنُ المَجِيدُ في حفظِ ملائكةٍ ينقُلونَ وحيَ الله تعالى من اللَّوح المحفوظ، ويوصِلونَه بأمرٍ من اللهِ تعالى إلى رُسُلِه، وهؤلاءِ الملائكةُ أصحابُ عزّةٍ وشَرَفٍ خاصٍّ عندَ الله تعالى، وهم صالحونَ، يعني: أنّهم يُبلِّغونَ رسالةَ اللهِ تعالى إلى رُسُلِه بكلِّ أمانةٍ ودقّةٍ.

﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾

٨ ـ الإنسانُ الذي لا يؤمنُ باللهِ تعالى حتى بعدَ أن يرَى نِعَمَه وقُدرتَه هو إنسانٌ في غايةِ الجُحود، فلْيُهلِكْه اللهُ، إذْ ليس له أيُّ حقٍّ في أن يعيشَ على أرضِ الله.

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾

٩ ـ الإنسانُ الذي يتكبَّر، ويُنكِرُ قُدرةَ اللهِ تعـالى، كمـا يُـنكِرُ الآخِرةَ أيضًا، تُذكِّرُه هذه الآياتُ بحقيقتِه، أي: بأنّ اللهَ تعالى خَلَقَه من قَطْرةِ ماءٍ، يعني: خَلَقَه في بطنِ أُمِّه إنسانًا جميلًا مكتمِلًا، وخَلَق له أُذُنَيْنِ وعينَيْنِ ويدَيْنِ ورِجلَيْنِ وأعضاءً أخرى، وكلُّها في أماكِنِها الصَّحيحة المناسِبة، كما هيَّأ له في بطنِ أُمِّه غذاءه،

ويَسَّر له الطريقَ لخروجِه منها، ثم أماتَه، وأدخَلَه القبرَ، وسيُحييه ثانيةً عندَما يريد، أليس اللهُ تعالى، الذي خَلَق هذا الإنسانَ العظيمَ من قَطْرةٍ مَهِينة، بقادرٍ على أن يَخلُقَ إنسانًا مِثلَه بعدَ موتِه؟ لا شكَّ أنّ اللهَ تعالى قادرٌ على هذا، ولن يستطيعَ أحدٌ أن يُنكرَ هذه الحقيقةَ يومَ القيامة.

الطِّفلُ في بطنِ أُمِّه وقتَ الولادةِ يكونُ رأسُه إلى أسفلَ، ورجلاهُ إلى أعلى، ولهذا ينبغي للإنسانِ أن يَحنيَ رأسَه في الحياةِ لله تعالى، وأن لا يَرفعَه تكبُّرًا.

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾

١٠ ـ جَعَل اللهُ تعالى الإنسانَ أشرفَ المخلوقات، وأَنْعم عليه بنِعَمِه المتنوِّعة، وأمَرَه أن يكونَ عبدًا شكورًا له، وألّا يعبدَ سواه، لكنّ أكثرَ الناسِ يتكبَّرون، ولا يُطيعونَ أمرَ اللهِ تعالى. في الآياتِ السابقة جاء التذكيرُ للإنسانِ بنِعَم اللهِ تعالى من خلالِ تذكيرِه بحقيقتِه، وفي الآياتِ التالية جاء التذكيرُ لهذا الإنسانِ بنِعَم اللهِ تعالى من خلالِ الحديثِ عن غذائه، يعني: كيف أنّ اللهَ تعالى أَنْزلَ المطرَ، فأَنْبتَ من الأرضِ الثِّمارَ والمحاصيلَ والحدائقَ والبساتينَ وغيرَها، ومنها يتهيَّأُ الغذاءُ لكم ولأنعامِكم، ولو لم يُهيِّئِ اللهُ تعالى للإنسانِ غذاءه بعدَ خَلْقِه، لَما بقيَ أحدٌ على قَيْدِ الحياة، فإذا لم يؤمنِ الإنسانُ باللهِ تعالى برَغْم كلِّ هذا، فهل هناك مَن أكثرُ منه جحودًا؟

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾

١١ ـ عندما يَنفُخُ سيّدُنا إسرافيلُ عليه السَّلامُ في الصُّورِ للمرَّةِ الثانية، يَصدُرُ صوتٌ يُصِمُّ الآذانَ، وهو الذي يُنهِضُ الأمواتَ من هَيْبتِه أحياءً، ويجتمعُ الناسُ جميعًا في ميدانِ الحَشْر، وسيَرى كلُّ إنسانٍ في ذلك اليوم ماذا يَحدُثُ لإخوتِه وأبيه وأُمِّه وزَوْجِه وأولادِه وأصدقائه المقرَّبين، لكنّه سيكونُ مشغولًا بنَفْسِه إلى

درجةٍ كبيرةٍ بحيث لا ينتبهُ مطلَقًا إلى السُّؤالِ عن أحدٍ آخَرَ، إلّا أنّ أولياءَ الله تعالى سيهتَمُّونَ بأعِزَّائهم في ذلك اليوم، وسيُساعدُ كلٌّ منهمُ الآخَرَ.

- يقولُ اللهُ تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

- رُويَ عن سيّدِنا عثمانَ بن عَفّانَ رضي اللهُ عنه، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «يَشفَعُ يومَ القيامة ثلاثةٌ: الأنبياءُ ثمّ العلماءُ ثمّ الشُّهداء»(١).

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾

١٢ - الذين يتَّقونَ اللهَ تعالى في هذه الدُّنيا ويخشَوْنَه ولا يعصُونَه، ستكونُ وجوهُهم يومَ القيامة وَضّاءةً، وسيكونونَ سُعَداءَ فَرِحينَ بسَماع بُشْرى دخولِهمُ الجنّةَ، وعلى العكسِ منهم، فإنّ الذين لا يتّقونَ اللهَ تعالى في هذه الدنيا، ويُضيِّعونَ حياتَهم في الفِسقِ والفجور، سيُبشَّرونَ بجهنَّم، فيَعُمُّ الحُزنُ والسَّوادُ وجوهَهم المغبَرَّةَ.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة العشاء من يوم الاثنين ١٣ ديسمبر ٢٠١٠م
الموافق ٧ محرَّم ١٤٣٢هـ.

هذا، وقدِ اكتَمل بفَضْل الله تعالى وكرَمِه تفسيرُ سُورة «عَبَس» في يومَيْنِ فقط، أي: من ١١ إلى ١٣ ديسمبر، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

(١) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ٣٧ برقم ٤٣١٣.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(٨١) سُورَةُ التَّكْوِيرِ

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها: «التكويرُ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى منها.

أحوال القيامة

في الآياتِ من ١ إلى ١٤ من السُّورة، جاء بيانٌ لمنظرِ القيامة، كأنّ الإنسانَ يَراها أمامَ عينَيْه، مثلَما يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي الله عنهما: من أنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن سَرَّه أن يَنظُرَ إلى يوم القيامة كأنّه رأيُ عَيْنٍ فلْيقرَأْ ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾»[1].

القرآن كلام الله تعالى

في الآياتِ من ١٥ إلى ٢٥ أَقْسم اللهُ تعالى ـ خمسَ مراتٍ ـ مؤكِّدًا أنّ القرآنَ الكريمَ ليس كلامَ بشَر، وإنّما هو كلامُ الله تعالى، وأنّ الذين وَصَل إليكمُ القرآنُ الكريمُ عن طريقِهما، يعني: سيّدَنا جِبريلَ عليه السَّلامُ وسيّدَنا محمدًا ﷺ، كلاهما أمينٌ ومكرَّمٌ، ولهذا لا مجالَ لأيِّ شكٍّ أو شُبهةٍ أو زيادةٍ أو نُقصانٍ في هذا القرآن.

القرآن المجيد نصيحة للعالمين

كما أنّ مُنزِّلَ القرآنِ الكريم هو ربُّ العالَمين، وكما أنّ النبيَّ المُكرَّمَ الذي

---

(١) الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب ٨١ برقم ٣٣٣٣.

نُزِّلَ عليه القرآنُ المجيدُ هو رحمةٌ للعالَمين، فإنّ هذا القرآنَ الكريمَ أيضًا نصيحةٌ كلُّه للعالَمينَ جميعًا، ورَغْم أنه لا يمكنُ لأحدٍ أن يحصُلَ على النَّصيحةِ بغيرِ مشيئةِ الله تعالى وتوفيقِه، لكنّ الذين يحاولونَ السَّيْرَ على طريقِ القرآنِ المَجِيد، يوفِّقُهم اللهُ تعالى فيسيرونَ على الطريقِ المستقيم.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
قبلَ فجر يوم الثلاثاء ١٤ ديسمبر ٢٠١٠م
الموافق ٨ محرَّم ١٤٣٢هـ.

* * *

سُورَةُ التَّكْوِيرِ (٨١)،

مكية (٧)، آياتها (٢٩)، ركوعها (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾

١ ـ في الآياتِ من رقم ١ إلى رقم ٦ جاء ذِكرُ المراحلِ الأُولى ليوم القيامة، وذلك عندَما سيَنفُخُ سيّدُنا إسرافيلُ عليه السَّلامُ في الصُّورِ للمرةِ الأولى، وعندها ستبدَأُ سلسلةُ فناءِ كلِّ شيء، يعني: «أنّ الشّمسَ يُجمَعُ بعضُها إلى بعضٍ، ثم تُلَفُّ،

فإذا فُعِل بها ذلك ذَهَب ضوؤها، ثمّ يُرمَى بها في البحر[١]، ثم يُبعَثُ عليها ريحٌ دَبُورٌ (من الغربِ) فتَضرِبُها فتَصيرُ نارًا (أي: من حرارةِ الشمس)»[٢].

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾

٢ ـ في المرحلةِ الأولى من يوم القيامةِ عندَما تفنَى الأرضُ والسَّماءُ، ستتحطَّمُ النُّجومُ بينَهما وتتناثَرُ هنا وهناك، أو تَسقُطُ في البحر.

﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ﴾

٣ ـ الجبالُ أيضًا، وهي المخلوقاتُ القويّةُ الثَّقيلة، سوف تَنخلعُ من مكانِها من هَيْبةِ ذلك اليوم، وتتفتَّتُ وتتطايَرُ في الفضاء.

﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ﴾

٤ ـ قبلَ أربعةَ عشَرَ قرنًا من الزَّمانِ كانت الناقةُ لدى أهل الجزيرةِ العربيّة تُعَدُّ متاعًا عزيزًا غاليًا، فهم يركَبُونَها في السَّفَر، وتُوفِّر لأهل البيتِ الألبانَ، وتزيدُ في نَسْلِها بحَمْلِها، وهكذا عندما يَبلُغُ حَمْلُ الناقة عشَرةَ شهور، ويقتربُ موعدُ ولادتِه، فإنّهم كانوا يهتَمُّونَ بالناقةِ غايةَ الاهتمام، حتى لا يَحدُثَ لحَمْلِها أيُّ ضَرَر، ولكنْ عندما يُنفَخُ في الصُّورِ للمرةِ الأُولى وتبدَأُ سِلسلةُ فناءِ الكائنات، يكونُ كلُّ واحدٍ منهم مشغولًا بحالِه في هذا المنظَر المُرعِب، ولن يهتَمَّ أحدٌ بالناقةِ الحامل في مِثلِ هذه الأحوال.

﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ﴾

٥ ـ الحيَواناتُ المتوحِّشةُ تعيشُ بعيدًا عن الإنسانِ في الغابات، والبعضُ منها يأكُلُ الآخَرين، مثلَما يأكلُ الأسَدُ الغزالَ، ولكنْ في ذلك اليوم سيُصيبُ هذه

---

(١) تفسير القرطبي.

(٢) تفسير الخازن وتفسير روح المعاني.

الحيَواناتِ المفترسةَ أيضًا خوفٌ شديدٌ ورُعبٌ أشدُّ من صوتِ الصُّورِ المخيف، بحيث أنهم سيَجتمِعونَ معًا في العُمران، وسيكونُ كلٌّ من الأسَدِ والغزالِ في غايةِ الخوفِ، بحيث لا يشعُرُ كلٌّ منهما بالآخَرِ الذي معَه.

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾

٦ ـ يعني: ستكونُ النِّيرانُ مشتعلةً في البحار، ومَع أنّ الماءَ يطفئُ النارَ، لكنّ الله تعالى الذي سيُحيلُ مخلوقاتٍ عظيمةً مثلَ الأرضِ والسماءِ والجبالِ إلى ذَرّاتٍ متناثرةٍ مُتطايِرة، لا يصعُبُ عليه أن يُحيلَ الماءَ إلى بنزينٍ وغازٍ ويجعَلَهما يشتعلانِ، ويُلقي فيهما بالشمسِ فتزدادَ حِدّةُ حرارتِها وشدّتُها.

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾

٧ ـ هنا تصويرٌ لأحوالِ يوم القيامة، عندَما يُنفَخُ في الصُّورِ للمرةِ الثانية، وتُعادُ الأرواحُ إلى الأبدان، ويتِمُّ إحياؤها من جديد[١].

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾

٨ ـ كان أهلُ الجزيرةِ العربيّةِ قبلَ الإسلام لا يُحِبُّونَ البناتِ، وكانت بعضُ القبائل مثلَ: مُضَرَ وخُزاعةَ وتميم وغيرِها يكرَهونَهُنَّ إلى درجةِ أنهم كانوا يَدفُنونَهُنَّ أحياءً[٢]، مثلما قالَ الله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨-٥٩].

---

(١) «قرنت الأرواح بالأجساد؛ أي: ردت إليها» تفسير القرطبي.

(٢) «كان مضر وخزاعة يدفنون البنات أحياء؛ وأشدهم في هذا تميم». تفسير القرطبي، سورة النحل (١٦): الآية ٥٨.

إنّ فَضْلَ الإسلام على المرأةِ عظيم، حيث اقتَلَعَ هذا التقليدَ السيِّئَ من جُذورِه، بحيث لا نجدُ في شبهِ الجزيرةِ العربيّةِ كلِّها مثالًا واحدًا لدَفْنِ البناتِ بعدَ الإسلام.

الحال السيئ للبنت في عصر الجاهلية

قبلَ الإسلام ماذا كان الأبُ يفعَلُ معَ بناتِه؟ اسمَعْ بنفسِك على لسانِهنَّ فيما يتعلَّقُ بهِنَّ:

ـ جاء سيِّدُنا قَيْسُ بنُ عاصم رضي الله عنه إلى رسولِ الله ﷺ وقال: إنّي وَأَدتُ ثمانيَ بناتٍ لي في الجاهليّة، قال: «أعتِقْ عن كلِّ واحدةٍ منها رَقَبَةً»، قلتُ: إنّي صاحبُ إبِلٍ، قال: «اهدِ إن شئتَ عن كلِّ واحدةٍ منهنّ بدَنةً»[1].

ـ رُويَ أنّ رجلًا من أصحابِ النبيِّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم كان لا يزالُ مغتمًّا بينَ يدَيْ رسولِ الله صلى الله عليه وآلِه وسلم، فقال له رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلَّم: «ما لك تكونُ محزونًا؟»، فقال: يا رسولَ الله، إنّي أذنَبْتُ ذنبًا في الجاهليةِ، فأخافُ ألّا يَغفِرَه اللهُ [لي] وإن أَسْلمتُ! فقال له: «أخبِرْني عن ذَنْبك»، فقال: يا رسولَ الله، إنّي كنتُ من الذين يقتُلونَ بناتِهم، فوَلَدتْ لي بنتٌ فتَشفَّعتْ إليّ امرأتي أن أترُكَها فتركتُها، حتى كبِرَت وأدرَكَتْ، وصارت من أجمَلِ النساءِ، فخَطَبوها؛ فدَخَلتْني الحَمِيّةُ ولم يحتملْ قلبي أن أُزوِّجَها أو أترُكَها في البيتِ بغير زوج، فقلتُ للمرأة: إنّي أريدُ أن أذهبَ إلى قبيلةِ كذا وكذا في زيارةِ أقربائي، فابعَثِيها معي، فسُرَّتْ بذلك وزَيَّنَتْها بالثِّياب والحُلِيّ، وأخَذَت علَيّ المواثيقَ بألّا أخونَها، فذهبتُ بها إلى رأسِ بئرٍ فنَظَرتُ في البئرِ، فَفَطِنتِ الجاريةُ أني أريدُ أن أُلقيَها في البئر، فالتزمَتْني وجَعَلتْ تبكي وتقول: يا أبتِ! أيشٍ تريدُ أن تفعَلَ بي! فرَحِمتُها، ثم نَظَرتُ

---

(١) المعجم الكبير، ١٨: ٣٣٧ برقم ٨٦٣.

في البئرِ فدَخَلتْ عليَّ الحَمِيّةُ، ثم التزمَتْني وجَعَلتْ تقول: يا أبتِ، لا تُضيِّع أمانةَ أُمّي؛ فجَعَلتُ مرّةً أنظُرُ في البئر ومرّةً أنظُرُ اليها فأرحَمُها، حتى غَلَبني الشيطانُ فأخَذتُها وألقَيْتُها في البئرِ منكوسةً وهي تنادي في البئر: يا أبتِ، قتلتَني! فمَكَثْتُ هناك حتى انقطَعَ صوتُها، فرَجَعتُ، فبَكَى رسولُ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم وأصحابُه وقال: «لو أُمِرتُ أن أُعاقِبَ أحدًا بما فَعَل في الجاهليّةِ لَعاقبتُك»[1].

ـ لا تزالُ هذه الجاهليّةُ موجودةً في بعضِ الناس حتى اليوم، يعني: أنّ الرجُلَ يحبُّ البنتَ في صُورةِ زوجةٍ، ولكنّه لا يُحبُّها ابنةً، ولا يفكِّرُ أنّ زوجتَه هي الأخرى ابنةٌ لغيره، فإذا انتَهى وجودُ البناتِ فلا مجالَ لأن تكونَ هناك زوجاتٌ، بل ولا مجالَ لأن يتَقدَّمَ النَّسلُ الإنسانيُّ ويتَواصَلَ، ولهذا فإنّ كراهيَةَ البناتِ في الحقيقة حماقةٌ كبرى وجَهلٌ عظيمٌ ومخالفةٌ للفِطرة، ولأنّ الإسلامَ دِينُ الفطرة، لهذا لا مجالَ للتمييزِ في الإسلام بينَ الولدِ والبنت، فكما أنّ الولدَ نعمةٌ من الله على والدَيْه، ويستحِقُّ الحبَّ منهما، كذلك البنتُ رحمةٌ من الله لوالدَيْها، وتستحِقُّ الحبَّ منهما، وقد رَغَّب النبيُّ ﷺ كثيرًا في رعايةِ البناتِ والإشفاقِ عليهِنَّ من أَجْل القضاءِ على مِثلِ هذا التمييز.

فضل البنت في الإسلام

ـ رُويَ عن السيّدةِ عائشَة الصِّدِّيقةِ أُمِّ المؤمنينَ رضي الله عنها، أنها قالت: كان النبيُّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم إذا رآها (فاطمةَ رضي الله عنها) قد أَقْبلَتْ رَحَّب بها ثم قام إليها فقَبَّلَها ثم أخَذَ بيدِها فجاءَ بها حتى يُجلِسَها في مكانِه[2].

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الأنعام (٦): الآية ١٤٠.

(٢) الأدب المفرد، الإمام البخاري، ٢٧٨.

ـ يقولُ سيّدُنا عُقبةُ بنُ عامرٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «لا تُكرِهوا البناتِ، فإنَّهُنَّ المؤنساتُ الغاليات»[(١)].

ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن عالَ جاريتَيْنِ حتّى تَبلُغا جاء يومَ القيامة أنا وهو». وضمّ أصابعَه[(٢)].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن كانت له بنتٌ فأدَّبَها فأحسَنَ تأديبَها، وعَلَّمها فأحسَنَ تعليمَها، وأسبَغَ عليها من نِعَم اللهِ التي أسبَغَ عليه، كانت له سَتْرًا من النّار»[(٣)].

ـ رُويَ عن سيّدِنا عبدِ الله بن عبّاس رضي الله عنهما، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «من كانت له أُنثى فلم يَئِدْها ولم يُهِنْها ولم يُؤْثِرْ ولَدَه عليها ـ قال: يعني: الذُّكورَ ـ أدخَلَه اللهُ الجنّة»[(٤)].

ـ يقولُ سيّدُنا سُراقةُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال له: «ألا أَدُلُّكم على أفضلِ الصّدَقة؟ ابنتُك مردودةً إليك (يعني: التي طُلِّقت أو التي تَرَمَّلتْ) ليس لها كاسبٌ غيرُك»[(٥)]، فلو طُلِّقت ابنةُ أحدٍ لا قَدَّر الله، أو ماتَ عنها زوجُها، ولم يكنْ لها عائلٌ يَعُولُها، فإنّ الأبَ الذي يَكفُلُ ابنتَه في هذه الحالة ويُنفقُ عليها ويوفِّرُ لها الأمنَ، يَصِلُ رَحِمَه ويحظَى بدعاءِ ابنتِه له من جانب، ومن جانبٍ آخَرَ يحظَى برضا الله تعالى باعتبارِ أنّ ما يفعَلُه صدَقةٌ جارية.

---

(١) مسند أحمد، ٤: ١٥١.

(٢) مسلم، كتاب البر، باب ٤٦ برقم ٦٦٩٥.

(٣) حلية الأولياء، ٥: ٦٧ برقم ٦٣٤٨، وكنز العمال، ١٦: ٤٥٢ برقم ٤٥٣٩١.

(٤) أبو داود، كتاب الأدب، باب ١٣٠ برقم ٥١٤٦.

(٥) ابن ماجه، أبواب الأدب، باب ٣ برقم ٣٦٦٧، ومسند أحمد، ٤: ١٧٥.

ـ يَنقُلُ العلّامةُ إسماعيلُ حقِّي، أنّ مَن وُلِدت له ابنةٌ، عليه أن يُظهِرَ فرحةً أكثرَ من تلك التي يُظهِرُها لو رُزِقَ بوَلَد، حتى يُخالفَ بذلك أهلَ الجاهليّة، ولو كانتِ الابنةُ مخلوقًا غيرَ مرغوبٍ فيه لَما وُلِدت بناتٌ للأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام، في حينَ أنه كان لسيِّدِ الأنبياءِ ﷺ أربعُ بنات، وقد قال: «لا تكرَهوا البنات، فإنّي أبو البنات»[1].

ضرورة القيامة

لو تأمَّلْنا في هذه الآيةِ لَاتَّضحَ منها الحاجةُ المُلِحّةُ لمجيءِ يوم القيامة، يعني: أنّ أبًا ظالمًا يَدفُنُ ابنتَه حيّةً دونَ ذنبٍ منها أو جَريرة، وهي تَصرُخُ تحتَ الترابِ أمامَه إلى أن تَفقِدَ حياتَها، ثم لا يأتي يومٌ تُنصَفُ فيه مِثلُ هذه البنتِ البريئة، ولا يُعاقَبُ مِثلُ هذا الأبِ القاسي الظالم على جُرمِه بما يستحِقُّه، فهو أمرٌ لا يَقبَلُه إنسانٌ عاقل، بل ولا مجالَ له عندَ الله تعالى، ولهذا فإنّ قيامَ الساعةِ ضروريٌّ للغاية، وسوف تقومُ يقينًا، حيث سيُعاقَبُ كلُّ إنسانٍ على كلِّ ظُلم ارتكَبَه.

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ﴾

٩ ـ يقولُ مُقاتِل: «إذا مات المرءُ طُوِيَت صحيفةُ عمَلِه، فإذا كان يومُ القيامةِ نُشِرت»[2]، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء: ١٤]، ولن يكونَ هناك شخصٌ أعمًى أو أُمِّيٌّ يومَ القيامة، وسيستطيعُ كلُّ شخصٍ أن يَقرَأَ يومَها، وسيَقرَأُ صحيفةَ أعمالِه بنفسِه، مثلَما روَى الإمامُ ابنُ جَريرٍ الطَّبريُّ، عن

---

(١) تفسير روح البيان، سورة النحل (١٦): الآية ٥٩.

(٢) تفسير القرطبي، سورة التكوير (٨١): الآية ١٠.

سيّدِنا قَتادةَ رضي الله عنه: «سيَقرَأُ يوَمئذٍ مَن لم يكنْ قارئًا في الدنيا»[١]، وقد قال سيّدُنا الحَسَنُ رضي الله عنه: «يقرأه أُمّيًّا كان أو غيرَ أُمّيٍّ»[٢].

يقولُ سيّدُنا أبو أُمامةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ الرّجُلَ ليُؤتَى كتابَه منشورًا، فيقولُ: يا ربِّ، فأين حسَناتٌ كذا وكذا عَمِلتها ليست في صحيفتي؟ فيقول: مُحِيَت باغتيابِك للنّاس»[٣].

ويقولُ المفتي أحمدُ يار خان نعيمي: «يُعلَمُ منه أنه لن يكونَ هناك شخصٌ لا يقرَأُ يومَ القيامة، وسيستطيعُ الجميعُ القراءةَ، وسيكونُ الجميعُ على علم باللُّغةِ العربيّة؛ لأنّ صُحُفَ الأعمالِ ستكونُ مكتوبةً باللُّغةِ العربيّة، بل إنّ لغةَ كلِّ إنسانٍ عندَ موتِه هي العربيّةُ، إذ إنّ سُؤالَ القبرِ سيكونُ باللُّغةِ العربيّة، وسيُجيبُ الناسُ جميعًا باللُّغةِ العربيّة»[٤]، وستكونُ لغةُ الجنّةِ هي اللُّغةَ العربيّةَ أيضًا، مثلَما يقولُ النبيُّ ﷺ، فيما رواهُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَبّاس رضي الله عنهما: «أَحِبُّوا العربَ لثلاثٍ: لأنّي عربيٌّ، والقرآنُ عربيٌّ، وكلامُ (لسانُ) أهلِ الجنّةِ عربيٌّ»[٥].

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ﴾

١٠ ـ مثلَما يُذبَحُ الحيَوانُ ويُسلَخُ جِلدُه، فتَظهَرُ حقيقةُ كلِّ ما بداخلِه، كذلك السَّماءُ التي تبدو لنا من بعيدٍ زرقاءَ اللّونِ، عندَما تتشقَّقُ، ويزولُ غِشاؤها الظاهريُّ، ستبدو للجميع حقيقتُها، وهذا الأمرُ سيَحدُثُ عندَ النَّفخ في الصُّورِ لأولِ مرّةٍ، لأنّ

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري، وتفسير ابن أبي حاتم، سورة الإسراء (١٧): الآية ١٤.

(٢) تفسير زاد المسير، سورة الإسراء (١٧): الآية ١٤.

(٣) التفسير المظهري، سورة الإسراء (١٧): الآية ١٤.

(٤) تفسير نور العرفان، سورة الكهف (١٨): الآية ٤٩.

(٥) المستدرك، ٤: ٩٨.

القيامةَ ستقومُ بعدَ النَّفخةِ الثانية في الصُّور، وعندَها ستكونُ هناك أرضٌ وسماءٌ جديدتانِ.

﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾

١١ ـ الذين لا يتَّقُونَ اللهَ تعالى في هذه الدُّنيا، ويُنكِرونَ يومَ القيامة، ستكونُ نارُ جهنَّم في غايةِ الاشتعالِ بالنِّسبة لهم يومَ القيامة، مثلَما يقولُ اللهُ تعالى: ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾

١٢ ـ الذين يتَّقُونَ اللهَ تعالى في هذه الدنيا، ولا يعصُونَه، ستُقرَّبُ إليهم الجنّةُ يومَ القيامة، مثلَما يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠].

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾

١٣ ـ عندَما توضَعُ صحيفةُ الأعمالِ أمامَ كلِّ إنسانٍ يومَ القيامة، يتذكَّرُ على الفَوْرِ كلَّ الأعمالِ التي قام بها، ويَعلَمُ تمامًا بماذا جاء هنا، ويَعلَمُ أيضًا ماذا سيَحدُثُ معَه.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾

١٤ ـ في الآياتِ السابقة أَقْسَم اللهُ تعالى خمسَ مرّاتٍ، يعني: بالنُّجوم التي تَبتعدُ خلفَ المشرِق عندَ اللّيل، وبالنُّجوم التي تسيرُ مباشرةً ناحيةَ الغربِ عند اللَّيل، وبالنُّجوم كلِّها التي تَختفي وقتَ النّهار، وباللَّيل عندَما يبدَأُ ظلامُه في الزَّوال، وبالصُّبح عندَما يُشرِقُ نورُه، وبعدَ هذا القَسَم لخمسِ مرّاتٍ أكَّد اللهُ تعالى على

أنّ هذا القرآنَ ليس كلامَ بشَر، وإنّما هو كلامُ الله تعالى جاء به سيّدُنا جِبريلُ عليه السَّلام، وسيّدُنا جِبريلُ عليه السَّلامُ ليس مَلَكًا عاديًّا، وإنّما هو رسولُ الله تعالى، وصاحبُ عزٍّ وشرف، وصاحبُ قوةٍ كذلك، وله مقامٌ عظيمٌ عندَ صاحبِ العرش، أي: اللهِ تعالى، وهو سيِّدُ الملائكةِ والأمينُ على كلام الله تعالى، ولهذا لا مجالَ لأيِّ شكٍّ أو شُبهةٍ في القرآنِ الكريم، ولا مجالَ للزِّيادةِ أو النُّقصانِ فيه أيضًا.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾

١٥ ـ هنا يقالُ لكفّارِ مكّةَ: إنّكم تعلَمونَ جيِّدًا أنّ صاحبَكم سيّدَنا محمدًا ﷺ ليس مجنونًا، وإنّما هو الصّادقُ الأمينُ، وفي الآياتِ الثلاثِ السابقةِ أيضًا جاء بيانٌ لبعضِ صفاتِ سيّدِنا جِبريلُ عليه السَّلام، وقد أَنْعَم اللهُ تعالى على نبيِّه الكريم ﷺ بهذه الصِّفاتِ أيضًا وفي أكملِ درجة، ولهذا يَرى بعضُ المفسِّرينَ أنّ المقصودَ في هذه الآياتِ هو سيّدُنا محمدٌ ﷺ جنبًا إلى جنبٍ معَ سيّدِنا جِبريلَ عليه السَّلام.

يقولُ الشَّيخُ شبير أحمَد عُثماني: «المعنى أنّ القرآنَ الكريمَ الذي وَصَلَنا من عندِ الله تعالى، وَصَل عن طريقَيْنِ، الأول: هو مَلَكُ الوحي (سيّدُنا جِبريلُ عليه السلام)، والثاني هو: النبيُّ العربيُّ ﷺ، وصفاتُهما هي التي بعدَ معرفتِها لا تَدَعُ مجالًا للشكِّ في أنّ القرآنَ الكريمَ كلامُ الله تعالى الصّادقُ الذي أَنْزَلَه»[١].

سيدنا محمد ﷺ هو الأفضل

أفضَلُ المخلوقاتِ جميعًا هو: الإنسانُ، وأفضَلُ بني الإنسانِ هم الأنبياءُ الكرامُ عليهمُ السَّلامُ، وأفضَلُ الإنبياءِ عليهمُ السَّلامُ هو سيّدُنا محمدٌ ﷺ، ويُعلَمُ

---

(١) التفسير العثماني، سورة التكوير (٨١): الآية ١٥.

منه أنّ النبيَّ ﷺ أفضَلُ من الملائكةِ جميعًا بمَن فيهم سيّدُنا جِبريلُ عليه السَّلام.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «فُضِّلتُ على الأنبياءِ بستٍّ:

١ ـ أُعطِيتُ جوامعَ الكَلِم.

٢ ـ ونُصِرتُ بالرُّعب.

٣ ـ وأُحِلَّتْ ليَ الغنائم.

٤ ـ وجُعِلَت ليَ الأرضُ طَهُورًا ومسجدًا.

٥ ـ وأُرسِلْتُ إلى الخَلْقِ كافّةً.

٦ ـ وخُتِم بيَ النَّبيُّون»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو سَعيدٍ الخُدريُّ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «أنا سيّدُ وَلَدِ آدمَ يومَ القيامةِ ولا فَخْر، وبيَدي لواءُ الحمدِ ولا فَخْر، وما من نبيٍّ يومَئذٍ آدمُ فمَن سواهُ إلّا تحتَ لوائي، وأنا أوّلُ مَن تنشَقُّ عنه الأرضُ ولا فَخْر»[٢].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «أنا حَبيبُ اللهِ ولا فَخْر، وأنا حاملُ لواءِ الحمدِ يومَ القيامةِ ولا فَخْر، وأنا أوّلُ شافعٍ وأوّلُ مشفَّعٍ يومَ القيامةِ ولا فَخْر، وأنا أوّلُ من يُحرِّكُ حِلَقَ الجنّة فيَفتَحُ اللهُ لي فيُدخِلُنيها ومعي فقراءُ المؤمنينَ ولا فَخْر، وأنا أكرمُ الأوّلينَ والآخِرينَ ولا فَخْر»[٣].

---

(١) مسلم، كتاب المساجد، باب ١ برقم ١١٦٧.

(٢) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٣ برقم ٣٦١٥.

(٣) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٣ برقم ٣٦١٦.

ـ يقولُ سيّدُنا جابرُ بنُ عبدِ الله رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «أنا قائدُ المرسَلينَ ولا فَخْر، وأنا خاتَمُ النّبيِّينَ ولا فَخْر، وأنا أوّلُ شافعٍ وأوّلُ مُشفَّعٍ ولا فَخْر»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو سَعيدٍ الخُدريُّ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «ما من نبيٍّ إلّا وله وزيرانِ من أهلِ السّماء ووزيرانِ من أهلِ الأرض، فأمّا وزيرايَ من أهل السّماءِ فجِبرئيلُ وميكائيل، وأمّا وزيرايَ من أهلِ الأرضِ فأبو بكرٍ وعُمرُ»[٢].

ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي الله عنها: إنّ النبيَّ ﷺ قال عن جِبريلَ عليه السَّلامُ، قال: «قَلَّبتُ مشارقَ الأرض، ومغاربَها، فلم أجِدْ رجلًا أفضَلَ من محمّدٍ ﷺ»[٣].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: «لمّا وُلِد النّبيُّ ﷺ قال في أُذُنِه رضوانٌ خازنُ الجِنان: أبشِرْ يا محمّد، فما بقيَ لنبيٍّ عِلمٌ إلّا وقد أعطِيتَه، فأنت أكثرُهم علمًا وأشجَعُهم قلبًا»[٤].

سيدنا محمد ﷺ ليس مجنونًا

المجنونُ يقالُ لذلك الشَّخصِ الذي في عقلِه فُتور، ولا يستطيعُ التمييزَ بينَ الصِّدق والكذبِ والحِكمةِ والجَهْل والأمانةِ والخِيانة، ويتكلَّمُ بكلامٍ غيرِ مُترابِط وبلا هدف، لكنّ النبيَّ ﷺ يتربَّعُ فوقَ أعلى قِمَم الصِّدقِ والحِكمةِ والأمانةِ ويقَظةِ الضَّمير، وهذه هي الحقيقةُ التي يَعرِفُها كفّارُ مكّةَ جيِّدًا، ولهذا كانوا يحتفظونَ بأماناتِهم عندَ النبيِّ الكريم ﷺ، بل ويَحتكِمونَ إليه ليفصِلَ بينَهم عندَ اختلافِهم فيما بينَهم.

---

(١) سنن الدارمي، المقدمة، باب ٨: ٢٧.

(٢) المستدرك للحاكم، ٢: ٢٩٠ برقم ٣٠٤٦، وكنز العمال، ١١: ٥٦٠ برقم ٣٢٦٤٧.

(٣) المعجم الأوسط، ٧: ١٥٥ برقم ٦٢٨١، ومجمع الزوائد، ٨: ٢١٧.

(٤) المواهب اللدنية، ١: ١٢٧.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾

١٦ - يعني: أنّ النبيَّ ﷺ قد رَأى سيّدَنا جِبريلَ عليه السَّلامُ في صُورتِه الحقيقيَّةِ عند الأُفُقِ المضيءِ، مثلَما يقولُ أبو الأحوَصِ في تفسيرِ هذه الآية: «رأى جِبريلَ له ستَّ مئةِ جناح في صُورتـِه»(١).

يقولُ سيّدُنا عامرٌ رضي الله عنه، في تفسيرِ هذه الآية: «ما رأى جِبريلَ النَّبيُّ ﷺ في صُورتِه إلّا مرّةً واحدةً، وكان يأتيه في صُورةِ رجُل يقالُ له: دِحْيةُ، فأتاهُ يومَ رآهُ في صُورتِه قد سَدَّ الأُفُقَ كلَّه، عليه سُندُسٌ أخضَرُ معلَّقُ الدُّرِّ»(٢).

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾

١٧ - يعني: يا أيُّها الناسُ، إنّ الوحيَ الذي أَنْزلَه اللهُ تعالى على سيّدِنا محمدٍ ﷺ لم يَبخَلِ النبيُّ ﷺ في تعليمِكم إياه «وما محمدٌ على ما عَلَّمه اللهُ من وَحْيِه وتنزيلِه ببخيلٍ بتعليمِكُموهُ أيُّها الناس، بل هو حريصٌ على أنْ تؤمِنوا به وتتعَلَّموه»(٣).

ويقولُ الدكتورُ سيِّد حامد حَسَن بلْكَرامي: «إنه يُبلِّغُكم بما يؤمَرُ أن يُبلِّغَكم به، وما لم يؤمَرْ بتبليغِه يفوِّضُه إلى الله تعالى، ويبقى منتظِرًا الأمرَ منه، وحين يجدُ الأمرَ منَ الله تعالى فإنه يجعَلُه هو أيضًا عالمًا بالغَيْب. هذا وعِلمُ الله علمٌ حُضُوريٌّ، ولا حدَّ له، بينَما على النبيِّ ﷺ عطاءٌ من الله، يُعطيه له بقَدْرِ ما يشاء»(٤).

ويقولُ الشَّيخ شبير أحمَد عُثماني: «يعني: أنّ هذا النبيَّ يُخبِرُ بكلِّ أنواع الغيوب،

(١) تفسير ابن جرير الطبري، سورة التكوير (٨١): الآية ٢٣.
(٢) تفسير ابن جرير الطبري، سورة التكوير (٨١): الآية ٢٣.
(٣) تفسير ابن جرير الطبري.
(٤) فيوض القرآن، سورة التكوير (٨١): الآية ٢٤، فيروز سنز، لاهور، باكستان.

سواءٌ كانت متعلِّقةً بالماضي، أم بالمستقبَل، أو متعلِّقةً بأسماءِ الله تعالى وصفاتِه، أو بالأحكام الشَّرعيّةِ أو بحقيقةِ الأَدْيانِ وبُطلانِها، أو بالجنّةِ والنارِ وأحوالِهما، أو ما يَحدُثُ بعدَ الموت، ولا يَبخَلُ ولو بمقدارِ ذَرّةٍ في الإخبارِ بكلِّ هذا»[1].

من خلال الإحالاتِ السابقة نتعرَّفُ على مسألتَيْنِ؛ الأولى: أنّ النبيَّ ﷺ قد أُعطيَ عِلمَ الغَيْب، والثانيةُ: أنّ النبيَّ ﷺ أَخبرَ من عِلم الغيبِ بقَدْرِ ما كان ضروريًّا، ولم يبخَلْ فيه، إلى أنِ اكتَملَ الإسلامُ، مثلَما يقولُ اللهُ تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾

١٨ ـ كان كفّارُ مكّةَ يقولونَ: إنّ الشّيطانَ هو الذي يأتي بالقرآنِ إلى النبيِّ ﷺ، وقد أَبطَلَ اللهُ تعالى هذا الادِّعاءَ في هذه الآيةِ قائلًا: إنّ القرآنَ ليس من كلام أيِّ شيطانٍ رجيم؛ لأنّ الشيطانَ يتكلَّمُ بما يُبعِدُ الإنسانَ من رحمةِ الله تعالى، في حينَ أنّ القرآنَ الكريمَ يُرشدُكم إلى الطَّريقِ الذي يُقرّبُكم من رحمةِ الله تعالى، فماذا دهاكم إذًا؟ إلى أين تذهبونَ بإنكارِكُم القرآنَ؟

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾

١٩ ـ كما أنّ مُنزِّلَ القرآنِ الكريم هو ربُّ العالَمين، وكما أنّ النبيَّ المكرَّمَ الذي نَزَل عليه القرآنُ المَجِيدُ هو رحمةٌ للعالَمين، فإنّ هذا القرآنَ الكريمَ أيضًا نصيحةٌ كلُّه للعالَمينَ جميعًا، ورَغْمَ أنه لا يمكنُ لأحدٍ أن يَحصُلَ على النَّصيحةِ

---

(١) التفسير العثماني، سورة التكوير (٨١): الآية ٢٤.

بغيرِ مشيئةِ الله تعالى وتوفيقِه، لكنّ الذين يُحاولونَ السَّيرَ على طريقِ القرآنِ المَجِيد، يوفِّقُهم اللهُ تعالى فيسيرونَ على الطّريقِ المستقيم.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
قبلَ فجر يوم الأربعاء ١٥ ديسمبر ٢٠١٠م
الموافق ٩ محرَّم ١٤٣٢هـ.

هذا، وقدِ اكتَملَ بفَضْل الله وكرَمِه تفسيرُ سُورة «التكوير» في يوم واحدٍ فقط، أي: من ١٤ إلى ١٥ ديسمبر، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسلام على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

❋ ❋ ❋

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(٨٢) سُورَةُ الانفِطَار

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها: «الانفطارُ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى منها.

أحوال القيامة

في الجزءِ الأوّلِ من هذه السُّورة جاء بيانُ أحوالِ يوم القيامة، يعني: عندَما تَفْنَى هـذه الكائناتُ، وتظهَرُ إلى الوجودِ دُنيا جديدةٌ، وينَهضُ النـاسُ جمـيعًا من قبورِهم أحياءً، وتوضَعُ أمامَ كلِّ إنسانٍ صحيفةُ أعمالِه، ويَعلَمُ كلُّ إنسانٍ جيِّدًا ماذا فَعَل في الدُّنيا، وبماذا استعَدَّ للآخِرة.

خلق الإنسان

ثم جاء التنبيهُ للإنسانِ فيما يتعلَّقُ بخَلْقِه، بأنه كان ينبغي لك أن تشكرَ اللهَ تعالى الذي خَلَقَك من قَطْرةِ ماءٍ مَهين، وأَنْعم عليكَ بأعضاءٍ جميلةٍ وإمكانيّاتٍ عظيمة، ولم يخلُقْكَ في شكل مخلوقٍ حقير، ولكنْ أيُّ شيءٍ أبعَدَك عنه؟

الكاتبون الكرام

جَعَل اللهُ تعالى معَ كلِّ إنسانٍ مراقبَيْنِ له من الملائكة المكرَمِين، فهم يكتُبونَ

كلَّ ما يقومُ به، ويُعِدُّونَ له صحيفةَ أعمالِه التي ستُقدَّمُ إليه يومَ القيامة، وطبقًا لهذه الصُّحفِ فإنّ الصالحينَ سيَدخُلونَ الجنّةَ، وسيَدخُلُ الأشرارُ النارَ.

لمن الملك يوم القيامة؟

المُلكُ يومَ القيامةِ لله تعالى وحدَه، ولن يستطيعَ أحدٌ يومَها مساعدةَ أحدٍ آخَرَ من نفسِه، لكنّ الذين يأذَنُ اللهُ تعالى لهم بالشَّفاعة، هم فقطِ الذين يستطيعونَ مساعدةَ الآخَرين، ورَغْمَ أنّ المُلكَ اليومَ للهِ تعالى أيضًا، لكنّه مَنَح الناسَ الاختيار على سَبيل الابتلاء، ولهذا فهم يَحكُمونَ أحكامًا خاطئةً أيضًا بناءً على الخوفِ أو الطَّمع أو العلاقاتِ معَ الآخَرين، أمّا يومَ القيامة فسيكونُ الحُكمُ لله تعالى وحدَه، وطِبقًا لمقتَضَياتِ العدلِ والإنصاف.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
قبلَ فجر يوم الخميس ١٦ ديسمبر ٢٠١٠م
الموافق ١٠ محرَّم ١٤٣٢هـ.

* * *

سورة الانفطار (٨٢)،

مكية (٨٢)، آياتها (١٩)، ركوعاتها (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾

١ ـ جاءَ في الآياتِ الثلاثِ الأولى بيانُ المراحل الأُولى ليوم القيامة، يعني: عندَما ينفُخُ سيّدُنا إسرافيلُ عليه السَّلامُ في الصُّورِ للمرّةِ الأُولى فإنّ السماءَ تنشَقُّ، وتتحطَّمُ النُّجومُ وتتناثَرُ أو تَسقُطُ في البحار، أمّا مياهُ البحارِ والتي ظَلَّت مجتمِعةً فيها، فتشتعلُ فيها النِّيرانُ وتنتشرُ في كلِّ جانب، ويبدو وكأنَّ اللهَ تعالى قد أحال المياهَ إلى بِنزينٍ وأشعَلَ حِمَمَ النارِ في كلِّ ناحية، أو يمكنُ أن تتبخَّرَ مياهُ البحار وتصعَدَ في الفضاء، ثم تملأَ البحار بالبترولِ الموجودِ تحتَ الأرض، وتُشعَل فيها النار فتنتشرَ في كلِّ أرجاءِ الدنيا.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾

٢ ـ هنا بيانٌ لأحوالِ القيامةِ عندَما يُنفَخُ في الصُّورِ للمرةِ الثانية، وتُقلَبُ القبورُ رأسًا على عَقِب، يعني: يَخرُجُ منها الأمواتُ أحياءً، ويَعلَمُ كلُّ شخصٍ ماذا فَعَل من حسَناتٍ أو سيّئات استعَدَّ بها لهذا اليوم، وماذا خَلَّف وراءَه من سُننٍ حسَنةٍ أو سيِّئةٍ استَنَّها.

سلسلة الحسنات أو السيئات بعد الموت

ـ يقولُ سيّدُنا جَريرُ بنُ عبدِ الله رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «من سَنَّ في الإسلام سُنّةً حسَنةً، فعُمِلَ بها بعدَه، كُتِبَ له مِثلُ أَجْرِ من عَمِل بها (لأنه هو الذي وَضَع أساسَ هذه السُّنّةِ الحَسَنة)، ولا ينقُصُ من أجورِهم شيءٌ، ومن سَنَّ في الإسلام سُنّةً سيّئةً، فعُمِل بها بعدَه، كُتِبَ عليه مِثلُ وِزرِ مَن عَمِل بها (لأنه هو الذي وَضَع أساسَ هذه السُّنّةِ السيِّئة)، ولا ينقُصُ من أوزارِهم شيء»[١].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾

٣ ـ يا أيُّها الإنسانُ، منِ الـذي خَدَعَـك فيـما يتَعلَّقُ برِّبك الكريـم الرَّحيـم، بحيثُ أنك أنكَرتَ وجودَه، معَ أنه خَلَقَك من قَطْرةِ ماءٍ مَهينة، وجَعَل لك الأُذُنَيْنِ والعينَيْنِ واليدَيْنِ والرِّجلَيْنِ وغيرَها من الأعضاء، ورَكَّب كلًّا منها في مكانِه الصَّحيح المناسبِ وباعتدالٍ رائع، ولو جَعَل عينَيْكَ فقطْ خَلْفَ رأسِك لَكان من الصَّعبِ عليك وَضْعُ اللُّقمةِ في فمِك، كما أنه تعالى لو شاء لَخلَقَك كلبًا أو حمارًا، لكنّه أحسَنَ إليكَ وأكرَمَك، وجَعَلَك أشرفَ المخلوقات، وأَنْعم عليكَ

---

(١) مسلم، كتاب العلم، باب ٦ برقم ٦٨٠٠.

بثروةِ العقل والحِكمة، ومعَ ذلك إذا لم تَشكرْه، فيمكنُك أنت أن تتصوَّرَ ماذا يمكنُ أن يكونَ مصيرُك في الآخِرة؟

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾

٤ ـ في هذه الآياتِ تنبيهٌ لمُنكِري القيامةِ بأنّ أنبيائي الكرامَ عليهمُ السَّلامُ قد أخبَروكم بأمرِ الآخِرة، فإذا كذَّبتُم بها رَغْمَ ذلك، فتذكَّروا أنّ اللهَ تعالى قد جَعَل عليكمُ مُراقبينَ من الملائكةِ الكرام، وهم يعلَمونَ كلَّ ما تفعَلون، ويدوِّنونَه، ويُعِدُّونَ لكم صحائفَ أعمالِكم، فأيُّ جوابٍ سيكونُ لدَيْكم عندما توضَعُ هذه الصُّحُفُ أمامَكم يومَ القيامة؟

يقولُ مجاهدٌ: «وَكَّل اللهُ بالإنسان معَ عِلمِه بأحوالِه مَلَكيْنِ باللَّيل ومَلَكيْنِ بالنّـهار يَحفَظـانِ عملَه، ويكتُبانِ أثَرَه إلزامًا للحُجّة: أحدُهما عن يميـنِه يَكتُبُ الحسَنات، والآخَرُ عن شِمالِه يكتُبُ السّيّئات»[1].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «قال اللهُ عزّ وجلّ (أي: للملائكة): إذا هَمَّ عبدي بسيّئةٍ فلا تكتُبوها عليه، فإنْ عَمِلَها فاكتُبوها سيّئةً، وإذا هَمَّ بحسَنةٍ فلم يَعمَلْها فاكتُبوها حسَنةً، فإنْ عَمِلَها فاكتُبوها عَشْرًا»[2].

﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾

٥ ـ سيَدخُلُ الصّالحونَ الجنّةَ ويستمتعونَ بنِعَمِها يومَ القيامةِ بفَضْل حسَناتِهم، وسيَخلُدونَ فيها إلى الأبد، وعلى العكسِ مـنهم سيَدخُلُ الفُجّارُ جهنَّم بـسببِ سيّئاتِهم، وسيَخلُدونَ فيها إلى الأبدِ أيضًا، ولن يستطيعوا التغيُّبَ عنها أبدًا.

---

(١) تفسير القرطبي، سورة ق (٥٠): الآية ١٧.

(٢) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٥٩ برقم ٣٣٤.

﴿ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾

٦ ـ هنا يَسأَلُ مرَّتَيْنِ بأسلوبِ التعجُّبِ بقَصْدِ إبرازِ هَوْلِ يوم الحساب: هل تَعلَمُ ما هو يومُ الدِّين؟ إنه ذلك اليومُ الذي سيكونُ الحُكمُ فيه لله تعالى فقطْ، ولن يستطيعَ أحدٌ في ذلك اليوم مساعدةَ أحدٍ آخَرَ من نفسِه، لكنّ الذين سيَأْذَنُ اللهُ تعالى لهم بالشَّفاعةِ هم فقطِ الذين سيُمكِنُهم مساعدةُ الآخَرين:

ـ يقولُ اللهُ تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

ـ رُوِيَ عن سيّدِنا عثمانَ بن عَفّانَ رضي الله عنه، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «يَشفَعُ يومَ القيامة ثلاثةٌ: الأنبياءُ ثمّ العلماءُ ثمّ الشُّهداء»[1].

ورَغْمَ أنّ المُلكَ اليومَ لله تعالى أيضًا، لكنّه مَنَح الناسَ الاختيار على سَبيل الابتلاء، ولهذا فهم يَحكُمونَ أحكامًا خاطئةً أيضًا بناءً على الخوفِ أو الطَّمع أو العلاقاتِ معَ الآخَرين، أمّا يومَ القيامة فسيكونُ الحُكمُ لله تعالى وحدَه، وطبقًا لمقتَضَياتِ العدلِ والإنصاف.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة الفجر من يوم الخميس ١٦ ديسمبر ٢٠١٠م
الموافق ١٠ محرَّم ١٤٣٢هـ.

هذا، وقدِ اكتَملَ بفَضْل الله وكرَمِه تفسيرُ سُورة «الانفطار» اليومَ في عدّةِ ساعاتٍ فقط، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

---

(١) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ٣٧ برقم ٤٣١٣.

بسم الله الرحمن الرحيم

(٨٣) سورة المطففين

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها: «المُطَفِّفين»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى منها، وهذه السُّورةُ - عندَ البعضِ - مَدَنيّةٌ.

التطفيف في الميزان

في الآياتِ الستِّ الأُولى من هذه السُّورةِ جاء التنبيهُ لأولئك التُّجّارِ الذين يُلحِقونَ الضَّررَ بالناسِ بالتطفيفِ في الميزان، وينبغي لأمثالِ هؤلاء التُّجّارِ الخوفُ من عذابِ ذلك اليوم الذي سيَنهَضُونَ فيه من قبورِهم أحياءً ليمثُلوا بينَ يدَي اللهِ تعالى، والذي سوف يُحاسِبُهم على كلِّ صغيرةٍ وكبيرة.

عقاب الفجار

في الآياتِ من ٧ إلى ١٧ جاء الوعيدُ للفُجّارِ ومُنكِري القيامة بأنّهم سيُحرَمُونَ من رؤيةِ الله تعالى يومَ القيامة بسببِ أعمالِهم السيِّئة وعقائدِهم الفاسدة، وسوف يَخلُدونَ في جهنَّمَ إلى أبدِ الآبِدين.

جزاء الصالحين

في الآياتِ من ١٨ إلى ٢٨ من السُّورةِ بُشِّر الصّالحونَ بنِعَم الجنّة، وجاء الترغيبُ

للآخَرِينَ بأنْ يتسابَقوا هم أيضًا إلى فعلِ الحسَنات، فيستحِقُّوا بذلك الجنّةَ ونعيمَها.

السخرية من الآخرين

في الآياتِ من **٢٩** إلى **٣٦** من السُّورة جاء الإخبارُ بأنّ الكفّارَ كانوا يَسخَرونَ من أهلِ الإيمان في الدُّنيا قائلينَ: إنّهم يترُكونَ ملَذّاتِ الدُّنيا الحاضرةَ أمامَ أعيُنِهم من أجلِ نِعَمٍ خياليّةٍ في الآخِرة، ولكنْ حين يتَجلّى أهلُ الإيمانِ على الأرائكِ في الجنّةِ يومَ القيامة، ويشاهدونَ الحالَ السيِّئَ الذي آلَ إليه الكفّارُ في جهنَّم، عندَئذٍ يضحَكونَ من تفكيرِ الكفّار، فإلى أيِّ مدًى كان هؤلاءِ حَمْقَى حين أنكَروا نِعَمَ الآخرةِ الدائمة من أَجْل شَهَواتٍ عارضةٍ في الدُّنيا، واليومَ ها هم يُعاقَبُونَ على كلِّ أعمالِهم السيِّئة.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
قبلَ صلاة الفجر من يوم الجمُعة ١٧ ديسمبر ٢٠١٠م
الموافق ١١ محرَّم ١٤٣٢هـ.

❋ ❋ ❋

سُورَةُ المُطَفِّفِينَ (٨٣)،

مكية (٨٦)، آياتها (٣٦)، ركوعها (١)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣)
أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٦) كَلَّآ إِنَّ
كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ (٧) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٠) ٱلَّذِينَ
يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣)
كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ
لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (١٧) كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ (١٨)
وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى
ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥)
خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا
ٱلْمُقَرَّبُونَ (٢٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ
يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ
لَضَآلُّونَ (٣٢) وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ (٣٣) فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى
ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ (٣٦)

﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾

كان أهلُ مكّةَ يَمْتهِنُونَ التِّجارةَ، وخاصّةً في أيام الحَجّ، حيث يَفِدُ الناسُ بأعدادٍ غفيرةٍ إلى مكّةَ، ويأتُونَ معَهم بمنتَجاتِ مناطقِهم للتجارةِ فيها بالبيع والشِّراء، فكان أهلُ مكةَ في هذه المناسَبة الدِّينيّة أيضًا يُطفِّفُونَ في الكَيْلِ والميزانِ معَ ضيوفِهم، يعني: عندما يشتَرونَ من أحدٍ منهم شيئًا يُكمِلونَ الميزانَ، أمّا إذا اشتَرى أحدٌ من هؤلاءِ شيئًا منهم فإنّهم كانوا يَنقُصونَ الميزانَ بطريقةٍ خَفِيّة.

وهنا تنبيهٌ لكلِّ التُّجارِ الذين يُطفِّفونَ في الكَيْل والميزانِ بأنّهم إنْ لم يَرجِعوا عن هذه الخيانةِ وهذا الغِشِّ والخِداع، فسيَفقِدونَ ثقةَ الناس فيهم حينَ يعلَمونَ بما يفعَلون، ولن يعودوا إلى الشِّراءِ من أمثالِ هؤلاءِ التُّجارِ ثانيةً، وإذا لم تُكتشَفْ خيانتُهم هذه في الدُّنيا فإنّهم لن يَستطيعوا الإفلاتَ من العقابِ عليها في الآخِرةِ على أيِّ حال.

عندَما هاجَرَ النبيُّ الكريمُ ﷺ إلى المدينةِ المنوَّرة، كان التُّجارُ هناك أيضًا يُطفِّفونَ في الكَيْل والميزان، ولكنْ عندما سَمِع أهلُ المدينةِ هذه الآيةَ تابوا إلى الله تعالى من هذه الخيانة. يقولُ سيِّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي الله عنهما: «المُطفِّفُ: الرّجلُ يَستأجِرُ المِكيالَ وهو يَعلَمُ أنّه يَحِيفُ في كَيْلِه، فوِزرُه عليه»[١].

التاجر الصادق الأمين

ـ يقولُ سيّدُنا أبو سعيدٍ الخُدريُّ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «التّاجرُ الصَّدُوقُ الأمينُ معَ النّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ (أي: يومَ القيامة)»[٢].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «التّاجرُ

(١) تفسير القرطبي، سورة المطففين (٨٣): الآية ١.
(٢) الترمذي، أبواب البيوع، باب ٤ برقم ١٢٠٩.

الأمينُ الصَّدُوقُ المسلمُ معَ الشُّهداءِ يومَ القيامة»[١].

﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾

٢ ـ الحقيقةُ أنّ المُطفِّفينَ في الكَيْلِ والميزانِ لا يؤمنونَ بذلك اليوم العظيم، أي: لا يؤمنونَ بيوم القيامة، وهو اليومُ الذي سيُبعَثُونَ فيه من قبورِهم أحياءً، ويَمثُلونَ بينَ يدَي الله تعالى للحسابِ، ولو أنّهم يُوقنونَ بالأحوالِ المُرعِبةِ ليوم القيامة لَما أَلحَقوا بأحدٍ خسارةً أو ضَرَرًا.

عَرَقُ الإنسانِ يومَ القيامة

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] أي: فيكونُ مُحاطًا بعرَقِه ـ حتّى يَغيبَ أحدُهم في رَشْحِه إلى أنصافِ أُذُنَيْه»[٢].

ـ يقولُ سيّدُنا المِقدادُ بنُ أسوَدَ رضي الله عنه: إنه سَمِع النبيَّ ﷺ يقولُ: «تُدنَى الشّمسُ يومَ القيامةِ من الخَلْقِ حتّى تكونَ منهم كمقدارِ مِيلٍ» ـ قال سليمُ بنُ عامرٍ: فوالله ما أدري ما يعني بالمِيل، أمسافةَ الأرض أم المِيلَ الّذي تكتحِلُ به العينُ (لأنّ العربَ تقولُ للإبرةِ التي يوضَعُ بها الكُحلُ في العينِ «مِيل») ـ قال: «فيكونُ النّاسُ على قَدْرِ أعمالِهم في العَرَق، فمِنهم من يكونُ إلى كعبَيْه، ومنهم من يكونُ إلى رُكبتَيْه، ومنهم من يكونُ إلى حِقْوَيْه، ومنهم من يُلجِمُه العَرَقُ إلجامًا»، قال: وأشار رسولُ الله ﷺ بيدِه إلى فيه[٣].

---

(١) ابن ماجه، أبواب التجارات، باب ١ برقم ٢١٣٩.
(٢) البخاري، كتاب التفسير، باب ٨٣ برقم ٤٩٣٨.
(٣) مسلم، كتاب الجنة، باب ١٥ برقم ٧٢٠٦.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾

٣ ـ المرادُ من سِجّينٍ هو: السِّجِلُّ الذي تُدرَجُ فيه أسماءُ أهل جهنَّمَ وأعمالُهم، كما يقالُ: سجّينٌ أيضًا، لذلك المكانِ الذي تُقيَّدُ فيه أرواحُ أهل جهنَّمَ بعدَ موتِهم، كما تُحفَظُ صُحُفُ أعمالِهم أيضًا فيه.

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾

٤ ـ الذين يُكذِّبونَ بيوم القيامة لهمُ الوَيْلُ والهَلاكُ والدَّمارُ يومَ القيامة، ولهذا فإنّ الذي يُكذِّبُ بيوم القيامة هو فقطْ ذلك الشَّخصُ العاصي الطاغي والمُتجاوِزُ لحدودِ الله تعالى.

﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾

٥ ـ عندَما كانت آياتُ القرآنِ الكريم تُتلَى أمامَ مُنكِري القيامةِ كانوا يقولونَ: إن هذه قِصَصُ وأساطيرُ الأَوَّلِين، مع أنّ هذا غيرُ صحيح بالمَرّة، فالقرآنُ الكريمُ كلامُ الله تعالى، ولكنّ مُنكِري يوم القيامة لا يؤمنونَ به؛ لأنّ عِصيانَهم المستمرَّ وطُغيانَهم المتواصِلَ قد أصابَ قلوبَهم بالصدَأِ، فأصبحتْ فاقدةً كلَّ إمكانيّةٍ تجعلُها تَقبَلُ الحقَّ وتُسلِّمُ به.

كيف يصيب الصدأ القلوب؟

يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ العبدَ إذا أخطَأَ خطيئةً نكتَتْ في قلبِهْ نكتةٌ سوداءُ، فإذا هو نَزَع واستغفَرَ وتابَ سُقِلَ قلبُه، وإن عاد زيدَ فيها حتّى تَعلوَ قلبَه، وهو الرّانُ الّذي ذَكَر اللهُ: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾»[1].

---

(١) الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب ٨٣ برقم ٣٣٣٤.

ثم تنتهي صلاحيَةُ قَبولِ الهدايةِ من داخلِ قلبِه، وهكذا لا يتأثَّرُ بآياتِ القرآنِ المَجِيد حين تُتلَى عليه.

كيف يزول الصدأ من القلب؟

مثلَما تَحيا الأرضُ الجافّةُ المَيِّتةُ بنزولِ أمطارِ الرَّحمةِ عليها ويتجدَّدُ نشاطُها، كذلك يَزُولُ صدَأُ الغَفْلةِ حين تضيءُ شموعُ ذِكرِ الله تعالى في قلبِ الغافل، فيحيا من جديدٍ هذا القلبُ بالذِّكْرِ الإلهيِّ.

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ هذه القلوبَ تصدَأُ، كما يصدَأُ الحديدُ إذا أصابَه الماء»، قيل: يا رسولَ الله، وما جِلاؤها؟ قال: «كثرةُ ذِكرِ الموتِ وتلاوةُ القرآن»[1].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو موسى رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَثَلُ الّذي يَذكُرُ ربَّه والّذي لا يَذكُرُه مَثَلُ الحيِّ والميّت»[2].

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾

٦ ـ الذين يُنكِرونَ آياتِ الله تعالى في هذه الدُّنيا سيَغشَى وجوهَهم يومَ القيامة السَّوادُ والحُزنُ، وسيُحرَمُونَ من رؤيةِ الله تعالى، لكنّ الذين يؤمنونَ بآياتِ الله تعالى، ويتّقونَ اللهَ ويخشَوْنَه، تكونُ وجوهُهم يومَ القيامة نَضِرةً وَضّاءةً مُستبشِرةً، وسيَنعُمونَ برؤيةِ الله تعالى.

رؤية الله تعالى في الآخرة

ـ يقولُ العلّامةُ القُرطبيّ: «قال الزَّجّاجُ: في هذه الآيةِ دليلٌ على أنّ اللهَ عزَّ وجلّ

(١) مشكاة المصابيح، كتاب فضائل القرآن، الفصل ٣ برقم ٢١٦٨.

(٢) البخاري، كتاب الدعوات، باب ٦٦ برقم ٦٤٠٧.

يُرى في القيامة، ولولا ذلك ما كان في هذه الآيةِ فائدةٌ، ولا خَسَّت منزِلةُ الكفّارِ بأنّهم يُحجَبُون. وقال جَلّ ثناؤه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۞ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا مالكُ بنُ أنسٍ رضي الله عنه، في تفسيرِ هذه الآية: «لمّا حَجَب أعداءه فلم يرَوْهُ تَجلَّى لأوليائه حتّى رأَوْه. وقال الشّافعيّ: لمّا حَجَب قومًا بالسُّخْط، دَلَّ على أنّ قومًا يرَوْنَه بالرّضا. ثمّ قال: أمَا والله، لو لم يوقِنْ محمّدُ بنُ إدريسَ أنّه يَرى ربَّه في المَعادِ لَما عبَدَه في الدُّنيا»[٢].

ـ يقولُ سيّدُنا صُهَيْبُ الرُّوميُّ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا دَخَل أهلُ الجنّةِ الجنّةَ، قال: يقولُ اللهُ تبارَكَ وتعالى: تريدونَ شيئًا أزيدُكم؟ فيقولون: ألم تُبيِّضْ وجوهَنا، ألم تُدخِلْنا الجنّةَ وتُنجِّنا من النّار؟ قال: فيَكشِفُ الحِجَابَ، فما أُعطُوا شيئًا أحبَّ إليهم من النَّظَرِ إلى ربِّهم عزَّ وجلّ»[٣].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ أدنَى أهلِ الجنّة منزِلةً لَمن يَنظُرُ إلى جِنانِه وأزواجِه ونعيمِه وخَدَمِه وسُرُرِه مسيرةَ ألفِ سنةٍ، وأكرَمُهم على الله مَن ينظُرُ إلى وجهِه غُدوةً وعَشِيّةً». ثمّ قرأَ رسولُ الله ﷺ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۞ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾»[٤].

ـ يقولُ سيّدُنا جَريرُ بنُ عبد الله رضي الله عنه: كنّا عندَ النّبيِّ ﷺ، فنَظَر إلى

---

(١) تفسير القرطبي، سورة المطففين (٨٣): الآية ١٥.
(٢) المرجع السابق، سورة المطففين (٨٣): الآية ١٥.
(٣) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٨٠ برقم ٤٤٩.
(٤) الترمذي، أبواب صفة الجنة، باب رقم ١٧ برقم ٢٥٥٣.

القمرِ ليلةً ـ يعني: البدرَ ـ فقال: «إنّكم ستَرَوْنَ ربَّكم كما ترَوْنَ هذا القمرَ لا تُضامُّونَ في رؤيـتِه»[1].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «تُضامُّونَ في رؤيةِ القمرِ ليلةَ البدرِ، وتُضامُّونَ في رؤيةِ الشّمس؟». قالوا: لا. قال: «فإنّكم ستَرَوْنَ ربَّكم كما ترَوْنَ القمرَ ليلةَ البدرِ لا تُضامُّونَ في رؤيتِه»[2].

﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾

٧ ـ عندَما يُلقِي الملائكةُ بمُنكري القيامةِ في جهنَّم سيقولونَ لهم: هذا هو عذابُ جهنَّمَ الذي كنتُم تُنكرونَه في الدنيا، ولهذا فإنّكمُ الآنَ ستَخلُدونَ فيه إلى الأبد.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾

٨ ـ المرادُ من عِلِّيِّينَ هو: ذلك السِّجِلُّ الذي تُدرَجُ فيه أسماءُ الصّالحينَ وأعمالُهم، كما يقالُ: عِلِّيُّونَ أيضًا: لذلك المكانِ الذي تُحفَظُ فيه أرواحُ الصّالحينَ وصحائفُ أعمالِهم بعدَ موتِهم، وهذا المكانُ فوقَ السَّماءِ السابعةِ تحتَ العرش، والملائكةُ المُقرَّبونَ يَحرُسونَ هذا المكانَ.

ورُوي «أنّ الملائكةَ تَصعَدُ بعمَل العبد، فيستقبِلونَه، فإذا انتَهْوا به إلى ما شاء اللهُ من سُلطانِه أوحَى إليهم: إنّكمُ الحَفَظةُ على عبدي، وأنا الرّقيبُ على ما في قلبِه، وإنّه أخلَصَ لي عمَلَه، فاجعَلوهُ في علِّيّينَ، فقد غَفَرتُ له، وإنّها لَتصعَدُ بعمل العبد، فيترُكونَه، فإذا انتَهوْا به إلى ما شاءَ اللهُ أوحَى إليهم: أنتمُ الحَفَظةُ على عبدي

---

(١) البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب ١٦ برقم ٥٥٤.
(٢) الترمذي، صفة الجنة، باب ١٧ برقم ٢٥٥٤.

وأنا الرّقيبُ على ما في قلبِه، وإنّه لم يُخلِصْ لي عمَلَه، فاجعَلوهُ في سِجِّين»[1].

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾

٩ ـ عندما يَدخُلُ الصّالحونَ الجنّةَ يتّكئونَ على أَسِرّةٍ وأرائكَ منقوشةٍ، ويشاهدونَ نِعَمَ اللهِ تعالى التي أعَدَّها لهم، وسيَظهَرُ أثَرُ الفرحةِ بهذه النِّعَم في شكلِ نَضارةٍ على وجوهِهم.

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾

١٠ ـ الخمرُ الذي سيُقدَّمُ للمقرَّبينَ في الجنّةِ سيكونُ نقيًّا صافيًا، وممزوجًا بماءٍ من عَيْن تسنيم، ومطبوعًا بطابَعِ المِسك، وعندَما يُفَكُّ هذا الطابَعُ فإنّ رائحةَ المسكِ تَستقبِلُ المقَرَّبينَ قبلَ رائحةِ الخمر، ولهذا فإنّ الذين يتسابقُونَ في الدُّنيا للحصولِ على أشيائها الفانية، ينبغي لهم أن يتسابَقوا أيضًا في الحصُولِ على نِعَم الجنّةِ الدائمةِ التي لا مثيلَ لها.

يقولُ سيّدُنا أبو سَعيدٍ الخُدريُّ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «أيُّما مسلمٍ كَسَا مسلمًا ثوبًا على عُريٍ كَسَاهُ اللهُ من خُضْرِ الجنّة، وأيُّما مسلمٍ أطعَمَ مسلمًا على جوعٍ أطعَمَه اللهُ من ثمارِ الجنّة، وأيُّما مسلمٍ سَقَى مسلمًا على ظمإٍ سَقاهُ اللهُ من الرَّحيقِ المختوم»[2].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾

١١ ـ كان سادةُ مكّةَ الكفّارُ عندَما يَمُرُّونَ من عندِ المسلمينَ الفقراءِ يضحَكونَ

---

(١) تفسير القرطبي، سورة المطففين (٨٣): الآية ٢١.

(٢) أبو داود، كتاب الزكاة، باب ٤١ برقم ١٦٨٢.

عليهم، ويتغامَزُونَ بأعيُنِهم ساخِرينَ منهم، وعندما يعودونَ في المساءِ إلى بيوتِهم كانوا يَقُصُّونَ على بعضِهم ـ باستمتاع شديد ـ بطولاتِهم في أنّهمُ اليومَ سَخِروا من المسلمين.

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾

١٢ ـ عندما كان الكفّارُ يرَوْنَ أهلَ الإيمانِ كانوا يقولُ بعُضهم لبعضٍ: هؤلاءِ تَركوا دِينَ آبائهم وأجدادِهم وضَلُّوا، وتخَلَّوْا عن ملَذّاتِ الدُّنيا الموجودةِ أمامَهم في سَبيلِ نِعَم الآخِرة الخَياليّة، معَ أنّ اللهَ تعالى لم يجعَلْ من الكفّارِ مراقِبينَ لكي يُراقِبوا أهلَ الإيمانِ ويَعِيبوا عقائدَهم، وإنّما ينبغي لهم أن يُصلِحوا من أنفسِهم.

﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾

١٣ ـ اليومَ يقولُ الكفّارُ عن أهل الإيمانِ: إنّهم ضَلُّوا، ويضحَكونَ عليهم، ولكنْ حين يتَجلّى أهلُ الإيمانِ على الأرائكِ في الجنّةِ يومَ القيامة، ويشاهدونَ الحالَ السيِّئَ الذي آلَ إليه الكفّارُ في جهنَّم، عندَئذٍ يضحَكونَ من تفكيرِ الكفّار، فإلى أيِّ مدًى كان هؤلاءِ حَمْقَى حين أنكَروا نِعَمَ الآخِرة الدائمةَ من أَجْل شَهَواتٍ عارضةٍ في الدُّنيا، واليومَ ها هم يُعاقَبُونَ على كلِّ أعمالِهم السيِّئة.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة العشاء من يوم الجمُعة ١٧ ديسمبر ٢٠١٠م
الموافق ١١ محرَّم ١٤٣٢هـ

هذا، وقدِ اكتَملَ بفَضْل الله تعالى وكرَمِه تفسيرُ سُورة «المطفِّفين» في يوم واحد فقط وهو اليومُ، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٨٤) سُورَةُ الانْشِقَاقِ

هذه السُّورةُ مكِّيّة، واسمُها «الانشقاقُ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأولى منها.

منظر القيامة

في الآياتِ الستِّ الأُولى من هذه السُّورةِ قُدِّمت صورةٌ مختصَرةٌ، ولكنْ جامعةٌ لوقوع يوم القيامة، يعني: عندَما تنشَقُّ السَّماءُ وتَصيرُ ذَرّاتٍ مُتناثِرةً، وتُخرجُ الأرضُ ما بداخِلها من كنوزٍ وتصبح خاويةً، ثم بعدَ ذلك يتِمُّ إحياءُ الإنسانِ من جديدٍ ويُقدَّمُ في المحكمةِ الإلهيَّة.

تقسيم صحف الأعمال

في الآياتِ من ٧ إلى ١٥ جاء بيانُ أنّ بني الإنسانِ جميعًا سيُقسَّمُونُ يومَ القيامةِ إلى قسمَيْن، الأول: يشمَلُ أولئك الذين تُعطَى لهم صُحُفُ أعمالِهم في أيديهم اليُمنى، وهذه علامةٌ على نَجاتِهم، ولهذا لا تَسَعُهم الفَرحةُ. والقسمُ الثاني يشمَلُ أولئك الذين تُعطَى لهم صُحُفُ أعمالِهم في شمائلِهم، وهؤلاءِ هم الذين كانوا يُنكِرونَ يومَ القيامة، وسيَدخُلونَ جهنَّمَ.

القيامة واقعة لا محالة

في الآياتِ من ١٦ إلى ٢٠ أَقْسم اللهُ تعالى أربعَ مراتٍ مؤكِّدًا على أنّ السّاعةَ ستقومُ يقينًا، وستَمُرُّونَ في ذلك اليوم بالعديد من المصائبِ والشَّدائد، ولكنْ ماذا دَهَى عقولَ هؤلاءِ؟ لماذا لا يؤمنونَ بيوم القيامة؟

تكذيب القرآن الكريم

في الآياتِ من ٢١ إلى ٢٥ جاء بيانُ أنّ الذين يُكذِّبونَ بالقرآنِ الكريم لهم عذابٌ أليم، والذين يؤمنونَ به ويعمَلونَ الصّالحاتِ لهم أجرٌ غيرُ محدودٍ ولا نهايةَ له.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة العشاء من يوم السبت ١٨ ديسمبر ٢٠١٠م
الموافق ١٢ محرَّم ١٤٣٢هـ.

❋ ❋ ❋

سُورَةُ الانْشِقَاقِ (٨٤)،

مكية (٨٣)، آياتها (٢٥)، ركوعها (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴿١﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ﴿٣﴾ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ﴿١١﴾ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَۤ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ﴿٢٥﴾

﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾

١ - عندما يأمُرُ اللهُ تعالى السَّماءَ بأنْ تنشقَّ، ستَنشَقُّ فورًا، وهذا هو الفَرْضُ عليها، أي: بأنْ تحنيَ رأسَ التسليم والخضوع أمامَ حُكم الله تعالى.

﴿وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ﴾

٢ - وعندما يأمُرُ اللهُ تعالى الأرضَ بأن تمتدَّ وتُخرِجَ ما في باطِنِها من كنوزٍ

وتصيرُ خاويةً، فإنّها تقضي فَوْرًا على ما فيها من جبالٍ وبحار، وتصبحُ في غايةِ الاتِّساع كمَيْدانٍ صَخْريٍّ فسيح، ثم تُخرِجُ ما في باطنِها من كنوزٍ وموتَى، وتصيرُ خاويةً، وهذا هو الفَرْضُ عليها، أي: بأنْ تُطيعَ حُكمَ الله تعالى على الفَوْر.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾

٣ ـ المرادُ في هذه الآيةِ من الكَدْح للوصولِ إلى الله تعالى ومُلاقاتِه هو: الموتُ والقيامة، فكلُّ إنسانٍ سواءٌ آمَن بالله أم لم يؤمنْ به، سيَرجِعُ إلى اللهِ تعالى في يوم من الأيام، ويُحاسبُه على أعمالِه.

وسواءٌ جَعَل الإنسانُ هدفَه هو الحسَنَة أم السيِّئةَ، سيَظَلُّ يكدَحُ ويَجِدُّ حتى يصلَ إلى الله، أي: حتى يموتَ، وحين يَمثُلُ الإنسانُ بعدَ الموتِ في عدالةِ الله تعالى يتقرَّرُ إثابتُه وعقابُه طبقًا لأعمالِه، ويقولُ العلّامةُ الآلوسيُّ في تفسيرِ هذه الآية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ أي: جاهِدٌ ومُجِدٌّ جدًّا في عمَلِك من خيرٍ وشَرّ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ أي: طولَ حياتِك إلى لقاءِ ربِّك، أي: إلى الموت»[١].

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾

٤ ـ الإنسانُ الذي يُعطَى صحيفةَ أعمالِه في يدِه اليُمنى يكونُ ذلك دليلًا على نَجاتِه، وسوف يُقدَّمُ للحسابِ بالطَّبع، ولكنّ اللهَ سيغفرُ له ذنوبَه ببركةِ حسَناتِه، ويأخُذُ الإذنَ بالداخل إلى الجنة فَرِحًا مسرورًا ليعودَ إلى أهل بيتِه المؤمنين، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأحقاف: ١٦].

---

(١) تفسير روح المعاني، سورة الانشقاق (٨٤): الآية ٦.

تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي الله عنها: سَمِعتُ النّبيَّ ﷺ يقولُ في بعضِ صلاتِه: «اللهُمّ حاسِبْني حسابًا يسيرًا»، فلمّا انصَرفَ، قلتُ: يا نبيَّ الله، ما الحسابُ اليسير؟ قال: «أن يُنظَرَ في كتابِه فيُتجاوَزَ عنه، إنّه مَن نوقشَ الحسابَ يومَئذٍ يا عائشةُ هَلَك، وكلُّ ما يصيبُ المؤمنَ، يُكفِّرُ اللهُ عزَّ وجلّ به عنه، حتّى الشّوكةُ تَشُوكُه»[1].

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾

٥ ـ الإنسانُ الذي يُعطَى صحيفةَ أعمالِه في شِمالِه من وراءِ ظهرِه، سيَرى مصيرَه السيِّئَ فيصرُخُ قائلًا: ليتَني بَقِيتُ ميِّتًا ولم أحْيَ من جديدٍ، أو: ليتَ الموتَ يأتيني حتى أموتَ وأصيرَ تُرابًا وأنجوَ من هذا العذاب، ولكنّ النَّدَم في ذلك الوقتِ لا ينفَعُ بشيء، ولهذا يُسحَبُ على وجهِه ويُلقَى في النار.

ما السببُ في إعطاءِ أهل جهنَّمَ صُحُفَ أعمالِهم من وراءِ ظهورِهم؟ من الممكنِ أن تكونَ أيديهم مقيَّدةً من الخَلْف، ومن الممكنِ أيضًا أنهم جَعَلوا أيديَهم خلفَ ظهورِهم لكي لا يأخُذوا صُحُفَ أعمالِهم، ولهذا فإنّ الملائكةَ تضَعُها في شمائِلهم خلفَ ظهورِهم. على أيِّ حال، اللهُ تعالى وحدَه هو الذي يَعلَمُ الحقيقةَ.

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾

٦ ـ الذين يُعطَوْنَ صُحُفَ أعمالِهم يومَ القيامةِ في شمائلِهم ويُرسَلُونَ إلى جهنَّم، هؤلاءِ هم الذين كانوا في الدُّنيا يقضُونَ حياةً سعيدةً معَ أهليهم، وكانوا يظُنُّونَ أنّ هذه الحياةَ هي كلُّ شيء، ولا عودةَ بعدَها إلى أيِّ مكان، ولا حسابَ ولا غيرَه، ولكنّ ظنَّهم هذا ليس صحيحًا على وَجْهِ اليقين، وإنّما سيعودونَ إلى حضرةِ الله تعالى، وهو يَرى تمامًا أعمالَ كلِّ إنسان، وسوف يُحاسبُه طبقًا لأعمالِه هذه.

---

(١) المستدرك للحاكم، ١: ٣٨٥ برقم ٩٣٦، ومسند أحمد، ٦: ٤٨.

﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾

٧ ـ في الآياتِ الثلاثِ السابقة أَقْسم اللهُ تعالى أربعَ مراتٍ، يعني:

١ ـ القَسَمُ بالشَّفَق، يعني: الوقتَ ما بينَ غروبِ الشمسِ وحلولِ الظلام، حيث يظهَرُ اللّونُ الأحمَرُ، ثم يَليه اللونُ الأبيض، أمّا ما هو باللونِ الأحمر فيقالُ له: الشَّفَقُ الأحمر، وما هو باللَّونِ الأبيضِ يقال له: الشَّفقُ الأبيض.

٢ ـ القَسَمُ باللَّيل.

٣ ـ القَسَمُ بالأشياءِ التي جَمَعَها اللَّيلُ، فمثلًا: عندَ اللّيل يجتمعُ الإنسانُ والحيَوانُ، والوحشُ والطَّيرُ كلٌّ في بيتِه ووَكْرِه وعُشِّه، وكأنّ اللهَ أَقْسم بكلِّ هذه الأشياء.

٤ ـ القَسَمُ بالقمرِ حين يَكتمِل.

أَقْسم اللهُ تعالى أربعَ مراتٍ مؤكِّدًا على أنّ الساعةَ ستقومُ يقينًا، وستَمُرُّونَ في ذلك اليوم بالعديدِ من المصائبِ والشَّدائد، ولكنْ ماذا دَهَى عقولَ هؤلاء؟ لماذا لا يؤمنون بيوم القيامة؟

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩﴾

٨ ـ يعني: أنهم بَلَغوا المدى في تعنُّتِهم وتعصُّبِهم بحيثُ أنّهم لم يكونوا يسجُدونَ لربِّهم عندَما يسمَعونَ كلامَ القرآنِ الحكيم، وإنّما كانوا يُكذِّبونَ بالقرآنِ المَجِيد، ويقولونَ عنه: إنه شِعرٌ وسحر.

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾

٩ ـ في هذه الآيةِ تحذيرٌ للمُنْكِرينَ بأنّ اللهَ تعالى يَعلَمُ تمامَ العلم ما يُكِنُّونَه

في قلوبِهم من بُغْضٍ وعنادٍ للقرآن الكريم، وعقابًا لهم على هذا فقد أمَرَ اللهُ تعالى النبيَّ الكريمَ ﷺ أن يُبشِّرَهم بالعذابِ الأليم؛ لأنّهم يَستحِقُّونَه.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾

١٠ ـ لكنّ الذين يؤمنونَ بالقرآنِ المجيد، ويعمَلونَ الصّالحاتِ، فإنّ اللهَ تعالى أعدَّ لهم أجرًا لا حدودَ له ولا ينتهي أبدًا.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة العشاء من يوم السبت ١٨ ديسمبر ٢٠١٠م
الموافق ١٢ محرَّم ١٤٣٢هـ.

هذا، وقدِ اكتَملَ بفَضْل الله تعالى وكرَمِه تفسيرُ سُورة «الانشقاق» في عدّةِ ساعاتٍ بعدَ العشاء، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(٨٥) سُورَةُ البُرُوجِ

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها: «البُروجُ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى منه.

أصحاب الخندق (الأخدود)

في بدايةِ هذه السُّورةِ أَقْسم اللهُ تعالى أربعَ مرّات، ثم ذَكَر أصحابَ الأُخدود، وهم الذين حَفَروا خندقًا، وأشعَلوا فيه النِّيرانَ، ثم أَحْرقوا أهلَ الإيمانِ فيها، ولكنْ عندَما نَزَل عليهم عذابُ الله تعالى، لم يستطعْ أحدٌ أن يمُدَّ يدَ العَوْنِ لهم.

صفات الله تعالى

في الآياتِ من ١٣ إلى ١٦ جاء ذِكرُ صفةِ الخَلْقِ والعَفْو والمحبّةِ والمُلكِ والقُدرةِ لله تعالى.

جيوش فرعون وثمود

في الآياتِ من ١٧ إلى ٢٠ جاء التنبيهُ لكفّارِ مكةَ بأنّ جيوشَ فِرعونَ وثمودَ كانوا أكثرَ منهم قوةً وثراءً، ولكنْ حين كَذَّبوا بالله تعالى ورسُلِه لم يستطيعوا الإفلاتَ من عذابِه، وإذا لم يَرجِعْ كفّارُ مكةَ أيضًا عن طُغيانِهم فمن يُنجيهِم من عذابِ الله تعالى؟

حفظ القرآن المجيد

في آخرِ هذه السُّورةِ قال اللهُ تعالى: إنّ هذا القرآنَ مكتوبٌ في لوحٍ محفوظٍ من كلِّ اعتبار.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة المغرب من يوم الأحد ١٩ ديسمبر ٢٠١٠م
الموافق ١٣ محرَّم ١٤٣٢هـ.

❋ ❋ ❋

سُورَةُ البُرُوجِ (٨٥)،

مكية (٢٧)، آياتها (٢٢)، ركوعها (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾

١ ـ قسمًا بالسَّماءِ التي يوجَدُ في الفَلَكِ تحتَها كواكبُ عظيمةٌ، وكلٌّ منها يجري مُستغرقًا في مدارِه، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣].

ما الفرق بين الفلك والسماء؟

أكثرُ المفسِّرينَ على أنّ الفَلَكَ والسَّماءَ شيئانِ مختلفان، فالسَّماءُ في الأعلى، والأفلاكُ تحتَها، مثلَما يقولُ العلّامةُ الآلوسيُّ: «هو مَوْجٌ مكفوفٌ تحتَ السَّماءِ يجري فيه الشمسُ والقمر. وقال الضَّحّاك: هو ليس بجِسم، وإنّما هو مَدارُ هذه النجوم»[١].

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾

٢ ـ قسمًا بيوم القيامةِ الذي وُعِدنا به، ولا مجالَ للشكِّ في قدومِه.

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾

٣ ـ في هذه الآيةِ قَسَمان، يعني: قَسَمٌ بالشاهدِ (الرائي) وقَسَمٌ بالمشهودِ (المَرْئيِّ)، فما المرادُ بهذَيْنِ الاثنَيْن؟ بيَّن المفسِّرونَ فيه أقوالًا مختلفةً، ومن بينِ هذه الأقوال: أنّ «الشّاهدَ هو: الجَمْعُ الّذي يَحضُرونَ فيه، أنّه لا حضورَ أعظَمُ من ذلك الحضور، فإنّ اللهَ تعالى يَجمَعُ فيه خَلْقَ الأوَّلينَ والآخِرينَ من الملائكةِ والأنبياءِ والجِنِّ والإنس. والمشهودُ هو: يومُ القيامة؛ أي: ما في ذلك اليوم من العجائب»[٢].

ملحوظة

الهدفُ من القَسَم أربعَ مرّاتٍ في بدايةِ هذه السُّورةِ هو أنّ الساعةَ آتيةٌ لا مَحالةَ، وفيها سيُعاقَبُ الظالمونَ على ظُلمِهم.

---

(١) تفسير روح المعاني، سورة الأنبياء (٢١): الآية ٣٣.
(٢) التفسير الكبير، سورة البروج (٨٥): الآية ٣.

﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾

٤ ـ في الآياتِ من ٤ إلى ٨ جاء ذِكرُ قومٍ كان يَعتبِرونَ الإيمانَ باللهِ تعالى جريمةً، ولهذا حَفَروا خَندقًا بغَرَضِ معاقبةِ كلِّ مَن يؤمنُ، ووَضَعوا فيه وَقُودًا وأشعَلوا النارَ فيه، وألقَوْا فيه بأهل الإيمان، وجَلَسوا هم على حافَةِ الخندقِ يشاهدونَ مَن يحترق، وفجأةً امتَدَّتِ النِّيرانُ لحافَةِ الخندق، وطالتِ الجالسينَ عليه وأحرقَتْهم.

وهنا نَقَل المفسِّرونَ بعضَ واقعات الأُمم السابقة، وفي هذه الآياتِ إشارةٌ إلى واحدةٍ من هذه الأُمم. وفي هذا الخصُوص ذَكَر العلّامةُ القُرطبيُّ مصيرَ أُمةٍ من الأُمم قائلًا: «وقيل: هو إخبارٌ عن أولئك الظّالمين، فإنّه رُويَ أنّ اللهَ قَبَض أرواحَ الّذين أُلقُوا في الأُخدودِ قبلَ أن يَصِلوا إلى النّار، وخَرَجت نارٌ من الأُخدودِ فأَحْرقَتِ الّذين هم عليها قعودٌ، وقيل: إنّ المؤمنينَ نَجَوْا، وأَحرَقتِ النّارُ الّذين قَعَدوا»[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾

٥ ـ أولئك الظالمونَ الذين أَحْرقوا المؤمنينَ من الرِّجالِ والنِّساءِ والأطفالِ لمجرَّدِ أنّهم كانوا يؤمنونَ باللهِ تعالى، ثم لم يَتُوبوا من طُغيانِهم، فإنّ عذابَ جهنَّمَ ينتظِرُهم، حيث سيُحرَقُونَ فيه بنارٍ مخصوصة.

في هذه الآية توعَّدَ اللهُ تعالى الظالمينَ بإحراقِهم في نارِ جهنَّم، لكنّه معَ ذلك وَضَع قَيْدًا بأنّهم إن لم يَتُوبوا سيُدخِلُهم جهنَّمَ، ومعنى هذا واضحٌ، وهو أنّهم إذا نَدِموا على تصرُّفِهم الوَحْشيِّ هذا، وتابوا إلى الله، فلن يُدخِلَهم النارَ، ولهذا يقولُ العلّامةُ الخازِن: «إنّ توبةَ القاتل مقبولةٌ»[2]، مثلَما قَبِل اللهُ تعالى توبةَ سيِّدِنا وَحْشيٍّ رضي الله عنه قاتلِ سيّدِنا حمزةَ رضي اللهُ عنه، وشَرَّفه بالإسلام وبصُحبةِ النبيِّ ﷺ.

---

(١) تفسير القرطبي، سورة البروج (٨٥): الآية ٤.

(٢) تفسير الخازن، سورة البروج (٨٥): الآية ١٠.

قال سيّدُنا الحَسَنُ البصَرْيُّ رضي الله عنه: «انظُروا إلى هذا الكرم والجُود، قَتَلوا أولياءه وهو يَدعُوهم إلى التّوبةِ والمغفرة»[١]

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾

٦ ـ لا ينبغي أن يعتقدَ الظالمونَ والطُّغاةُ بأنّ أحدًا لن يؤاخِذَهم، فاللهُ تعالى يَعلمُ تمامَ العلم كلَّ أفعالِهمُ القبيحةِ، وهو يُمهِلُ الظالمينَ ليُصلحوا من أنفُسِهم، كما أنه حدَّد وقتًا معيَّنًا لعقابِهم لحِكمةٍ عندَه، وعندَما يَحِينُ هذا الوقتُ، سيكونُ أَخْذُ اللهِ لهم شديدًا، بحيث لن يستطيعَ أحدٌ أن يُنجيَهم منه.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾

٧ ـ في هذه الآياتِ جاء بيانُ صفاتِ الله تعالى المختلفة، يعني: كما أنه خَلَق الإنسانَ لأولِ مرةٍ، سيَخلُقُه ثانيةً كذلك، ولو أنّ أحدًا تابَ إلى الله توبةً نَصُوحًا فسيعفو عنه، فهو يحبُّ مخلوقاتِه، ويعاقبُ فقطْ عندَما لا يَرجِعُ هذا المخلوقُ عن طُغيانِه، وهو مالكُ العرشِ، يعني: أنّ كُرسيَّه (مُلكَه) محيطٌ بالأرضِ والسَّماء، ولهذا لا يستطيعُ ظالمٌ الإفلاتَ من قَبْضتِه إلى أيِّ مكان.

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾

٨ ـ يعني: أنّ اللهَ تعالى قادرٌ مطلَقٌ، ومختارٌ كاملُ الاختيار، ويفعَلُ ما يشاء، ولا يستطيعُ أحدٌ مَنْعَه.

نَقَل الحافظُ ابنُ كثيرٍ في تفسيرِ هذه الآيةِ هذه الروايةَ، أنّ أحدًا سأَلَ سيّدَنا أبا بكرٍ رضي الله عنه وهو في مرضِ الموت: هل نَظَر إليك الطّبيبُ؟ قال: نعم.

---

(١) تفسير ابن كثير، سورة البروج (٨٥): الآية ١٠.

قالوا: فما قال لك؟ قال: قال لي: إنّي فعّالٌ لِما أُريد[1]. يعني أنّ الأمرَ تخطّى الآنَ حدودَ الأطِبّاء، وقد جاءت نهايتي، والله تعالى هو وحدَه طبيبي، ولا يمكنُ لأحدٍ أن يؤجِّلَ مشيئتَه.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾

٩ ـ يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، لا تحزَنْ ولا تغتَمَّ لمخالفةِ الكفّارِ لك، ألا تَعلمُ عن جيوشِ فِرعَونَ وثمودَ؟ لقد كانوا أكثرَ قوةً وثراءً من كفّارِ مكّةَ، ولكنّهم كانوا مُستغرِقينَ في تكذيبِ الله تعالى ورسُلِه، وكانوا يَظُنُّونَ ـ خطأً ـ أنه لا يمكنُ لأحدٍ أن يُخضِعَهم، ولكنْ حين أخَذَهم اللهُ تعالى لم يستطعْ أحدٌ أن يُنجِيَهم من الهلاك.

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾

١٠ ـ هذا القرآنُ المجيدُ كلامٌ عظيمٌ غايةَ العظَمة، ولا مجالَ فيه لشكٍّ أو شُبهة، ولا إمكانَ لحذفٍ أو زيادة؛ لأنّه مكتوبٌ في لوحٍ محفوظٍ من كلِّ اعتبار، حيث تَحرُسُه ملائكةُ الله المقرَّبون.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة العشاء من يوم الأحد ١٩ ديسمبر ٢٠١٠م
الموافق ١٣ محرَّم ١٤٣٢هـ.

هذا، وقدِ اكتَملَ بفَضْل الله تعالى وكرَمِه تفسيرُ سُورة «البروج» في عدّةِ ساعات فقط اليومَ، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

---

(١) تفسير ابن كثير، سورة البروج (٨٥): الآية ١٦.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(٨٦) سُورَةُ الطَّارِقِ

هذه السُّورةُ مكِّيةٌ، واسمُها: «الطّارقُ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى منها.

كل إنسان عليه حافظ

في بدايةِ هذه السُّورة أَقْسَم اللهُ تعالى بالسَّماءِ وبالنُّجوم قائلًا: إنّ اللهَ تعالى جَعَل على كلِّ إنسانٍ كتيبةً من الملائكةِ تَحرُسُه، وتُسجِّلُ أعمالَه وتحفَظُها، ثم تَكشِفُها أمامَه يومَ القيامة.

القيامة حق

في الآياتِ من ٥ إلى ١٠ يجري إفهامُ مُنكري القيامةِ بأنّهم إذا تأمَّلوا خَلْقَهم فسوف يتيقَّنُونَ من أنّ اللهَ تعالى، الذي خَلَق الإنسانَ لأوّلِ مرةٍ من قَطْرةِ ماءٍ مَهِين، قادرٌ أيضًا على أنْ يَخلُقَ مِثلَ هذا الإنسانِ ثانيةً يومَ القيامة، ولهذا ينبغي لكم أن تخافوا من ذلك اليوم؛ لأنه حقٌّ، حيث ستَنكشِفُ في ذلك اليوم كلُّ أسرارِكم وأعمالِكم، ولن يستطيعَ أحدٌ أن يُنقذَكم من عذابِ جهنَّم.

القرآن المجيد كلام فصل

أَقْسَم اللهُ تعالى بالسَّماءِ المُمطِرةِ وبالأرضِ المنشَقَّة، مؤكِّدًا تمامَ التأكيدِ

على أنّ القرآنَ الكريمَ ليس كتابًا عاديًّا مُبهَمًا بلا هَدَف، وإنّما كلامٌ فَصْلٌ واضحٌ ذو مقصِدٍ وهَدَف، ولا مجالَ فيه لشكٍّ أو شُبهةٍ أو زيادةٍ أو نُقصان، ولا تَحزَنْ يا رسولَ الله ﷺ ولا تغتَمَّ بسببِ أولئك الذين يتآمَرونَ على القرآنِ الكريم، فسوف نتولَّى نحن أمرَهم.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة الفجر من يوم الاثنين ٢٠ ديسمبر ٢٠١٠م
الموافق ١٤ محرَّم ١٤٣٢هـ.

❋ ❋ ❋

سُورَةُ الطَّارِقِ (٨٦)،

مكية (٣٦)، آياتها (١٧)، ركوعها (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾

١ ـ في هذه الآيةِ الكريمة أَقْسَم اللهُ تعالى بالسَّماءِ وبالنَّجم الثاقب، والمرادُ به تلك النُّجومُ اللامعةُ كثيرًا، أو هي: تلك النُّجومُ (الشُّهُبُ الثاقبةُ) التي تُطاردُ الشياطينَ مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠].

﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾

٢ ـ نَقَل العلّامةُ الرازي في تفسيرِ هذه الآيةِ روايةً تقولُ: «إنّ أبا طالبٍ أتَى النّبيَّ ﷺ، فأَتْحفه بخُبزٍ ولبنٍ، فبينَما هو جالسٌ يأكلُ إذِ انحَطّ نجمٌ فامتَلأ ماءً ثمّ نارًا، ففَزِعَ أبو طالبٍ، وقال: أيُّ شيءٍ هذا؟ فقال: هذا نجمٌ رُميَ به، وهو آيةٌ من

آياتِ الله، فعَجِب أبو طالبِ، ونَزَلتِ السُّورة»[١].

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾

٣ ـ أَقْسم اللهُ تعالى بالسَّماءِ وبالنُّجوم قائلًا: إنّ على كلِّ إنسانٍ حافظًا، فما المرادُ بهذا الحافظ؟ هناك ثلاثةُ أقوالٍ فيما يتعلَّقُ بهذا الأمر:

١ ـ المرادُ بالحافظِ هو: اللهُ تعالى الذي خَلَق الأسبابَ اللازمةَ لحِفظِ الإنسانِ وبقائه، مثلَما جاء في القرآنِ الكريم: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

٢ ـ المرادُ بالحافظ: تلك المجموعةُ من الملائكةِ التي قَرَّرها لحمايةِ الإنسانِ وحِفظِه، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، ونحن نقرَأُ في أكثرِ الصُّحُفِ أنّ إنسانًا نَجا من حادثٍ في غايةِ الخطورة، والحقيقةُ أنه لم يكنْ مقدَّرًا له أن يَلفِظَ أنفاسَه في هذا الحادث، ولهذا تَحفَظُه الملائكةُ، أمّا مَن قدَّر اللهُ ـ لحِكمةٍ عندَه ـ أن يكونَ ضحيّةً لمصيبةٍ من المصائب، فإنه عندما يَحينُ وقتُها تتخَلَّى عنه الملائكة[٢].

يَنقُلُ العلّامةُ القُرطبيُّ في تفسيرِ هذه الآيةِ حديثًا خلاصتُه: أنّ النبيَّ ﷺ قال: «وُكِّل بالمؤمنِ مائةٌ وستّونَ مَلَكًا يَذُبُّونَ عنه ما لم يُقدَّرْ عليه... ولو وُكِل العبدُ إلى نفسِه طَرْفةَ عَيْنٍ لَاختطفَتْه الشّياطين»[٣].

---

(١) التفسير الكبير، سورة الطارق (٨٦): الآية ٣.

(٢) «لله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار؛ فإذا صعدت ملائكة الليل أعقبتها ملائكة النهار، إن مع كل رجل ملكين يحفظانه ما لم يقدّر، فإذا جاء القدر خلَّيا بينهُ وبين قدر الله» تفسير القرطبي، سورة الرعد (٣١): الآية ١١.

(٣) تفسير القرطبي، سورة الطارق (٨٦): الآية ٤.

٣ ـ المرادُ بالحافظِ: تلك المجموعةُ من الملائكةِ الذين يَكتُبونَ أعمالَ الإنسان ويحفَظونَها، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامًا كَٰتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، وفي موضع آخَرَ قال اللهُ تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧-١٨].

يقولُ مُجاهدٌ: «وَكَّل اللهُ بالإنسانِ معَ علمِه بأحوالِه مَلَكَيْنِ باللّيل ومَلَكَيْنِ بالنّهارِ يحفَظانِ عمَلَه، ويكتُبانِ أثَرَه إلزامًا للحُجّة، أحدُهما: عن يمينِه يَكتُبُ الحسَنات، والآخَرُ عن شِمالِه يَكتُبُ السّيّئات»[1].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «قال اللهُ (أي: للملائكة) عزَّ وجلّ: إذا هَمَّ عبدي بسيّئةٍ فلا تكتُبوها عليه، فإنْ عمِلَها فاكتُبوها سيّئةً، وإذا هَمَّ بحسَنةٍ فلم يعمَلْها فاكتُبوها حسَنةً، فإنْ عَمِلها فاكتُبوها عَشْرًا»[2].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ اللهَ تعالى قال: «إذا أراد عبدي أن يعمَلَ سيّئةً فلا تكتُبوها عليه حتّى يعمَلَها، فاذا عَمِلَها فاكتُبوها بمِثلِها، وإن تَرَكَها من أَجْلي فاكتُبوها له حسَنةً، وإذا أراد أن يعمَلَ حسَنةً فلم يعمَلْها فاكتُبوها له حسَنةً، فاذا عَمِلَها فاكتُبوها له بعَشْرِ أمثالِها إلى سبعِمائة»[3].

لكلِّ بلدٍ عُملتُها التي يشتري بها الناسُ هناك ما يحتاجونَه في حياتِهم، وعُملةُ الآخِرة: الحسَناتُ، فالذين لا يَدَّخِرونَ الحسَناتِ في هذه الدُّنيا يفشَلونَ في الآخِرة.

---

(١) تفسير القرطبي، سورة ق (٥٠): الآية ١٧.

(٢) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٥٩ برقم ٣٣٤.

(٣) البخاري، كتاب التوحيد، باب ٣٥ برقم ٧٥٠١.

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾

٤ ـ خَلَق اللهُ تعالى الإنسانَ من ماءٍ مُتدفِّقٍ، يعني: من النُّطفةِ التي تَخرُجُ من الرجُلِ والمرأةِ من بينِ ظَهْرَيْهما وعظام صدرَيْهما، وفي هذه الآياتِ يَجري إفهامُ مُنكِري القيامةِ بأنّهم إذا تأمَّلوا خَلْقَهم فسوف يتيقَّنُونَ من أنّ اللهَ تعالى الذي خَلَق الإنسانَ لأولِ مرةٍ من قَطْرةِ ماءٍ مَهين، قادرٌ أيضًا على أن يَخلُقَ مِثلَ هذا الإنسانِ ثانيةً يومَ القيامة.

﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾

٥ ـ في هذه الآيةِ تنبيهٌ لمُنكِري القيامة بأنِ اتَّقوا عذابَ ذلك اليوم الذي سيُكشَفُ فيه أمامَ الجميع عن أعمالِكم الخَفيّةِ وعقائدِكم ومكرِكم وخِداعِكم، وكأنه ستكونُ هناك شاشةُ عرضٍ ضخمةٌ يُعرَضُ عليها فيلمٌ يُظهِرُ باطنَكم وظاهرَكم، وسوف يشاهدُه الجميعُ بأعيُنِهم، حتى إذا ما حُكِم عليهم بعدَ فحصِ أعمالِهم وتمحيصِها فلا يستطيعُ أحدٌ الاعتراضَ على شيء.

﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾

٦ ـ مَن يتقرَّرُ يومَ القيامة أنه يستحِقُّ جهنَّمَ بسببِ أعمالِه السيِّئةِ، لن تكونَ لديه القوةُ على أن يَنجُوَ من عذابِ الله تعالى، ولن يستطيعَ أحدٌ أن يمُدَّ له يدَ العَوْنِ في مقابلِ الله تعالى.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾

٧ ـ أَقْسَم اللهُ تعالى بالسَّماءِ المُمطِرة وبالأرضِ المنشَقّة، مؤكِّدًا تمامَ التأكيدِ على أنّ القرآنَ الكريمَ ليس كتابًا عاديًّا مُبهَمًا بلا هدف، وإنّما كلامٌ فَصْلٌ واضحٌ ذو مقصِدٍ وهدف، ولا مجالَ فيه لشكٍّ أو شُبهةٍ أو زيادةٍ أو نُقصان.

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾

٨ ـ في هذه الآياتِ تسرِيةٌ عن قلبِ النبيِّ ﷺ بأنّ هؤلاءِ الكفّارَ منهمكونَ دائمًا في التآمُرِ ضدَّ الإسلام، ولكنْ لا تحزَنْ ولا تغتمَّ من إيذائهم لك، وإنّما اصبرْ عليهم وأَمْهِلْهم قليلًا، وأنا أيضًا أُدبِّرُ لِفشلِهم، ولن يمضيَ وقتٌ طويلٌ حتى تفشَلَ كلُّ مؤامراتِهم، وتُرَفرِفُ رايةُ الإسلام وترتفع.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة المغرب من يوم الاثنين ٢٠ ديسمبر ٢٠١٠م
الموافق ١٤ محرَّم ١٤٣٢هـ.

هذا، وقدِ اكتَملَ بفَضْل الله وكرَمِه تفسيرُ سُورة «الطارق» في يوم واحدٍ فقطْ هو اليومُ، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاة والسلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(٨٧) سُورَةُ الأَعْلَى

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها: «الأعلى»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأولى منها.

سبحوا الله تعالى

في بدايةِ هذه السُّورةِ جاء الأمرُ بتسبيح اللهِ تعالى؛ لأنه منَزَّهٌ عن كلِّ عيبٍ ونقص، وهو الأعلى فوقَ الجميع، وهو الذي خَلَق كلَّ شيءٍ في الكائناتِ على أحسنِ صُورةٍ وبأدقِّ طريقة، ولهذا فإنه هو الذي يَستحِقُّ التسبيحَ.

حفظ القرآن المجيد

في الآيـاتِ من ٦ إلى ٨ بَشَّر النـبيُّ ﷺ بأنّ اللهَ تعـالى قد يَسَّر لكَ القرآنَ المجيدَ بحيث تَحفَظُه بسهولةٍ ويُسرٍ، ولن تنساهُ أبدًا، كما يَسَّرْنا حِفظَ القرآنِ الكريم على أهل الإيمانِ ببَركتِك، بحيث أنّ طفلًا لا يتَعدَّى عُمُرُه التاسعةَ يُمكنُه حِفظُه بكلِّ سهولة.

القرآن نصيحة كله

في الآياتِ من ٩ إلى ١١، ومن ١٨ إلى ١٩ جاء الإخبارُ بأنّ القرآنَ الكريمَ ليس كتابًا مجهولًا غيرَ معروف، بل إنه مذكورٌ في الصُّحُفِ السَّماويّةِ التي نَزَلت

على الأنبياءِ السابقينَ عليهمُ السَّلام، وهو نصيحةٌ كلُّه، ولهذا عليكَ أن تنصحَ الناسَ عن طريقِه، فمَن كان في قلبِه خوفُ الله وتَقْواه، وقَبِلَ هذه النَّصيحةَ سيَدخُلُ الجنّةَ، وأمّا من رَكِبَه الطُّغيانُ وسُوءُ الطالع، وأعرَضَ عنه، فسيَدخُلُ نارًا عظيمةً في جهنَّم.

من المفلح؟

في الآيةِ رقم ١٤ و ١٥ جاء بيانُ ثلاثةِ شروطٍ لتحقيق الفلاح، يعني: أنْ يُطهِّرَ نفسَه من الكُفرِ والشِّرك، وأن يَذكُرَ اسمَ ربِّه دائمًا حتى يبقى محفوظًا من مهاجمةِ الشياطينِ له، وأن يَلتزمَ بأداءِ الصَّلَواتِ الخمس.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة الفجر من يوم الثلاثاء ٢١ ديسمبر ٢٠١٠م
الموافق ١٥ محرَّم ١٤٣٢هـ.

❋ ❋ ❋

سُورَةُ الأَعْلَىٰ (٨٧)،

مكية (٨)، آياتها (١٩)، ركوعها (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾

١ ـ المرادُ بالتسبيح باسم ربِّك: هو أن تَذكُرَ اسمَ الله تعالى بكلِّ خشوعٍ وخُضُوع، وأن تُعظِّمَ وتُكرِّمَ اسمَه، وألّا تدعوَه باسم لا يَليقُ بشأنِه، والأفضلُ أن تَذكُرَ اللهَ تعالى بأسمائه الحُسنى الواردةِ في القرآنِ المَجيد والحديثِ الشَّريف، إذْ كما أنّ ذاتَ اللهِ تعالى فوقَ كلِّ نَقْصٍ وعيب، كذلك أسماؤه أيضًا منزَّهةٌ عن كلِّ نقصٍ وعيب.

سبحوا اللهَ تعالى

ـ يقولُ سيِّدُنا عُقبةُ بنُ عامرٍ رضي الله عنه: «لمّا نَزلت ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ

﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤] قال رسولُ الله ﷺ: «اجعَلوها في ركوعِكم» (أي: اقرَأُوا في الركوع سبحانَ ربِّيَ العظيم). فلمّا نَزَلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال: «اجعَلوها في سجودِكم» (أي: اقرأوا في السجودِ سبحانَ ربِّيَ الأعلى)[١].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: إنّ النّبيَّ ﷺ كان إذا قَرأَ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال: «سبحانَ ربِّيَ الأعلى»[٢].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضيَ الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا رَكعَ أحدُكم فقال في ركوعِه: سبحانَ ربِّيَ العظيم ثلاثَ مرّاتٍ، فقد تَمَّ ركوعُه، وذلك أدناه. وإذا سَجَد فقال في سجودِه: سبحانَ ربِّيَ الأعلى ثلاثَ مرّاتٍ، فقد تَمَّ سجودُه، وذلك أدناه»[٣].

ـ يقولُ سيّدُنا حُذَيفةُ رضي الله عنه: إنّه صلّى معَ النّبيِّ ﷺ، فكان يقولُ في ركوعِه: «سبحانَ ربِّيَ العظيم»، وفي سجودِه: «سبحانَ ربِّيَ الأعلى». وما أَتَى على آيةِ رحمةٍ إلّا وَقَف وسألَ، وما أَتَى على آيةِ عذابٍ إلّا وَقَف وتعوَّذ[٤].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «كلِمتانِ حَبيبتانِ إلى الرّحمن، خفيفتانِ على اللِّسان، ثقيلتانِ في الميزان: سُبحانَ اللهِ وبحَمْدِه، سبحانَ اللهِ العظيم»[٥].

---

(١) أبو داود، كتاب الصلاة، باب ١٤٦ برقم ٨٦٩.
(٢) أبو داود، كتاب الصلاة، باب ١٤٨ برقم ٨٨٣.
(٣) الترمذي، أبواب الصلاة، باب ٧٩ برقم ٢٦١.
(٤) الترمذي، أبواب الصلاة، باب ٧٩ برقم ٢٦٢.
(٥) البخاري، كتاب التوحيد، باب ٥٨ برقم ٧٥٦٣.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾

٢ ـ اللهُ تعالى خَلَق كلَّ المخلوقاتِ، وخَلَق لها الأعضاءَ التي تتناسبُ معَ احتياجاتِها، ورَكَّب كلَّ هذه الأعضاءِ في أماكِنها المناسبة وبكلِّ اعتدالٍ ودقَّةٍ، بحيث لا يمكنُ أن يكونَ لهذا المخلوقِ صُورةُ أفضَلُ ممّا هو عليه، وأنه إذا أُجري فيه تعديلٌ أو تغييرٌ فإنه سيُسبِّبُ له مشاكلَ عديدةً، على سَبيل المثال: لو أنّ عينَي الإنسانِ جُعِلَتا خلفَ رأسِه، لَأصبحَ من الصَّعبِ عليه أن يضَعَ لقمةً في فمِه.

وباختصار: فإنّ اللهَ تعالى أودَعَ داخلَ كلِّ مخلوقٍ خلقَه من الشُّعورِ والتفكيرِ بما يتناسبُ معَ المقصِد الذي خُلِق من أَجْلِه، حتى يُمكنَه تحقيقُ هذا المقصِد الذي هو عبادةُ الله تعالى، ولهذا أَرسَلَ إليهم الأنبياءَ عليهم السَّلام لهدايتِهم وإرشادِهم.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾

٣ ـ اللهُ تعالى هو الذي أَخْرَج من الأرضِ القاسيةِ المرعَى والعُشبَ اللَّيِّنَ الطَّريَّ الرَّقيقَ، ثم بعدَ فترةٍ يجعَلُه جافًّا مائلًا إلى السَّواد، ولكنّ هذا العُشبَ في الحالتَيْنِ (أي: في حالةِ كونِه أخضَرَ طريًّا، وفي حالةِ كونِـه أسودَ جافًّا) نعمةٌ للأنعام، فعنـدما يكونُ أخـضَرَ طازَجًا تستمتعُ بـه، وعندَما يكونُ جافًّا يابسًا يتم تخزينُه في صورتِه كما هو، أو بهَرْسِه وجَعْلِه تِبنًا، لكي يُلبِّيَ حاجةَ هذه الأنعام من الطَّعام في الموسم التالي.

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾

٤ ـ في البدايةِ عندما كان يَنزِلُ الوحيُ، ويأخُذُ سيِّدُنا جِبريلُ عليه السَّلامُ في قراءةِ الكلام الإلهيِّ، كان النبيُّ ﷺ يُحرِّكُ لسانَه مُردِّدًا معَه ما يقرَأُ مسرِعًا، حتى يحفَظَ جيِّدًا ما يُوحَى إليه، ولا ينسَى أيَّ كلمةٍ منه، لكنّ سَماعَ الوحي،

وفَهْمَه، وترديدَه على الفَوْر، أمورٌ ثلاثةٌ يصعُبُ القيامُ بها معًا وفي وقتٍ واحد، ولهذا قال اللهُ تعالى: يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، لا تُرهِقْ نفسَكَ في ترديدِ الوحي مُسرِعًا، وإنّما اسمَعْه جيِّدًا وبكلِّ اطمئنانٍ وفي صَـمْت، ولا تَقلَقْ بشأنِ نسيـانِه، فنحن سنَحفَظُه لك في قلبِك، ولهذا عندَما يقرَأُ جِبريلُ الأمينُ عليه السَّلامُ القرآنَ المَجيدَ من عندِنا، عندَئذٍ ابدَأْ أنت بالقراءةِ من بعدِه، وستقرَأُه مثلَما نُزِّل عليك تمامًا دونَ زيادةٍ أو نَقْص، مثلَما يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: «... فكان رسولُ الله ﷺ بعدَ ذلك إذا أتاه جِبريلُ استَمَع، فإذا انطَلَقَ جِبريلُ قرَأَه النّبيُّ ﷺ كما قرأَه»[١].

ومن الممكنِ أن تفوتَ آيةٌ بصفةٍ مؤقَّتةٌ وقتَ التلاوة، مثلَما حَدَث أحيانًا في الصّلاةِ بالفعل، حتى يَعلمَ حلَّ مسألةِ ما فاتَ هذا، ولكنْ ليس من الممكنِ أبدًا أن ينسَى حُكمًا إلهيًّا بشكل كامل، وإلّا لَكان في تبليغِه ودعوتِه ونُبوَّتِه ﷺ نقصٌ، وهو ﷺ مُنزَّهٌ عن كلِّ هذا.

معجزة النبي ﷺ

يقولُ مَوْلانا نعيمُ الدِّين مراد آبادي في تفسيرِ هذه الآية: «هذه بِشَارةٌ من اللهِ تعالى لنبيِّه الكريم ﷺ، بأنْ أُنعِم عليه بحفظِ القرآنِ الكريم بغيرِ جُهدٍ يُبذَلَ، وهذه معجزةٌ له بأنه حَفِظَ كتابًا بهذه العظَمةِ والجلالِ بغيرِ مشَقّةٍ وتعبٍ، وبغيرِ تكرارٍ أيضًا»[٢].

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾

٥ ـ يعني: لو أنّ اللهَ تعالى أراد نَسْخَ حُكمٍ من أحكامِه فإنه يُذهِبُ هذا الحُكمَ من

---

(١) البخاري، كتاب بدء الوحي، باب ٤ برقم ٥.

(٢) خزائن العرفان، سورة الأعلى (٨٧): الآية ٦.

ذهنِ النبيِّ ﷺ تمامًا، وبالتالي لا يُعَدُّ هذا نسيانًا من النبيِّ ﷺ، وإنّما أمرٌ بالنَّسخ من اللهِ تعالى، وكَوْنُ اللهِ تعالى يُنسي النبيَّ ﷺ حُكمًا من الأحكام هو في ذاتِه نَسْخٌ، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦].

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾

٦ ـ نَقَل المفسِّرونَ في تفسيرِ هذه الآية أقوالًا متعدِّدةً، من بينِها ما نَقَله العلّامةُ الخازنُ أيضًا كما يلي: «﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي: نُهوِّنُ عليك الوحيَ حتى تحفَظَه ولا تنساه»[1]. وقد يَسَّر اللهُ تعالى ببَركةِ النبيِّ ﷺ حِفظَ القرآنِ المَجيد، بحيث يحفَظُه الأطفالُ أقلُّ من عَشْرِ سنينَ أيضًا، ودونَ أن يلتبسَ عليهم ولو في فتحةٍ أو كسرة.

يقولُ العلّامةُ غُلام رسُول سَعِيدي: «ذاتَ مرّة، ذَهَب رجلُ الدِّين الهِندُوسيُّ الباندِيت رام تشَند إلى سيّدِنا صَدْر الأفاضل نَعيم الدِّين مُراد آبادي وقال له: إنّني أحفَظُ من قرآنِكم أربعةَ عشَرَ جزءًا، فقُلْ لي: كم تحفَظُ أنت من كتابنا المقدَّس (فيد)؟ فقال سيّدُنا صَدرُ الأفاضل: لا تقُلْ مِثلَ هذا الكلام ثانيةً، وإلّا أصبحتَ ذليلًا. فقال الباندِيت: لا تتهرَّبْ منَ الإجابةِ عن سؤالي، إن كنتَ تحفَظُ شيئًا من (فيد) فأسمِعْني إياه. فقال سيّدُنا صَدرُ الأفاضل: إنّ هذا إعجازُ قرآنِنا وكمالُه، إذْ يَحفَظُه في صدرِه حتى العدوُّ، وهو دليلٌ على نَقْص كتابِكم (فيد)، بأنك لا تحفَظُ منه مثلَما تحفَظُ من القرآنِ. فبُهِتَ الباندِيت لمّا سَمِع هذا الجوابَ وخَرَج.

وهكذا، فإنّ التَّوراةَ والإنْجيلَ والزَّبورَ كلَّها كتُبٌ سَماويّة، ولكنْ لا يوجَدُ في الدنيا حافظٌ لأيِّ كتابٍ منها، وبالتالي فإنّ من إعجازِ القرآنِ الكريم أن يكونَ حُفّاظُه في كلِّ أنحاءِ العالم بما لا يُعَدُّ ولا يُحصَى»[2].

---

(١) تفسير الخازن، سورة الأعلى (٨٧): الآية ٨.

(٢) تفسير تبيان القرآن، ١١: ٥٨٥.

فضل حفظ القرآن المجيد

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَمْرٍو رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «يقالُ لصاحبِ القرآن: اقرَأْ وارتَقِ (أي: درجاتِ الجنّة) ورَتِّلْ كما كنتَ تُرتِّلُ في الدُّنيا، فإنّ منزِلَتك عندَ آخِرِ آيةٍ تقرَأُ بها»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ الّذي ليس في جَوْفِه شيءٌ من القرآنِ كالبيتِ الخَرِب»(٢). وسُورةُ الفاتحة وسُورةُ الإخلاصِ سورتانِ كاملتانِ من سُوَرِ القرآنِ المَجِيد، ويحفَظُهما كلُّ مسلم عن ظَهْرِ قلبٍ تقريبًا، ولهذا ربَّما لا يوجَدُ في الدُّنيا من المسلمينَ مَن لا يحفَظُ شيئًا من القرآن.

ـ يقولُ سيّدُنا عليٌّ كرَّم اللهُ وجهَه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن قَرأَ القرآنَ واستَظهَرَه فأحَلَّ حلالَه وحَرَّم حرامَه، أدخَلَه اللهُ به الجنّةَ وشَفَّعه في عشَرةٍ من أهل بيتِه كلُّهم وَجَبتْ له النّار»(٣).

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «يجيءُ القرآنُ يومَ القيامة فيقولُ: يا ربِّ، حَلِّه، فيُلبَسُ تاجَ الكرامة، ثمّ يقولُ: يا ربِّ، زِدْه، فيُلبَسُ حُلّةَ الكرامة، ثمّ يقولُ: يا ربِّ، ارضَ عنه، فيرضَى عنه، فيقالُ له: اقرَأْ وارقَ وتُزادُ بكلّ آيةٍ حسَنةً»(٤).

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾

٧ ـ يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، القرآنُ المجيدُ نصيحةٌ كلُّه من أوّلِه إلى آخِرِه، وهو هدايةٌ للناس جميعًا، ولهذا عليكَ أن تَنصَحَ الناسَ بهذا القرآن، حتى تقومَ

---

(١) الترمذي، فضائل القرآن، باب ١٨ برقم ٢٩١٤.
(٢) الترمذي، فضائل القرآن، باب ١٨ برقم ٢٩١٣.
(٣) الترمذي، فضائل القرآن، باب ١٨ برقم ٢٩٠٥.
(٤) الترمذي، فضائل القرآن، باب ١٨ برقم ٢٩١٥.

الحُجّةُ على المُنكِرينَ، ولكنّ عليكَ الاهتمامَ بشكلٍ أكبرَ بأولئك الذين تَنفَعُهم النَّصيحةُ، والذين يَقبَلُونَ النَّصيحةَ هم أولئك الذين في قلوبِهم خوفُ الله تعالى وتَقْواه، أمّا المُعانِدونَ المتعصِّبونَ فلا تُبالِ بهم كثيرًا؛ لأنك لم تُرسَلْ لكي تَجعَلَ الناسَ مسلمينَ رغمًا عنهم، مثلَما يقولُ اللهُ تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[ق: ٤٥].

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾

٨ ـ ما أسوأَ طالعَ ذلك الشَّخصِ الذي يتجنَّبُ القرآنَ الكريمَ ويُعرِضُ عنه؛ لأنه سيَدخُلُ أعظمَ نارٍ في جهنَّم يومَ القيامة، حيث لن يموتَ ولن يحيا، وإنّما سيبقَى ذليلًا مَخْزِيًّا في صِراع مريرٍ دائم بينَ الحياةِ والموت.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾

٩ ـ في الآيةِ رقم ١٤ و ١٥ جاء بيانُ ثلاثةِ شروطٍ لتحقيقِ الفلاح، يعني: أن يُطهِّرَ نفسَه من الكُفرِ والشِّرك، وأن يَذكُرَ اسمَ ربِّه دائمًا حتى يبقى محفوظًا من مهاجمةِ الشياطينِ له، وأن يلتزمَ بأداءِ الصَّلواتِ الخمس.

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾

١٠ ـ يقولُ القاضي ثناءُ الله باني بتي في تفسيرِ هاتَيْنِ الآيتَيْنِ (١٦ و ١٧): «وأنتم أيُّها الأشقياءُ، لا تُزكُّونَ ولا تَذكُرونَ اسمَ ربِّكم ولا تُصلُّون، بل تؤْثرونَ الحياةَ الدُّنيا على الحياةِ الأخرى. والآخِرةُ خيرٌ، فإنّ نِعَمَها ذاتٌ بالذّات، خالٍ عن الغوائل، وأجَلُّ نِعَمِها: الرؤيةُ والوِصَال ورضوانُ الله ذي الجلالِ وأبقَى، أي: الانقطاعُ لها بخلافِ الدُّنيا»[1].

---

(١) التفسير المظهري، سورة الأعلى (٨٧): الآية ١٦، ١٧.

ترجيح الدنيا على الآخرة

ـ يقولُ سيّدُنا عَمْرُو بن عَوْفٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال «... فواللهِ ما الفقرَ أخشَى عليكم، ولكنْ أخشَى عليكم أن تُبسَطَ عليكمُ الدُّنيا، كما بُسِطَت على مَن كان قبلَكم، فتنافَسُوها كما تنافَسُوها وتُلهيكم كما ألْهَتْهم»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا عُقبةُ بنُ عامرٍ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ خَرَج يومًا فصَلَّى على أهلِ أُحُدٍ (أي: على شُهداءِ أُحُدٍ) صلاتَه على الميِّت، ثمّ انْصرَفَ إلى المِنبَر، فقال: «إنّي فَرَطُكم وأنا شهيدٌ عليكم، وإنّي ـ والله ـ لَأنظُرُ إلى حَوْضيَ الآنَ، وإنّي قد أُعطِيتُ مفاتيحَ خزائنِ الأرض ـ أو مفاتيحَ الأرض ـ وإنّي ـ والله ـ ما أخافُ عليكم أن تُشرِكوا بعدي، ولكنّي أخافُ عليكم أن تَنافَسوا فيها»(٢).

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن طَلَب الدُّنيا حلالًا مُفاخِرًا مُكاثرًا مُرائيًا لقيَ اللهَ وهو عليه غَضْبانُ، ومَن طَلَب الدُّنيا حَلالًا استعفافًا عن المسألة، وسَعْيًا على عيالِه، وتعطُّفًا على جارِه، لقيَ اللهَ يومَ القيامة ووَجهُه كالقمرِ ليلةَ البدر»(٣).

ـ يقولُ سيّدُنا عليٌّ رضي الله عنه: «ارتَحَلتِ الدُّنيا مُدبِرةً، وارتَحَلتِ الآخرةُ مُقبِلةً، ولكلٍّ واحدةٍ منهما بَنُونَ، فكونوا من أبناءِ الآخِرة ولا تكونوا من أبناءِ الدّنيا، فانّ اليومَ عمَلٌ ولا حساب، وغدًا حسابٌ ولا عمَل»(٤).

---

(١) البخاري، كتاب الرقاق، باب ٧ برقم ٦٤٢٥.
(٢) البخاري، كتاب الرقاق، باب ٧ برقم ٦٤٢٦.
(٣) شعب الإيمان، ٧: ٢٩٨ برقم ١٠٣٧٤ - ١٠٣٧٥، وحلية الأولياء، ٨: ٢٣٥ برقم ١١٩٩٩.
(٤) البخاري، كتاب الرقاق، باب ٤.

ـ يقولُ سيّدُنا عليٌّ رضي الله عنه، عن الدُّنيا أيضًا: «لَيِّنٌ مَسُّها قاتلٌ سُمُّها»[1].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾

١١ ـ القرآنُ الكريمُ ليس كتابًا مجهولًا غيرَ معروف، بل إنه مذكورٌ في الصُّحُفِ السَّماويةِ التي نَزَلت على الأنبياءِ السابقينَ عليهمُ السَّلام.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة المغرب من يوم الثلاثاء ٢١ ديسمبر ٢٠١٠م
الموافق ١٥ محرَّم ١٤٣٢هـ.

هذا، وقدِ اكتَمل بفَضْل الله تعالى وكرَمِه تفسيرُ سُورة «الأعلى» في يومٍ واحد فقطْ هو اليومُ، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيِّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

* * *

(١) التفسير الكبير، سورة آل عمران (٣): الآية ١٨٥.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(٨٨) سُورَةُ الغَاشِيَةِ

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها: «الغاشِيةُ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأولى منها.

أحوال أهل جهنم

في الآياتِ من رقم ١ إلى رقم ٧ جاء بيانُ أحوالِ أهل جهنَّم، يعني: أنّ وجوهَهم ستكونُ خاشِعةً ذابلةً يومَ القيامة من النَّدَم، وعندَما يُلقَوْنَ في النارِ المتوهِّجة سيُعطَوْنَ ماءً يغلي للشُّرب، ونباتاتٍ ذاتَ أشواكٍ للأكل.

أحوال أهل الجنة

في الآياتِ من ٨ إلى ١٦ جاء بيانُ أحوالِ أهل الجنّة، يعني: أنّ وجوهَهم يومَ القيامة ستكون مُستبشِرةً من الفَرْحة، وسوف يَستمتعونَ في الجنّةِ بنِعَمِها المتنوِّعة.

كل عائد إلى الله

في آخِرِ هذه السُّورةِ جاءتِ التَّسريةُ عن قلبِ النبيِّ ﷺ، بأنّك يا رسولَ الله ﷺ قد أدَّيتَ حقَّ النَّصيحة، والآنَ لا تَحزَنْ ولا تغتمَّ إذا لم يؤمنوا، ولم يَرجِعوا عن إيذائك،

فنحن سنتَولَّى أمرَهم بأنفُسِنا؛ لأنّهم في نهايةِ المطافِ راجِعونَ إلينا، ونحن الذين سنُحاسبُهم.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة الفجر من يوم الأربعاء ٢٢ ديسمبر ٢٠١٠م
الموافق ١٦ محرَّم ١٤٣٢هـ.

* * *

سُورَةُ الغَاشِيَةِ (٨٨)،

مكية (٦٨)، آياتها (٢٦)، ركوعها (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾

١ ـ في الآياتِ من ١ إلى ٧ جاء بيانُ أحوالِ أهل جهنَّم، يعني: يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، من المؤكَدِ أنّ خبرَ القيامةِ قد جاءك، وهو يومٌ في غايةِ الشّدّة، وسوف تغشَى أهوالُه الناسَ جميعًا.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾

٢ ـ في ذلك اليوم يغشَى الذُّلُّ والخِزيُ وجوهَ أهل جهنَّم، وستكونُ وجوهُهم خاشعةً من النَّدم والحَسْرة، وسيكونُ حالُهم في غايةِ السُّوءِ من عذابِ جهنَّم الشديد،

وسوف يكونونَ في غايةِ الإرهاقِ والنَّصَب بسببِ شدّةِ العذاب، فالذين لا يُخضِعُونَ وجوهَهم لله تعالى بكلِّ تواضُع وعَجْزٍ وانكسارٍ في هذه الدنيا، ستَخضَعُ وجوهُهم يومَ القيامة في ذُلٍّ وخِزْيٍ.

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾

٣ ـ عندَما يُصيبُهم العطَشُ في نارِ جهنَّم المشتعلةِ يُسقَوْنَ ماءً يغلي، وعندما يصيبُهم الجوعُ يُطعَمونَ أعشابًا ذاتَ أشواك، لا تَسمَنُ منها أبدانُهم، ولا تُبعِدُ عنهمُ الجُوعُ، يعني: أنّ هذه الأعشابَ الشائكةَ لا تَصلُحُ لأن تكونَ طعامًا أصلًا، ولا لأن تَقضيَ على الجُوعِ، وإنّما تكونُ سببًا في زيادةِ شدّةِ العذاب.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾

٤ ـ في الآيات من ٨ إلى ١٦ جاء بيانُ أحوالِ أهل الجنّة، يعني: أنّ وجوهَهم في ذلك اليوم ستكونُ مُستبشِرةً نَضِرة، وسيَفرَحُونَ بأعمالِهم الصَّالحةِ التي دَخَلوا بسببِها جنةً عاليةً، وستكونُ الفَرْحةُ في كلِّ مكانٍ يومئذٍ، ولن يَسمَعوا أيَّ كلام لا يُحِبُّونَه، وستكونُ أمامَهم أعيُنٌ جاريةٌ من الماءِ الحُلوِ العَذْبِ البارد، وعلى شواطئِ هذه العيُونِ أكوابٌ وكؤوسٌ للشَّرابِ من ذَهَب وفضّة، كلُّها موضوعةٌ بسَليقةٍ رائعة، والأرائكُ هنا وهناك مفروشٌ تحتَها سُجّادٌ نَفيسٌ، وفوقَها وسائدُ مرصوصةٌ صفوفًا، حتى يستريحَ عليها من يريدُ من أهل الجنّةِ وفي أيِّ وقتٍ شاء.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾

٥ ـ في الآياتِ من ١٧ إلى ٢٠ أشار اللهُ تعالى إلى بعضِ الشواهدِ على قُدرتِه، حتى يَتدبَّرَها المُنكرونَ، ويؤمنوا بربِّهم، على سَبيل المثال: الناقةُ عندَ أهل الجزيرةِ العربيّة حيَوانٌ في غايةِ الأهميَّة، فهي تُعطيهم اللَّبَنَ، وتَحمِلُ الأثقالَ، ويَركَبونَها

مطايا لهم، كما يأكلونَ لحومَها، وهذا الحيَوانُ - بالرَّغم من ضخامتِه - فهو تابعٌ للإنسانِ خاضعٌ له.

﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ﴾

٦ - وكذلك السَّماءُ، كم هي عاليةٌ، وتَقِفُ منذُ مئآتِ الآلافِ من السِّنينَ بغيرِ أعمِدة، وجبالٌ شاهقةٌ تنتصبُ على الأرضِ كأنّها الأوتادُ لها، ورَغْمَ أنّ الأرضَ مستديرةٌ قاسيةٌ، إلّا أنّها فُرِشَت ومُدَّتْ لتَصلُحَ أن تكونَ مكانًا يقيمُ فيه الإنسان، وهي ليِّنةٌ لكي يَنبُتَ فيها ما يَصلُحُ أن يكونَ غذاءً للإنسانِ كذلك، فلماذا لا يتدبَّرونَ في هذه الآياتِ العظيمة؟ ولماذا لا يؤمنونَ باللهِ خالقِهم الحقيقيِّ؟ ولا يَصعُبُ أبدًا على اللهِ تعالى الذي خَلَق هذه المخلوقاتِ الضَّخمةَ العظيمةَ أن يَخلُقَ هذا الإنسانَ العاديَّ من جديدٍ بعدَ موتِه.

﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾

٧ - يعني: إذا لم يؤمنْ هؤلاءِ الناسُ حتى بعدَ أن يرَوْا شواهدَ كالأرض والسَّماءِ والجبال، ولم يَرجِعوا عن إيذائهم لك، فلا تحزَنْ حينَئذٍ ولا تغتَمَّ، فنحن سنتولَّى أمرَهم بأنفُسِنا، كما أنّنا لم نُرسِلْك حتى تَجعَلَهم يُسلِمونَ رغمًا عنهم، وإنما واجبُك هو نُصحُهم، وقد أدَّيتَ هذا الواجبَ، والآنَ إذا لم يؤْمنوا فسنُذيقُهم العذابَ الشَّديدَ؛ لأنّهم في نهايةِ المطافِ راجعونَ إلينا، ونحن الذين سنُحاسبُهم.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة الفجر من يوم الأربعاء ٢٢ ديسمبر ٢٠١٠م
الموافق ١٦ محرَّم ١٤٣٢هـ.

هذا، وقدِ اكتَمل بفَضْل الله وكرَمِه تفسيرُ سُورة «الغاشية» في ساعتين تقريبًا، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

❋ ❋ ❋

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(٨٩) سُورَةُ الفَجْرِ

هذه السُّورةُ مكِّيّة، واسمُها: «الفَجْرُ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى منها.

ستقوم الساعة يقيناً

في الخمسِ آياتٍ الأُولى من هذه السُّورةِ أَقْسم اللهُ تعالى خمسَ مرّاتٍ مشيرًا إلى أنّ القيامةَ آتيةٌ لا مَحالةَ، وهو اليومُ الذي سيَحيا فيه الجميعُ ثانيةً ويُبعَثونَ أمامَ الله.

مصير الأمم الطاغية

في الآياتِ من ٦ إلى ١٤ جاء ذِكرُ قوم عادٍ وثمودَ وفِرعَونَ، والتنبيهُ على الكُفّارِ بأنّ هذه الأُممَ السابقةَ كانوا أكثرَ منكم قوةً وثراءً، ولكنْ عندَما كَذَّبوا بأنبيائهم ولم يَرجِعوا عن عصيانِهم، فإنّ اللهَ تعالى أَنْزلَ عليهم جميعًا عذابًا أهلَكَهم ودَمَّرهم، وإذا لم تَعتبِروا أنتم من مصيرِهم هذا، ولم تَرجِعوا عن طُغيانِكم، فسيَنزِلُ العذابُ عليكم أيضًا.

العز والذل لا يتوقفان على الغنى والفقر

في الآياتِ من ١٥ إلى ٢٠ جاء تصويرٌ لذِهنيّةِ الجاحدينَ وتفكيرِهم، يعني:

عندَما يأتيهم العِزُّ والنِّعَمُ فإنّهم يعتقدونَ أنّ اللهَ تعالى راضٍ عنهم، وعندَما تصيبُهم عُسرةٌ في الرِّزقِ وضِيقٌ يتصوَّرونَ أنّ اللهَ تعالى أذَلَّهم، معَ أنّ العِزَّ والذُّلَّ عند الله تعالى لا يتوقَّفُ على غنًى أو فقرٍ، وإنّما على طاعةِ الله تعالى وعصيانِه.

منظر ميدان الحشر

في الآياتِ من ٢١ إلى ٢٦ جاء بيانٌ لمنظرِ الحَشْر، يعني: عندما يتِمُّ تحطيمُ هذه الأرضِ وتتحوَّلُ إلى ذَرّاتٍ متناثرة، سيقامُ عدلُ الله تعالى بما يَليقُ بشأنِه تعالى، وطِبقًا لمقتَضَياتِ العدلِ والإنصاف، وستقفُ الملائكةُ صفوفًا، وسيؤتَى بجهنَّمَ، وفي ذلك اليوم سيُدركُ مُنكِرُ القيامة الحقيقةَ ويقولُ: ليتَني ادَّخرتُ شيئًا لهذه الحياةِ الدائمة، لَكان قد نَفَعني اليومَ، ولكنّ النَّدمَ في ذلك اليوم لا ينفَعُ بشيء، وحينَئذٍ سيُقيَّدُ بالأغلال، ويُلقَى في عذابٍ شديدٍ لا يمكنُ أن يتصوَّره أحدٌ اليومَ.

المطمئنون

في الآياتِ الأربع الأخيرةِ من هذه السُّورة، جاء ذِكرُ ذلك السَّعيدِ الذي يطمئنُّ قلبُه بذِكرِ الله تعالى، وسوف يأخُذُه اللهُ تعالى إلى جِوارِ رحمتِه، ويُبشِّرُه بأنّني قد قَبِلتُ كلَّ ما فعلتَه أنت من أَجْل إرضائي، ولهذا ارجِعْ إليَّ لتنالَ الأَجْرَ العظيمَ على ذلك، وادخُلْ جنَّتي، وانضَمَّ إلى عبادي المخصوصينَ المقرَّبين.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة المغرب من يوم الأربعاء ٢٢ ديسمبر ٢٠١٠م
الموافق ١٦ محرَّم ١٤٣٢هـ.

سُورَةُ الفَجْرِ (٨٩)،

مكية (١٠)، آياتها (٣٠)، ركوعها (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾

﴿وَالْفَجْرِ﴾

١ ـ المرادُ بالفَجْر: وقتُ الصُّبح حين ينقشعُ ظلامُ اللَّيل ويَطلُعُ ضوءُ النَّهار،

وهذا هو الوقتُ الذي يَستيقظُ فيه الإنسانُ والحيَوانُ والطَّيرُ من نومِهمُ الهادئ، ويَستعِدُّونَ لممارسةِ حياتِهمُ العاديّة.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾

٢ ـ هناك أقوالٌ متعدِّدةٌ فيما يتعلَّقُ بهذه اللَّيالي العَشْر، نَذكُرُ منها فيما يلي ثلاثةَ أقوالٍ ذَكَرها العلّامةُ القُرطبيُّ في تفسيرِه:

١ ـ العَشْرُ ليالٍ الأُولى من شهرِ ذي الحِجّة.

٢ ـ العَشْرُ ليالٍ الأخيرةُ من شهرِ رمضان.

٣ ـ العَشْرُ ليالٍ الأُولى من شهرِ المحرَّم[١].

وإليكَ فيما يلي حديثٌ شريفٌ عن فَضْل كلٍّ واحدٍ من هذه الأقوال:

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «ما من أيّامٍ أحبَّ إلى الله أن يُتعبَّدَ له فيها من عَشْرِ ذي الحِجّة، يُعدَلُ صيامُ كلِّ يومٍ منها بصيام سنةٍ، وقيامُ كلِّ ليلةٍ منها بقيام ليلةِ القَدْر»[٢].

ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي الله عنها: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «تَحرَّوْا ليلةَ القَدْرِ في الوِتْرِ من العَشْرِ الأواخِرِ من رمضان»[٣].

ـ يقولُ سيّدُنا عليٌّ رضي الله عنه: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ وسأَلَه: أيُّ شهرٍ

---

(١) «(١) هي ليال عشر من ذي الحجة، لأن ليلة يوم النحر داخلة فيه ـ (٢) هي العشر الأواخر من رمضان ـ (٣) هي العشر الأول من المحرّم التي عاشرها يوم عاشوراء». تفسير القرطبي.

(٢) الترمذي، أبواب الصوم، باب ٥٢ برقم ٧٥٨.

(٣) البخاري، كتاب ليلة القدر، باب ٣ برقم ٢٠١٧.

تأمُرُني أن أصومَ بعدَ شهرِ رمضانَ؟ قال له: ما سَمِعتُ أحدًا يَسأَلُ عن هذا إلّا رجلًا سَمِعتُه يسأَلُ رسولَ الله ﷺ وأنا قاعدٌ، فقال: يا رسولَ الله، أيُّ شهرٍ تَأمُرُني أن أصومَ بعدَ شهرِ رمضان؟ قال: «إن كنتَ صائمًا بعدَ شهرِ رمضانَ فصُم المُحرَّمَ، فإنّه شهرُ الله: فيه يومٌ تابَ اللهُ فيه على قومٍ ويتوبُ فيه على قومٍ آخَرينَ»[1].

﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾

٣ ـ نَذكُرُ هنا خُلاصةَ الأقوالِ التي نَقَلَها العلّامةُ القُرطبيُّ في تفسيرِ هذه الآية عن مُجاهدٍ وابن عَبّاس وأبي سَعيدٍ الخُدريِّ وقَتادةَ وآخَرينَ غيرِهم من علماءِ التفسير الأجِلّاء[2]:

الزوجي (الشفع)

المرادُ بالشَّفع هو: المخلوقُ، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، يعني: الإيمانَ والكُفرَ، والسَّعادةَ والشَّقاء، والهدايةَ والضَّلال، والنُّورَ والظلام، واللَّيلَ والنَّهار، والحَرَّ والبرد، والشمسَ والقمر، والأرضَ والسَّماء، والإنسَ والجِنَّ، وغيرَها، وكلُّها اثنانِ اثنان.

الفردي (الوتر)

المرادُ بالوَتْر: اللهُ تعالى، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].

---

(١) الترمذي، أبواب الصوم، باب ٤٠ برقم ٧٤١.

(٢) «الشّفع: يعني الكفر والإيمان، والشّقاوة والسّعادة، والهدى والضّلال، والنّور والظّلمة، واللّيل والنّهار، والحرّ والبرد، والشّمس والقمر، والصّيف والشّتاء، والسّماء والأرض، والجنّ والإنس. والوتر: هو الله عزّ وجلّ، قال جلّ ثناؤه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١ - ٢]». تفسير القرطبي.

يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «لله تسعةٌ وتسعونَ اسمًا مَن حَفِظَها دَخَل الجنّةَ، وإنّ اللهَ وَتْرٌ يحبُّ الوَتْرَ»[١].

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾

٤ ـ عندَما يقتربُ اللَّيلُ من نهايـتِه، يكونُ ذلك الوقتُ وقتًا رُوحانيًّا ونُورانيًّا، حيث يَنشغلُ أهلُ الله في الاستغفارِ وصَلاةِ التهجُّد، ويكونُ اللهُ تعالى مُتَجلّيًا من قبلُ على السَّماءِ بما يَليقُ بشأنِه، ويَسمَعُ دعاءهم.

فضل صلاة التهجد

ـ يقولُ سيّدُنا عَمْرُو بن عَبَسةَ رضي الله عنه: إنه سَمِع رسولَ الله ﷺ يقولُ: «أقربُ ما يكونُ الرّبُّ من العبدِ في جَوْفِ اللّيل الآخِر، فإنِ استَطعتَ أن تكونَ ممّن يَذكُرُ اللهَ في تلك السّاعةِ فكنْ»[٢].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «ينزِلُ ربُّنا تبارك وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى السّماءِ الدُّنيا (بما يَليقُ بشأنِه) حين يَبقَى ثُلثُ اللّيل الآخِرُ يقول: من يَدعُوني فأستجيبَ له، من يَسأَلُني فأُعطيَه، من يَستغفرُني فأغفرَ له؟»[٣].

﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ﴾

٥ ـ كانت عقائدُ التوحيدِ والنُّبوّةِ والآخِرةِ على رأسِ الأشياءِ التي خالَفَ فيها أهلُ مكةَ الإسلامَ بشِدّة، ولهذا رَكّزت السُّوَرُ المكّيّةُ على هذه العقائدِ الثلاث،

---

(١) مسلم، كتاب الذّكر والدعاء، باب ٢ برقم ٦٨٠٩.

(٢) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ١١٨ برقم ٣٥٧٩.

(٣) البخاري، كتاب التهجد، باب ١٤ برقم ١١٤٥، والترمذي، برقم ٤٤٦.

وهنا يقولُ المفسِّرون: إنّ الجوابَ بعدَ القَسَم خمسَ مرّاتٍ محذوف، وهو: أنّ القيامَةَ آتيةٌ تأكيدًا، وفيها ستَحْيونَ من جديدٍ.

ورَغْمَ أنّ كلَّ قَسَم من الخمسِ مراتٍ التي أَقْسم فيها اللهُ تعالى دليلٌ كافٍ على أنّ القيامةَ آتيةٌ تأكيدًا، إلّا أنّ اللهَ تعالى أَقْسم خمسَ مراتٍ لمزيدٍ من التأكيد، والآنَ ينبغي أن يكونَ هذا التأكيدُ كافيًا للعاقل، ولم يَعُدْ في حاجةٍ إلى مزيدٍ من القَسَم، لكنّ المصابينَ بالعنادِ والتعصُّبِ لا يتأثَّرونَ مهما أَقْسَمتَ لهم.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾

٦ ـ كان أهلُ مكّةَ مغرورينَ بتَعدادِهم وسيادتِهم وقوَّتِهم وثَرْوتِهم، ولهذا لم يتوانَوْا عن تكذيبِ النبيِّ ﷺ. وفي الآياتِ من ٦ إلى **١٣** تنبيهٌ لأهل مكةَ بأنه قد مَضَتْ من قَبْلِكم أُممٌ أكثرُ منكم قوةً وثراءً وعددًا، وعلى رأس هؤلاءِ قومُ عادٍ وثمودَ وفِرعونَ، ولكنْ عندما كَذَّبوا أنبياءهم، ولم يَرجِعوا عن طُغيانِهم فإنّ اللهَ تعالى أمطَرَهم جميعًا بالعذاب، يعني: أهلَكَهم ودَمَّرهم، وأنتم تسمَعونَ كثيرًا عن قَصَصِ هلاكِ هذه الأُمم، ولهذا عليكم أن تَعتبروا منَ المصيرِ الذي آلُوا إليه، فإذا لم تَرجِعوا عن طُغيانِكم، فسيَنزِلُ العذابُ عليكم أيضًا، وقد مَرَّ في السابقِ تفصيلُ العذابِ الذي نَزَل على هذه الأُمم في مواضعَ متعدِّدة، وهنا جاء ذِكرُه إجماليًّا، وكان قومُ عاد إرَمَ، أي: عادٍ الأولى، يَسكُنونَ في قلاع ضخمةٍ ذاتِ أعمدةٍ قويَّة، وكانوا هم أيضًا أقوياءَ ضِخامَ الجُثّة كالأعمدة، ولم يكنْ لهم مثيلٌ في هذا في الدُّنيا كلِّها.

ولقبيلةِ إرمَ فَرْعانِ، الفَرعُ الأولُ اسمُه عادُ الأولى، وهمُ الذين أُرسِلَ إليهم سيِّدُنا هودٌ عليه السَّلامُ نبيًّا. والفَرعُ الثاني اسمُه ثمودُ، أو عادُ الثانيةُ، وهم الذين أُرسِلَ إليهم سيِّدُنا صالحٌ عليه السَّلامُ نبيًّا، ويُستعمَلُ لفظُ إرَمَ لعادٍ الأُولى والثانيةِ على السَّواء؛ لأنّ أصلَ الفَرْعَيْنِ هو إرَمُ.

﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾

٧ ـ كان قومُ ثمودَ أيضًا يتميَّزُونَ بقّوتِهم الكبيرةِ، وقد نَحَتوا من الصُّخورِ الضَّخمةِ في وادي القرى بيوتًا قويّةً لهم.

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾

٨ ـ قيلَ لِفرعَونَ: «ذو الأوتاد» لأنه عندَما كان يُعاقِبُ مُخالفيه كان أولًا يدُقُّ الأوتادَ والمساميرَ في أيديهم وأرجُلِهم، حتى لا يستطيعوا حِرَاكًا، كما أنّ جيوشَه قد أشاعوا الفسادَ والطُّغيانَ في البلادِ كلِّها، ولكنْ حين أمطَر اللهُ تعالى هؤلاءِ الأقوامَ الطُّغاةَ بالعذابِ، لم يَستطعْ أحدٌ أن يُنقذَهم منه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾

٩ ـ المرادُ بالمِرصاد أو التَّرصُّدِ لأحدٍ: أن يَختبئَ الإنسانُ في مكان، ويُراقبَ منه المجرِمين، ويُسجِّلَ كلَّ حركاتِهم، وبعدَ أن يُعِدَّ كلَّ الشواهدِ والأدِلّةِ كاملةً، ينتظرُ الوقتَ المناسب، ثم يقومُ باعتقالِهم وعقابِهم بما يستحِقُّونَ، وهكذا اللهُ تعالى يشاهدُ عبادَه ويراقبُهم بما يَليقُ بشأنِه، ويجعَلُ الملائكةَ تُعِدُّ وثيقةً مكتوبةً بكلِّ أعمالِهم، وعندما يأتي يومُ القيامة يَحكُمُ بإثابتِهم أو عقابِهم طبقًا لأعمالِهم، مثلَما يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ في تفسيرِ هذه الآية: «يَسمَعُ أقوالَهم ونَجْواهم ويَعلمُ أعمالَهم وأسرارَهم فيُجازي كلًّا بعمَلِه»[1].

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾

١٠ ـ تعكسُ هذه الآياتُ صورةَ عقولِ الجاحِدينَ العاصيةِ، يعني: عندَما

(١) تفسير القرطبي، سورة الفجر (٨٩): الآية ١٤.

يُنعِمُ اللهُ تعالى على إنسانٍ بالعِزِّ والكرَم والنِّعَم بقصدِ ابتلائه، تَراهُ يغتَرُّ بما عندَه قائلًا: إنّما كلُّ هذا نتيجةُ عِلمي وجُهدي، ولهذا أنا أستحِقُّه، وهذا دليلٌ على أنّ ربِّي راضٍ عني، وبالتالي يُنعِمُ علَيَّ بفضلِه وكرَمِه. وعلى العكسِ من ذلك عندَما يُضيِّقُ اللهُ تعالى على إنسانٍ في الرِّزقِ بقَصْدِ ابتلائه، فإنه يَفقِدُ صبرَه وينادي قائلًا: إنّ ربِّي أذَلَّني، معَ أنّ اعتقادَه هذا بأنّ ربَّه أذَلَّه ليس صحيحًا بالمرَّة؛ لأنّ العزَّ والذُلَّ عند الله تعالى لا يتوقَّفانِ على الغِنى والفقر، فالفقرُ والغِنى كلاهما ابتلاءٌ، والعزّةُ عندَ الله تعالى ينالُها ذلك الذي يشكرُ اللهَ تعالى على سَعةِ الرِّزق، ويصبرُ على قلّتِه، وقد نَقَل العلّامةُ القُرطبيُّ في هذا الخصُوص حديثًا قال فيه النبيُّ ﷺ: «يقولُ اللهُ عزَّ وجلّ: كلّا، إنّي لا أُكرِمُ مَن أكرَمتُ بكثرةِ الدُّنيا، ولا أُهينُ من أَهَنتُ بقلّتِها، إنّما أُكرِمُ من أَكرمتُ بطاعتي، وأُهينُ من أَهنتُ بمعصِيتي»[1].

وباختصار، فإنّ وَفْرةَ الرِّزقِ في الدُّنيا عندَ أحدٍ، ليست أبدًا دليلًا على أنّ اللهَ تعالى راضٍ عنه؛ لأنّ كثيرًا من المُنكِرينَ كانوا يتمتَّعونَ بوَفْرةٍ في الرِّزق مثلَ قارونَ وفِرعَونَ وغيرِهما، وبنفسِ الطريقة فإنّ ضِيقَ الرِّزق لدى أحدٍ ليس أبدًا دليلًا على أنّ اللهَ تعالى غاضبٌ عليه؛ لأنّ كثيرًا من الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلامُ كانوا في ضِيقٍ من الرِّزقِ في الظاهر، والنبيُّ الكريمُ ﷺ قد أحبَّ لنفسِه الفقرَ.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو أُمامةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «عَرَض علَيَّ ربِّي ليجعَلَ لي بطحاءَ مكّةَ ذهبًا، قلت: لا يا ربِّ، ولكنْ أشبَعُ يومًا وأَجوعُ يومًا، أو قال: ثلاثًا، أو نحوَ هذا، فإذا جُعتُ تضَرَّعتُ إليك وذَكَرتُك، وإذا شَبعتُ شكرتُك وحَمِدتُك»[2].

ـ يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «اللّهُمَّ أَحْيِني مِسكينًا وأَمِتْني

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الفجر (٨٩): الآية ١٧.

(٢) الترمذي، أبواب الزهد، باب ٣٥ برقم ٢٣٤٧.

مسكينًا واحشُرْني في زُمرةِ المساكين يومَ القيامة». فقالت عائشةُ: لم يا رسولَ الله؟ قال: «إنّهم يَدخُلونَ الجنّةَ قبلَ أغنيائهم بأربعينَ خريفًا. يا عائشة، لا تَرُدّي المسكينَ ولو بشِقِّ تمرةٍ. يا عائشة، أحِبّي المساكينَ وقَرِّبيهم، فإنّ اللهَ يُقرِّبُكِ يومَ القيامة»[١].

﴿كَلَّا بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾

١١ ـ يعني: الأغنياءُ منكم والذين يَضِيقُ رِزقُهم، لا ينبغي أن يتَصوَّروا أبدًا أنّ اللهَ تعالى إنّما حَرَمَهم من الرِّزقِ والثروةِ بغيرِ سبب، فهم الذين لم يؤدُّوا شُكرَ الله تعالى على مالِه الذي أعطاهُ لهم، وفي هذه الآياتِ جاء بيانُ بعض الأمثلةِ على الجُحود، يعني: إنّكم لم تَعطِفوا على اليتيم، ولم تُراعوا أمرَه رَغْمَ ما هو فيه من حالٍ بائس.

تعريف اليتيم

اليتيمُ يقالُ لذلك: الطِّفلِ أو الطِّفلةِ اللذَيْنِ ماتَ أبوهما ولم يبلُغا بعد.

رعاية اليتيم

ـ يقولُ سيّدُنا أبو أُمامةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن مَسَح رأسَ يتيمٍ لم يمسَحْه إلّا لله، كان له بكلِّ شعرةٍ مرَّتْ عليها يدُه حسَناتٌ، ومَن أحسَنَ إلى يتيمةٍ أو يتيمٍ عندَه كنت أنا وهو في الجنّةِ كهاتين وفرّق بين أصبعيه السّبّاحة والوسطى»[٢].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «خيرُ بيتٍ في المسلمينَ بيتٌ فيه يتيمٌ يُحسَنُ اليه، وشرُّ بيتٍ في المسلمينَ بيتٌ فيه يتيمٌ يُساءُ إليه»[٣].

---

(١) الترمذي، أبواب الزهد، باب ٣٧ برقم ٢٣٥٢.

(٢) مسند أحمد، ٥: ٢٥٠.

(٣) ابن ماجه، أبواب الأدب، باب ٦ برقم ٣٦٧٩.

ـ رَوى الإمامُ ابنُ جَريرٍ والإمامُ ابنُ أبي حاتم، عن السُّدِّيّ، أنه قال: «إذا قام الرجلُ يأكلُ مالَ اليتيم ظلمًا يُبعَثُ يومَ القيامة ولَهَبُ النارِ يَخرُجُ من فِيه ومن مسامعِه ومن أُذُنَيْه وأنفِه وعينَيْه، يَعرِفُه من رَآه بآكلِ مالِ اليتيم»[١].

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾

١٢ ـ كان المسكينُ جائعًا وهو جارٌ لكم، فلم تُطعِموه أنتم، ولم تُرغِّبوا أحدًا في إطعامِه، وهذا جحودٌ يؤدِّي إلى زوالِ المالِ والثروةِ والنِّعمة.

مساعدة المسكين

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «السّاعي على الأرملةِ والمِسكين كالمُجاهدِ في سَبيل الله، أو القائم اللَّيلَ الصّائم النَّهارَ»[٢].

ـ «جاء في الإسرائيليّات، أنّ إبراهيمَ كان لا يأكلُ وحدَه، فإذا حَضَر طعامُه أرسَلَ يطلُبُ من يأكلُ معَه، فلقيَ يومًا رجلًا، فلمّا جلَسَ معَه على الطّعام، قال له إبراهيمُ: سمِّ اللهَ، قال الرّجُل: لا أدري ما الله؟ فقال له: فاخرُجْ عن طعامي، فلمّا خَرَج نَزَل إليه جِبريلُ فقال له: يقولُ اللهُ: إنّه يَرزُقُه على كُفرِه مدى عمُرِه، وأنت بَخِلتَ عليه بلقمةٍ! فخَرَج إبراهيمُ فَزِعًا يجُرُّ رداءه، وقال: ارجِعْ، فقال: لا أرجِعُ حتّى تُخبرَني لم تَرُدُّني لغيرِ معنًى؟ فأَخْبرَه بالأمر، فقال: هذا ربٌّ كريمٌ، آمَنتُ، ودَخَل وسَمَّى اللهَ وأكلَ مؤمنًا»[٣].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَبّاس رضي الله عنهما: إنه سَمِع النبيَّ ﷺ يقولُ: «ليس المؤمنُ الّذي يَشبَعُ وجارُه جائعٌ إلى جَنْبِه»[٤].

---

(١) تفسير الدر المنثور، سورة النساء (٤): الآية ١٠.

(٢) البخاري، كتاب النفقات، باب ١ برقم ٥٣٥٣.

(٣) تفسير القرطبي، سورة هود (١١): الآية ٦٩.

(٤) مشكاة المصابيح، كتاب الآداب، باب الشفقة، الفصل الثالث برقم ٤٩٩١.

﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾

١٣ ـ يعني: عندَما يموتُ أحدُ أقربائكم الأقرَبينَ فإنكم تحاولونَ أن تَحصُلوا أنتم على كلِّ تركتِه، وتَحرِموا الورَثةَ الآخَرينَ، لدرجةِ أنكم لا تتورَّعونَ عن اغتصابِ نصيبِ أطفالِ المتوفَّى اليتامى، وكذا نصيبُ زوجتِه الأرملة، مثلَما يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «وكان أهلُ الشِّركِ لا يورِّثونَ النِّساءَ ولا الصِّبيان، بل يأكلونَ ميراثَهم معَ ميراثِهم، وتُراثَهم معَ تراثِهم»[1].

ألم تتدبَّروا أبدًا كيف سيكونُ حالُكم من الفِكرِ والقَلقَ والحُزن، لو أنّكم عندَ موتِكم تركتُم مَن خلفَكم أطفالًا صِغارًا لا يَملِكونَ شيئًا؟ وبنفسِ الطريقة، فإنّ هؤلاءِ اليتامى أبناءٌ لواحدٍ من الناس، فكما تُحِبُّونَ أن يكونَ التعامُلُ معَ أطفالِكم اليتامى وأقاربِكم الفقراءِ بعد موتِكم، ينبغي أن يكونَ تعامُلُكم أنتم أيضًا معَ الأطفالِ اليتامى الفقراءِ بنفسِ الطريقة، مثلَما يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضي اللهُ عنه، من أنّ النبيَّ ﷺ قال: «لا يؤمنُ أحدُكم حتّى يُحبُّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسِه»[2].

كان الرائجُ عندَ العربِ أنّ الابنَ الشابَّ للمتوفىَّ أو أخاه يَرِثُ كلَّ ممتلكاتِه، ويَحرِمُ أطفالَ المتوفَّى ذكورًا وإناثًا، وكذا أرمَلتُه، من الميراث، ويقولون: إنّ السببَ في هذا هو أنّ الذي ليس مؤهَّلًا للقتالِ في ميدانِ الحربِ وجَمْع أموالِ الغنائم لا يستحِقُّ نصيبًا في الميراث، معَ أنّ الأطفالَ اليتامى والزَّوجةَ التي ترَمَّلتْ هم الأكثرُ استحقاقًا للميراث، حتى يَستطيعوا مواجهةَ احتياجاتِهم في الحياة، لكنّ هذا الظُّلمَ كان رائجًا لديهم، والإسلامُ هو الدِّينُ الوحيدُ على وجهِ هذه الأرض، الذي جَعَل للنِّساء والأطفالِ نصيبًا في الميراثِ والتَّرِكة، وذلك منذُ أكثرَ من أربعةَ عشَرَ قرنًا من الزَّمان، وجَعَل لكلٍّ نصيبَه حَسَب حاجتِه.

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الفجر (٨٩): الآية ١٩.
(٢) البخاري، كتاب الإيمان، باب ٧ برقم ١٣.

قبلَ الإسلام لم تكنِ المرأةُ تَرِثُ في أيِّ مجتمع من مجتَمعاتِ الدُّنيا، وفي أوروبا إذا لم تُتَحْ للمتوفَّى فرصةُ كتابةِ وصيَّتِه قبلَ موتِه، فإنّ ابنَه الأكبرَ كان هو الذي يَرِثُ ممتَلكاتِه كلَّها، بينَما يُحرَمُ منها أرملتُه وبناتُه وأبناؤه الصِّغار، وظَلَّ هذا القانونُ نافذًا في إنجلترا حتى عام ١٩٢٥م، ثم بعدَ ذلك جُعِلت أرملةُ الميِّتِ مالكةً لتَرِكتِه بدلًا من الابنِ الأكبر، وتُرِكَ أمرُ الأولادِ على ما تَراهُ الأُمُّ، وعندَما تتزوَّجُ هذه الأرملةُ برَجُلٍ آخَرَ، فإنّ منَ الطبيعيِّ أن يُفضِّلَ زوجُها الجديدُ أولادَه على أولادِها من زوجِها الأول، وهكذا يتِمُّ تجاهُلُ هؤلاءِ الأولاد، ويَنتُجُ عن ذلك أن يصبحَ مستقبَلُهم مُظلِمًا؛ لأنّهم قد حُرِموا من الميراثِ بدايةً. على أيِّ حال، كان الميراثُ ـ سواءٌ حصَل عليه الابنُ الأكبرُ أم الأرمَلةُ ـ ظلمًا كبيرًا للأطفالِ في الحالتَيْنِ.

يقولُ الأميرُ «تشارلز» في إشارةٍ منه إلى حقِّ المرأة في الميراثِ في الإسلام: «لقد حافَظَ الإسلامُ على حقِّ المرأةِ المسلمةِ في الميراثِ والممتَلَكات، وفي حالةِ الطلاقِ أيضًا، بل إنّ حقَّ المرأةِ في التِّجارةِ والمعاملاتِ الماليّةِ الذي أعطاهُ لها الإسلامُ قبلَ أربعةَ عشَرَ قرنًا من الزَّمان، كان بعضُها يُعَدُّ خيالًا في بريطانيا حتى عام ١٩٢٥م، يعني أنّ النِّساءَ البريطانيّاتِ كُنَّ محروماتٍ من هذه الحقوق»(١).

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾

١٤ ـ يعني أنّكم تُحبُّونَ المالَ كثيرًا لدرجةِ أنّكم تَظَلُّونَ مُنهمِكينَ في جَمْعِه حتّى الرَّمَقِ الأخير من حياتِكم، ومعَ أنّ حُبَّ المالِ أمرٌ فِطْري، وجَمْعَه ليس مذمومًا،

(١) "The rights of Muslim women to property and inheritance, to some protection if divorced, and to the conducting of business, were rights prescribed by the Quran fourteen hundred years ago. In Britain at least, some of these rights were novel even to my grandmother's generation". (Islam and the West: Page: 15).

ولكنّ المبالغةَ في حبِّه إلى درجةٍ تجعَلُك لا تميِّزُ بينَ الحلالِ والحرام أمرٌ غيرُ جائز.

ـ يقولُ سيِّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: إنه سَمِع النبيَّ ﷺ يقولُ: «لو كان لابنِ آدمَ واديانِ من مالٍ لابتغَى ثالثًا، ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدمَ إلّا التّرابُ، ويَتوُبُ اللهُ على مَن تاب»[1].

ـ يقولُ سيِّدُنا عبدُ الله بنُ عَبّاس رضي الله عنهما: «منهومانِ لا يشبَعان: طالبُ علمٍ، وطالبُ دُنيا»[2].

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾

١٥ ـ في هذه الآياتِ بيانٌ لمنظرِ ميدانِ الحَشْر، يعني: عندَما تتحطَّمُ هذه الأرضُ وتتفتَّتُ، ويَخلُقُ اللهُ تعالى أرضًا غيرَها، تكونُ مستوِيةً ممتَدَّةً نظيفةً مِثلَ ميدانٍ صَخْريٍّ، ولن يكونَ فيها جبالٌ أو بحار، وسيَتجلَّى اللهُ عليها بما يليقُ بشأنِه، وستقامُ عدالتُه، وسيقفُ الملائكةُ صفوفًا، وسيتمُّ إحضارُ جهنَّم، وستكونُ حالةٌ من الأنانيّةِ المطلَقة، بحيث يكونُ كلُّ واحدٍ مشغولًا غايةَ الانشغالِ بنفسِه فقطْ، ولا يفكِّرُ في أحدٍ آخَرَ، وفي ذلك اليوم يُدركُ المنكِرونَ الحقيقةَ، ويندَمُونَ على إنكارِهم، لكنّ الاعترافَ والنَّدَم في ذلك اليوم لا ينفَعُ بشيءٍ. لأنه ليس يومَ عَمَلٍ، وإنما يومُ حساب.

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾

١٦ ـ في ذلك اليوم سيقولُ الطاغي والعاصي: ليتَني ادَّخرتُ شيئًا لهذه

---

(١) البخاري، كتاب الرقاق، باب ١٠ برقم ٦٤٣٦.
(٢) الدارمي، المقدمة، باب ٣٢.

الحياةِ الدائمة، لَكان قد نَفعَني اليومَ، ولكنّ النَّدَم في ذلك اليوم لا ينفَعُ بشيء، وحينَئذٍ سيُقيَّدُ بالأغلال، ويُلقَى في عذابٍ شديدٍ لا يمكنُ أن يَتصوَّرَه أحدٌ اليومَ.

﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾

١٧ ـ الإنسانُ الذي يتَّقي اللهَ تعالى ويخشاهُ، ويطمئنُّ حقيقةً بذِكرِه تعالى، هو ذلك السَّعيدُ الذي يأخُذُه اللهُ تعالى إلى جِوارِ رحمتِه، ويُبشِّرُه بأنّني قد قَبِلتُ كلَّ ما فعلتَه أنت من أَجْلِ إرضائي، ولهذا ارجِعْ إليّ لتنالَ الأجرَ العظيمَ على ذلك، وادخُلْ جنَّتي، وانضَمَّ إلى عبادي المخصُوصينَ المقرَّبين.

متى تُبشَّرُ النَّفْسُ المطمئنّةُ بهذه البُشرى؟ يرَى بعضُ أهل العلم أنّ هذه البُشرى ستكونُ عندَ الموت، ويرَى البعضُ الآخَرُ أنها ستكونُ يومَ القيامة عندَما يُبعَثُ الناسُ من قبورِهم، لكنّ الحافظَ ابنَ كثير يقول: «وهذا يقالُ لها عندَ الاحتضار، وفي يوم القيامة أيضًا، كما أنّ الملائكةَ يُبشِّرونَ المؤمنَ عندَ احتضارِه وعندَ قيامِه من قبرِه، وكذلك هاهنا»[1].

يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَبّاس رضي الله عنهما عن هذه الآية: «نَزَلت وأبو بكرٍ جالسٌ، فقال: يا رسولَ الله، ما أُحسِنُ هذا. فقال: «أما إنّه سيقالُ لك هذا»[2].

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة المغرب من يوم الخميس ٢٣ ديسمبر ٢٠١٠م
الموافق ١٧ محرَّم ١٤٣٢هـ.

---

(١) تفسير ابن كثير، سورة الفجر (٨٩): الآية ٢٨.

(٢) المرجع السابق، سورة الفجر (٨٩): الآية ٢٨.

هذا، وقدِ اكتَمل بفَضْل الله تعالى وكرَمِه تفسيرُ سُورة «الفجر» في يوم واحد فقط، أي من ٢٢ إلى ٢٣ ديسمبر، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

❋ ❋ ❋

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٩٠) سُورَةُ البَلَدِ

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها: «البَلَدُ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأولى منها.

القسم بمدينة مكة

في بدايةِ هذه السُّورة أَقْسَم اللهُ تعالى بمدينةِ مكّةَ؛ لأنّ النبيَّ الكريم ﷺ يُقيمُ فيها، وذاتُ النبيِّ ﷺ عندَ الله تعالى مكرَّمةٌ غايةَ التكريم، ولهذا جُعِلَتْ مكةُ أيضًا مكرَّمةً.

الله تعالى يرى الجميع

في الآياتِ من ٥ إلى ٧ تنبيهٌ لأهل الدُّنيا بأنهم يُنفقونَ أموالًا طائلةً على أعمالٍ تافهة، ويتصوَّرونَ أنه لا أحدَ فوقَهم يُمكنُ أن يُحاسبَهم، وظَنُّهم هذا خطأٌ تمامًا؛ لأنّ اللهَ تعالى غالبٌ على الجميع، وهو يَرى إسرافَهم، وسوف يُحاسبُهم على كلِّ فَلْسٍ يُنفقونَه.

طريقا الخير والشر

من نهايةِ الآية رقم ١٠ وحتى آخِرِ السُّورةِ عَرَّف اللهُ تعالى الإنسانَ بطريقَي الخيرِ والشَّرِّ أولًا، ثم حدَّدَ له أعمالَ الخيرِ والعقائدَ الصَّحيحةَ، والتي يَستحِقُّ

الإنسانُ الجنةَ باختيارِها، وفي النهايةِ حدَّد له عقيدةَ الشرِّ، يعني: أنَّ الذي يُكذِّبُ بآياتِ الله تعالى يكونُ مستحِقًّا لنارِ جهنَّم.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة المغرب من يوم الجمُعة ٢٤ ديسمبر ٢٠١٠م
الموافق ١٨ محرَّم ١٤٣٢هـ.

❋ ❋ ❋

سُورَةُ البَلَدِ (٩٠)،

مكية (٣٥)، آياتها (٢٠)، ركوعها (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾

﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾

١ - يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «والبلَدُ: هي مكّةُ، أجمَعوا عليه. أي: أُقسمُ بالبلدِ الحرام الّذي أنت فيه، لِكرامتِك عليَّ وحُبّي لك»[١].

ويقولُ العلّامةُ الرازي: «كأنه تعالى عظَّم مكةَ من جهةِ أنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مقيمٌ بها»[٢].

لمكةَ المكرَّمةِ كثيرٌ من التشريفِ والتعظيم، منه مثلًا: أنّ بها بيتَ الله، ومقامَ إبراهيمَ، وبئرَ زَمْزَم، والصَّفا والمَرْوةَ، والحجرَ الأسودَ، وكلُّ عظَمةٍ من هذه تستحِقُّ

(١) تفسير القرطبي، سورة البلد (٩٠): الآية ٢.

(٢) التفسير الكبير، سورة البلد (٩٠): الآية ٢.

أن يُقسَمَ بها، لكنّ اللهَ تعالى أَقْسم بسببِه ﷺ، وكأنّ اللهَ تعالى يُعلنُ أنْ يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، كلُّ عظَمةٍ في مكةَ المكرَّمةِ تستحِقُّ التقديرَ، لكنّ قيامَك في هذه المدينةِ أمرٌ متفرِّدٌ، وهو المميِّزُ لها، ولهذا فإنّني أُقسمُ بهذه المدينةِ بِسببِك أنت.

فضل مكة المكرمة

ـ يقولُ سيّدُنا ابنُ عُمرَ رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال في منًى: «أَتدرُونَ أيُّ يومٍ هذا؟»، قالوا: اللهُ ورسولُه أعلم. فقال: «فإنّ هذا يومٌ حرامٌ. أفتَدرُونَ أيُّ بلدٍ هذا؟». قالوا: اللهُ ورسولُه أعلم. قال: «بلدٌ حرامٌ. أفتَدرُونَ أيُّ شهرٍ هذا؟». قالوا: اللهُ ورسولُه أعلم. قال: «شهرٌ حرامٌ». قال: «فإنّ اللهَ حرَّم عليكم دماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم، كحُرمةِ يومِكم (أي: يوم الحَجِّ) هذا، في شهرِكم (أي: ذي الحِجّة) هذا، في بلدِكم (أي: مكةَ المكرَّمةِ) هذا»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عبّاس رضي الله عنهما: لمّا خَرَج النّبيُّ ﷺ من مكّةَ إلى الغارِ (أي: غارِ ثَوْر) التَفَت إلى مكّةَ وقال: «اللهُمّ أنتِ أَحبُّ البلادِ إلى الله، وأنتِ أحبُّ البلادِ إليَّ، ولولا المشركونَ أهلُكِ أخرَجوني لَما خَرَجتُ منكِ»[٢].

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾

٢ ـ المرادُ بالوالدِ في هذه السُّورة: هو سيّدُنا آدمُ عليه السَّلام، وهو والدُ بني الإنسانِ جميعًا، والمرادُ بالأولادِ هنا هم: النَّسلُ الإنسانيُّ جميعًا، من البدايةِ وحتى قيام الساعة، وقد أَقْسم اللهُ تعالى ببني الإنسانِ جميعًا لأنّهم مخلوقاتٌ رائعةٌ لله تعالى على وَجْهِ الأرض[٣].

---

(١) البخاري، كتاب الحج، باب ١٣٣ برقم ١٧٤٢.

(٢) تفسير القرطبي، سورة محمد (٤٧): الآية ١٣.

(٣) «قال مجاهدٌ وقتادة والضّحّاك والحسن وأبو صالحٍ: ﴿وَوَالِدٍ﴾ آدم: عليه السّلام. ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ أي: =

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾

٣ ـ خُلِق الإنسانُ في شقاءٍ وتعب، يعني: منذُ النَّفَسِ الأولِ له في بطنِ أُمِّه، وإلى آخِر نَفَسٍ في حياتِه يمُرُّ بمصائبَ وشدائد، ويكَدُّ ويكدَحُ، وفي كلِّ لحظةٍ يُلاحقُه خطَرُ سكتةٍ قلبيَّة، أو هزَّةٌ أرضيّةٌ، أو حادثٌ مفاجئٌ، فينطفئُ مِصباحُ حياتِه فجأةً. لهذا فإنّ جسَدَ الإنسانِ، وقلبَه أو عقلَه، دائمًا مصابٌ بالشقاءِ والضغوطِ بشكلٍ أو بآخَرَ، وحياةُ المسلم بشكلٍ خاصٍّ كلُّها امتحانٌ وابتلاء، والإنسانُ الذي لا يتحمَّلُ الشقاءُ والتعبُ أثناءَ الاختبار، لا يمكنُ أن يَنجَح.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾

٤ ـ إذا فَهِم هذا الإنسانُ المُحاطُ بالمخاطرِ أنه لا يوجَدُ مَن هو أعلى منه ويستطيعُ محاسبتَه، فإنّ هذا حماقةٌ منه وجَهْل؛ لأنّ الذي خَلَق الإنسانَ هو الذي سيُحاسبُه يقينًا.

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾

٥ ـ أهلُ الدُّنيا يُنفقونَ أموالًا طائلةً في أعمالٍ تافهةٍ بغَرَضِ إظهارِ شأنِهم وعظَمتِهم الدُّنيويّة، ثم يتَفاخَرونَ بهذا الإنفاقِ الذي لا طائلَ من ورائه، معَ أنّ لهم جيرانًا يموتونَ من الجُوع والعَطَش، ولا يعطِفونَ عليهم ولو بلقمةٍ واحدة. ينبغي لأمثالِ هؤلاءِ الأنانيِّينَ من البشَرِ أن يفكِّروا لو أنّ أموالَهم هذه كلَّها ضاعَتْ في حادثٍ أو في زِلزال، فماذا هم فاعلونَ عندَئذٍ؟ كما أنّهم إن كانوا يظُنُّونَ أنه لا أحدَ يرى إسرافَهم وسَفَهَهم في الإنفاق، فإنّ هذا من سُوءِ فَهْمِهم؛ لأنّ اللهَ تعالى الذي

= وما نسل من ولده. أقسم بهم لأنّهم أعجب ما خلق الله تعالى على وجه الأرض». تفسير القرطبي.

أعطاهم هذا المالَ الوفير، يَرى إسرافَهم في الإنفاق، وسوف يُحاسبُهم في الوقتِ المناسبِ على كلِّ فَلْسٍ من أموالِهم.

﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ﴾

٦ ـ في هذه الآياتِ ذَكَر اللهُ تعالى بعضَ نِعَمِه المُهمَّة، حتى يتَدبَّرَ فيها الإنسانُ، ويَعرِفَ من خلالِها خالقَه الحقيقيَّ، يعني: أنّ اللهَ تعالى أعطَى للإنسانِ عينَيْنِ يَرى بهما، وشَفَتَيْنِ يَحمي من خلالِهما فمَه من الترابِ والغُبار، وأعطاه لسانًا يتكلَّمُ به ويَنطِق.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو حازِم رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ اللهَ تعالى قال: يا ابنَ آدم، إنْ نازَعَك لسانُكَ فيما حرَّمتُ عليك، فقد أعَنْتُكَ عليه بطبقَيْنِ (أي: بشَفَتَيْنِ)، فأَطبِقْ (حتى لا يتكلَّمَ بحرام)، وإن نازَعَك بصَرُك فيما حرَّمتُ عليك، فقد أعنْتُكَ عليه بطبقَيْنِ (أي: بجَفْنَيْنِ)، فأَطْبِقْ (حتى لا يرى حرامًا)»[1].

﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾

٧ ـ أَنْعم اللهُ تعالى على الإنسانِ بنِعَمٍ لا تُعَدُّ ولا تُحصَى، ثم إنه لم يَترُكْه هكذا كالجَمَل بلا زِمام، يَصُولُ ويَجُولُ في الصحراءِ كيف يشاء، وإنّما أرسَلَ لهدايتِه الأنبياءَ الكرامَ عليهمُ السَّلام، وهم الذين وَضَّحوا له طريقَي الخيرِ والشَّرِّ كلَيْهما، وأَخْبَره في الوقتِ نفسِه بمصيرِه، أي: أنه سيَدخُلُ الجنةَ فيما لوِ اختارَ طريقَ الخير، وسيَدخُلُ جهنَّمَ فيما لوِ اختارَ طريق الشرِّ، والقرارُ الآنَ في يدِ الإنسانِ نفسِه؛ أيَّ طريقٍ يختار؟ وإلى أين يريدُ أن يذهَبَ؟

---

(١) تفسير القرطبي، سورة البلد (٩٠): الآية ٨.

رُويَ عن سيّدِنا قَتادةَ رضي اللهُ عنه: أنّ النبيَّ ﷺ قال: «يا أيّها النّاسُ، إنّما هما النَّجْدانِ: نَجْدُ الخَيْر، ونَجْدُ الشّرِّ، فلم نَجعَلْ نجدَ الشّرِّ أحبَّ إليكَ من نَجْدِ الخير»[1].

﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾

٨ - يقالُ للطَّريقِ الوَعِر في الجبال: «العَقَبةُ»، وقد عَبَّر اللهُ تعالى في هذه الآيةِ عن طريقِ الخيرِ بالعَقَبة؛ لأنّ الإنسانَ يُنفقُ فيه على خلافِ رغبتِه وهوى نفسِه وحبِّه للظُّهور، ولأنّ المُغرَمينَ بالدُّنيا المتكالِبينَ عليها يُنفقونَ بغَرَضِ الظُّهورِ والرِّياءِ فقط، لهذا لا يختارونَ طريقَ الخير.

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾

٩ - في الآياتِ من ١٣ إلى ١٦ جاء ذِكرُ تلك الأعمالِ التي تتعلَّقُ بالمالِ والثَّروة، يعني: أنّ اللهَ تعالى عندَما يُعطي أحدًا وَفْرةً في المال، ينبغي له أن يُنفقَ منه على عِتقِ الرِّقابِ وتحريرِ العبيد، وقد ظَلَّ الرِّقُّ رائجًا عندَ العربِ لفترةٍ طويلة، وكان من الصَّعبِ القضاءُ عليه بشكلٍ فَوْري، لكنّ الإسلامَ بشَّر من يُعتِقُ الرِّقابَ بالأَجْرِ والثواب، بل وأمَرَ بتحريرِ الرِّقابِ في عديدٍ من الكَفّارات، وكان نتيجةَ ذلك أنِ انتَهى الرّقُّ تدريجيًّا، واليومَ لا يوجَدُ في العالَم الإسلاميِّ كلِّه أيُّ وجودٍ للعبيدِ والإماء.

فضل عتق الرقاب

- يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن أَعتَقَ رَقَبةً مؤمنةً، أعتَقَ اللهُ بكلّ إربٍ منها إربًا منه من النّار»[2].

---

(١) تفسير القرطبي، سورة البلد (٩٠): الآية ١٠.

(٢) مسلم، كتاب العتق، باب ٥ برقم ٣٧٩٥.

ـ يقولُ سيّدُنا البراءُ بنُ عازبٍ رضيَ الله عنه: جاء أعرابيٌّ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلَّم فقال: يا رسولَ الله، علِّمْني عملًا يُدخلُني الجنّةَ، قال: «أعتِقِ النَّسمةَ وفُكَّ الرَّقبَة»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا معاذُ بنُ جَبَل رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال له: «يا معاذ، ما خَلَق اللهُ شيئًا على وَجْه الأرض أحبَّ اليه من العِتَاق، ولا خَلَق اللهُ شيئًا على وَجْهِ الأرض أبغَضَ اليه من الطَّلاق»(٢).

﴿أَوۡ إِطۡعَـٰمٌ فِي يَوۡمٍ ذِي مَسۡغَبَةٍ﴾

١٠ ـ إطعامُ الفقراءِ والمحتاجينَ فيه أجرٌ وثوابٌ عظيم، لكنّ ثوابَ إطعام الجائع في أيام المَجاعةِ أعظَمُ.

فضل إطعام الطعام

ـ يقولُ سيّدُنا أبو سَعيد الخُدريُّ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «أيُّما مسلمٍ كَسَا مسلمًا ثوبًا على عُرْيٍ كَسَاهُ اللهُ من خُضْرِ الجنّة، وأيُّما مسلمٍ أطعَمَ مسلمًا على جُوعٍ أطعَمَه اللهُ من ثمارِ الجنّة، وأيُّما مسلمٍ سَقَى مُسلمًا على ظَمَإٍ سَقاهُ اللهُ من الرَّحيق المختوم»(٣).

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَبّاس رضي الله عنهما: إنه سَمِع رسولَ الله ﷺ يقول: «ليس المؤمنُ الّذي يَشبَعُ وجارُه جائعٌ إلى جنبِه»(٤).

---

(١) شعب الإيمان، باب في العتق، ٤: ٦٥ برقم ٤٣٣٥.

(٢) مشكاة المصابيح، كتاب النكاح، باب الخلع والطلاق برقم ٣٢٩٤، وسنن الدارقطني، كتاب الطلاق، ٤: ٢٣ برقم ٣٩٣٩.

(٣) أبو داود، كتاب الزكاة، باب ٤١ برقم ١٦٨٢.

(٤) مشكاة المصابيح، كتاب الآداب، باب الشفقة: الفصل الثالث برقم ٤٩٩١.

- يقولُ جابرُ بنُ عبد الله رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ مِن موجِباتِ المغفرةِ إطعامَ المسلم السَّغْبان»[١].

- يقولُ حِبّانُ بنُ أبي جَبَلةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «أسرعُ صَدَقةٍ تصعَدُ إلى السّماءِ أن يَصنَعَ الرّجلُ طعامًا طيّبًا ثمّ يَجمَعُ عليه ناسًا من إخوانِه (أي: من المسلمين)»[٢].

- يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَمْرٍو رضي اللهُ عنهما: إنّ رجُلًا، سأل النّبيَّ ﷺ: أيُّ الإسلام خيرٌ؟ قال: «تُطعمُ الطّعام، وتَقرَأُ السّلامَ على مَن عَرَفتَ ومَن لم تعرِفْ»[٣].

- ذاتَ مرة، أعَدَّ سيّدُنا عُمرُ بن الخَطّاب رضي الله عنه حَلْوى من التمرِ واللَّبَن، وفي تلك الأثناءِ جاء مِسكينٌ، فأعطاهُ سيّدُنا عُمرُ رضي الله عنه الحَلوى، فقال واحدٌ من الجلوسِ في المجلس: كيف لمسكينٍ كهذا أن يَعرِفَ قَدْرَ هذه الحَلوى اللّذيذة؟ فقال سيّدُنا عُمرُ رضي الله عنه: لكنّ ربَّ هذا المسكينِ يَعلَمُ ما هذا[٤].

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾

١١ - في كفالةِ اليتيم ثوابٌ عظيم، ولكنْ عندَما يكونُ اليتيمُ من الأقارِب، فإنّ ثوابَ كَفالتِه مضاعَفٌ، ثوابٌ للصَّدَقةِ نفسِها، وثوابٌ لصِلة الرَّحِم. ولمزيدٍ من التفصيل عن كفالةِ اليتيم راجع الحاشيةَ رقم ١١ للآية رقم ١٧ من سُورة الفجر (٨٩).

---

(١) كنز العمال، ٦: ٤٢٤ برقم ١٦٣٧٢.

(٢) كنز العمال، ٦: ٤٢٣ برقم ١٦٣٦٩.

(٣) البخاري، كتاب الإيمان، باب ٦ برقم ١٢.

(٤) تفسير ضياء القرآن، سورة المزمل (٧٣): الآية ٢٠، ٥: ٤١١.

﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾

١٢ ـ المرادُ به: المسكينُ للغاية، وهو: الذي لا يَملِكُ حتى بيتًا يعيشُ فيه، ويَقضي ليلَه نائمًا على التراب. ولمزيدٍ من التفصيل حولَ مساعدةِ المسكينِ راجع الحاشيةَ رقم ١٢ للآيةِ رقم ١٨ من سُورة الفجر (٨٩).

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾

١٣ ـ يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ في تفسير هذه الآية: «فإنّ شَرْطَ قَبول الطاعات الايمانُ بالله»[1]، مثلَما قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾

١٤ ـ في هذه الآيةِ جاءتِ الإشارةُ إلى خصُوصيّةٍ أساسيّةٍ من خصُوصيّاتِ المجتمَع الإسلامي، يعني: أنّ شأنَ أهل الإيمانِ هو أنّهم يَصبِرونَ على المصاعبِ التي تواجِهُهم في طريقِ الدِّين، وينصَحونَ غيرَهم بالصَّبرِ أيضًا، ويَعطِفونَ على الآخَرين في وقتِ شدائدِهم، وينصَحونَ الآخَرينَ بالرحمة، وهؤلاءِ هم السُّعَداءُ الذين سيُعطَوْنَ صُحُفَ أعمالِهم في أيديهم اليُمنى، وسيَدخُلونَ الجنّةَ.

النصح

ـ يقولُ سيّدُنا تميمٌ الداريُّ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «الدِّينُ النَّصيحة»،

(١) تفسير القرطبي، سورة البلد (٩٠): الآية ١٧.

قلنا: لمن؟ قال: «للهِ ولكتابِه ولرسولِه ولأئمّةِ المسلمينَ وعامّتِهم (أي: حبُّ الخيرِ لهم)»[١].

المرادُ بالنَّصيحةِ: الإخلاصُ للآخَر وحُبُّ الخيرِ له، وللإخلاصِ والنُّصح مكانةٌ أساسيّةٌ في الإسلام، والنُّصحُ لله يعني: الإيمانَ بذاتِه تعالى وصفاتِه، وطاعةَ أحكامِه، والنَّصيحةُ لكتابِ الله تعالى تعني: تحصيلَ علم القرآنِ الكريم ونَشْرَ تعاليمِه، والنَّصيحةُ لرسولِ الله ﷺ تعني: التصديقَ برسالتِه ونُبوَّتِه وطاعةَ أحكامِه، والنَّصيحةُ لأئمةِ المسلمينَ تعني: طاعتَهم طالما تجَلَّى الإسلامُ في أقوالِهم وأفعالِهم، والنَّصيحةُ لعامَّةِ المسلمينَ تعني: أن يُحبَّ كلٌّ منهم الخيرَ للآخَر، إذ إنّ الإيمانَ لا يكتملُ بدونِ ذلك.

ـ يَروي سيّدُنا أنسٌ رضي الله عنه، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «لا يؤمنُ أحدُكم حتّى يُحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسِه»[٢]، بل إنه يجبُ التعاملُ بشكل طيِّب معَ غيرِ المسلمينَ أيضًا، مثلَما يقولُ سيّدُنا معاذُ بنُ جَبَل، من أنه سألَ رسولَ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم عن أفضلِ الإيمان، قال: «أفضَلُ الإيمانِ أن تُحبَّ لله وتُبغضَ في الله، وتُعمِلَ لسانَك في ذكرِ الله»، قال: وماذا يا رسولَ الله؟ قال: «وأن تُحبَّ للنّاس ما تُحبُّ لنفسِك وتَكرَه لهم ما تكرَهُ لنفسِك، وأن تقولَ خيرًا أو تصمُتَ»[٣].

ـ يَروي سيّدُنا جَريرُ بن عبد الله رضي الله عنه قصّةَ إسلامِه قائلًا: إنّ رسولَ الله ﷺ جَعَله يُسْلمُ على شَرْطِ أن أنصَحَ كلَّ مسلم وأُحبَّ الخيرَ له، فقَبلَ الشَّرطَ وبايَعَ على الإسلام، ثم لم يَترُكِ النَّصيحةَ للمسلمين وحبّ الخيرِ لهم ما بقيَ حيًّا.

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٢٣ برقم ١٩٦.

(٢) البخاري، كتاب الإيمان، باب ٧ برقم ١٣.

(٣) مسند أحمد، ٥: ٢٤٧ برقم ٢٢٤٨٣.

وتأمَّلْ فيما يلي واقعةً من حياةِ سيّدِنا جَريرِ بن عبدِ الله رضي الله عنه:

يقولُ العلّامةُ بدرُ الدِّين العَيْنيُّ: «إنّ غُلامَه (أي: غُلامَ سيّدِنا جَريرِ بن عبد الله) اشتَرى له فرسًا بثلاثِمائة، فلمّا رآهُ جاء إلى صاحبِه فقال: إنّ فرَسَك خيرٌ من ثلاثِمائة، فلم يزَلْ يزيدُه حتّى أعطاهُ ثمانِمائةٍ (كأنه قال له: من الممكنِ أن تكونَ لا تَعرِفُ ثمنَ الفرس، أو أنك مضْطَرٌّ إلى بَيْعِه بسُرعة، لكنّي لن أستغلَّ حاجتَك، ولهذا أعطاهُ سيّدُنا جَريرٌ خمسَمائةٍ أخرى) وقال: بايَعتُ رسولَ الله ﷺ على النُّصح لكلِّ مسلم»[١]. يا إلهي، وفِّقْنا اليومَ أيضًا إلى مِثل هذا الناصح المحِبِّ لخيرِ الآخَرين، حتى لا يستغلَّ مسلمٌ سَذاجةَ وبَساطةَ أخيه المسلم، أو حاجتَه واضطرارَه.

الصبر

ـ يقولُ سيّدُنا صُهَيبٌ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «عجَبًا لأمرِ المؤمن، إنّ أمرَه كلَّه خيرٌ، وليس ذاك لأحدٍ إلّا للمؤمن، إن أصابَتْه سَرّاءُ شَكَر فكان خيرًا له، وإن أصابَتْه ضَرّاءُ صَبَر فكان خيرًا له»[٢]، ويقولُ أهلُ العلم: إنّ النِّعمةَ التي يَتْبَعُها شُكرٌ، والمصيبةُ التي يَتبَعُها صَبْرٌ، كلاهما إحسانٌ من الله تعالى وفضلٌ عظيم، أمّا النِّعمةُ التي يَتبعُها تكبُّر، والمصيبةُ التي يَتْبعُها عَدَمُ صبرٍ، فكلاهما مصيبةٌ وعذابٌ من اللهِ تعالى.

الرحمة والعطف

ـ يقولُ سيّدُنا جَريرُ بن عبد الله رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا يَرحَمُ اللهُ من لا يَرحَمُ النّاسَ»[٣].

---

(١) عمدة القاري، ١: ٣٢٣.

(٢) مسلم، كتاب الزهد، باب ١٣ برقم ٢٩٩٩.

(٣) البخاري، كتاب التوحيد، باب ٢ برقم ٧٣٧٦.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: قَبّلَ رسولُ الله ﷺ الحَسَنَ بنَ عليٍّ وعندَه الأقرَعُ بنُ حابسٍ التّميميُّ جالسًا. فقال الأقرَعُ: إنّ لي عشَرةً من الوَلَدِ ما قَبّلتُ منهم أحدًا. فنَظَر إليه رسولُ الله ﷺ ثمّ قال: «من لا يَرحَمْ لا يُرحَمْ»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه: جاء شيخٌ يريدُ النّبيَّ ﷺ، فأبطَأَ القومُ عنه أن يُوسِّعوا له، فقال النّبيُّ ﷺ: «ليس منّا من لم يَرحَمْ صغيرَنا و(لم) يوقِّرْ كبيرَنا»(٢).

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَمْرٍو رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «الرّاحِمونَ يرحَمُهم الرّحمن، ارحَموا مَن في الأرضِ يرحَمْكم مَن في السّماء»(٣).

ـ يقولُ سيّدُنا النُّعمانُ بن بَشِير رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «تَرى المؤمنينَ في تراحُمِهم وتوادِّهم وتعاطُفِهم كمَثَلِ الجسَدِ إذا اشتكَى عضوًا تَداعَى له سائرُ جسَدِه بالسَّهَرِ والحُمَّى»(٤).

ـ يقولُ سيّدُنا أبو موسى الأشعريُّ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «المؤمنُ للمؤمنِ كالبُنْيانِ، يشُدُّ بعضُه بعضًا»، ثمّ شَبَّك بينَ أصابعِه(٥).

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «المسلمُ أخو المسلم، لا يَظلِمُه ولا يُسلِمُه، ومن كان في حاجةِ أخيه كان اللهُ في حاجتِه، ومَن فَرَّج عن مسلمٍ كُربةً فَرَّج اللهُ عنه كُربةً من كُرُباتِ يوم القيامة، ومَن سَتَر مسلمًا سَتَرَه اللهُ يومَ القيامة»(٦).

---

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب ١٨ برقم ٥٩٩٧.
(٢) الترمذي، أبواب البر، باب ١٥ برقم ١٩١٩.
(٣) الترمذي، أبواب البر، باب ١٦ برقم ١٩٢٤.
(٤) البخاري، كتاب الأدب، باب ٢٧ برقم ٦٠١١.
(٥) البخاري، كتاب الأدب، باب ٣٦ برقم ٦٠٢٦.
(٦) البخاري، كتاب المظالم، باب ٣ برقم ٢٤٤٢.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾

١٥ ـ الذين يُنكِرونَ وجودَ الله تعالى سيُعطَوْنَ صُحُفَ أعمالِهم في أيديهم اليُسرى، ثم يُلقَوْنَ في جهنَّمَ، وتُغلَقُ عليهم أبوابُها، ويَخلُدونَ فيها إلى الأبد.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعد صلاة العصر من يوم السبت ٢٥ ديسمبر ٢٠١٠م
الموافق ١٩ محرَّم ١٤٣٢هـ.

هذا، وقدِ اكتَمَل بفَضْل الله وكرَمِه تفسيرُ سُورة «البلد» في يوم واحدٍ فقط، أي: من ٢٤ إلى ٢٥ ديسمبر، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيِّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

(٩١) سُورَةُ الشَّمْسِ

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها: «الشّمسُ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى منها.

عماد النجاح والفشل

في النِّصفِ الأولِ من هذه السُّورةِ أَقْسَم اللهُ تعالى عدةَ مراتٍ مؤكِّدًا تأكيدًا تامًّا على حقيقةٍ أظهَرَها وأبانَ عنها، وهي أنّ من طَهَّر نفسَه من الكُفرِ والشِّرك، فقد أَفْلح، ومنِ ابتَلَى نفسَه بالذنوبِ فقد خَسِر وفَشِل.

قصة قوم ثمود

في النِّصفِ الأخيرِ من هذه السُّورةِ جاء تذكيرُ كفّارِ مكّةَ بقصّةِ طُغيانِ قوم ثمودَ ومصيرِهم المؤلم؛ لأنّ كفّارَ مكّةَ قد رأَوْا بأعيُنِهم في أسفارِهم التِّجاريّة منازلَ قوم ثمودَ المدمَّرةَ، وكانت قَصَصُ دمارِهم وهلاكِهم مشهورةً في أرجاءِ الجزيرةِ العربيّةِ أيضًا، ويَجري تنبيهُ كفّارِ مكةَ من خلالِ هذه الوقائع بأنّكم إنْ لم تَرجِعوا أنتم أيضًا عن طُغيانِكم وعصيانِكم، فسيَنزِلُ العذابُ عليكم أيضًا، ولهذا ينبغي أن تَعتبِروا من قوم ثمودَ، وتؤمنوا برسُولِكم الكريم ﷺ.

الفقيرُ إلى الله: محمّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة المغرب من يوم الأحد ٢٦ ديسمبر ٢٠١٠م
الموافق ٢٠ محرَّم ١٤٣٢هـ.

سُورَةُ الشَّمْسِ (٩١)،

مكية (٢٦)، آياتها (١٥)، ركوعها (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾

١ ـ المرادُ بمجيء القمرِ بعدَها أنّ القمرَ يَظهَرُ بعدَ غروبِ الشّمسِ من النِّصفِ الأولِ من الشهرِ القَمَري.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾

٢ ـ يعني: أنّ النهارَ يُظهِرُ الشمسَ، واللَّيلَ يُخفيها ويَستُرُها.

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾

٣ ـ قَسَمًا بالنَّفْس، وبالذاتِ المقدَّسةِ التي خَلَقتْ أعضاءَ الإنسانِ الظاهرةَ

وقلبَه وعقلَه بطريقةٍ متوازِنةٍ جميلة، ثم مَنَحَه إدراكَ طريقَي الخيرِ والشرِّ، وعرَّفَه كذلك بعاقبةِ كلٍّ من الطريقَيْنِ عن طريقِ الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾

٤ ـ في النِّصفِ الأولِ من هذه السُّورةِ أَقْسَم اللهُ تعالى عدةَ مراتٍ مؤكِّدًا تأكيدًا تامًّا على حقيقةٍ أظهَرَها وأبانَ عنها، وهي: أنّ مَن طهَّر نفسَه من الكُفرِ والشِّرك فقد أَفْلح، ومن ابتَلَى نفسَه بالذنوبِ فقد خَسِر وفَشِل.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾

٥ ـ في النِّصفِ الأخيرِ من هذه السُّورة جاء تذكيرُ كفّارِ مكةَ بقصّةِ طُغيانِ قوم ثمودَ ومصيرِهم المؤلم؛ لأنّ كفّارَ مكةَ قد رأَوْا بأعيُنِهم في أسفارِهم التِّجارية منازلَ قوم ثمودَ المدمَّرَة، وكانت قَصَصُ دمارِهم وهلاكِهم مشهورةً في أرجاءِ الجزيرةِ العربيّةِ أيضًا، ويَجري تنبيهُ كفّارِ مكّةَ من خلالِ هذه الوقائع بأنّكم إن لم تَرجِعوا أنتم أيضًا عن طُغيانِكم وعصيانِكم، فسيَنزِلُ العذابُ عليكم أيضًا، ولهذا ينبغي أن تَعتبِروا من قوم ثمودَ، وتؤمنوا برسُولِكم الكريم ﷺ، هذا وقد مَرَّ الحديثُ عن أحوالِ قوم ثمودَ في عدةِ مواضعَ، وفيما يلي ملخَّصُ هذه القصّة:

كان قومُ ثمودَ مشركين، وكانوا يَقْطُنونَ المنطقةَ ما بينَ الحجازِ والشام، وقد دعاهم سيِّدُنا صالحٌ عليه السَّلامُ إلى التوحيد، فطالَبوه قائلين: إن كنتَ نبيًّا حقًّا فأَخْرجْ لنا من هذه الصَّخرةِ الحَجَريّة ناقةً حيّةً، وهكذا دَعَا سيِّدُنا صالحٌ عليه السَّلامُ اللهَ تعالى، وأَخْرجَ اللهُ تعالى من الصَّخرةِ الحَجَريّةِ ناقةً حيّةً، فقال سيِّدُنا صالحٌ عليه السَّلامُ لقومِه: هذه الناقةُ دليلُ نُبوَّتي، وآيةٌ على قُدرةِ الله تعالى، ولهذا دَعُوها حرّةً تأكلُ من حيثُ تشاء، ولا يُضايِقْها أحدٌ، وفي نفسِ الوقتِ أَخْبرَ سيِّدُنا

صالحُ عليه السَّلامُ قومَه بأمرٍ من الله تعالى أنّ هذه الناقةَ ستشربُ يومًا، وفي اليوم التالي يشربُ قومُ ثمودَ، يعني: سيشربُ كلُّ فريقٍ في اليوم المحدَّد له، ولا يشاركُه في هذا اليوم الفريقُ الآخَرُ، وإلّا أصابَكم عذابٌ أليم.

يقولُ سيّدُنا جابرٌ رضي الله عنه: «فبَعَث اللهُ عزَّ وجلَّ إليهم النّاقةَ، فكانت تَرِدُ من ذلك الفجِّ فتشربُ ماءهم يومَ وِردِها ويَحلِبُونَ منها مثلَ الّذي كانوا يشربونَ يومَ غَبِّها»[1]. وكانت هذه الناقةُ بمثابةِ النِّعمةِ العظيمة لهم، فقد كانت تشربُ الماءَ يومًا، وفي اليوم التالي يشربُ هؤلاءِ لَبَنها بلا مقابل، لكنَّهم لم يُقدِّروا هذه النِّعمةَ حقَّ قَدْرِها، وذاتَ يوم سَلَّطوا عليها رجلًا تعيسًا منهم يقالُ له: قُدَارُ بنُ سَالِف لكي يقتُلَها، وهكذا قام هذا التَّعِسُ بقَطْع أرجُلِ الناقةِ أولًا، ثم قَتَلَها، ولأنّ قومَ ثمودَ كلَّهم كانوا مشتركينَ معَ هذا التَّعيس في هذه الجريمة، لهذا أَنْزلَ اللهُ تعالى العذابَ عليهم جميعًا، ودَمَّر قُراهم كلَّها وسَوَّى بهمُ الأرضَ.

ـ يقولُ سيّدُنا عليٌّ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «أتدري مَن أشقى الأوَّلين؟».

ـ قلت: اللهُ ورسولُه أعلم.

ـ قال: «عاقرُ النّاقة».

ـ قال: «أتدري من أشقى الآخِرين؟».

ـ قلتُ: اللهُ ورسولُه أعلم.

ـ قال: «قاتِلُك»[2].

---

(١) تفسير القرطبي، سورة القمر (٥٤): الآية ٢٨.

(٢) تفسير القرطبي، سورة الشمس (٩١): الآية ١٢.

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾

٦ ـ يعني لم يكن اللهُ تعالى بعد أن أَهْلَكَ قومَ ثمود يخشَى من أن يَنتقِم منه أحدٌ لهم، لأن الله تعالى غالبٌ على الجميع، وليس لدى مخلوقٍ من القوة ما يتحَدَّى بها حُكمَ اللهِ تعالى.

الفقيرُ إلى الله: محمّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، إنجلترا.
بعدَ صلاة المغرب من يوم الأحد ٢٦ ديسمبر ٢٠١٠م
الموافق ٢٠ محرّم ١٤٣٢هـ.

هذا، وقدِ اكتَمَل بفَضْل الله تعالى وكرَمِه تفسيرُ سُورة «الشمس» في ساعتين تقريبًا، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيِّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

❋ ❋ ❋

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(٩٢) سُورَةُ اللَّيْلِ

هذه السُّورةُ مكِّيةٌ، واسمُها: «اللَّيلُ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى منها.

الأعمال قسمان

في الآياتِ من ١ إلى ١١ أَقْسم اللهُ تعالى عدّةَ مراتٍ قائلًا: إنه كما أنّ النّهارَ واللَّيلَ والذَّكَرَ والأُنثى مختلفانِ عن بعضِهما ومتَضادّانِ، كذلك أعمالُ الإنسانِ مختلفةٌ ومتضادّةٌ أيضًا، فبعضُ الأعمالِ تَجعَلُ الإنسانَ مستحِقًّا للجنَّة، على سَبيل المثال: الشَّخصُ الذي يؤمنُ بالتوحيد، ويخشَى اللهَ تعالى، ويُنفقُ من مالِه في سَبيلِه، يُيسِّرُ اللهُ له طريقَ الجنة، وبعضُ الأعمالِ تَجعَلُ من صاحبِها مستحِقًّا لجهنَّمَ، على سَبيلِ المثال: الشَّخصُ الذي يُكذِّبُ بالتوحيد، ولا يُبالي بالآخِرة، ويَبخَلُ بمالِه، فإنّ اللهَ تعالى يُيسِّرُ له طريقَ جهنَّم، وفي النهايةِ يَدخُلُها خالدًا فيها.

النار الموقدة

في الآياتِ من ١٢ إلى ١٦ حَذَّر اللهُ تعالى من نارِ جهنَّمَ المشتعلةِ الموقَدة، وبرَغْم ذلك إذا كذَّب أحدٌ بالتوحيد، ولم يُبالِ بالآخِرة، ويَدخُلُ جهنَّمَ، فليس هناك مَن هو أكثرُ تعاسةً منه.

رضا الله تعالى

في الآياتِ من ١٧ إلى ٢١ جاء الإخبارُ بأنّ الشَّخصَ الذي يتَّقي اللهَ تعالى ويَخشاهُ، ويُنفقُ من مالِه على مخلوقاتِ الله، وذلك ليس بغَرَض ردِّ الجميل لأحد، وإنّما تطهيرًا لنفسِه وبحثًا عن رضَى اللهِ تعالى، وهذا هو السَّعيدُ الذي يَرضَى عنه ربُّه، وسيُجَنِّبُه جهنَّمَ، ويُدخِلُه الجنّةَ.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة العشاء من يوم الأحد ٢٦ ديسمبر ٢٠١٠م
الموافق ٢٠ محرَّم ١٤٣٢هـ.

❋ ❋ ❋

سُورَةُ اللَّيْلِ (٩٢)،

مكية (٩)، آياتها (٢١)، ركوعها (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾

١ - أَقْسَم اللهُ تعالى باللَّيلِ والنهار، والرجُلِ والمرأة، وأعلنَ حقيقةَ أنه كما أنّ النَّهارَ واللَّيلَ والذَّكَرَ والأُنثى مختلفانِ عن بعضِهما ومتضادّانِ، كذلك أعمالُ الإنسانِ مختلفةٌ ومتضَادَّةٌ أيضًا، فالبعضُ منكم تأخُذُه أعمالُه إلى جهنَّم، والبعضُ الآخَرُ تأخُذُه أعمالُه إلى الجنَّة، ولهذا فأنتم لستُم سواءً، مثلَما يقولُ اللهُ تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۚ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾

في هذه الآياتِ جاء ذِكرُ تلك الأعمالِ التي تَجعَلُ صاحبَها مستحِقًّا للجنّةِ،

يعني: يُنفِقُ من مالِ الله تعالى الذي أعطاهُ له في سَبيل الله، ويتَّقي اللهَ تعالى ويَخشاهُ دائمًا، ويؤمنُ بالحُسنى، أي: بالتوحيد، وبالتالي سنُيسِّرُ له نحن أيضًا طريقَ الجنَّة. يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَبّاس والضَّحاكُ: «﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: بلا إلهَ إلّا الله»[1].

﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ﴾

٣ ـ في هذه الآياتِ جاء ذِكرُ الأعمالِ التي تَجعَلُ الإنسانَ مستحقًّا لجهنَّم، يعني: أنه لا يُنفِقُ في سَبيل الله من مالِ الله الذي أعطاهُ له، ولا يُبالي بعذابِ الآخِرة، ويكذِّبُ بالتوحيد، وهذا الشَّخصُ سنُيسِّرُ نحن له أيضًا طريقَ جهنَّم، ولن يستطيعَ مالُه إنقاذَه من جهنَّمَ حين يَدخُلُها.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾

٤ ـ لقد خَلَقْنا الإنسانَ وأخَذْنا على عاتقِنا إرشادَه وهدايتَه، ولهذا أرسَلْنا الأنبياءَ الكرامَ عليهمُ السَّلامُ لِنُوفِّيَ بوَعْدِنا بهدايتِنا له، والآنَ يتوقَّفُ الأمرُ على الإنسانِ نفسِه بأنْ يترُكَ الباطلَ ويختارَ طريقَ الحقِّ، فإذا لم يَختَرْ طريقَ الحقِّ فلن يَضُرَّنا ذلك في شيءٍ، وفي نفسِ الوقت لن يستطيعَ الإفلاتَ من قَبْضتِنا؛ لأنّ مُلكَنا في الدُّنيا والآخِرة كلَيْهما، وسوف نُعاقبُه في الوقتِ المناسبِ على أفعالِه القبيحة.

﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾

٥ ـ لقد أَخْبَرناكَ عن النارِ الموقَدة، ورَغْمَ ذلك من يُكذِّبُ بالتوحيد، ويتجاهَلُ الآخِرةَ ويَدخُلُ جهنَّم، فهذا يعني أنه لا يوجَدُ من هو أكثرُ منه تعاسةً.

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾

٦ ـ جاء الإخبارُ في هذه الآياتِ بأنّ الذي يتَّقي اللهَ تعالى ويَخشاهُ، ويُنفِقُ

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الليل (٩٢): الآية ٦.

من مالِه على مخلوقاتِه، وذلك ليس بغَرَضِ ردِّ الجميل لأحدٍ، وإنّما تطهيرًا لنفسِه وبحثًا عن رضَى اللهِ تعالى، وهذا هو السَّعيدُ الذي يرضَى عنه ربُّه، وسيُجَنِّبُه جهنَّمَ، ويُدخِلُه الجّنةَ:

المثالُ الصَّادقُ على هذه الآياتِ هو سيّدُنا أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضي اللهُ عنه

يقول العَلّامةُ فخرُ الدِّين الرازي: «أجمَعَ المفسِّرونَ منّا على أنّ المرادَ منه أبو بكرٍ رضي اللهُ تعالى عنه»[1].

يقولُ سيّدُنا قَتادةُ رضي الله عنه: «نَزَلت (أي: آيةُ ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ﴾) في أبي بكر، أعتَقَ ناسًا لم يَلتمِسْ منهم جزاءً ولا شُكورًا، ستةً أو سبعةً، منهم بلالٌ، وعامرُ بنُ فَهيرةَ»[2].

لقد أَنْفقَ سيّدُنا أبو بكرٍ الصِّديقُ رضي اللهُ عنه ثروتَه من أَجْل رضَى الله تعالى فقطْ، وقبلَ الهجرةِ اشتَرى تسعةَ عَبيدٍ وإماءٍ أَسْلَموا حديثًا من مالكيهم الكُفّارِ وأعتَقَهم، أمّا بعدَ الهجرةِ فقد أَنْفقَ باقيَ ما يملِكُ من أَجْل الإسلام فقطْ، حتّى قَدَّم متاعَ بيتِه أيضًا إلى رسولِ الله ﷺ في مناسبةِ غزوةِ تَبُوك.

وفي هذه الآياتِ أكَّد اللهُ تعالى على أنّ سيّدَنا أبا بكرٍ الصدِّيقَ رضي الله عنه هو أعظمُ المتَّقين، وهذه هي أشرَفُ درجةٍ وأكرَمُها عندَ الله تعالى، مثلَما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٣].

ويقولُ المفسِّرونَ: إنّ هذه الآيةَ «نَزَلت في أبي بكرٍ رضي الله عنه، فيها دليلٌ واضحٌ على تفضيلِ أبي بكرٍ رضي اللهُ عنه وتقديمِه؛ لأنه أولُ مَن أَسْلمَ وأولُ مَن

---

(١) التفسير الكبير، سورة الليل (٩٢): الآية ١٧.

(٢) تفسير ابن جرير الطبري، سورة الليل (٩٢): الآية ١٩.

أَنْفقَ مالَه في سَبيل الله وذَبَّ عن رسولِ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم»(١).

ـ ويقولُ الإمامُ فَخْرُ الدِّين الرازي: «واعلَمْ أنّ الآيةَ دَلَّت على أنّ مَن صَدَر عنه الإنفاقُ في سَبيل الله، والقتالُ معَ أعداءِ الله قبلَ الفَتْح، يكونُ أعظمَ حالًا ممَّن صَدَر عنه هذانِ الأمرانِ بعدَ الفتح، ومعلومٌ أنّ صاحبَ الإنفاقِ هو أبو بكرٍ، وصاحبُ القتالِ هو عليٌّ، ثمّ إنّه تعالى قَدَّم صاحبَ الإنفاقِ في الذِّكر على صاحبِ القتال، وفيه إيماءٌ إلى تقديم أبي بكرٍ، ولأنّ الإنفاقَ من بابِ الرّحمة، والقتالُ من بابِ الغضَب، وقال تعالى: «سَبَقتْ رحمتي غَضَبي» فكان السَّبقُ لصاحبِ الإنفاق، فإن قيل: بل صاحبُ الإنفاقِ هو عليٌّ، لقولِه تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ [الإنسان: ٨]. قلنا: إطلاقُ القولِ بأنّه أَنْفقَ لا يَتحقَّقُ إلّا إذا أَنْفقَ في الوقائع العظيمةِ أموالًا عظيمةً، وذَكَر الواحديُّ في «البسيط» أنّ أبا بكرٍ كان أوّلَ من قاتَلَ على الإسلام، ولأنّ عليًّا في أوّلِ ظهورِ الإسلام كان صبيًّا صغيرًا، ولم يكنْ صاحبَ القتالِ، وأما أبو بكرٍ فإنّه كان شيخًا مقدَّمًا، وكان يَذُبُّ عن الإسلام حتّى ضُرِب بسببِه ضربًا أشرفَ به على الموت»(٢).

اشترى سيدنا أبو بكر الصديق سيدنا بلالًا رضي الله عنهما وأعتقه

يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَبّاس رضي الله عنهما: عَذَّب المشركونَ بلالًا، وبلالٌ يقولُ: أحدٌ أحدٌ، فمرَّ به النّبيُّ ﷺ فقال: «أَحَدٌ ـ يعني: اللهَ تعالى ـ يُنجِيكَ» ثمّ قال لأبي بكرٍ: «يا أبا بكرٍ، إنّ بلالًا يُعذَّبُ في الله»، فعَرَفَ أبو بكرٍ الّذي يريدُ رسولُ الله ﷺ، فانصَرفَ إلى منزِله، فأخَذَ رِطلًا من ذهبٍ، ومضَى به إلى أُميّةَ بنِ خَلَفٍ، فقال له: أتبيعُني بلالًا؟ قال: نعم، فاشتراهُ فأعتَقَه. فقال المشركون: ما

---

(١) صفوة التفاسير، وتفسير القرطبي، تفسير سورة الحديد (٥٧): الآية ١٠.
(٢) التفسير الكبير، سورة الحديد (٥٧): الآية ١٠.

أعتَقَه أبو بكرٍ إلّا ليدٍ كانت له عندَه، فنَزَلت: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ﴾[1].

فضل سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه

١ ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي اللهُ عنها: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «لا ينبغي لقومٍ فيهم أبو بكرٍ أن يؤمَّهم غيرُه»[2].

٢ ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «ما لأحدٍ عندَنا يدٌ إلّا وقد كافَيْناهُ ما خلا أبا بكرٍ، فإنّ له عندَنا يدًا يكافئُه الله بها يومَ القيامة، وما نفَعَني مالُ أحدٍ قطُّ ما نَفَعَني مالُ أبي بكرٍ، ولو كنتُ متّخِذًا خليلًا لاتَّخذتُ أبا بكرٍ خليلًا، ألا وإنّ صاحبَكم خليلُ الله»[3].

٣ ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي اللهُ عنها: قال لي رسولُ الله ﷺ في مرَضِه: «ادعي لي أبا بكرٍ وأخاكِ حتّى أكتُبَ كتابًا، فإنّي أخافُ أن يتَمنَّى متَمنٍّ ويقولَ قائلٌ: أنا أَوْلى. ويأبَى اللهُ والمؤمنونَ إلّا أبا بكرٍ»[4].

٤ ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي اللهُ عنها: لمّا مَرِضَ النّبيُّ ﷺ مرضَه الّذي مات فيه، أتاه بلالٌ يؤْذِنُه بالصّلاة، فقال: «مُروا أبا بكرٍ فلْيُصَلِّ»، قلتُ: إنّ أبا بكرٍ رجُلٌ أَسِيفٌ، إن يقُمْ مقامَك يَبْكِ فلا يَقدِرُ على القراءة. قال: «مُروا أبا بكرٍ فلْيُصَلِّ»، فقلتُ مِثلَه، فقال في الثّالثةِ أو الرّابعة: «إنّكُنَّ صَواحبُ يوسُف، مُروا أبا بكرٍ فلْيُصَلِّ». فصَلّى، وخَرَج النّبيُّ ﷺ يُهادَى بينَ رجُلَيْن، كأنّي أنظُرُ إليه يَخُطُّ برِجلَيْهِ الأرضَ، فلمّا رآهُ أبو بكرٍ ذَهَب يتأخَّرُ، فأشارَ إليه أنْ صَلِّ، فتأخَّر أبو بكرٍ ـ رضي الله

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الليل (٩٢): الآية ١٩.

(٢) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٤٢ برقم ٣٦٧٣.

(٣) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٣٤ برقم ٣٦٦١.

(٤) مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب ١ برقم ٦١٨١.

عنه ـ وقَعَد النّبيُّ ﷺ إلى جَنْبِه، وأبو بكرٍ يُسمِعُ النّاسَ التّكبيرَ[١].

٥ ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي الله عنها: إنّ أبا بكرٍ دَخَل على رسولِ الله ﷺ فقال: «أنت عتيقُ الله من النّار». فيومَئذٍ سُمِّي عَتيقًا[٢].

٦ ـ يقولُ سيّدُنا جُبَيرُ بنُ مُطعِمٍ رضي الله عنه: أتتِ امرأةٌ النّبيَّ ﷺ فأمَرَها أن تَرجِعَ إليه. قالت: أرأيتَ إن جئتُ ولم أجِدْكَ؟ كأنّها تقولُ: الموت. قال عليه السّلام: «إن لم تَجِديني فأْتي أبا بكرٍ»[٣].

٧ ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي الله عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال لأبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه: «أنت صاحبي على الحَوض، وصاحبي في الغار»[٤].

٨ ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «ما من مولودٍ إلّا وفي سُرَّتِه مِن تُربتِه التي يولَدُ منها، فإذا رُدَّ إلى أرذَلِ العمُرِ رُدَّ إلى تُربتِه التي خُلِق منها حتّى يُدفَنَ فيها، وإنّي وأبو بكرٍ وعُمَرُ خُلِقنا من تُربةٍ واحدةٍ وفيها نُدفَن»[٥].

٩ ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «ما من مولودٍ إلّا وقد ذُرَّ عليه من ترابِ حُفرتِه»، قال أبو عاصم: ما تَجِدُ لأبي بكرٍ وعُمرَ رضي الله عنهما فضيلةً مِثلَ هذه؛ لأنّ طينتَهما من طينةِ رسول الله صلى الله عليه وآلِه وسلم[٦]. ويقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَبّاس رضي الله عنهما: «يُدفَنُ كلُّ انسانٍ في التُّربةِ التي خُلِق منها»[٧].

---

(١) البخاري، كتاب الأذان، باب ٦٧ برقم ٧١٢.

(٢) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٤٦ برقم ٣٦٧٩.

(٣) البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي، باب ٥ برقم ٣٦٥٩.

(٤) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٣٩ برقم ٣٦٧٠.

(٥) كنز العمال، ١١: ٥٦٥ برقم ٣٢٦٧٣.

(٦) حلية الأولياء، ٢: ٣١٨ برقم ٢٣٨٩.

(٧) مصنف عبد الرزاق، ٣: ٥١٥ برقم ٦٥٣١.

١٠ - يقولُ سيّدُنا عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه: كنتُ معَ رسولِ الله ﷺ، إذْ طَلَع أبو بكرٍ وعُمرُ، فقال رسولُ الله ﷺ: «هذانِ سيِّدا كُهولِ أهل الجنّةِ من الأوّلينَ والآخِرينَ إلّا النّبيِّينَ والمرسَلين (لأنّ درجةَ النبيِّين أرفَعُ منهما). يا عليُّ، لا تُخبِرْهما»[1]، وفي روايةٍ أخرى، قال النبيُّ ﷺ: «لا تُخبِرْهما يا عليُّ ما داما حيَّيْنِ»[2].

١١ - يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «أتاني جِبريلُ فأخَذَ بيدي فأَراني بابَ الجنّةِ الّذي تَدخُلُ منه أُمّتي». فقال أبو بكرٍ: يا رسولَ الله، وَدِدتُ أنّي كنتُ معَك حتّى أنظُرَ إليه (أي: إلى وجهِك). فقال رسولُ الله ﷺ: «أمَا إنّك يا أبا بكرٍ أوّلُ مَن يَدخُلُ الجنّةَ من أُمّتي»[3].

١٢ - يقولُ سيّدُنا عبدُ الرَّحمن بنُ عَوْفٍ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ، قال: «أبو بكرٍ في الجنّة، وعُمرُ في الجنّة، وعثمانُ في الجنّة، وعليٌّ في الجنّة، وطلحةُ في الجنّة، والزُّبَيرُ في الجنّة، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ عوفٍ في الجنّة، وسعدٌ في الجنّة، وسَعيدٌ في الجنّة، وأبو عُبيدةَ بنُ الجَرّاح في الجنّة»[4].

١٣ - يقولُ سيّدُنا عُمرُ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «لقد همَمْتُ أن أبعَثَ رجالًا من أصحابي إلى ملوكِ الأرض يدعونَهم إلى الإسلام كما بَعَث عيسى ابنُ مريَمَ الحَواريِّين»، قالوا: ألا تَبعَثُ أبا بكرٍ وعُمرَ، فهما أبلَغُ؟ قال: «لا غِنى بي عنهما، إنّما منزِلتُهما من الدِّينِ كمنزلةِ السَّمْع والبصَرِ من الجسَد»[5].

١٤ - يقولُ سيّدُنا عليٌّ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «ما وُلِدَ في الإسلام

---

(١) الترمذي، أبواب المناقب، باب ١٦ برقم ٣٦٦٥.
(٢) ابن ماجه، كتاب السنة، باب ١١ برقم ٩٥.
(٣) أبو داود، كتاب السنة، باب ٨ برقم ٤٦٥٢.
(٤) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٢٥ برقم ٣٧٤٧.
(٥) كنز العمال، ١١: ٥٦٧ برقم ٣٢٦٧٤.

مولودٌ أزكى ولا أطهَرُ ولا أفضَلُ من أبي بكرٍ وعُمرَ»[١].

١٥ ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «أبو بكرٍ وعُمرُ خيرُ أهل السَّمواتِ والأرض، وخيرُ مَن بقيَ إلى يوم القيامة»[٢].

١٦ ـ يقولُ سيّدُنا سَفينةُ رضي الله عنه مَوْلى رسولِ الله ﷺ: «لمّا بَنى رسولُ الله ﷺ المسجدَ، جاء أبو بكرٍ رضي اللهُ عنه بحَجَرٍ فوَضَعَه، ثمّ جاء عُمرَ بحَجَرٍ فوَضَعَه، ثمّ جاء عثمانُ بحَجَرٍ فوَضَعَه، فقال رسولُ الله ﷺ : «هؤلاءِ وُلاةُ الأمرِ من بعدي (أي: واحدٌ تِلوَ الآخَر)»[٣]، وقال الإمامُ الحاكمُ: هذا حديثٌ صحيحُ الإسناد.

١٧ ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي الله عنها: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «أبو بكرٍ منّي وأنا منه، وأبو بكرٍ أخي في الدُّنيا والآخِرة»[٤].

١٨ ـ يقولُ سيّدُنا أبو الدَّرداءِ رضي الله عنه: رآني رسولُ الله أَمشي أمامَ أبي بكر، فقال: «يا أبا الدَّرداء، أتمشي أمامَ مَن هو أفضَلُ منكَ في الدُّنيا والآخِرة؟ فو الذي نَفْسُ محمّدٍ بيدِه، ما طَلَعتِ الشّمسُ ولا غَرَبت على أحدٍ بعدَ النّبيِّينَ والمرسَلين أفضَلَ من أبي بكرٍ»[٥].

١٩ ـ يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضيَ اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «حُبُّ أبي بكرٍ واجبٌ على أُمّتي»[٦].

٢٠ ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَمْرِو بن العاصِ رضي الله عنهما: إنه سَمِع

---

(١) كنز العمال، ١١: ٥٦٧ برقم ٣٢٦٨٥.
(٢) كنز العمال، ١١: ٥٦٧ برقم ٣٢٦٨٦.
(٣) مستدرك الحاكم، ٣: ١٤ برقم ٤٢٨٤.
(٤) كنز العمال، ١١: ٥٤٤ برقم ٣٢٥٠٠.
(٥) السيرة الحلبية، ٢: ٥٦.
(٦) المرجع السابق، ٢: ٥٦.

رسولَ الله ﷺ يقولُ: «أتاني جِبريلُ فقال: إنّ اللهَ تعالى يأمُرُكَ أن تَستشيرَ أبا بكرٍ»[1].

٢١ ـ يقولُ سيّدُنا أبو سَعيدٍ الخُدريُّ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «ما مِن نبيٍّ إلّا وله وَزيرانِ من أهل السّماءِ ووَزيرانِ من أهل الأرض، فأمّا وزيرايَ من أهلِ السّماء فجِبرئيلُ وميكائيلُ، وأمّا وزيرايَ من أهل الأرضِ فأبو بكرٍ وعُمرُ»[2].

ملحوظة

لقد جَمَعْنا هنا الأحاديثَ التي وَرَدت في فَضْل سيّدِنا أبي بكرٍ الصدِّيقِ رضي الله عنه في أماكنَ متفرِّقةٍ من تفسيرِ السُّوَر السابقة، ولكنْ يمكنُكَ مراجعةُ الحاشية رقم **٣٤** للآيةِ رقم **٢٩** من سُورة الفَتْح (**٤٨**) لمزيدٍ من التفصيلِ عن أفضَليّةِ سيّدِنا أبي بكرٍ الصدِّيقِ رضي الله عنه.

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾

٧ ـ أحدُ معاني هذه الآية: أنّ اللهَ تعالى سيَرضَى عن سيّدِنا أبي بكرٍ الصدِّيقِ رضي الله عنه؛ لأنه ضَحَّى بكلِّ شيءٍ من أَجْل رضَى الله تعالى، والمعنى الثاني: أنّ اللهَ تعالى سيُنعِمُ على سيّدِنا أبي بكرٍ الصدِّيقِ رضي الله عنه بنِعَمٍ كثيرةٍ في الجنّة، بحيث يرضَى سيّدُنا أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضيَ الله عنه عن ربِّه[3]، وهذا ببركةِ البُشْرى التي يُبشِّرُ بها اللهُ تعالى نبيَّه الكريمَ ﷺ في السُّورةِ التالية، يعني: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: **٥**].

---

(١) السيرة الحلبية، **٢**: **٥٦**.

(٢) الترمذي، أبواب المناقب، باب **١٧** برقم **٣٦٨٠**، وكنز العمال، **١١**: **٥٦٠** برقم **٣٢٦٤٧**.

(٣) «﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ أي: سوف يعطيه في الجنّة ما يرضي، وذلك أنّه يعطيه أضعاف ما أنفق».
تفسير القرطبي، سورة الليل (**٩٢**): الآية **٢١**.

رُويَ عن سيّدِنا عبدِ الله بن عُمرَ رضي الله عنهما، أنه قال: كنتُ عندَ النّبيِّ ﷺ وعندَه أبو بكرٍ وعليه عَباءةٌ قد خَلَّلها في صَدْرِه بخِلالٍ، فنَزَل جِبريلُ فقال: يا نبيَّ الله، ما لي أرى أبا بكرٍ عليه عباءةٌ قد خَلّلها في صَدْرِه بخلالٍ؟ فقال: «قد أنفقَ علَيّ مالَه قبلَ الفَتْح»، قال: فإنّ اللهَ يقولُ لكَ: اقرَأْ على أبي بكرٍ السّلامَ وقُلْ له: أراضٍ أنتَ في فقرِك هذا أم ساخطٌ؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «يا أبا بكرٍ، إنّ اللهَ عزَّ وجَلّ يقرَأُ عليكَ السّلامَ ويقولُ: أراضٍ أنت في فقرِك هذا أم ساخطٌ؟»، فقال أبو بكرٍ: أأَسخَطُ على ربّي؟ إنّي عن ربِّي لَراضٍ! إنّي عن ربّي لراضٍ! إنّي عن ربّي لراضٍ! قال: «فإنّ اللهَ يقولُ لك: قد رَضِيتُ عنك كما أنت عنّي راضٍ»، فبَكَى أبو بكرٍ، فقال جِبريلُ عليه السَّلامُ: والّذي بَعَثَك يا محمّدُ بالحقّ، لقد تخَلَّلتْ حَمَلةُ العرشِ بالعبيِّ منذُ تخَلَّل صاحبُك هذا بالعباءة[١].

وما أحسَنَ ما قال العلّامةُ محمدُ إقبال:

ـ ارفَعْ من ذاتِك حتى يسأَلَ اللهُ تعالى بنفسِه عبدَه قبلَ نزولِ القَدَر: أخبِرْني، ماذا يُرضيك؟

الفقيرُ إلى الله تعالى: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة العشاء من يوم الأحد ٢٦ ديسمبر ٢٠١٠م
الموافق ٢٠ محرَّم ١٤٣٢هـ.

هذا، وقدِ اكتَملَ بفَضْل الله تعالى وكرَمِه تفسيرُ سُورة «الليل» اليومَ في ساعةٍ ونصفِ الساعةِ تقريبًا، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

---

(١) التفسير المنير، وتفسير القرطبي، سورة الحديد (٥٧): الآية ١٠.

بسم الله الرحمن الرحيم

(٩٣) سورة الضحى

هذه السُّورةُ مكِّيّة، واسمُها: «الضُّحى»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى منها.

سبب نزول السورة

ذاتَ مرةٍ مرِضَ النبيُّ ﷺ، ولم ينهَضْ لصلاةِ التهجُّدِ لليلتَيْنِ أو ثلاثِ ليالٍ، ولأنّ بيتَ أبي لهبٍ عمِّ النبيِّ ﷺ كان مُلاصقًا لبيتِ النبيِّ ﷺ، لهذا أشاعَتْ زوجتُه أُمُّ جَميل سيِّئةُ الأدبِ بأنّ ربَّ محمدٍ ﷺ غَضِب منه وتَخَلَّى عنه، ولم يأتِهِ منذُ ليلتَيْنِ أو ثلاثٍ، ولهذا لم ينهَضِ النبيُّ ﷺ ليلًا كما كان يفعَلُ، فنَزَلت هذه السُّورةُ ردًّا عليها. وهناك قولٌ آخَرُ في سببِ نزولِ هذه السُّورةِ أيضًا، وهو بأنه عندَما توقَّف نزولُ الوحي على النبيِّ ﷺ لعدّةِ أيام قالت زوجةُ أبي لَهَب: يا محمد، أظُنُّ أنّ شيطانَك تخَلَّى عنكَ، فنَزَلت هذه السُّورةُ ردًّا عليها، يعني: أنّ اللهَ تعالى أَقْسم مرَّتَيْنِ قائلًا: يا أيُّها النبيُّ الحَبيب ﷺ، إنّ ربَّك لم يغضَبْ منك ولم يتَخَلَّ عنك، وهكذا بدَأَتْ هذه السُّورةُ بهذه البُشرى.

في كل لمحة رفعة

في الآياتِ من ٤ إلى ٥ بَشَّر اللهُ تعالى النبيَّ ﷺ بالبُشرى الثانية، وهي أنّ كلَّ لمحةٍ يرتفعُ شأنُك في الدُّنيا والآخِرة، وسوف يُعطيكَ ربُّك في الدُّنيا والآخِرة ما سيُرضيك.

تكريم ما قبل البعثة النبوية

في الآياتِ من ٦ إلى ٨ ذَكَّر اللهُ تعالى النبيَّ ﷺ بنِعَمِه التي أَنْعم بها عليه قبلَ البَعْثةِ النَّبويّة، يعني: أنك كنتَ يتيمًا، فأَنْعم اللهُ تعالى عليك بكفالةِ جدِّك وعمِّك الرَّحيمَيْنِ، وكنتَ هائمًا بمحبَّتي، فأوصَلتُكَ إلى منزلِك المقصود، وكنتَ في عُسرةٍ ماليّة، فأَغْناك اللهُ تعالى بزواجِك من السيّدةِ خديجةَ رضي اللهُ عنها.

التعليم والتربية

في الآياتِ من ٩ إلى ١٠ جاء الإرشادُ بالتعامُل برِفقٍ ولِينٍ بدَلًا من القسوةِ والشِّدة مَع المحتاجينَ والمَعُوزِينَ في المجتمع.

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «أدَّبَني ربِّي فأحسَنَ تأديبي»[١].

ذكر النعم والتحديث بها

في الآيةِ الأخيرةِ من السُّورة جاء الإرشادُ إلى النبيِّ ﷺ بأنْ حدِّث بالنِّعَم التي أَنْعم اللهُ بها عليك، حتى يَعلَمَ الناسُ عظَمةَ شأنِك، ويؤمنوا بك.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
قبلَ فجر يوم الثلاثاء ٢٨ ديسمبر ٢٠١٠م
الموافق ٢٢ محرَّم ١٤٣٢هـ.

---

(١) الجامع الصغير، ١: ٢٥ برقم ٣١٠، وكنز العمال، ١١: ٤٠٦ برقم ٣١٨٩٥.

سُورَةُ الضُّحَىٰ (٩٣)،

مكية (١١)، آياتها (١١)، ركوعها (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

﴿وَالضُّحَىٰ﴾

١ ـ في بدايةِ السُّورةِ أَقْسَم اللهُ تعالى مرَّتَيْنِ، يعني: قَسَمًا بوقتِ الضُّحى، حين تَطلُعُ الشمسُ وترتفعُ إلى كبِدِ السَّماء، وتنشُرُ نورَها في كلِّ اتِّجاه، وقَسَمًا باللَّيل الذي يُغطِّي ظلامُه كلَّ الأرجاء.

ما المراد بالضحى والليل؟

١ ـ المرادُ بالضَّحى: ظاهرُ النبيِّ الكريم ﷺ الذي لم يَرَ أحدٌ من المخلوقاتِ عيبًا فيه أبدًا، والمرادُ باللَّيل هو: باطنُ النبيِّ ﷺ الذي لم يَرَ اللهُ تعالى فيه عيبًا[1]،

---

(١) «ويحتمل: أقسم بعلانيتك الّتي لا يرى عليها الخلق عيبًا، وبسرّك الّذي لا يعلم عليه عالم الغيب عيبًا». التفسير الكبير، سورة الضحى (٩٣): الآية ١.

وكأنَّ اللهَ تعالى أَقْسَم بظاهرِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وباطنِه. يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «قال القاضي أبو بكرٍ ابنُ العَرَبيّ: قال المفسّرونَ بأَجْمَعِهم: أَقْسَم اللهُ تعالى ها هنا بحياةِ محمّدٍ ﷺ تشريفًا له، وهذا نهايةُ التّعظيم وغايةُ البرِّ والتّشريف. قال أبو الجَوْزاء: ما أَقْسَم اللهُ بحياةِ أحدٍ غيرَ محمّدٍ ﷺ؛ لأنّه أكرَمُ البَريّةِ عندَه»[1].

٢ ـ المرادُ بالضُّحى: وَجْهُ النبيِّ ﷺ المضيءِ، والمرادُ بالَّليل: شَعَرُ النبيِّ ﷺ الأسود[2]، وكأنَّ اللهَ تعالى قد أَقْسَم بوَجْهِ النبيِّ ﷺ المضيءِ وشعرِه الأسود.

وهناك ربطٌ لطيفٌ وجميلٌ بينَ وقتِ الضُّحى ووَجْهِ النبيِّ المصطفى ﷺ، فكما أنّ الشمسَ عندَ الضُّحى تكونُ قد أشرَقَتْ شروقًا تامًّا، ومَحَت كلَّ آثارِ ظلامِ اللَّيل، وغَطَّى نورُها على ضوءِ القمرِ والنُّجوم، وأثبَتَ وجودَه في كلِّ مكان، كذلك وَجهُ المصطفى ﷺ الذي أطَلَّ من فوقِ قمةٍ فارانَ وقضَى على كلِّ أثرٍ لظُلماتِ الباطل، وتفوَّقَ على كلِّ جميلٍ في الدُّنيا، وثَبَّت أركانَ حُسنِه وجَمالِه في كلِّ الأرجاء، وقد نَسَختْ شريعتُه ﷺ كلَّ الشرائع السابقةِ عليها.

وطالما كانتِ الشمسُ وراءَ سِتارٍ وحُجُبٍ يسيطرُ ضوءُ القمرِ والنُّجوم ويتلألأُ، ويكونُ ضوؤها وبَريقُها وسيلةً لهدايةِ وإرشادِ الناس، ولكنْ ما إن تَطلُعَ الشمسُ حتى يتَوارى القمرُ والنُّجوم، ويَخفُتُ ضوؤُها تمامًا، وهكذا طالما كان وجهُ المصطفى ﷺ وراءَ حجابٍ كانت الشُّهرةُ لحُسنِ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام وجَمالُه في مكان، وفي مكانٍ آخَرَ معجزةُ سيّدِنا عيسى عليه السَّلام، وفي مكانٍ ثالثٍ معجزةُ اليدِ البيضاءِ لسيّدِنا موسى عليه السَّلام، ولكنْ ما إن بَدَا وجهُ المصطفى ﷺ وأطَلَّ بنورِه وجَمالِه، حتى تَوارى خَلْفَه كلُّ جَمالٍ آخَرَ:

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الحجر (١٥): الآية ٧٢.

(٢) «هل أحدٌ من المذكرين فسّر الضّحى بوجه محمّدٍ واللّيل بشعره؟ والجواب: نعم، ولا استبعاد فيه». التفسير الكبير، سورة الضحى (٩٣): الآية ١.

- حُسنُ يوسُفَ ونفْسُ عيسى واليدُ البيضاءُ، كلُّ هذه المِيزاتِ تَملِكُها أنت وحدَك.

- يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَبّاس رضي الله عنهما: لمّا وُلِـد النّبيُّ ﷺ قال في أُذُنِه رضوانٌ خازنُ الجِنان: «أبشِرْ يا محمّد، فما بقيَ لنبيٍّ عِلمٌ إلّا وقد أُعطِيتَه، فأنت أكثرُهم علمًا وأشجَعُهم قلبًا»[١].

بعض ومضات من نور وجه المصطفى ﷺ

- تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي الله عنها: استَعرْتُ من حَفْصةَ بنتِ رَواحةَ إبرةً كنت أَخِيطُ بها ثوبَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلَّم، فسَقَطت عنِّي الإبرةُ، فطَلَبتُها فلم أقدِرْ عليها، فدَخَل رسولُ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم فتبيَّنَتِ الإبرةُ بشُعاع نُورِ وجهِه[٢].

- تقولُ السيِّدةُ حَليمةُ السَّعديّةُ رضيَ الله عنها: ما كنّا نَحتاجُ إلى السِّراج من يوم أَخَذْناهُ؛ لأنّ نُورَ وجهِه كان أنورَ من السِّراج، فإذا احتَجْنا إلى السِّراج في مكانٍ جِئْنا به فتنوَّرتِ الأمكنةُ ببَركتِه ﷺ[٣].

- أَخْرج ابنُ عساكرَ، أنّ أبا طالبٍ حينَ أَقْحطَ الوادي، استَسْقَى ومعَه النبيُّ ﷺ وهو غُلامٌ، فأَخَذَ أبو طالبٍ النبيَّ ﷺ وأَلْصقَ ظهرَه بالكعبة، ولاذَ النبيُّ ﷺ بإصبَعِه وما في السَّماءِ قَزْعة، فأَقْبلَ السَّحابُ من هاهنا وهاهنا، وأَغْدقَ وأَغْدق، وانفَجَر له الوادي، وفي ذلك قال أبو طالبٍ شعرًا:

---

(١) المواهب اللدنية، ١: ١٢٧.

(٢) كنز العمال، ١٢: ٤٢٩ برقم ٣٥٤٩٢.

(٣) التفسير المظهري، سورة النور (٢٤): الآية ٣٥.

وأبيضُ يُستَسْقَى الغَمامُ بوجهِهِ ثِمَالُ اليتامى عِصمةٌ للأراملِ(١)

ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه: ما عدَدتُ في رأسِ رسولِ الله ﷺ ولحيتِه، إلّا أربعَ عشْرةَ شعرةً بيضاءَ(٢).

إطلالات من جمال المصطفى ﷺ

يقولُ سيّدُنا جابرُ بنُ سَمُرةَ رضي الله عنه: رأيتُ رسولَ الله ﷺ في ليلةٍ إضْحِيَانٍ، فجَعَلتُ أنظُرُ إلى رسولِ الله ﷺ وإلى القمرِ وعليه حُلّةٌ حمراءُ، فإذا هو عندي أحسَنُ من القمر(٣).

ويقولُ سيّدُنا حَسّانُ بنُ ثابتٍ رضي الله عنه:

وأحسَنَ منك لم ترَ قطُّ عيني وأجمَلَ منكَ لم تلدِ النِّساءُ
خُلِقْتَ مُبَرَّأً من كلِّ عيبٍ كأنّك قد خُلِقتَ كما تشاءُ

تُرى، كم رأى سيّدُنا حَسّانُ بن ثابتٍ رضي الله عنه من الجمالِ وأصحابِ الجَمالِ في حياته؟ تعالَوْا بنا نسألْ سيّدَنا جِبريلَ الأمينَ عليه السَّلام، وهو الذي رأى أصحابَ الجَمال الفائقِ من زمنِ سيّدِنا آدمَ عليه السَّلامُ إلى زمنِ نبيِّ آخِرِ الزَّمان سيّدِنا محمدٍ ﷺ:

ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي الله عنها: إنّ النبيَّ ﷺ قال، عن جِبريلَ عليه السّلام، قال: «قَلَّبتُ مشارقَ الأرض، ومغاربَها، فلم أجِدْ رجلًا أفضَلَ من محمّدٍ ﷺ»(٤).

---

(١) التفسير المظهري، سورة النور (٢٤): الآية ٣٥.
(٢) مسند أحمد، ٣: ١٦٥.
(٣) الترمذي، أبواب الأدب: باب ٤٧ برقم ٢٨١١.
(٤) المعجم الأوسط، ٧: ١٥٥ برقم ٦٢٨١، ومجمع الزوائد، ٨: ٢١٧.

ـ قسمًا بكَ، لا يملأُ عيني جَمالٌ في الدُّنيا سوى جَمالِك، فماذا أفعَل؟

ـ الأفلاكُ تَطُوفُ ليلَ نهارَ بمصابيحِ الشَّمسِ والقمر، فلا تَجِدُ مثيلًا لسيِّدِ العالَم.

ـ ولئن بَحَث التاريخُ عن مَثيلٍ لمحمدٍ ﷺ، لَما كان ما يَجِدُ في مِثل ظِلِّه، بله مَثيلُه هو.

ـ وَجْهُ المصطفى مِرآةٌ لا مَثيلَ لها في عَيْنِ تصوُّرِنا، ولا حتى عندَ صانع المرايا.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾

٢ ـ يقولُ سيِّدُنا جُندُبُ بن سُفيانَ رضي الله عنه: اشتكَى رسولُ الله ﷺ فلم يَقُمْ ليلتَيْنِ أو ثلاثًا، فجاءتِ امرأةٌ فقالت: يا محمّد، إنّي لَأرجو أن يكونَ شيطانُك قد ترَكَك، لم أرَه قُربَك منذُ ليلتَيْنِ أو ثلاثًا (لأنه ﷺ لم يَنهَضْ للصَّلاةِ في الليل). فأَنْزل اللهُ عزَّ وجلّ ﴿وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[1].

ويقولُ العلّامةُ الخازنُ: «وقيل: إنّ المرأةَ المذكورةَ في الحديثِ المتَّفَقِ عليه هي أُمُّ جَميلٍ امرأةُ أبي لَهَب»[2]، وكانت هذه المرأةُ زوجةَ عمِّ النبيِّ ﷺ، وكان بيتُها مُلاصِقًا لبيتِ النبيِّ ﷺ، فلمَّا أشاعَتْ هذه المرأةُ المُسيئةُ أنّ ربَّ محمدٍ ﷺ لم يَعُدْ يأتيه، وغَضِبَ منه، أَنْزلَ اللهُ تعالى هذه الآياتِ ردًّا عليها، وفيها فَنَّد اللهُ تعالى مزاعمَ هذه المرأةِ من جانب، ومن جانبٍ آخَرَ طيَّبَ خاطرَ النبيِّ ﷺ بأنّ اللهَ تعالى لم يتَخلَّ عنكَ من قبلُ، ولن يتَخلَّى عنك مستقبَلًا، وإنّما سيُعلِّمُك ويُربِّيك ويرفَعُك إلى أعلى المراتبِ بحيث ترضَى، وتبقَى درجاتُك في ارتفاع ومراتبُك في علوٍّ متواصِل.

---

(١) البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة الضحى (٩٣): باب ١ برقم ٤٩٥٠.

(٢) تفسير الخازن.

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾

٣ ـ يعني: يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، لا تَنزعجْ من إيذاءِ كفّارِ مكّةَ لكَ، واثبُتْ على الدَّعوة إلى الإسلام واستمرَّ عليها صابرًا محتسِبًا، وهؤلاءِ الكفّارُ المتعطّشونَ اليومَ لدمائك، ويُعارضونَ رسالتَك أشدَّ المعارضة، سيأتي وقتٌ قريبٌ للغايةِ يَحني هؤلاء رءوسَهم أمامَك خضوعًا وتسليمًا، وكلُّ زمنٍ يأتي عليكَ سيكونُ أفضَلَ من الزَّمنِ الذي مَرَّ بك. يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَبّاس رضي الله عنهما: «أُريَ النّبيُّ ﷺ مايَفتَحُ اللهُ على أُمّتِه بعدَه، فسُرَّ بذلك، فنَزَل جِبريلُ بقولِه: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾[1]. وهذه البُشْرى ليست محدودةً بالدُّنيا فقطْ، وإنّما تَصوَّرْ أنت ميدانَ الحَشْر، حيث ستكونُ الجموعُ الغَفيرةُ من البشَر من لَدُن سيّدِنا آدمَ عليه السَّلامُ وحتى يوم القيامة مجتمِعةً، ونبيُّنا الحَبيبُ ﷺ متمكِّنٌ على المقام المحمود، أي: على منصِبِ الشَّفاعة، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

أكبر اجتماع لتقسيم الجوائز

ستكتملُ مرحلةُ الحسابِ والحُكم بدخولِ الجنّةِ والنارِ على الناسِ جميعًا يومَ القيامة الذي يمتَدُّ لخمسينَ ألفَ سنةٍ في وقتٍ بسيطٍ للغاية، فماذا سيَحدُثُ إذًا في باقي اليوم؟ تعالَ بنا نبحَثْ عن إجابةٍ لهذا السؤال في ضوءِ القرآنِ الكريم والحديثِ الشريف.

يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه: حدّثنا محمّدٌ ﷺ، قال: «إذا كان يومُ القيامة ماجَ النّاسُ بعضُهم في بعضٍ، فيأتُونَ آدمَ فيقولونَ: اشفَعْ لنا إلى ربِّك،

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الضحى (٩٣): الآية ٤.

فيقولُ: لستُ لها ولكنْ عليكم بإبراهيمَ، فإنّه خليلُ الرَّحمن. فيأتُونَ إبراهيمَ فيقولُ: لستُ لها ولكنْ عليكم بموسى فإنّه كَلِيمُ الله. فيأتُونَ موسى فيقولُ: لستُ لها ولكنْ عليكم بعيسى فإنّه رُوحُ الله وكَلِمتُه. فيأتُونَ عيسى فيقولُ: لستُ لها ولكنْ عليكم بمحمّدٍ ﷺ، فيأتوني فأقولُ: أنا لها، فأَستَأْذِنُ على ربِّي فيؤْذَنُ لي ويُلهِمُني محامدَ أحمَدُه بها لا تَحضُرني الآنَ، فأحمَدُه بتلك المحامدِ وأَخِرُّ له ساجدًا، فيقالُ: يا محمّد، ارفَعْ رأسَك، وقُلْ يُسمَعْ لك، وسَلْ تُعطَ، واشفَعْ تُشفَّعْ»[1]، ويمكنُك ملاحظةُ هذا التفصيل في ثنايا هذا البيتِ من الشِّعر:

- طلَبْنا (أي: الشفاعَة) من الخَليل والكَلِيم والمسيح والصَّفيِّ ولكنْ لم يستطيعوا فعلَ شيءٍ.

- وما كنا نَعلَمُ أين طافَ الخَلقُ جميعًا لكي يأتُوك أنت في نهايةِ المطاف.

ثم بعدَ ذلك تَبدأُ سلسلةُ الحساب، وتنتهي سريعًا، وسيقفُ الكُفّارُ في قَفَص المجرِمينَ حينَئذٍ، ويأتي الإعلانُ بأنّ لهم نارَ جهنَّم، لكنْ أنَّى للكفّارِ أن يَعلَموا ماذا سيُنعَمُ به على أهل الإيمانِ في الجنَّة، وهمُ الذين كانوا يَستهدفونَهم بالظُّلم في الدُّنيا؟ لأنّ الكُفّارَ لن يَدخُلوا الجنّةَ بطبيعةِ الحال، ولهذا سيَمنَحُ اللهُ تعالى أهلَ الإيمانِ جوائزَهم أمامَ الكُفّارِ في ميدانِ الحَشْر، ويُنعِمُ عليهم بتكريمِهم، وذلك حتى يشاهدَ الكفّارُ بأنفُسِهم عظَمةَ أهل الإيمان.

وأنا أعتقدُ أنّ هذا هو أكبرُ مَجْمَع لتقسيم الجوائزِ الإلهيَّة، حيث سيَجتمعُ فيه المؤمنونَ والكُفّارُ جميعًا على السَّواءِ من زمنِ سيّدِنا آدمَ عليه السَّلامُ وحتى يوم القيامة، ولم يَحدُثْ مِثلُ هذا الاجتماع قبلَ القيامة، كما أنه لن يَحدُثَ مِثلُه بعدَ يوم القيامة، وفي هذا الاجتماع سيُنعَمُ على أهلِ الإيمانِ - رجالًا ونساءً، وصغارًا وكبارًا

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٨٤ برقم ١٩٣.

وأطفالًا طبقًا لمراتِبهم ـ بمقاعدَ نُورانيّةٍ وبظِلِّ العرش وبحقِّ الشَّفاعة، وبالعباءاتِ والتِّيجانِ النُّورانيّة، لكنّ أعلى الجوائزِ وأرفَعَها قَدْرًا سيكونُ للأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام، حيث سيَجلِسونَ على منابرَ من نُور. أمّا شأنُ نبيِّنا الحَبيبُ ﷺ في هذا الاجتماع فسيكونُ متفرِّدًا وعجيبًا، فسوف يُنعِمُ اللهُ تعالى عليه ﷺ بأرفع الجوائزِ قَدْرًا، أي: المقام المحمودِ، ثم يُجلسُه بجانبِه على العرش[1]، وهكذا تبدَأُ سلسلةُ العَفْو عن المُذنِبينَ من أهل الإيمانِ بشفاعتِه ﷺ. كم هو منظرٌ رائع! ويقولُ مَوْلانا حَسَن رضا خان مشيرًا إلى هذا الأمرِ:

ـ إنّ سببَ انعقادِ محفِل الحَشْر فقطْ هو أن يُكشَفَ عن عظَمة هذا المحبوب ﷺ.

ولْتقرَأْ هذه الآيةَ مرةً أخرى واضعًا في اعتبارِك هذا المقامَ العظيمَ، يعني: أنّ كلَّ ساعةٍ آتيةٍ أفضَلُ من سابقتِها بالنِّسبة لكَ يا رسولَ الله ﷺ، ومعنى هذا أنّ كلَّ ساعةٍ تَمضي تُضيفُ إلى عظَمةِ المقام المحمودِ وتزيدُه، أمّا في الآخِرة فلن تنتهيَ حياتُك، ولن تكونَ هناك عقَبةٌ في طريقِ رفعةِ درَجاتِك، وإنما ستكونُ كلُّ لمحةٍ بمثابةِ الإضافةِ المستمرَّةِ في دَرجاتِك.

﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾

٤ ـ في هذه الآيةِ قال اللهُ تعالى: إنك ستُعطَى عطاءً يجعَلُك ترضَى، ولكنّ اللهَ تعالى لم يُحدِّدْ هذا العطاءَ؛ أيَّ شيءٍ هو. ويُعلَمُ منه أنّ اللهَ تعالى سيُحقِّقُ كلَّ أمانيَّك في الدُّنيا والآخِرة، مثلَما يقولُ العلّامةُ الآلوسيُّ: «هو عِدَةٌ كريمةٌ شاملةٌ لِما أعطاهُ اللهُ عزَّ وجَلَّ في الدُّنيا من كمالِ النفْسِ وعلوم الأوّلينَ والآخِرينَ وظهورِ

---

(١) «وقال آخرون: بل ذلك المقام المحمود الذي وعد الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يبعثه إياه، هو أن يقاعده معه على عرشه». تفسير ابن جرير الطبري، سورة الإسراء (١٧): الآية ٧٩.

الأمرِ وإعلاءِ الدِّين بالفُتوح الواقعةِ في عصرِه ﷺ وفي أيام خُلفائه عليه الصَّلاةُ والسَّلام وغيرِهم من الملوكِ الإسلاميّة وفُشُوِّ الدَّعوةِ والإسلام في مشارقِ الأرض ومغاربِها. ولِما ادَّخر جَلَّ وعلا له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في الآخِرةِ من الكراماتِ التي لا يَعلَمُها إلّا هو جَلَّ جَلالُه وعَمَّ نَوالُه»(١).

ـ يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: إنّ سيّدَنا عليًّا رضي اللهُ عنه قال لأهل العراق: «إنّكم تقولونَ: إنّ أرجَى آيةٍ في كتابِ الله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣] قالوا: إنّا نقولُ ذلك. قال: ولكنّا أهلَ البيتِ نقولُ: إنّ أرجَى آيةٍ في كتابِ الله قولُه تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾. وفي الحديثِ: لمّا نَزَلت هذه الآيةُ قال النّبيُّ ﷺ: «إذًا ـ والله ـ لا أرضَى وواحدٌ من أُمّتي في النّار»(٢).

شفاعته ﷺ لأمته

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «لكلّ نبيٍّ دعوةٌ مستجابةٌ، فتَعَجَّل كلُّ نبيٍّ دعوتَه، وإنّي اختَبأْتُ دعوتي شفاعةً لأُمّتي يومَ القيامة، فهي نائلةٌ إن شاء اللهُ مَن مات من أُمّتي لا يُشركُ بالله شيئًا»(٣).

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَمْرٍو رضي الله عنه: «إنّ النّبيَّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم تلا قولَ الله تعالى في إبراهيمَ عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ [إبراهيم: ٣٦]. وقال عيسى عليه السَّلامُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ

(١) تفسير روح المعاني، سورة الضحى (٩٣): الآية ٥.
(٢) تفسير القرطبي، سورة الضحى (٩٣): الآية ٥.
(٣) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٨٦ برقم ٣٣٨.

﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فَرفَع يدَيْه وقال: «اللّهُمّ، أُمّتي أُمّتي، وبكى، فقال اللهُ عزّ وجلّ: يا جبريل، اذْهَب إلى محمّدٍ، وربُّك أعلمُ ـ فاسأَلْه: ما يُبكيكَ؟ فأتاه جِبريلُ عليه السَّلامُ فسألَه، فأَخبَره رسولُ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم بما قال، وهو أعلمُ، فقال الله: يا جِبريل، اذهَبْ إلى محمّدٍ فقُلْ: إنّا سنُرضيكَ في أُمّتِك ولا نَسوُءك»[1].

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾

٥ ـ بعدَ التبشيرِ بالعظَمةِ الآتية جاء التذكيرُ بالنِّعَم السابقة، وذلك حتى يُسَرِّيَ الله تعالى عن قلبِ النبيِّ ﷺ بأنّ اللهَ تعالى لم يتَخلَّ عنك أبدًا من قبلُ، ولن يتخَلّى عنك أبدًا مستقبَلًا.

كان النبيُّ ﷺ لا يَزالُ في بطنِ أُمِّه حينَ انتَقَلَ والدُه إلى رحمةِ الله، ولهذا وُلِدَ النبيُّ ﷺ يتيمًا، وبعدَ الولادة توَلَّت السيّدةُ والدتُه وجَدُّه عبدُ المطَّلبِ أمرَ تربيتِه، فلمّا بَلَغ ستَّ سنواتٍ توفِّيتِ السيِّدةُ والدتُه إلى رحمةِ الله، وفي عُمُرِ الثامنة توفِّي جَدُّه، «وكان عبدُ المطَّلبِ يُوصي أبا طالبٍ به؛ لأنّ عبدَ الله وأبا طالبٍ كانا من أُمٍّ واحدة»[2]، وهكذا تَولَّى مسئوليةَ كَفالتِه ﷺ عمُّه الشَّقيقُ أبو طالب، وظلَّ يرعاهُ طيلةَ عمُرِه، لدرجةِ أنه بعدَ إعلانِ نبوَّتِه ﷺ خالَفَه أهلُ مكةَ وعادَوْه، لكنّ السيِّدَ أبا طالبٍ ـ معَ ذلك ـ لم يُقصِّرْ أبدًا في حمايتِه ومؤازَرتِه، وفي هذه الآية قال اللهُ تعالى مشيرًا إلى هذا الأمر، يعني: أنك يا رسولَ الله ﷺ وُلِدتَ يتيمًا، فجَعَل اللهُ تعالى في قلبِ جَدِّك وعمِّك حبًّا لك، ورحمةً ورأفةً بك، حتى أنّهما ظَلّا يرعَيانِك أكثرَ من أبنائهما.

يَروي العلّامةُ الرازي، أنّ أبا طالبٍ قال يومًا لأخيه العَبّاس: ألا أُخبرُك عن

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٨٧ برقم ٤٩٩.
(٢) التفسير الكبير.

محمّدٍ بما رأيتُ منه؟ فقال: بلى، فقال: إنّي ضمَمتُه إليَّ فكيف لا أُفارقُه ساعةً من ليلٍ ولا نهارٍ ولا أئتمنُ عليه أحدًا، حتّى أنّي كنتُ أُنوِّمُه في فراشي، هو في غايةِ اللِّين وطِيبِ الرّائحة كأنّه غُمِسَ في المِسك... ولقد كنتُ كثيرًا ما أسمَعُ منه كلامًا يعجِبُني، وذلك عند مُضيِّ اللّيل، وكنّا لا نُسمِّي على الطّعام والشّرابِ ولا نحمَدُه بعدَه، وكان يقولُ في أوّل الطّعام: بسم اللهِ الأحدَ، فإذا فَرَغ من طعامِه قال: الحمدُ لله، فتعجَّبتُ منه، ثمّ لم أرَ منه كذبةً ولا ضَحِكًا ولا جاهليّةً، ولا وَقَف معَ صِبْيانٍ يلعبون[1].

ويَروي الإمامُ جَلالُ الدِّين السُّيوطيُّ قائلًا: «فقالتِ الملائكة: إلَهنا وسيّدَنا، بقيَ نبيُّك هذا يتيمًا، فقال اللهُ: أنا له وليٌّ وحافظٌ ونَصِير، وتبرَّكوا بمَولدِه، فمولِدُه ميمونٌ مبارَكٌ وفَتحَ اللهُ لمولدِه أبوابَ السّماء وجِنانَه»[2].

وبهذه المناسبةِ يقولُ الإمامُ الزُّرقانيُّ: «فصَلَّوْا عليه وتَبرَّكوا باسمِه»[3]، يعني: أنّ النبيَّ ﷺ لم يكنْ قد وُلِد بعدُ، ومعَ ذلك كانتِ الملائكةُ تتبرَّكُ باسمِه، ويُصَلُّونَ عليه.

﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾

٦ - قبلَ التعرُّفِ على تفسيرِ هذه الآية ينبغي أن نَعرِفَ أولًا ماذا كانت حَيْثيَّةُ النبيِّ صلى عليه وسلم ومكانتُه قبلَ البَعْثةِ النَّبويّة؟

النبي منزه عن الكفر والشرك حتى قبل البعثة النبوية

كلُّ نبيٍّ يكونُ منزَّهًا عن الكُفرِ والشِّركِ منذُ مولدِه، وهذا هو السببُ في أنّ

(١) التفسير الكبير، سورة الضحى (٩٣): الآية ٦.

(٢) الخصائص الكبرى، ١ : ٤٧.

(٣) شرح الزرقاني، ١ : ٢٠٧.

الكفّارَ حين خالَفوا أنبياءهم، اتَّهموهم باتِّهاماتٍ عديدة، لكنْ لم تَتَّهِمْ أُمّةٌ نبيَّها قائلةً: إنك كنتَ قبلَ البَعْثةِ النَّبويّة تعبُدُ الأصنامَ مثلَنا. وفي هذا الخصُوص ذَكَر العلّامةُ القُرطبيُّ قصَّة بَحِيرا الراهبِ الذي التَقاهُ النبيُّ ﷺ وهو طفلٌ أثناءَ سَفَرِه معَ عمِّه أبي طالبٍ، حيث رأى بَحِيرا الراهبُ علاماتِ النُّبوةِ فيه ﷺ، فطَلَب منه على سَبيل الاختبارِ أن يُقسِمَ باللَّاتِ والعُزَّى، وهنا قال العلّامةُ القُرطبيُّ: «وقولِه ـ في قصّةِ بَحِيرا حين استَحْلَفَ النّبيَّ ﷺ باللَّاتِ والعُزَّى إذْ لقِيَه بالشّام في سَفْرتِه معَ عمِّه أبي طالبٍ وهو صبيٌّ، ورأى فيه علاماتِ النُّبوّة، فاختبَره بذلك، فقال له النّبيُّ ﷺ: لا تسأَلْني بهما، فواللهِ ما أبغَضتُ شيئًا قطُّ بُغضَهما»[١].

إيمان النبي قبل البعثة النبوية

يقولُ العلّامةُ سيِّد الآلوسيُّ: «إنّ الأنبياءَ عليهمُ السَّلامُ جميعًا قبلَ البَعْثةِ مؤمنونَ لعِصمتِهم عن الكُفرِ بإجماع من يُعتَدُّ به»[٢].

ويقولُ العلّامةُ القُرطبي: «قال القاضي أبو الفَضْل عِياضٌ: وأمّا عِصمتُهم من هذا الفنِّ قبلَ النُّبوّةِ فللنّاسِ فيه خلافٌ، والصَّوابُ أنّهم معصومونَ قبلَ النُّبوّةِ من الجَهْل بالله وصفاتِه والتّشكُّكِ في شيءٍ من ذلك. وقد تَعاضَدتِ الأخبارُ والآثارُ عن الأنبياءِ بتنزيهِهم عن هذه النَّقِيصة منذُ وُلِدوا، ونَشْأتِهم على التّوحيدِ والإيمان»[٣].

ويقولُ العلّامةُ غُلام رسُول سَعِيدي: «أَجْمَع المتقدِّمونَ والمتأخِّرونَ على أنّ النبيَّ يكونُ مؤمنًا بمولدِه، ولا يمكنُ أن يعيشَ لحظةً بغيرِ إيمان»[٤].

---

(١) تلخيص تفسير القرطبي، سورة الشورى (٤٢): الآية ٥٢.
(٢) تفسير روح المعاني، سورة الشورى (٤٢): الآية ٥٢.
(٣) تفسير القرطبي، سورة الشورى (٤٢): الآية ٥٢.
(٤) تفسير تبيان القرآن، سورة طه (٢٠): الآية ١٣.

ويقولُ سيِّدُ أبو الأعلى المَوْدُودي: «كلُّ الأنبياءِ حَصَلوا على الإيمانِ بالغَيْبِ قبلَ النُّبوّةِ بتدبُّرِهم وتأمُّلِهم وتفكيرِهم، ثم أَنْعم اللهُ تعالى عليهم بالإيمانِ بالشَّهادةِ حالَ إنعامِه عليهم بمنصِبِ النُّبوّة»[1].

وفي موضع آخَرَ يقولُ سيِّدُ أبو الأعلى المَوْدودي: «يُعلَمُ من أولِ آيةٍ نَزَلت في القرآنِ المَجيد ـ يعني ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] ـ أنّ النبيَّ ﷺ قبلَ نزولِ الوحي عليه، كان يَعرِفُ أنّ اللهَ تعالى ربُّه، وكان يؤمنُ به كذلك، ولذا لم تكنْ هناك حاجةٌ أبدًا إلى أن يقولَ: مَن ربُّك؟ وإنما قيل: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾»[2].

تفسير الآية

والآنَ لنتأمَّلْ تفسيرَ هذه الآيةِ واضِعينَ في الاعتبارِ هذا المفهومَ المذكورَ سابقًا، فقدِ استَعمَلَ لفظَ «ضالٍّ» للنبيِّ ﷺ، ولهذا اللَّفظِ في اللُّغةِ العربيّةِ معانٍ عديدة، مثلًا، الضالُّ: الذي لا يَعرِف، الغافلُ، والهائمُ في الحبِّ، وغيرُها، فأمّا المعنى الأولُ منها ـ يعني الضالَّ ـ فهو مما لا يَليقُ بشأنِ أيِّ نبيٍّ، وأمّا المعاني الباقيةُ فقد صَحَّحَها المفسِّرونَ بتأويلاتٍ متعدِّدة، وفيما يلي تعريفٌ مختصَرٌ بها:

١ ـ **الضالُّ**: يقولُ العلّامةُ الرازي: «وأمّا الجُمهورُ من العلماءِ فقدِ اتَّفَقوا على أنه عليه السَّلامُ ما كَفَر بالله لحظةً واحدة»[3]، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٢]، ولهذا، فإنّ معنى «الضالِّ» لا يليقُ بأيِّ حالٍ من الأحوال بأيِّ نبيٍّ؛ لأنّ الأنبياءَ جميعًا معصُومونَ، وليس من بَيْنِهم ضالٌّ واحدٌ، إلّا أنه يمكنُ تأويلُه بما ذَكَره أبو حَيّانَ الأندَلُسيُّ.

---

(١) تفهيم القرآن، سورة هود (١١): الآية ٢٨.

(٢) تفهيم القرآن، سورة العلق (٩٦): الآية ١.

(٣) التفسير الكبير، سورة الضحى (٩٣): الآية ٧.

يقولُ أبو حَيّانَ الأندَلسيُّ: «ولبعضِ المفسِّرينَ أقوالٌ فيها بعضُ ما لا يَجوزُ نسبتُه إلى الأنبياءِ عليهمُ الصّلاةُ والسّلام. ولقد رأيتُ في النَّوم أنّي أُفكِّرُ في هذه الجُملة فأقولُ على الفَوْر: ﴿وَوَجَدَكَ﴾، أي: وَجَد رَهْطَك، ﴿ضَآلًّا﴾، فهداهُ بك. ثمّ أقول: على حذفِ مُضاف، نحوَ: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[يوسف: ٨٢]»[1]، أي: فالمضافُ هنا محذوفٌ أيضًا، يعني: أنّ أصلَ العبارةِ هكذا: «واسأل أهلَ القرية»؛ لأنه لا معنى لسؤالِ القريةِ نفسِها.

٢ ـ **الذي لا يَعرِف**: يقولُ الضَّحّاكُ «لم تكنْ تَدري القرآنَ والشّرائع، فهداكَ اللهُ إلى القرآن، وشرائع الإسلام»[2]، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾[الشورى: ٥٢]».

٣ ـ **الغافل**: يعني: أنك كنتَ غافلًا عن القَصَص التفصيليَّةِ للأنبياءِ الكرام السابقينَ عليهم السَّلامُ، مثلَما قال اللهُ تعالى مبيِّنًا قصّةَ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾[يوسف: ٣].

٤ ـ **الهائمُ في المحبَّة**: عندَما ذَهَب إخوةُ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلامُ بقميصِه من مِصرَ، قال سيّدُنا يعقوبُ عليه السَّلامُ لأهل بيتِه: لولا أنّكم ستظُنُّونَ أنّني أَهْذي بسببِ شيخوختي لَقلتُ لكم: إنّني أَشُمُّ ريحَ يوسُفَ ابني، فقال له أهلُ بيته ما عَبَّر عنهُ القرآنُ الكريمُ كالتالي: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾[يوسف: ٩٥].

ويقولُ العلّامةُ الرازي بخصُوصِ الآيةِ المذكورة: «الضَّلالُ بمعنى: المحبّة

---

(١) تفسير البحر المحيط، سورة الضحى (٩٣): الآية ٧.
(٢) تفسير القرطبي، سورة الضحى (٩٣): الآية ٧.

كما في قولِه: ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥]، أي: محبّتِك، ومعناه: أنّك مُحِبٌّ فهَدَيْتُك إلى الشّرائع الّتي بها تتقَرَّبُ إلى خِدمةِ محبوبِك»[١].

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾

٧ ـ كانتِ السيّدةُ خديجةُ رضي الله عنها من أَثْرياءِ مكةَ المكرَّمة، وعندَما تَزوَّجَها النبيُّ ﷺ وَهَبتْه مالَها كلَّه، وكأنّ اللهَ تعالى قال مُشيرًا إلى هذا الأمر: لقد وجَدْناكَ محتاجًا من الناحيةِ الماليّة فأَغْنَيْناكَ بزواجِك من السيّدةِ خديجةَ رضي الله عنها، ثم بعدَ الهجرةِ أَنْعَمْنا عليكَ بالكثيرِ من أموالِ الغنائم وأموالِ الفَيْءِ عن طريقِ الفتوحاتِ الإسلاميّة، لكنَّك برَغْم هذه الوَفْرةِ في الأموالِ اختَرْتَ الفقرَ لنفسِك، وأَنْفقْتَ الأموالَ كلَّها في سَبيل الله تعالى؛ لأنّ الغِنى الحقيقيَّ هو غنى القلبِ والنَّفس، مثلَما يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه من أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «ليس الغِنى عن كثرةِ العَرْض، ولكنّ الغِنى غِنى النَّفس»[٢].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو أُمامةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «عَرَض علَيَّ ربِّي لِيجعَلَ لي بَطْحاءَ مكّةَ ذهبًا، قلت: لا يا ربِّ، ولكنْ أشبَعُ يومًا وأَجُوعُ يومًا، أو قال: ثلاثًا أو نحوَ هذا، فإذا جُعتُ تضرَّعتُ إليك وذكرتُكَ، وإذا شَبِعتُ شكرتُك وحَمِدتُك»[٣].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: نام رسولُ الله ﷺ على حَصِيرٍ، فقام وقد أثَّر في جَنْبِه، فقلنا: يا رسولَ الله، لوِ اتَّخَذْنا لكَ وِطاءً. فقال: «ما لي وما

(١) التفسير الكبير، سورة الضحى (٩٣): الآية ٧.
(٢) مسلم، كتاب الزكاة، باب ٤٠ برقم ٢٤٢٠.
(٣) الترمذي، أبواب الزهد، باب ٣٥ برقم ٢٣٤٧.

للدّنيا؟ ما أنا في الدُّنيا إلّا كراكبٍ استَظَلّ تحتَ شجرةٍ ثمّ راح وتَرَكَها»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «اللّهُمَّ أحيِني مِسكينًا وأَمِتْني مِسكينًا واحشُرْني في زُمرةِ المساكين يومَ القيامة». فقالت عائشةُ: لمَ يا رسولَ الله؟ قال: «إنّهم يَدخُلونَ الجنّةَ قبلَ أغنيائهم بأربعينَ خريفًا يا عائشة، لا تَرُدّي المسكينَ ولو بشِقِّ تمرةٍ، يا عائشة أحبِّي المساكينَ وقَرِّبيهم، فإنّ الله يُقرِّبُكِ يومَ القيامة»[٢].

﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝﴾

٨ ـ يعني: مثلَما رعاكَ جَدُّك وعمُّك في حالةِ يُتمِك وطَيَّبوا خاطرَك، عليك أنت أيضًا وكذا أُمَّتُك أن تكفُلوا اليتيمَ وتهتَمُّوا بأمرِه ولا تعامِلوُه بقسوة.

ـ يقولُ سيّدُنا عُمرُ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ اليتيمَ إذا بَكَى اهتَزَّ لبكائه عَرشُ الرّحمن، فيقولُ اللهُ تعالى لملائكتِه: يا ملائكتي، مَن أبكَى هذا اليتيمَ الذي غُيِّب أبوه في التّراب؟ فيقولُ الملائكة: أنت أعلمُ. فيقولُ اللهُ تعالى: يا ملائكتي، إنّي أُشهِدُكم أنّ علَيّ لِمَن أسْكَتَه وأرضَاهُ أن أُرضيَه يومَ القيامة»[٣].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ رجُلًا شَكَا إلى النّبيِّ ﷺ قسوةَ قلبِه، فقال: «إنْ أردتَ أن يَلينَ، فامسَحْ رأسَ اليتيم، وأطعِم المسكين»[٤]. ولمزيدٍ من التفصيل عن اليتيم راجع الحاشيةَ رقم ١١ و ١٣ من سورة الفجر (٨٩).

---

(١) الترمذي، أبواب الزهد، باب ٤٤ برقم ٢٣٧٧.
(٢) الترمذي، أبواب الزهد، باب ٣٧ برقم ٢٣٥٢.
(٣) تفسير روح المعاني، سورة الضحى (٩٣): الآية ٩.
(٤) تفسير القرطبي، سورة الضحى (٩٣): الآية ٩.

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾

٩ ـ يعني: أنّ اللهَ تعالى أَغْناك، وأَنْعَم عليكَ بكُنوزٍ ظاهرةٍ وباطنة، ولهذا إن جاءكَ سائلٌ فاعطِه طبقًا لحاجتِه، ولا ترُدَّه مكسورَ القلبِ أبدًا.

ـ يقولُ سيّدُنا جابرٌ رضي الله عنه: ما سُئل النّبيُّ ﷺ عن شيءٍ قطُّ فقال: لا[١].

ـ قال سيّدُنا معاويةُ رضي الله عنه في إحدى خُطَبه: سَمِعتُ النّبيَّ ﷺ يقول: «من يُرِدِ اللهُ به خيرًا يُفقِّهْه في الدِّين، وإنّما أنا قاسمٌ والله يُعطي»[٢].

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾

١٠ ـ يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «والتحدُّثُ بنِعَم الله والاعترافُ بها شُكر»[٣]، وذِكرُ نِعَم الله تعالى والتحدُّثُ بها من أَجْل شُكرِ الله تعالى عليها أمرٌ يستحِقُّ التقديرَ والثَّناء، لكنْ إن قَصَد به التكبُّرَ والتفاخُرَ فهو أمرٌ مذمومٌ.

ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي الله عنها: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن أُتِيَ إليه معروفٌ، فلْيكافِئْ به، ومَن لم يستطعْ، فلْيَذكُرْه، فمَن ذَكَرَه، فقد شَكَره»[٤].

ـ يَروي سيّدُنا شُعَيْبٌ، عن جَدِّه رضيَ الله عنهما، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ اللهَ يُحبُّ أن يَرى أثَرَ نعمتِه على عبدِه»[٥].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو سَعيدٍ الخُدريُّ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «أنا سيّدُ

---

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب ٣٩ برقم ٦٠٣٤.
(٢) البخاري، كتاب العلم، باب ١٤ برقم ٧١.
(٣) تفسير القرطبي، سورة الضحى (٩٣): الآية ١١.
(٤) مسند أحمد، ٦: ٩٠.
(٥) الترمذي، أبواب الأدب، باب ٥٤ برقم ٢٨١٩.

وَلَدِ آدمَ يومَ القيامة ولا فَخْرَ، وبيدي لواءُ الحمدِ ولا فَخْرَ، وما من نبيٍّ يومَئذٍ آدمُ فمَن سِواه إلّا تحتَ لوائي، وأنا أوّلُ من تنشَقُّ عنه الأرضُ ولا فَخْر»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «أنا حبيبُ اللهِ ولا فَخْر، وأنا حاملُ لواءِ الحمدِ يومَ القيامةِ ولا فَخْر، وأنا أوّلُ شافعٍ وأوّلُ مُشفَّعٍ يومَ القيامةِ ولا فَخْر، وأنا أوّلُ من يُحرِّكُ حِلَقَ الجنّةِ فيَفتَحُ اللهُ لي فيُدخِلُنيها ومعي فقراءُ المؤمنين ولا فَخْر، وأنا أكرَمُ الأوّلينَ والآخِرينَ ولا فَخْر»(٢).

ـ يقولُ سيّدُنا جابرُ بنُ عبدِ الله رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «أنا قائدُ المرسَلينَ ولا فَخْر، وأنا خاتَمُ النّبيِّينَ ولا فَخْر، وأنا أوّلُ شافعٍ وأوّلُ مُشفَّعٍ ولا فَخْر»(٣).

ـ يقولُ سيّدُنا أبو سَعيدٍ الخُدريُّ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «ما من نبيٍّ إلّا وله وزيرانِ من أهلِ السّماء، ووَزيرانِ من أهلِ الأرض، فأمّا وزيرايَ من أهل السّماءِ فجِبريلُ وميكائيل، وأمّا وزيرايَ من أهل الأرضِ فأبو بكرٍ وعُمَر»(٤).

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ ضحى يوم الأربعاء ٢٩ ديسمبر ٢٠١٠م
الموافق ٢٣ محرَّم ١٤٣٢هـ.

---

(١) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٣ برقم ٣٦١٥.
(٢) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٣ برقم ٣٦١٦.
(٣) سنن الدارمي، المقدمة، باب ٨، ٢٧.
(٤) المستدرك للحاكم، ٢: ٢٩٠ برقم ٣٠٤٦، وكنز العمال، ١١: ٥٦٠ برقم ٣٢٦٤٧.

هذا، وقدِ اكتَملَ بفَضْل الله تعالى وكرَمِه تفسيرُ سُورة «الضُّحى» في يوم ونصفِ اليوم فقط، أي: من ٢٨ إلى ٢٩، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسَّلامُ على سيِّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(٩٤) سُورَةُ الشَّرْحِ

هذه السُّورةُ مكّيّة، واسمُها: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأولى منها، كما يقالُ لها: سُورةُ «الانشراح» وسُورةُ «الشَّرْح» أيضًا.

شرح الصدر

في الآياتِ الثلاثِ الأُولى من هذه السُّورةِ جاء الإخبارُ بأنّ النبيَّ ﷺ عندَما يتأمَّلُ في مسئوليّتِه لمنصِبِ النُّبوّة، وفي جَهْل قومِه وعنادِهم، كان يَشعُرُ بانزعاج وعبءٍ شديد، ومثلَما يُثقِلُ العِبْءُ الماديُّ ظَهْرَ الإنسانِ، كذلك يُثقِلُ عبءُ الإحساس بالمسئوليّةِ قلبَ الإنسانِ ويُقلِقُه، ولهذا خَفَّف اللهُ تعالى عبءَ النبيِّ ﷺ بشَرْح صَدْرِه، ورَفَع عزمَه وهمَّتَه إلى درجةٍ جَعَلت كلَّ المخاطرِ والمشاكل تَبدو بسيطةً ويسيرةً.

رفع الذكر

في الآيةِ رقم ٤ من السُّورةِ جاءت البُشْرى للنبيِّ ﷺ برَفْع الذّكر، يعني: أنّ أهلَ مكةَ في الفترةِ الأُولى من الإسلام كانوا يُحاولونَ جاهِدينَ أن يُسيئوا إلى سُمعةِ النبيِّ ﷺ باتّهامِه بالجُنون، حتى لا يَسمعَ أحدٌ منه شيئًا، وفي نفس الوقتِ أعلَن اللهُ تعالى أنّنا رفَعْنا ذِكرَ النبيِّ ﷺ كثيرًا، وهكذا رأَت الدُّنيا كلُّها أنّ الذين

كانوا يحاولونَ محْوَ ذِكرِ النبيِّ ﷺ هم الذين قد مُحِي ذِكرُهم، وارتَفعَ إلى عِنانِ السَّماء ذِكرُ النبيِّ ﷺ بالخيرِ دائمًا وإلى الأبد.

اليسر بعد العسر

في الآياتِ من ٥ إلى ٦ جاء الإخبارُ بأنّ النبيَّ ﷺ وأصحابَه الكرامَ رضي الله عنهم كانوا يواجِهونَ مصاعبَ جَمّةً في مكّةَ بسببِ إيذاءِ المشركينَ لهم، وفي هذه الآياتِ طَمْأنَ اللهُ تعالى قلوبَ المسلمين مؤكِّدًا مرَّتَيْنِ على أنّ الظُّروفَ القاسيةَ التي يُواجِهونَها لن تستمرَّ إلى الأبد، بل إنّ ظلامَ اللَّيل سيَنقَشعُ قريبًا، وستُشرقُ سريعًا شمسُ اليُسر، ثم رأتِ الدُّنيا كلُّها أنّ وعدَ الله تعالى قد تحقَّق، وأنّ شُهرةَ المسلمينَ قد طافَتْ بالآفاقِ في شبهِ الجزيرةِ العربيّةِ كلِّها.

الحياة ذات الهدف والمقصد

في الآيتَيْنِ الأخيرتَيْنِ من هذه السُّورةِ أيضًا تعليمٌ وإرشادٌ للمسلمينَ جميعًا معَ النبيِّ ﷺ بأنّكم كلَّما وَجَدتُم الفُرصةَ من أداءِ فرائضِ الدِّين والدُّنيا، وفَرغتُم منَ الأعمالِ الضَّروريّة، عليكم أن تَرغَبوا إلى الله تعالى وتتَّجِهوا إليه، وتَنشغِلوا بذِكرِه، وأن تتجَنَّبوا الكلامَ الهَزْلَ والأعمالَ التي لا طائلَ من ورائها.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة الفجر من يوم الخميس ٣٠ ديسمبر ٢٠١٠م
الموافق ٢٤ محرَّم ١٤٣٢هـ.

سُورَةُ الشَّرْحِ (٩٤)،

مكية (١٢)، آياتها (٨)، ركوعها (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾

١ ـ لم يكنِ الفِرعَونُ حاكمًا على مصرَ فقطْ، وإنّما كان يَدَّعي أنه الرَّبُّ الأعلى، فأمَرَ اللهُ تعالى سيّدَنا موسى عليه السلام أنِ اذهَبْ إلى فِرعَونَ وادْعُهُ إلى الحقِّ؛ لأنه قد طَغَى وتجبَّر. في ذلك الوقتِ دَعا سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ ربَّه قائلًا: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه: ٢٥]، ومعنى هذا الدُّعاءِ واضح، يعني: يا ربِّ، اشرَحْ لي صدري بعلوم النُّبوّةِ ومعارِفِها، حتّى لا أُواجهَ أيَّ صعوبةٍ في تبليغ دعوتِك، واشرَحْ صدري بزَرْع الشَّجاعةِ والعَزْم في قلبي، حتى لا يتمكَّنَ الخوفُ ولا المصاعبُ من زَلْزلةِ أقدامي وثباتي.

لم يكنْ طُغيانُ كفّارِ مكةَ وعبادتُهم للأوثانِ مختلفًا كثيرًا عما يفعَلُه قومُ فِرعَون، ولهذا فكأنّ اللهَ تعالى يُسَرّي عن قلبِ النبيِّ الكريم ﷺ بأنه إذا كانت مكةُ كلُّها قد

جاهرَتْكَ بالعِداءِ والمخالفة، فلا تحزَنْ ولا تغتَمَّ، فلقد ملأْنا قلبَك وصدرَكَ بكلِّ العلوم والمعارفِ والشَّجاعةِ والعَزْم وغيرِها من الضَّروريّاتِ التي تقتَضيها النُّبوَّة.

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: لمّا نَزَلت هذه الآيةُ ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] سُئل رسولُ الله ﷺ عن شَرْح الصَّدْر، قال: «نورٌ يَقذِفُه اللهُ في قلبِ المؤمنِ فينشرحُ له ويَنفسِح»، قيل: فهل لذلك أمارةٌ؟ قال: «نعم، الإنابةُ إلى دارِ الخُلود، والتّجافي عن دارِ الغرور، والاستعدادُ للموت قبلَ نزولِ الموت»(١).

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾

٢ ـ عندما يتأمَّلُ النبيُّ ﷺ في مسئوليّـتِه لمنصِبِ النُّبوّة، وفي جَهْل قومِه وعنادِهم، كان يَشعُرُ بانزعاج وعِبْءٍ شديد، ومثلَما يُثقِلُ العبءُ الماديُّ ظَهْرَ الإنسان، كذلك يُثقِلُ عِبْءُ الإحساس بالمسئوليّةِ قلبَ الإنسانِ ويُقلقُه، ولهذا خَفَّف اللهُ تعالى عبءَ النبيِّ ﷺ بشَرْح صدرِه، ورَفْع عَزْمِه وهمّتِه إلى درجةٍ جَعَلت كلَّ المخاطِرِ والمشاكل تبدو بسيطةً ويسيرة.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾

٣ ـ يقولُ سيّدُنا أبو سَعيدٍ الخُدريُّ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «أتاني جِبريلُ فقال: إنّ ربِّي وربَّك يقولُ: كيف رَفَعتُ لك ذِكرَك؟ قال: اللهُ أعلم، قال: إذا ذُكِرتُ ذُكرتَ معي»(٢).

---

(١) تفسير البغوي، سورة الأنعام (٦): الآية ١٢٥، والمستدرك للحاكم، ٤: ٣٤٦ برقم ٧٨٦٣.
(٢) تفسير ابن جرير الطبري، سورة الشرح (٩٤): الآية ٤.

وقد نَقَل العلّامةُ القُرطبيُّ في تفسيرِ هذه الآيةِ أقوالًا مختلفةً، فكأنّ اللهَ تعالى قال: «فذَكَرْناكَ في الكتُبِ المنزَّلةِ على الأنبياء قبلَك، وأمَرْناهُم بالبِشارةِ بك، ولا دينَ إلّا ودِينُك يَظهَرُ عليه. وقيل: رَفَعْنا ذِكرَكَ عندَ الملائكة في السّماء، وفي الأرضِ عندَ المؤمنين، ونَرفَعُ في الآخِرة ذِكرَك بما نُعطيكَ من المقام المحمود، وكرائم الدَّرَجات»[1].

ذكر النبي ﷺ مع ذكر الله تعالى

يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: «يقولُ له: لا ذُكِرتُ إلّا ذُكِرتَ معي في الأذان، والإقامةِ والتّشهُّد، ويومَ الجمُعةِ على المنابر، ويومَ الفِطر، ويوم الأضحى: وأيامَ التشريق، ويومَ عَرَفةَ، وعندَ الجِمار، وعلى الصَّفا والمَرْوة، وفي خُطبةِ النِّكاح، وفي مشارقِ الأرضِ ومغاربِها. ولو أنّ رجلًا عَبَد اللهَ جَلّ ثناؤه، وصَدَّق بالجنَّةِ والنارِ وكلِّ شي، ولم يشهَدْ أنّ محمّدًا رسولُ الله، لم يَنتفعْ بشيءٍ، وكان كافرًا»[2].

وهكذا لو نَظَرْنا إلى دُولِ العالَم كلِّه في أوقاتٍ مختلفة، لَوجَدْنا الأذانَ يُرفَعُ دائمًا في بلدٍ أو آخَرَ من هذه البلاد، وفيه يَرتفعُ ذِكرُ نبوَّةِ النبيِّ ﷺ جنبًا إلى جنبٍ معَ ذِكرِ توحيدِ الله تعالى. وقد نَقَل العلّامةُ القُرطبيُّ في تفسيرِ هذه الآية هذا البيتَ لسيّدِنا حَسّانَ بن ثابتٍ رضي الله عنه:

- وضَمَّ الإلهُ اسمَ النّبيّ إلى اسمِهِ   إذا قال في الخمسِ المؤذِّنُ أشهَدُ

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري، سورة الشرح (٩٤): الآية ٤.
(٢) تفسير القرطبي، سورة الشرح (٩٤): الآية ٤.

مثال

ذاتَ مرَّة، خَطَب مُفكِّرُ الأُمّةِ سيِّد محمد مَدَني ميان كتشوتشوي (الهند) فقال: «هناك بعضُ الفرائِض في الصَّلاة، وهناك بعضُ السُّنَن، فالفَرْضُ يُنسَبُ إلى اللهِ تعالى، والسُّنّةُ تُنسَبُ إلى النبيِّ الكريم ﷺ، وكلُّ الصَّلواتُ التي نؤدِّيها، سواءٌ ما كان منها فَرْضًا أم سُنّةً، أم واجبةً أم نَفْلًا وتطوُّعًا، تكونُ فيها السُّننُ جنبًا إلى جَنْبٍ معَ الفرائض، على سَبيل المثال: قراءةُ الثَّناء ـ يعني: «سبحانَك اللهُمَّ» ـ في الصَّلاةِ: سُنّة، ولكنّ تلاوةَ القرآنِ المَجيدِ فيها فَرْض، والسّؤالُ الآنَ هو: هل تبدَأُ الصَّلاةُ بالفَرْض أم بالسُّنة؟ والجوابُ واضحٌ، وهو أنّ كلَّ صلاةٍ تبدَأُ بالفَرْض والسُّنةِ معًا، فتكبيرةُ التحريم، يعني: قولَ «اللهُ أكبر» لأولِ مرةٍ في الصَّلاة: فَرْض، ورَفْعُ اليدَيْنِ عندَها، أي: رَفعُهما حتى مستوى الأُذُنَيْن: سُنّة، وهكذا في مواضعَ عديدةٍ جَعَل اللهُ تعالى ذِكرَ النبيِّ ﷺ ممتزِجًا معَ ذِكرِه بحيث يَصعُبُ الفَصْلُ بينَهما.

طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ

لم يَضُمَّ اللهُ تعالى اسمَ النبيِّ ﷺ إلى اسمِه فقطْ، وإنّما حيثُما أمَرَ عبادَه أن يُطيعوه، أمَرَهم أيضًا بطاعةِ النبيِّ ﷺ مؤكِّدًا على ذلك، وقَرَّر أنّ طاعةَ النبيِّ ﷺ طاعةٌ له هو، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

نسبة رفع ذكر المصطفى ﷺ

المسلمونَ جميعًا يتغنَّوْنَ بعظَمةِ النبيِّ ﷺ ليلَ نهارَ، وينشغلونَ برَفْع ذِكرِه كذلك، لكنّ اللهَ تعالى لم يَنسُبْ رَفْعَ الذِّكر هذا إلى المسلمين، وإنّما نَسَبَه إلى

نفسِه، يعني: أنّنا رفَعْنا ذِكرَكَ من أَجْلِك أنت، ويُمكنُ أن تكونَ أسبابُ ذلك في رأيي كالتالي:

١ ـ يريدُ اللهُ تعالى أن يقولَ: إنّ رَفْعَ ذِكرِ النبيِّ ﷺ لا يعودُ الفَضلُ فيه إلى أيِّ إنسان، وإنّما الذي رَفَع ذكرَه هو اللهُ تعالى نفسُه.

٢ ـ الإنسانُ فانٍ، وما يصنَعُه الإنسانُ سيفنَى حتمًا ذاتَ يوم، لكنّ ذِكرَ المصطفى ﷺ نعمةٌ لا تفنَى أبدًا، ولهذا نَسَبَها اللهُ تعالى إلى نفسِه مؤكِّدًا أنّ اللهَ تعالى لا يفنَى، ولن يفنَى كذلك ذِكرُ المصطفى ﷺ، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

٣ ـ الإنسانُ يُفسِدُ بنفسِه ما صَنَعتْ يدَاه، على سَبيل المثال: يُشعلُ الإنسانُ المِصباحَ الكهرُبائيَّ أو مِصباحَ الزَّيت، وبحركةٍ بسيطةٍ للغاية من إصبعِه يطفئُ المِصباح، ولكنْ إذا اجتَمعَ الناسُ في الدُّنيا كلِّها على أن يُطفئوا نُورَ الشمسِ ما استطاعوا، فهم لا يستطيعونَ التصادُمَ معَ القُدرةِ الإلهيَّة، ولهذا يقولُ اللهُ تعالى: يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، أنا الذي أُشعلُ شمعَ ذِكرِك، ومن يريدُ إطفاءَه فسوف ينطفئُ هو نفسُه، ولكنّ شَمْعَ ذِكرِك لا يستطيعُ أحدٌ إطفاءه، ومعَ أنّ هذه الآيةَ نَزَلت في الفترةِ الأولى للإسلام، حين لم يكنْ أهلُ مكةَ يُطيقونَ مجرَّدَ سَماع اسم النبيِّ ﷺ، وإنّما كانوا يقولون: إنه مجنونٌ! وكانوا يَبذُلونَ قُصارى جُهدِهم لمَحْوِ ذِكرِه ﷺ منَ الوجود، ولم يكنْ أحدٌ يتصوَّرُ في ذلك الوقتِ أنّ ذِكرَ النبيِّ ﷺ سيرتفعُ في كلِّ أركانِ العالَم، لكنّ اللهَ تعالى يحقِّقُ وعدَه لنبيِّه الحبيب ﷺ، ومُحِيَ ذِكرُ أولئك الذين كانوا يحاولونَ مَحْوَ ذِكرِ النبيِّ ﷺ، وما أحسَنَ ما قاله مَوْلانا وسيّدُنا أحمدُ رضا خان البريلويُّ:

ـ مُحِيَ أعداؤك، ويُمحَوْنَ وسيُمحَوْنَ، لكنّ ذِكرَك لم يُمْحَ، ولن يُمْحَى.

والتاريخُ يشهَدُ على أنّ كفّارَ مكّةَ الذين كانوا يقولونَ عن النبيِّ ﷺ: إنه مجنون! قد مُحِيَ كلُّ ذِكرٍ لهم، وأَسْلمت ذُرِّيّاتُهم، وهكذا من يقولونَ عن النبيِّ ﷺ اليوم: إنه إرهابيٌّ، أنا على يقينٍ من أنهم سيُمحَوْنَ من الوجودِ تمامًا، وسيأتي يومٌ تَدخُلُ فيه ذُرِّيّاتُهم الإسلامَ، والواقعُ المَعِيشُ يشهَدُ أنهم يُحاولونَ إطفاءَ نورِ الله بأفواهِهم، ولكنْ يَأبى اللهُ تعالى إلّا أن يُتِمَّ نُورَه ولو كرِهَ الكافرون: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

ـ نورُ الله يَسخَرُ من حركةِ الكُفر، فهذا المِصباحُ لا تُطفئُه الأفواهُ.

حدود رفع ذكر النبي ﷺ

لفَهْم هذا الأمرِ عليكَ ـ أولًا ـ أن تتدبَّرَ هذا المثالَ، والذي ذَكَرَه مُجاهدُ الأُمةِ سيِّد محمَّد هاشِميّ ميان كتشوتشوي (الهند) في خُطبتِه ذاتَ مرة، فقال: عندَما يَركُلُ طفلٌ في الثانيةَ أو الثالثةَ عَشْرةَ من عمُرِه كرةَ قدمٍ، فقد ترتفعُ الكرةُ إلى ثلاثينَ قدمًا، بينَما لو رَكَلها شابٌّ في الخامسةِ والعشرينَ من العمُرِ لَربَّما ارتَفَعت إلى خمسينَ قدمًا، فإذا ما رَكَلَها لاعبُ كرةِ قَدَم محترفٌ فقد ترتفعُ إلى ٧٠ أو ٨٠ قدمًا، والآنَ إذا سأَلْنا كرةَ القدم: إنّ وَزْنَكِ وحجمَكِ واحد، فلماذا جاء هذا الفرقُ والاختلافُ في ارتفاعِك؟ رَكَلَكِ الطفلُ فارتَفَعتِ ٣٠ قدمًا، ورَكَلَكِ الشابُّ فارتَفعتِ خمسينَ قدمًا، ورَكَلَكِ اللاعبُ المشهورُ فارتفعتِ ٧٠ أو ٨٠ قدمًا، لماذا هذا الاختلافُ في ارتفاعِك؟ ستقولُ الكرةُ بلسانِ حالِها: إنّ حقيقتي وماهيَّتي واحدةٌ، لكنّ الفرقَ في ارتفاعي حَدَث بسببِ الفرقِ بينَ القُوى التي

رَكَلَتْني، فقُوّةُ الطِّفل كانت بحيثُ ارتَفَعتُ ٣٠ قدمًا، وقوةُ الشابِّ كانت بحيثُ ارتَفَعتُ ٥٠ قدمًا، وقوةُ اللاعبِ المشهورِ كانت بحيثُ ارتفعتُ ٧٠ أو ٨٠ قدمًا.

تعالَ بنا نرَ واضعِينَ في اعتبارِنا المثالَ السابقَ، فاللهُ تعالى هو الذي رَفَع ذكرَ نبيِّنا الحَبيبِ ﷺ، وبقَدْرِ ما تكونُ قوةُ مَن يرفَعُ ذِكرَ النبيِّ بقَدْرِ ما يرتفعُ ذِكرُه ﷺ، فكم تكونُ قوةُ الله تعالى وقُدرتُه؟ يقولُ القرآنُ الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]، وقوَّتُه غيرُ محدودة، فإذا رَفَع اللهُ تعالى ـ بقوّتِه اللامحدودةِ ـ ذِكرَ نبيِّه الحَبيبِ ﷺ، فإلى أيِّ مدًى يرتفعُ هذا الذِّكرُ؟ ينبغي أن تكونَ النتيجةُ هي أنّ رفعةَ ذكر النبيِّ ﷺ ستكونُ غيرَ محدودةٍ أيضًا، لكنّ الحقيقةَ هي أنّ الصِّفاتِ غيرَ المحدودةِ لا تكونُ إلّا لله تعالى فقطْ، ولِذِكرِ النبيِّ ﷺ حدٌّ معيَّن، لكنَّه حدٌّ بالغُ الارتفاع بحيثُ لا نستطيعُ أن نقيسَه بمقاييسِنا البشَريّةِ المحدودةِ للغاية.

ـ إنه مجرَّدُ كلام أن نقولَ: إلى هذا الحدِّ أو إلى ذلك الحدِّ.

ـ واللهُ وحدَه يَعلمُ إلى أيِّ مدًى يكونُ تجلِّي المحبوب.

ـ فكلُّ عَيْن تَراها بحسَبِ قُدرتِها على النَّظَر.

ونحن إذا تغنَّيْنا بعظَمةِ النبيِّ الكريم ﷺ فهذا من حُسنِ طالِعنا، وإذا قَصَّرنا فيه فإنّ اللهَ تعالى هو الذي سيرفَعُ ذِكرَه على أيِّ حال، وسيُقيِّضُ آخَرينَ للقيام بهذا العمل، والتاريخُ شاهدٌ على أنه عندَما وَصَل أهلُ مكةَ ليلةَ الهجرةِ النَّبويّة إلى بابِ غارِ ثَوْر بقَصْدِ قَتْل النبيِّ ﷺ، فإنّ اللهَ تعالى حَفِظَه منهم عن طريقِ بيتِ عنكبوتٍ وبيضِ حمامةٍ، واليومَ إذا كان بعضُ أهل الغربِ يحاولونَ إلصاقَ تُهمةِ الإرهابِ بالنبيِّ ﷺ، فإنّ بعضَ أهل الغربِ هؤلاءِ أيضًا يُثبِتُونَ أنّ النبيَّ ﷺ هو أعظمُ العظَماءِ في هذه الكائنات.

كَتَب السيّدُ مايكل هارت (Michael H. Hart) كتابًا ضخمًا (المائةُ) من ٥٧٢ صفحة، وازَنَ فيه بينَ أكثرَ من مائةٍ من عظَماءِ البَشريّة على مرِّ تاريخِها، فوَضَع المؤلِّفُ اسمَ نبيِّنا الحبيبِ ﷺ على رأسِ هؤلاء، وجاء اسمُ سيّدِنا عيسى عليه السَّلامُ في المرتبةِ الثالثة، معَ أنّ المؤلِّفَ نفسَه مسيحي! يقولُ: «يأتي سيّدُنا محمدٌ ﷺ على رأسِ قائمةِ الشَّخصيّاتِ التي كانت أكثرَ تأثيرًا في الناسِ في هذا العالَم، وقد يفاجِئُ اختياري هذا بعضَ القُرّاء، لكنَّه هو الشَّخصيّةُ الوحيدةُ في تاريخ الإنسانيّة التي حَقَّقت نَجاحًا باهرًا في ميدانَي الدِّينِ والدُّنيا على السَّواء، ولا يزالُ أثَرُه ﷺ قويًّا وبارزًا حتى اليوم، رَغْم مرورِ ثلاثةَ عشَرَ قرنًا من الزمانِ على انتقالِه إلى الرَّفيقِ الأعلى»[١].

ذاتَ مرةٍ دُعيَ بعضُ الدِّبلوماسيِّينَ الإنجليزِ إلى مَحفِل ميلادِ النبيِّ ﷺ، وعندما ذَكَر أحدُ المتحدِّثينَ في الجلسةِ اسمَ النبيِّ ﷺ قَبَّل كلٌّ من الجالسينَ المسلمينَ جميعًا أصبعَيْ إبهامِه ووَضَعَهما على عينَيْه، فسألَ أحدُ الدبلوماسيِّينَ الإنجليزِ مسلمًا يجلسُ بجانبِه: لماذا تُقبّلونَ أصابعَ إبهامِكم وتضَعونُها على أعيُـنِكم معًا؟ فأجابَه الرجلُ: عندَما يكونُ أحدُ الفَنّانينَ أو الزُّعماءِ مُعتليًا المسرحَ بعيدًا أو على شاشةِ التلفاز، وأراد التعبيرَ عن حبِّه للمعجَبينَ به، فإنه يُقبِّلُ أصابعَه ويُلقي بالقُبلةِ في الهواءِ مشيرًا إليهم ومُظهِرًا محبَّتَه لهم، ونحن أيضًا عندَما نسمَعُ اسمَ نبيِّنا الحَبيبِ ﷺ، فإنّنا نُصلّي عليه، وفي نفسِ الوقت نُقبِّلُ اسمَه المباركَ

---

(١) "My choice of Muhammad to lead the list of the world's most influential persons may surprise some readers, but he was the only man in history who was supremely successful on both the religious and secular levels. Today, thirteen centuries after his death, his influence is still powerful and pervasive".

ونضَعُه على أعيُـنِنا، باعتبارِ أنه ليس موجودًا بينَنا، وذلك لكي نُعبِّرَ عن محبَّتِنا له. وحين دُعي هذا الإنجليزيُّ إلى المِنَصّة لِإلقاءِ كلمتِه قال فيها: «لا يوجَدُ زعيمٌ على مستوى التاريخ الإنسانيِّ مضَى على وفاتِه أربعةَ عشَرَ قرنًا من الزمان، ولا يزالُ المؤمنونَ به يُقبِّلونَ اسمَه ويَضَعُونَه على أعيُنِهم، ولم ينَلْ هذا الشَّرفَ العظيمَ سوى نبيِّ المسلمين (سيِّدِنا محمدٍ ﷺ) فقطْ»(١).

ما أحسَنَ ما قالهُ العلّامةُ محمَّد إقبال رحمَه الله:

- سَترى عيونُ الأُمم هذا المشهَدَ إلى الأبد، سَترى رِفعةَ شأنِ «رَفَعْنا لكَ ذِكْرَك».

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾

٤ - كان النبيُّ ﷺ وأصحابُه الكرامُ رضي اللهُ عنهم يواجِهونَ مصاعبَ جَمَّةَ في مكةَ بسببِ إيذاءِ المشركينَ لهم، وفي هذه الآياتِ طَمْأنَ اللهُ تعالى قلوبَ المسلمينَ مؤكِّدًا مرَّتَيْنِ على أنّ الظروفَ القاسيةَ التي يواجِهونَها لن تستمرَّ إلى الأبد، بل إنّ ظلامَ اللَّيل سينقشعُ قريبًا، وستُشرقُ سريعًا شمسُ اليُسر، ثم رأتِ الدُّنيا كلّها أنّ وعدَ اللهِ تعالى قد تَحقَّق، وأنّ شُهرةَ المسلمينَ قد طافَتْ بالآفاقِ في شبهِ الجزيرةِ العربيّةِ كلِّها.

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾

٥ - مثلَما بُشِّر المسلمونَ جميعًا معَ النبيِّ ﷺ في الآيتَيْنِ السابقتَيْنِ بأنّ هناك يُسرًا بعدَ كلِّ صعبٍ في طريقِ الله تعالى، كذلك جاء إرشادُ المسلمينَ معَ النبيِّ ﷺ وتعليمُهم في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ أيضًا بأنّكم كلَّما وَجدتُمُ الفُرصةَ من أداءِ فرائضِ الدِّين

(١) "There is none in the history of mankind whose name is being kissed by his followers even after 14 centuries".

والدُّنيا، وفَرَغتُم من الأعمالِ الضَّروريّة، عليكم أن تَرغَبوا إلى اللهِ تعالى وتتَّجِهوا إليه، وتنشغِلوا بذِكرِه، وأن تَتجنَّبوا الكلامَ الهَزْلَ والأعمالَ التي لا طائلَ من ورائها، مثلَما قال رسولُ الله ﷺ للمجاهدينَ حين عَوْدتِهم من إحدى الغَزَوات: «قَدِمتُم خيرَ مَقْدَمٍ، قَدِمتُم من الجهادِ الأصغَر إلى الجهادِ الأكبر». قالوا: وما الجهادُ الأكبرُ يا رسولَ الله؟ قال: «مجاهدةُ العبدِ هواهُ»[١].

الحياة ذات الهدف والمقصد

ـ يقولُ العلّامةُ الآلوسيُّ في تفسيرِ هذه الآية: «وذَكَروا أنّ قعودَ الرجُل فارغًا من غيرِ شُغُلٍ أو اشتغالَه بما لا يعنيهِ في دينِه أو دُنياه من سَفَهِ الرأي وسَخافةِ العقل واستيلاءِ الغفلة»[٢].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مِن حُسن إسلام المرءِ تَرْكُه ما لا يَعْنِيه»[٣].

ـ يقولُ الإمامُ الغَزاليُّ: «أيُّها الوَلَد، من جُملةِ ما نَصَح به رسولُ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم أُمتَه قولُه: علامةُ إعراضِ الله عن العبدِ اشتغالُه بما لا يعنِيه... ومَن جاوَزَ الأربعينَ ولم يَغلِبْ خيرُه شرَّه فلْيتجهَّزْ إلى النار»[٤].

ـ يقولُ سيّدُنا عُمرُ الفاروقُ رضي الله عنه: «إنّي لَأكرهُ أن أرى أحدَكم فارغًا سَبَهْللًا لا في عمَلِ دُنياه ولا في عمَلِ آخِرتِه»[٥].

---

(١) الخطيب البغدادي في تاريخه، ١٣ : ٥٢٣، وكنز العمال، ٤ : ٦١٦.
(٢) تفسير روح المعاني، سورة الشرح (٩٤): الآية ٧.
(٣) الترمذي، أبواب الزهد، باب ١١ برقم ٢٣١٧.
(٤) رسالة أيها الولد: الإمام الغزالي: Awakening Publications 2000 UK Swansea
(٥) تفسير روح المعاني، سورة الشرح (٩٤): الآية ٧.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «أكثرُ النّاسِ ذنوبًا يومَ القيامة أكثرُهم كلامًا فيما لا يَعْنِيه»(١).

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة العشاء من يوم الخميس ٣٠ ديسمبر ٢٠١٠م
الموافق ٢٤ محرَّم ١٤٣٢هـ.

هذا، وقدِ اكتَمل بفَضْل الله تعالى وكرمِه تفسيرُ سُورة «الشَّرح» اليومَ، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسَّلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

❊ ❊ ❊

(١) الجامع الصغير، ١: ٨٦ برقم ١٣٨٦.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(٩٥) سُورَةُ التِّينِ

هذه السُّورةُ مكِّيّة، واسمُها: «التِّينُ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى منها.

أحسن تقويم

في بدايةِ هذه السُّورةِ أَقْسَم اللهُ تعالى أربعَ مراتٍ وأعلَنَ مؤكِّدًا أنه خَلَقَ الإنسانَ في أحسنِ تقويم وأفضَلِ تكوين، وأنه هو الأجمَلُ بينَ المخلوقاتِ كلِّها باعتبارِ قُدُراتِه: الظاهرةِ والباطنة.

أجر لا نهاية له

الذين يُقدِّرونَ خَلْقَهم في أجملِ شكل وصُورة، كما يُقدِّرونَ قُدُراتِهم التي مَنَحَها اللهُ إياهم، يعني: يسعَوْنَ بعدَ إيمانِهم جاهدينَ للعمَل الصَّالح، فإنّ اللهَ تعالى يرضَى عنهم، ويُنعِمُ عليهم بأجرٍ عظيم لا نهايةَ له، وعلى العكسِ من ذلك فإنّ الذين لا يُقدِّرونَ هذه النِّعَمَ، بل ويَعصُونَ اللهَ تعالى، ويَستغرقونَ في ارتكابِ الأفعالِ القبيحة، سيُدخِلُهم اللهُ تعالى أسفلَ وادٍ في جهنَّم.

إنكار يوم الجزاء

كيف يمكنُ أصلًا أن يتحمَّلَ إنسانٌ طيلةَ حياتِه المصاعبَ والشَّدائدَ في

سَبيل الحِفاظ على بلادِه وأُمّتِه، وفي المقابلِ إنسانٌ آخَرُ يُهيلُ جبالَ الظُّلم على البشَر، ثم لا يأتي يومٌ يُنصَفُ فيه المظلوم، ويُعاقَبُ فيه الظالمُ على ظُلمِه؟ هذا لا يمكنُ أبدًا، فاللهُ تعالى هو أحكَمُ الحاكِمينَ وأعظَمُهم، وقد حَدَّد لهذا الحسابِ يومًا سيأتي حتمًا في موعدِه المحدَّدِ له.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة الفجر من يوم السبت الأول من شهر يناير ٢٠١١م
الموافق ٢٦ محرَّم ١٤٣٢هـ.

❋ ❋ ❋

سُورَةُ التِّينِ (٩٥)،

مكية (٢٨)، آياتها (٨)، ركوعها (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾

١ ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَبّاس رضي الله عنهما: إنّ المرادَ بالتِّين هنا: «هو تِينُكم الّذي تأكُلونَ، وزيتونُكم الّذي تَعصِرونَ منه الزَّيتَ»[1]، وهاتانِ فاكهتانِ مشهورتان، ومفيدتانِ للإنسانِ كثيرًا.

يقولُ سيّدُنا أبو ذَرٍّ الغِفاريُّ رضي الله عنه: أُهديَ للنّبيِّ ﷺ سَلُّ تينٍ، فقال: «كُلوا»، وأكَلَ منه. ثمّ قال:[«لو قلتُ: إنّ فاكهةً نَزلَتْ من الجنّةِ لَقلتُ هذه؛ لأنّ فاكهةَ الجنّة بلا عجمٍ، فكُلوها فإنّها تَقطَعُ البواسير، وتنفَعُ من النُّقرُس»[2]، كما أنّ سيّدَنا آدمَ عليه السَّلامُ قد سَتَر جسَدَه في الجنةِ بأوراقِ هذه الفاكهة[3].

(١) تفسير القرطبي.

(٢) المرجع السابق.

(٣) «وإنّما أقسم الله بالتّين؛ لأنّه كان ستر آدم في الجنّة» تفسير القرطبي.

يقولُ سيّدُنا عُمرُ بن الخَطّاب رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «كُلوا الزَّيتَ وادَّهِنوا به، فإنّه من شجرةٍ مباركةٍ»[1].

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾

٢ ـ المرادُ بطُورِ سينينَ هنا هو: ذلك الجبَلُ الذي كَلَّم اللهُ تعالى سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ فوقَه، ويقالُ لهذا الجَبَل: «طُورُ سِيْناء» و«طور سَيْناء» أيضًا[2].

﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾

٣ ـ المرادُ بالبلدِ الأمين: مكّةَ المكرَّمة، وكانت الأوضاعُ الأَمْنيةُ في هذا البلدِ قد بَلَغت حدًّا كبيرًا بحيث لا يَجوزُ قتلُ الحيَواناتِ فيها، بَلْهَ أن يُقتَلَ إنسانٌ، ومن دَخَل في حدودِ الحَرم فيها لم يكنْ هناك أيُّ خَطَرٍ عليه من أيِّ عدّوٍ، وبالتالي ينشغلُ الإنسانُ في ذِكرِ الله تعالى بكلِّ طُمَأْنينةٍ وانسجام، وكان الكافرُ في زمنِ الجاهليّة أيضًا يحترمُ الكعبةَ الشَّريفة، ولم يكنْ أحدٌ يَظلِمُ أحدًا في هذه المنطقة، ولمزيدٍ من التفصيل عن فَضْل مكةَ المكرَّمة راجعِ الحاشيةَ رقم واحد للآيةِ رقم ٢ من سُورة البلد (٩٠).

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾

٤ ـ في بدايةِ هذه السُّورةِ أَقْسَم اللهُ تعالى بشجرتَيْنِ مفيدتَيْنِ للغاية وموضعَيْنِ مباركَيْنِ للغايةِ أيضًا، ثم أعلَن مؤكِّدًا تفوُّقَ الإنسان.

---

(١) الترمذي، أبواب الأطعمة، باب ٤٣ برقم ١٨٥١.

(٢) «وطور سينين: الجبل الذي نادى الله جل ثناؤه منه موسى عليه السلام، ويقال له: طور سيناء وطور سيناء». تفسير القرطبي.

عظمة الإنسان وتفوقه في الإسلام

اللهُ تعالى هو خالقُ كلِّ شيءٍ في الكائنات، لكنّ الشَّكلَ والصُّورةَ التي خُلِق عليها السيِّدُ الإنسان، وإمكاناتُ العظَمةِ والتفوُّقِ والعِلم والحِكمة التي مَنَحَها له وأَنْعم بها عليه، لم تتيسَّرْ لأيِّ مخلوقٍ سواه، وعلى سَبيل المثال:

ـ جَعَل اللهُ تعالى الإنسانَ الأولَ سيّدَنا آدمَ عليه السَّلامُ خليفةً له في الأرض[١].

ـ أعطَى اللهُ تعالى الإنسانَ من العِلم الكثيرِ ما جَعَل الملائكةَ تسجُدُ له[٢].

ـ نَفَخَ اللهُ تعالى في الإنسانِ من رُوحِه[٣].

ـ مَنَح اللهُ تعالى الإنسانَ شرفًا وكرامةً[٤].

ـ سَخَّر اللهُ تعالى كلَّ شيءٍ في الأرضِ والسماءِ للإنسان[٥].

ـ خَلَق اللهُ تعالى الإنسانَ في أحسنِ تقويم[٦].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «خَلَق اللهُ آدمَ على صُورتِه»[٧]، واللهُ تعالى نُورُ السّماواتِ والأرض، وليس كمِثلِه شيءٌ، وبالتالي فإنّ المرادَ بخَلق اللهِ تعالى للإنسانِ على صُورتِه، ونَفْخِه فيه من رُوحِه هو: تكريمُ الإنسانِ وتشريفُه، ويُمكنُ أن تكونَ «صُورتُه» في هذا الحديثِ الشريفِ بمعنى

---

(١) القرآن الكريم، سورة البقرة (٢): الآية ٣٠.
(٢) القرآن الكريم، سورة البقرة (٢): الآية ٣٤.
(٣) القرآن الكريم، سورة الحجر (١٥): الآية ٢٩.
(٤) القرآن الكريم، سورة الإسراء (١٧): الآية ٧٠.
(٥) القرآن الكريم، سورة لقمان (٣١): الآية ٢٠.
(٦) القرآن الكريم، سورة التين (٩٥): الآية ٤.
(٧) البخاري، كتاب الاستئذان، باب ١ برقم ٦٢٢٧.

«صفتِه»، يعني: أنّ اللهَ تعالى جَعَل الإنسانَ مُظهِرًا لبعضِ صفاتِه مثلَ: الإرادةِ والكلام والسَّمْع والبصرِ وغيرِها.

ـ ليس بينَ الحيَوانات والنباتاتِ والجمادِ شيءٌ يمكنُ أن يُطاولَ الإنسان، فالأنعامُ الضَّخمةُ والحيَواناتُ المفترِسةُ كلُّها خاضعةٌ له، كما أنّ رءوسَ الحيَواناتِ ووجوهَها إلى أسفلَ، وتَحْني رءوسَها عندَ تناولِ طعامِها، لكنّ اللهَ تعالى خَلَق الإنسانَ مستقيمًا، بحيثُ تحملُ يدُه الطّعامَ إلى فمِه، حتى لا ينحنيَ الإنسانُ أمامَ غذائه، ولا يَحني رأسَه إلّا للهِ تعالى فقط، الذي هو خالقُه الأَصْليُّ ومعبودُه الحقيقيُّ:

ـ لم تُخلَقْ للأرضِ ولا للسَّماء، فالدُّنيا كلُّها لك، ولستَ أنتَ لها.

شكل الإنسان وصورته

في عهدِ الخليفةِ العبّاسيِّ المنصورِ «كان عيسى بنُ موسى الهاشميُّ يحبُّ زوجتَه حبًّا شديدًا، فقال لها يومًا: أنتِ طالقٌ ثلاثًا إن لم تكوني أحسَنَ من القمر، فنَهَضت واحتَجَبتْ عنه، وقالت: طلَّقْتَني! وبات بليلةٍ عظيمةٍ، فلمّا أصبح غَدَا إلى دارِ المنصُور، فأَخْبره الخَبَرَ، وأَظْهَرَ للمنصورِ جَزَعًا عظيمًا، فاستحضَرَ الفقهاءَ واستفتاهُم، فقال جميعُ مَن حَضَر: قد طُلِّقت، إلّا رجلًا واحدًا من أصحابِ أبي حنيفةَ، فإنّه كان ساكتًا، فقال له المنصُور: ما لكَ لا تتكلَّم؟ فقال له الرّجلُ: بسم الله الرّحمن الرّحيم: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۞ وَطُورِ سِينِينَ ۞ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۞ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۞﴾ [التين: ١-٤]. يا أميرَ المؤمنين، فالإنسانُ أحسَنُ الأشياء، ولا شيءَ أحسَنُ منه. فقال المنصُورُ لعيسى بن موسى: الأمرُ كما قال الرّجلُ، فأَقْبِلْ على زوجتِك»[١].

---

(١) تفسير القرطبي، سورة التين (٩٥): الآية ٤.

أن تكون إنسانًا أفضل من أن تكون ملاكًا

يقولُ أهلُ العلم: إنّ اللهَ تعالى أَوْدَعَ في الملائكةِ العقلَ فقطْ، ولهذا هم دائمًا في حالةِ الطاعةِ لله، وأَوْدَعَ في الحيَواناتِ الشَّهوةَ فقطْ، ولهذا هي تميلُ إلى العَرْبَدة، بينَما أَوْدعَ في الإنسانِ العقلَ والشَّهوةَ معًا، فإذا غَلَب عقلُه على شهوتِه صار أفضَلَ من الملائكة، وإذا تغَلَّبت شهوتُه على عقلِه صار أسوَأَ من الحيَوانات، وما أجمَلَ ما قالهُ شاعرٌ في هذا الخصوص:

ـ أن تكونَ إنسانًا خيرٌ من أن تكونَ ملاكًا، ولكنّ هذا يتطلَّبُ كثيرًا من الجَهْدِ والمَشقّة[1].

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾

٥ ـ أعطَى اللهُ تعالى الإنسانَ العَيْنَ والأُذُنَ والقلبَ والعقلَ، حتى يسمعَ ويَرى ويُفكِّرَ ويبحَثَ عن طريقِ الجنة، لكنّ أكثرَ الناسِ يستعملونَ هذه النِّعَمَ الإلهيّةَ استعمالًا خاطئًا، ويختارونَ طريقَ جهنَّم، وهؤلاءِ من البشَرِ باعتبارِ الشَّكلِ والصُّورة، لكنَّهم كالأنعام من حيثُ السُّلوكُ والسِّيرة، فشُغلُهم الشاغلُ هو الطعامُ والشرابُ واللَّهوُ والعَبَثُ لا أكثرَ، بل لو أنّنا تأمَّلْنا الأمرَ لَوجَدْنا أنّ الحيَوانات أيضًا تهتمُّ بما ينفَعُها وتبتعدُ عما يَضُرُّها، فلا تقتربُ من النارِ المشتعِلة مثلًا، ولكن عُميانَ العقولِ هؤلاءِ يكونونَ أسوَأَ من الحيَوانات، إذ يُهَرْوِلونَ مُسرعينَ إلى جهنَّمَ عامدينَ متعمِّدين، وهؤلاءِ هم الذين أشار اللهُ تعالى إلى حُمقِهم في قولِه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

---

(١) الشاعر هو، مولانا ألطاف حسين حالي (توفي ١٩١٤م).

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾

٦ ـ لكنّ الذين يُقدِّرونَ صُوَرَهم وأشكالَهم الجميلةَ وكذا نِعَمَ الله عليهم تقديرًا صحيحًا، يعني: يسعَوْنَ جاهِدينَ إلى العمَل الصَّالح بعدَ إيمانِهم، فإنّ اللهَ تعالى يَرضَى عنهم، ويُعطيهم أجرًا عظيمًا لا نهايةَ له.

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾

٧ ـ كيف يمكنُ أصلًا أن يتحمَّلَ إنسانٌ طيلةَ حياتِه المصاعبَ والشَّدائدَ في سَبيل الحفاظِ على بلادِه وأُمّتِه، وفي المقابلِ إنسانٌ آخَرُ يُهيلُ جبالَ الظُّلم على البشَر، ثم لا يأتي يومٌ يُنصَفُ فيه المظلوم، ويُعاقَبُ فيه الظالمُ على ظُلمِه؟ فلأَجْل أيِّ أمل إذًا يُضحِّي الإنسانُ في سَبيل بلادِه وأُمّتِه؟ وإليكَ بعضَ الأمثلةِ في هذا الخصوص فتأمَّلْها:

أجر الشهيد

مُجاهدٌ ضَحَّى برُوحِه ونفسِه من أَجْل رِفعةِ الحقِّ وحمايةِ بلدِه وأُمّتِه، يكونُ من حقِّه أن يُعطَى الأَجْرَ الذي يَليقُ بشأنِه، فما الذي يستفيدُه من أن يُلَفَّ جثمانُه بعَلَم بلادِه، ثم يُدفَنَ بعدَها، أو حتى يقامَ له نُصْبٌ تَذكاريٌّ؟ كما أنّ أجرَ أعزِّ الأشياءِ لدى الإنسانِ ـ وهي نفسُه ورُوحُه ـ لا ينبغي أن يكونَ مجرَّدَ الشُّهرةِ التاريخيّةِ وحسبُ، وإنّما من الضّروريِّ أن تكونَ هناك حياةٌ أُخرى باقيةٌ بعدَ هذه الحياةِ الفانية، حيثُ ينعَمُ فيها على شُهداءِ الأُمّةِ بالأَجْرِ العظيم الذي يَليقُ بهم.

قصاص المقتول

رجلٌ في السبعينَ من عمُرِه، عاشَ زهرةَ حياتِه، إذْ أطلَقَ النارَ على شابٍّ

في الثلاثينَ من عمُرِه وأرداهُ قتيلًا، فإنّ عقابَ هذا القاتل الشَّيخ في قانونِ الدُّنيا هو السِّجنُ لخمسِ سنوات، أو على أكثرِ تقديرٍ هو الشَّنقُ، فهل بذلك يؤدَّى حقُّ المقتول؟ هل بذلك يؤدَّى حقُّ أرملتِه الشابّةِ وأطفالِه الصِّغار؟ بالقَطْع لا، وحقوقُ الإنسانِ تقتضي أن يأتيَ يومُ القيامة، حيث يؤدَّى فيه للمظلوم حقُّه، ويُعاقَبُ فيه الظالمُ على ظُلمِه.

Yorkshire Ripper

قام رجلٌ يُدعَى بيتَر وِليَم سُت كْلِف (Peter William Sutcliffe) وكان مشهورًا باسم يوركْ شايَر (Yorkshire Ripper) بقَتْل ثلاثَ عشْرةَ سيّدةً ما بينَ عام ١٩٧٥م وعام ١٩٨٠م، وحاوَلَ قَتْلَ سبعَ سيّداتٍ أُخرياتٍ، وحَكَم عليه القاضي بالسِّجن مدى الحياة عشرينَ مرةً[1]، يعني: أنّ لدَيْهِ حياةً واحدةً فقطْ سيَقضيها في السِّجن، ولو أنّ لديهِ عشرينَ حياةً لكان عليه أن يُسجَنَ بقَدْرِها عقابًا له على قَتْلِه عشرينَ سيّدةً، وبالتالي من الضَّروريِّ أن تكونَ هناك حياةٌ أُخرَويّةٌ طويلةٌ يُعاقَبُ فيها (Yorkshire Ripper) على قَتْلِه التسعَ عشْرةَ سيّدةً الأُخرَيات.

Holocaust

أثناء الحربِ العالميّةِ الثانية وقبلَها قام هتلر (Hitler) بقَتْل وحَرْق ستةِ ملايينِ يهوديًا، والآنَ لا يستطيعُ أيُّ قانونٍ من قوانينِ الدنيا أن يُعاقبَ هذا الظالمَ بما يستحِقُّه، ولهذا فإنّ الحياةَ الأُخرَويّةَ الدائمةَ ضرورةٌ لا غنى عنها، حتى يؤخَذَ من (Hitler) القِصَاصُ للملايينِ السِّتةِ من اليهودِ واحدًا بعدَ الآخَر.

---

(١) The Guardian, Friday, May 22, 1981

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾

٨ ـ الحُكّامُ المتحضِّرونَ في عصرِنا هذا يَعتبِرونَ أنّ من واجبِهم أن يكافئوا الأوفياءَ للوطن، ويُعاقِبوا الخائنينَ له، واللهُ تعالى أحكَمُ الحاكِمين، ولهذا حدَّد يومَ القيامة لكي يُثيبَ فيه الأوفياءَ ويُعاقَب فيه المجرِمين.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ الشروق من يوم السبت الأول من يناير ٢٠١١م
الموافق ٢٦ محرَّم ١٤٣٢هـ.

هذا، وقدِ اكتَمل بفَضْل الله وكرَمِه تفسيرُ سُورة «التِّين» في عدة ساعاتٍ اليومَ، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسَّلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

❋ ❋ ❋

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(٩٦) سُورَةُ العَلَقِ

هذه السُّورةُ مكِّيةٌ، واسمُها: «العَلَقُ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الثانيةِ منها، ويقالُ لها: سُورةُ «اقرَأْ» أيضًا، وهي أولُ كلمةٍ من السُّورة.

الوحي الأول

الآياتُ الخمسُ الأُولى من هذه السُّورةِ هي أولُ آياتٍ نَزَلت من القرآنِ الكريم(١)، وكان النبيُّ ﷺ في ذلك الوقتِ جالسًا في غارِ حِراءٍ بالقربِ من مكّةَ المكرَّمةِ حين نَزَل عليه جِبريلُ الأمينُ بهذه الآياتِ الخمس.

تعريف الوحي

المرادُ بالوَحْيِ في الشَّريعةِ هو: ذلك الكلامُ الذي يَنزِلُ على الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلامُ من الله تعالى، وهذا الوحيُ يَنزِلُ بشكلٍ مباشِرٍ أو بشكلٍ غيرِ مباشِر.

حديث يتعلق بالوحي

تقولُ السيِّدةُ عائشةُ أُمُّ المؤمنينَ رضي الله عنها: إنّ الحارثَ بنَ هشامٍ - رضي الله عنه - سألَ رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، كيف يأتيك الوَحيُ؟ فقال

---

(١) «أوّل ما نزل سورة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ إلى قوله - ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾». تفسير القرطبي.

رسولُ الله ﷺ: «أحيانًا يأتيني مِثلَ صَلصَلةِ الجَرَس ـ وهو أشدُّه علَيَّ ـ فيَفصِمُ عنّي وقد وَعَيتُ عنه ما قال، وأحيانًا يتمثَّلُ لِيَ المَلَكُ رجُلًا فيُكلِّمُني فأَعِي ما يقول». قالت عائشةُ رضي الله عنها: ولقد رأيتُه يَنزِلُ عليه الوحيُ في اليوم الشّديدِ البَرْد، فيَفصِمُ عنه وإنّ جبينَه لَيتفصَّدُ عَرَقًا(١).

أشكال نزول الوحي

جاء في هذا الحديثِ بيانٌ لصورتَيْن من صُوَرِ الوحي، لأنّ الوحيَ يَنزِلُ في هاتَيْنِ الصُّورتَيْنِ كثيرًا، وفي هاتَيْنِ الصُّورتَيْنِ يَنزِلُ الوحيُ عن طريقِ المَلَك، أمّا الصُّورةُ الأُولى فلا يَظهَرُ فيها المَلَكُ، وإنّما لا يُسمَعُ سوى صوتِ جَرَسٍ. وأمّا في الصُّورةِ الثانية فيَنزِلُ المَلَكُ في شكلِ إنسانٍ، وكان يَظهَرُ للحاضِرينَ في ذلك الوقتِ، وبالإضافةِ إلى هاتَيْنِ الصُّورتَيْنِ فإنّ اللهَ تعالى يُنزِلُ كلامَه على قلبِ النبيِّ بالشكلِ الذي يريدُه، مثلًا:

الكلام المباشر

مثلَما كَلَّم اللهُ تعالى سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ بشكل مباشِر وبغيرِ مَلَكٍ: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾[النساء: ٦٤]، كذلك كَلَّم اللهُ تعالى حبيبَه النبيَّ ﷺ بشكلٍ مباشِر ليلةَ المعراج، وأَنْعم عليه بهديّةٍ خمسينَ صلاةً، وباقتراح من سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ خَفَّف اللهُ تعالى الصَّلواتِ إلى خمسٍ فقطْ، وعَفَا عن خمسٍ وأربعينَ صلاةً(٢).

---

(١) البخاري، كتاب بدء الوحي، باب ٢ برقم ٢.

(٢) «ودنا الجبّار ربّ العزّة فتدلّى حتّى كان منه قاب قوسين أو أدنى فأوحى الله فيما أوحى إليه خمسين صلاةً على أمّتك كلّ يوم وليلةٍ. ثمّ هبط حتّى بلغ موسى فاحتبسه موسى فقال: يا محمّد ماذا عهد إليك ربّك؟ قال: عهد إليّ خمسين صلاةً كلّ يوم وليلةٍ. قال: إنّ أمّتك لا تستطيع ذلك فارجع فليخفّف عنك ربّك وعنهم... فقال وهو مكانه: يا ربّ، خفّف عنّا، فإنّ أمّتي لا تستطيع =

كما أنّ اللهَ تعالى قال للنبيِّ الكريم ﷺ: «إنّي فَرَضتُ على أُمّتِك خمسَ صَلَواتٍ وعَهِدتُ عندي عَهْدًا أنّه مَن جاء يحافظُ عليهِنّ لوقتِهنَّ أدخَلتُه الجنّةَ، ومَن لم يُحافظْ عليهِنَّ فلا عهدَ له عندي»[١].

الكلام في المنام

قال النبيُّ ﷺ: «أتاني اللّيلةَ ربّي تبارك وتعالى في أحسَنِ صورةٍ ـ قال: أحسَبُه قال: في المنام ـ فقال: يا محمّد، هل تدري فيمَ يَختصمُ الملأُ الأعلى؟ قال: قلت: لا، قال: فوضَعَ يدَه بينَ كتِفَيَّ حتّى وَجدتُ بَرْدَها بينَ ثديَيَّ، فعَلِمتُ ما في السّماواتِ وما في الأرض»[٢].

نزول الأمين جبريل

يقولُ الإمامُ أحمدُ القَسْطَلّاني: «وقد ذَكَر ابنُ عادلٍ[٣] في تفسيرِه: أنّ جِبريلَ ـ عليه

= هذا. فوضع عنه عشر صلواتٍ، ثمّ رجع إلى موسى فاحتبسه، فلم يزل يردّده موسى إلى ربّه حتّى صارت إلى خمس صلواتٍ، ثمّ احتبسه موسى عند الخمس فقال: يا محمّد والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا فضعفوا فتركوه، فأمّتك أضعف أجسادًا وقلوبًا وأبدانًا وأبصارًا وأسماعًا، فارجع فليخفّف عنك ربّك... فقال: يا ربّ، إنّ أمّتي ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبدانهم فخفّف عنّا، فقال الجبّار: يا محمّد. قال: لبّيك وسعديك. قال: إنّه لا يبدّل القول لديّ، كما فرضت عليك في أمّ الكتاب ـ قال ـ فكلّ حسنةٍ بعشر أمثالها، فهي خمسون في أمّ الكتاب وهي خمسٌ عليك. فرجع إلى موسى فقال: كيف فعلت؟ فقال: خفّف عنّا، أعطانا بكلّ حسنةٍ عشر أمثالها. قال موسى: قد والله راودت بني إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه، ارجع إلى ربّك فليخفّف عنك أيضًا. قال رسول الله ﷺ: يا موسى قد والله استحييت من ربّي ممّا اختلفت إليه. قال: فاهبط باسم الله. قال: واستيقظ وهو في مسجد الحرام». البخاري، كتاب التوحيد، باب **٣٧** برقم **٧٥١٧**.

(١) أبو داود، كتاب الصلاة، باب **٩**.

(٢) الترمذي، تفسير القرآن برقم **٣٢٣٣**.

(٣) أبو حفص سراج الدين عمر بن علي الحنبلي الدمشقي النعماني (ت ٧٧٥هـ) صاحب «اللباب في علوم الكتاب».

السّلامُ ـ نَزَل على النبيِّ ﷺ أربعةً وعشرينَ ألفَ مرة، ونَزَل على آدمَ اثنتَيْ عشْرةَ مرةً، وعلى إدريسَ أربعَ مرّات، وعلى نُوح خمسينَ مرةً، وعلى إبراهيمَ اثنتَيْنِ وأربعينَ مرةً، وعلى موسى أربعَمائةِ مرة، وعلى عيسى عشْرَ مرّات»[1].

تفصيل نزول أول وحي

تقولُ أُمُّ المؤمنينَ السيِّدةُ عائشةُ رضي الله عنها: أوّلُ ما بُدئَ به رسولُ الله ﷺ من الوَحْي: الرُّؤيا الصّالحةُ في النّوم، فكان لا يَرى رُؤيا إلّا جاءت مِثلَ فَلَقِ الصُّبح (أي: صادقةً تتحقَّقُ)، ثمّ حُبِّب إليه الخَلاءُ، وكان يَخلو بغارِ حِراءٍ فيتَحنَّثُ فيه ـ وهو التّعبُّد ـ اللّياليَ ذواتَ العدَد قبلَ أن يَنزِعَ إلى أهلِه، ويتزوَّدُ لذلك، ثمّ يَرجِعُ إلى خديجةَ، فيتزوَّدُ لمِثلِها، حتّى جاءه الحقُّ (أي: الرِّسالةُ الإلهيّةُ) وهو في غارِ حراءٍ، فجاءه المَلَكُ فقال: اقرَأْ. قال: «ما أنا بقارئٍ». قال: «فأخَذَني فغَطَّني حتّى بَلَغ منّي الجَهْد، ثمّ أرسَلَني فقال: اقرَأْ. قلتُ: ما أنا بقارئٍ. فأخَذَني فغَطَّني الثّانيةَ حتّى بَلَغ منّي الجَهدَ، ثمّ أرسَلَني فقال (أي: في المرةِ الثالثة): اقرَأْ. فقلتُ: ما أنا بقارئٍ. فأخَذَني فغَطَّني الثّالثةَ، ثمّ أرسَلَني فقال (أي: في المرةِ الرابعة): ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ١-٣]. فرَجَع بها رسولُ الله ﷺ يَرجُفُ فؤادُه (أي: من جَلالِ الوحي الإلهيِّ، حتى اللَّحمُ ما بينَ كتِفَيْه وعنُقِه أيضًا كان يَرجُفُ)، فدَخَل على خديجةَ بنتِ خُويلدٍ رضي اللهُ عنها فقال: «زَمِّلوني زَمِّلوني». فزَمَّلوهُ حتّى ذَهَب عنه الرَّوْع، فقال لخديجةَ وأَخْبَرَها الخَبَر: «لقد خشَيتُ على نَفْسي». فقالت خديجةُ: كلّا والله، ما يُخزيكَ اللهُ أبدًا، إنّك لَتصِلُ الرَّحِم، وتَحملُ الكَلَّ، وتُكسِبُ المعدومَ، وتَقْري الضَّيفَ، وتُعينُ على نوائبِ الحقّ. فانطَلَقَتْ به خديجةُ حتّى أَتتْ به ورقَةَ بنَ نَوْفَل بنِ أَسَد بنِ

(١) المواهب اللدنية، ١: ٢١٠: مبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

عبدِ العُزَّى ابن عمٍّ خديجةَ - وكان امرأً تنَصَّر في الجاهليّة، وكانَ يكتُبُ الكتابَ العِبْرانيَّ، فيَكتُبُ من الإنْجيل بالعِبْرانيّة ما شاء الله أنْ يكتُبَ، وكان شيخًا كبيرًا قد عَمِيَ - فقالت له خديجةُ: يا ابنَ عمٍّ، اسمَعْ منَ ابن أخيك. فقال له وَرَقةُ: يا ابنَ أخي، ماذا تَرى؟ فأَخْبَره رسولُ الله ﷺ خَبَرَ ما رأى. فقال له وَرَقةُ: هذا النّاموسُ الّذي نَزَّل اللهُ على موسى ﷺ، يا ليتَني فيها جَذَعًا، ليتَني أكونُ حيًّا إذْ يُخرِجُك قومُك. فقال رسولُ الله ﷺ: أوَمُخرِجيَّ هم؟». قال: نعم، لم يأتِ رجلٌ قطُّ بمِثلِ ما جئتَ به إلّا عُودِيَ، وإنْ يُدرِكْني يومُك أنصُرْكَ نصرًا مؤزَّرًا. ثمّ لم يَنشَبْ وَرَقةُ أن توفِّيَ وفَتَر الوحيُ[1].

النبي منزه عن الكفر والشرك حتى قبل بعثته

للتعرُّفِ على هذا الأمرِ راجع الحاشيةَ رقم ٦ للآيةِ رقم ٧ من سُورة «الضُّحى» (٩٣).

إيمان النبي قبل بعثته

للتعرُّفِ على هذا الأمرِ راجع الحاشيةَ رقم ٦ للآيةِ رقم ٧ من سُورة «الضُّحى» (٩٣).

علم النبي بنبوته قبل بعثته

يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: قالوا: يا رسولَ الله، متى وَجَبتْ لك النُّبوّة؟ قال: «وآدَمُ بينَ الرُّوح والجَسَد»[2].

---

(١) البخاري، كتاب بدء الوحي، باب ٣ برقم ٣، وغيره، مسلم، كتاب الإيمان، باب ٧٣ برقم ١٦٠.
(٢) الترمذي، أبواب المناقب، باب ١ برقم ٣٦٠٩، وكنز العمال، برقم ٣١٩١٧.

يقولُ سيّدُنا جابرُ بن سَمُرةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّي لَأعرفُ حَجَرًا بمكّةَ كان يُسلِّمُ عليَّ قبلَ أن أُبعَثَ، إنّي لَأعرِفُه الآنَ»[١]. تُرى، بأيِّ ألفاظٍ كان الحَجَرُ يُسلِّمُ على النبيِّ ﷺ؟ لاحِظْ هنا مثالًا على ذلك. قال سيّدُنا عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه: كنتُ معَ النّبيِّ ﷺ بمكَّة، فخَرَجْنا في بعضِ نواحيها، فما استقبَلَه جَبَلٌ ولا شجرٌ إلّا وهو يقولُ: السّلامُ عليكَ يا رسولَ الله[٢].

يقولُ الإمامُ القَسْطَلّانيُّ: «وأَخْرجَ البيهَقيُّ، من طريقِ العلاءِ بن جاريةَ الثَّقفيِّ، عن بعضِ أهل العِلم، أنّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ حينَ أرادَ اللهُ كرامَته وابتداءَه بالنُّبوةِ، كان لا يَمُرُّ بحَجَرٍ ولا شجرٍ إلّا سَلَّم عليه وسَمِع منه، فيَلتفِتُ رسولُ الله ـ ﷺ ـ خَلفَه وعن يمينِه وعن شمالِه فلا يَرى إلا الشجرَ وما حولَه من الحجارة، وهي تُحيِّيهِ بتحيّةِ النبوَّة: السَّلامُ عليكَ يا رسولَ الله، الحديثَ»[٣].

بحيرا الراهب

ذَكَر هذه القصّةَ الإمامُ الترمذيُّ والمؤرِّخونَ الآخَرون، وهي كما رواها أبو بكرٍ بنُ أبي موسى الأشعَريُّ، عن أبيه، قال: «خَرَج أبو طالبٍ إلى الشّام، وخرج معه النّبيُّ ﷺ في أشياخٍ من قُريشٍ، فلمّا أشرَفوا على الرّاهبِ هَبَطوا فَحَلُّوا رحالَهم، فخَرَج إليهم الرّاهبُ، وكانوا قبلَ ذلك يمُرُّونَ به فلا يَخرُجُ إليهم ولا يَلتفتُ. قال: فهُم يَحُلُّونَ رحالَهم، فجَعَل يتَخلَّلُهم الرّاهبُ حتّى جاء فأخَذَ بيدِ رسولِ الله ﷺ قال: هذا سيّدُ العالَمين، هذا رسولُ ربِّ العالَمين يَبعَثُه اللهُ رحمةً للعالَمين. فقال له أشياخٌ من قُريشٍ: ما عِلمُك؟ فقال: إنّكم حينَ أشرَفتُم من العقَبةِ لم يبقَ شجرٌ ولا

---

(١) مسلم، كتاب الفضائل، باب ١ برقم ٥٩٣٩.

(٢) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٦ برقم ٣٦٢٦.

(٣) المواهب اللدنية، ١: ٢٠٠.

حجرٌ إلّا خرّ ساجدًا، ولا يَسجُدانِ إلّا لنبيٍّ، وإنّي أعرِفُه بخاتَم النُّبوّةِ أسفلَ من غُضروفِ كَتِفِه مثلَ التُّفّاحة. ثمّ رَجَع فصَنَع لهم طعامًا، فلمّا أتاهم به وكان هو في رَعْيةِ الإبل، قال: أرسِلوا إليه، فأَقْبَلَ وعليه غَمامةٌ تُظِلُّه، فلمّا دَنَا من القوم وَجَدَهم قد سبَقُوه إلى فيءِ الشّجرة، فلمّا جَلَس مال فيءُ الشّجرةِ عليه، فقال: انظُروا إلى فيءِ الشّجرةِ مالَ عليه. قال: فبينَما هو قائمٌ عليهم وهو يُناشدُهم أن لا يذهَبوا به إلى الرُّوم فإنّ الرُّومَ إذا رأَوْه عَرَفوهُ بالصِّفة فيقتُلونَه، فالتَفتَ فإذا بسبعةٍ قد أَقْبلوا من الرُّوم فاستقبَلَهم فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جئنا أنّ هذا النّبيَّ خارجٌ في هذا الشّهر، فلم يبقَ طريقٌ إلّا بُعِث إليه بأُناسٍ، وإنّا قد أُخْبرنا خَبَرَه، فبُعثنا إلى طريقِك هذا، فقال: هل خلفَكم أحدٌ هو خيرٌ منكم؟ قالوا: إنّما أُخبِرْنا خبَرَه بطريقِك هذا. قال: أفرأيتُم أمرًا أراد اللهُ أن يَقضيَه هل يستطيعُ أحدٌ من النّاس ردَّه؟ قالوا: لا. قال: فبايَعُوه وأقاموا معَه، قال أَنشُدُكم اللهَ أيُّكم وَلِيُّه؟ قالوا: أبو طالبٍ، فلم يزَلْ يُناشدُه حتّى رَدَّه أبو طالبٍ وبَعَث معَه أبو بكرٍ بلالًا وزَوَّده الرّاهبُ من الكعكِ والزَّيت»[1].

النبيُّ الذي يكونُ على علم بنُبوَّتِـه من قَبْلِ خَلْقِ سيّدِنا آدمَ عليه السَّلام، النبيُّ الذي كانت أحجارُ مكةَ المكرَّمةِ تُناديه: يا رسولَ الله قبلَ البَعْثةِ النَّبويّة، والنبيُّ الذي شَهِد بنُبوَّتِه الراهبُ النَّصرانيُّ قَبْلَ أن يُبعَثَ نبيًّا وهو لا يزالُ في الثانيةَ عشْرةَ من عمُرِه، إن كان مِثلُ هذا النبيِّ لا يَعلَمُ بنُبوَّتِـه وإيمانِه، فمن غيرُه يَعلمُ إذًا؟

الترغيب في القراءة والكتابة

في الآيات الخمسِ الأُولى لم يأتِ ذِكرُ الصَّلاةِ والصَّوم والحجِّ والزَّكاة، وإنّما جاء الترغيبُ في القراءةِ والكتابة ببَرَكةِ اسم الله تعالى، أمّا اليومَ فما أكبرَ

(١) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٣ برقم ٣٦٢٠.

المأساةَ التي تعيشُها أُمّةٌ كتابُها المقدَّسُ هو القرآن، أي: القراءةُ، وجاء الأمرُ بالقراءةِ في أولِ كلمةٍ نَزَلت من هذا الكتاب، وجاء الترغيبُ في القراءةِ والكتابة في أولِ آياتٍ نَزَلتْ منه، لكنْ معَ ذلك نجِدُ هذه الأمةَ في ذَيْل الأُمم من الناحيةِ التعليميَّة.

ذم أبي جهل

في الآياتِ الأربعَ عشْرةَ الأخيرةِ من هذه السُّورة جاء ذَمُّ أبي جَهْل؛ لأنّ هذا التَّعِسَ كان في مقدِّمةِ المعارِضينَ للنبيِّ ﷺ في مكةَ، ولم يكنْ يَمنَعُ النبيَّ ﷺ من الصّلاةِ فقطْ، وإنّما كان يهدِّدُه بمصيرٍ سيِّئٍ فيما لو أدَّى الصّلاةَ، وفي هذه الآياتِ جاء التنبيهُ لأبي جَهْل بأنه إن لم يَرجِعْ عن طُغيانِه فسوف يُسحَبُ على الأرضِ بذُلٍّ وخِزْي، وهذا هو ما حَدَث بالفعل، فلقد قام مجاهدو الإسلام في غزوةِ بدرٍ بسَحْبِ جثَّتِه، وألْقَوا بها في حُفرةٍ في بدر، وسوف تَسحَبُه الملائكةُ يومَ القيامةِ وتُلقي بهِ في جهنَّم.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة العصر من يوم الاثنين ٣ يناير ٢٠١١م
الموافق ٢٨ محرَّم ١٤٣٢هـ.

هذا، وقد كتبتُ مقالَيْنِ تفصيليَّيْنِ عن الخمسِ آياتِ الأولى من سُورة «العَلَق» قبلَ عدةِ سنواتٍ، وهما:

١ ـ هل كان نبيُّنا الحَبيبُ سيّدُنا محمدٌ ﷺ يستطيعُ القراءة؟

٢ ـ الوحيُ الأولُ من القرآنِ الكريم وسياسةُ الإسلام التعليميَّة.

وقد نُشِر المقالانِ في الصُّحفِ والمجَلّاتِ والكتُبِ المختلفة، وها أنا أنقُلُهما هنا تفسيرًا لهذه السُّورةِ الكريمة.

هل كان سيدنا محمد ﷺ يستطيع القراءة؟

القرآنُ الكريمُ هو آخِرُ كتابٍ أوحَى به اللهُ تعالى، ونَزَل على آخِرِ الأنبياءِ والمرسَلينَ سيّدِنا محمدٍ ﷺ، وقد نَزَل القرآنُ الكريمُ تدريجيًّا في **٢٣** عامًا، لكنّ أولَ ما أُوحيَ منه كان في شهرِ رمضانَ المبارك، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، أمّا ماذا كانت اللَّيلةُ التي نَزَل فيها الوحيُ الأول، فقد قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر: ١].

هل كان النبي ﷺ يعرف جبريل الأمين؟

تأمَّلْ ـ في هذا الخصُوص ـ هذا السؤالَ والجوابَ من العلّامة القَسْطَلّاني:

السؤالُ: من أين عَرَف ـ ﷺ ـ أنّ جِبريلَ مَلَكٌ من عندِ الله، وليس من الجِنِّ؟

الجوابُ: إنّ اللهَ تعالى خَلَق في محمدٍ ـ ﷺ ـ عِلمًا ضروريًّا بأنّ جِبريلَ من عندِ الله مَلَكٌ لا جِنِّيٌّ ولا شيطانٌ، كما أنّ اللهَ تعالى خَلَق في جِبريلَ عِلمًا ضروريًّا بأنّ المتكلِّمَ معَه هو اللهُ تعالى، وأنّ المرسِلَ له ربُّه تعالى لا غيرُ[1]. ولهذا كان النبيُّ ﷺ على يقينٍ من أنّ هذا هو جِبريلُ الأمينُ، وأنه جاء بكلامِ اللهِ تعالى، ولهذا أيضًا لم يَسأَلِ النبيُّ الكريمُ ﷺ سيّدَنا جِبريلَ عليه السَّلامُ: من أنت؟ وكلامُ مَن هذا الذي جئتَ به؟

---

(١) المواهب اللدنية، ١: ١٩٩.

كيفية نزول الوحي الأول

يقولُ الإمامُ ابنُ جَريرٍ الطَّبريُّ: «إنّ النبيَّ ﷺ كان في غارِ حِراءٍ، فجاءَه المَلَكُ وقال: يا محمّد، أنا جِبريلُ وأنت رسولُ الله. ثم قال: اقرَأْ»(١).

رَوى إمامُ المحدِّثينَ الإمامُ البخاريُّ، عن أُمِّ المؤمنينَ السيِّدةُ عائشةُ رضي اللهُ عنها، حديثًا قالت فيه: أوّلُ ما بُدئَ به رسولُ الله ﷺ من الوحَيْ الرُّؤيا الصّالحةُ في النّوم، فكان لا يَرى رُؤيا إلّا جاءت مِثلَ فَلَقِ الصُّبح (أي: صادقةً تتحقَّقُ)، ثمّ حُبِّب إليه الخَلاءُ، وكان يَخْلو بغارِ حِراءٍ فيتَحنَّثُ فيه ـ وهو التّعبُّد ـ اللّياليَ ذواتَ العدَدِ قبلَ أن يَنزِعَ إلى أهلِه، ويتزوَّدُ لذلك، ثمّ يَرجِعُ إلى خديجةَ، فيتزَوَّدُ لمِثلِها، حتّى جاءه الحقُّ (أي: الرِّسالةُ الإلهيَّةُ) وهو في غارِ حِراءٍ، فجاءه المَلَكُ فقال: اقرَأْ. قال: «ما أنا بقارئٍ». قال: «فأخَذني فغَطَّني حتّى بَلَغ منّي الجَهدَ، ثمّ أرسَلَني، فقال: اقرَأْ. قلتُ: ما أنا بقارئٍ. فأخَذني فغَطَّني الثّانيةَ حتّى بَلَغ منّي الجَهدَ، ثمّ أرسَلَني فقال (أي: في المرةِ الثالثة): اقرَأْ. فقلتُ: ما أنا بقارئٍ. فأخَذَني فغَطَّني الثّالثةَ، ثمّ أرسَلَني فقال (أي: في المرةِ الرابعة): ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ * ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ * ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١-٥]. وهنا لم يَمتنع النبيُّ ﷺ، وإنّما تَلقَّى الوحيَ وعادَ إلى البيت. وقد ذَكَر الإمامُ البُخاريُّ هذا الحديثَ بِالتَّفْصِيل في ثلاثةِ مواضعَ؛ بابِ رقم ٣ من كتابِ بَدْءِ الوحي، بابِ رقم ١ من كتابِ التعبير، وفي سُورة العلق (٩٦) من كتابِ تفسير القرآنِ الكريم، والراوي في الرواياتِ الثلاثِ هي: السيِّدةُ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها.

ويُعلَمُ من هذا الحديثِ الشّريفِ أنّ سيّدَنا جِبريلَ عليه السَّلامُ عندَما قال

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري، سورة العلق (٩٦).

لسيّدِنا محمدٍ ﷺ في المراتِ الثلاثِ الأُوَل: «اقرَأْ» فقطْ، امتَنَع النبيُّ ﷺ عن القراءة، وفي المرةِ الرابعةِ عندَما قَرأَ الآياتِ الخمسَ مجتمعةً، يعني: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾، عندَئذٍ لم يَمتنع النبيُّ ﷺ عن القراءة، وقد جاءت في الجزءِ الأولِ منَ الحديثِ جملةُ «ما أنا بقارئٍ»، وعليكَ أن تضَعَ هذه الجُملةَ في الاعتبارِ جيِّدًا؛ لأنّ ما سأقولُه فيما يلي يتعلَّقُ بهذه الجُملة.

«ما أنا بقارئٍ»

معناها الحَرْفي: «أنا لستُ قارئًا»، ولو اعتَبَرنا اسمَ الفاعل هنا بمعنى الفعل المضارع المعروف، فسيكونُ المعنى: «أنا لا أقرَأُ»، أو «أنا لن أقرَأَ»، وهكذا يصبحُ لهذه الجُملةِ ثلاثةُ معانٍ: أنا لست قارئًا، وأنا لا أقرَأُ، وأنا لن أقرَأَ، وسنُثبِتُ هذه المعانيَ الثلاثةَ من القرآنِ الكريم فيما بعدُ، لكنّ بعضَ السادةِ تَرجَموها بمعنى «أنا لا أستطيعُ القراءةَ»[1]، و«أنا لا أعرفُ القراءةَ»[2]، ولو سَلَّمنا بهذه المعاني لَكان المقصودَ هو أنّ النبيَّ ﷺ يُعبِّرُ عن عَجْزِه واضْطِرارِه أمامَ جِبريلَ الأمين، يعني: إنّني لا أعرفُ القراءةَ أصلًا، فكيف لي أن أقرَأَ؟ وأنا أختلفُ معَ هذا المفهوم؛ لأنه لا يليقُ بالنبيِّ الكريم ﷺ.

صحيحٌ أنه يمكنُ استخراجُ معنى «أنا لا أستطيعُ القراءةَ» منه، لكنّ هذا المعنى لن يكونَ صحيحًا هنا؛ لأنه عندَ ترجمةِ أيِّ عبارةٍ ينبغي أن نَضَعَ في الاعتبارِ سياقَ الكلام ومقامَ ومَرتبةَ الشَّخصيّةِ التي تتعلَّقُ بها هذه العبارةُ، وإلّا فقد يأتي المعنى عكسَ المراد، وهذه أمثلةٌ على ما أقولُ من القرآنِ الكريم فتأمَّلْها:

---

(١) تفسير حقاني.

(٢) تفسير ماجدي.

ـ يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧].

ـ ويقولُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦].

ـ ويقولُ تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤].

ـ ويقولُ تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]. يعني: أنه لا يمكنُ أن يكونَ ظالمٌ نبيًّا، كما لا يمكنُ أن يكونَ نبيٌّ ظالمًا؛ لأنّ كلًّا منهما على عكسِ الآخَرِ تمامًا، بينَما يقولُ سيّدُنا يونُسُ عليه السلام: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

ومعنى هذه الآياتِ أنّ اللهَ تعالى لا يحبُّ الظالمين، وأنّ اللهَ تعالى لا يهدي الظالمين، وأنّ لعنَةَ الله تعالى على الظالمين، وأنّ الظالمَ لا يمكنُ أن يكونَ نبيًّا، وفي نفسِ الوقت يقولُ سيّدُنا يونُسُ عليه السَّلام: إنّني ظالم. والآنَ، إذا اعتَقَد مسلمٌ أن سيّدَنا يونُسَ ظالمٌ ـ والعياذُ بالله ـ لَكفَر، والسؤالُ هنا هو: أنّ سيّدَنا يونُسَ عليه السَّلامُ استَعمَلَ هذا اللفظَ لنفسِه، وعبَّر عنه اللهُ تعالى في القرآنِ الكريم، فلماذا لا نستطيعُ نحن أن نقولَه؟ والحقيقةُ هي أنه عندَما يَستعمِلُ اللهُ تعالى فيما يتعلَّقُ بذاتِه لفظًا لا يَليقُ معناه الظاهريُّ بشأنِه تعالى، فإنه ينبغي تأويلُه، مثلَما استَعمَلَ اللهُ تعالى في القرآنِ الكريم لذاتِه ألفاظًا مِثلَ اليد، وسُخْريتِه من المنافقين، ومَكْرِه وخِداعِه لهم، ولأن هذه الألفاظَ لا تَليقُ بشأنِ وعظَمةِ الله تعالى، لهذا فإنّنا نترُكُ معناها الظاهريَّ، ونأخُذُ لها المعنى الذي يَليقُ بشأنِه تعالى، وبنفسِ الطريقة إذا استَعمَلَ اللهُ تعالى في القرآنِ أو في الحديثِ لنبيٍّ من أنبيائه لفظًا لا يَليقُ معناه الظاهريُّ بشأنِ هذا النبيِّ، فإنّنا نؤوِّلُ معناه، فاللهُ تعالى مالكُهم، يقولُ لهم ما يشاء،

وهم عبادُه المخصُوصونَ، ويمكنُهم إظهارُ تواضُعِهم وعَجْزِهم وانكسارِهم أمامَه سبحانَه وتعالى كما يريدون، لكنْ لا يَجُوزُ لنا أن نعتمدَ معنًى لا يليقُ بشأنِ أيٍّ منهم.

والآنَ، تعالَ بنا نتأمَّلْ جُملةَ «ما أنا بقارئ» واضعينَ في اعتبارِنا مثالَ سيّدِنا يونُسَ عليه السلام، وهذه الألفاظُ ليست من كلام الله تعالى، ولا من كلام سيّدِنا جِبريلَ الأمينِ عليه السَّلام، وإنّما استعمَلَها النبيُّ الكريمُ ﷺ لنفسِه، ولهذا عندما نتحدَّثُ عن معناها ينبغي أن نَضَع في اعتبارِنا مقامَ النبيِّ ﷺ ومَرتبَته، حتى لا يَصدُرَ منا ما يُعَدُّ سُوءَ أدبٍ، فتضيعَ حَسناتُنا. والحقيقةُ أنّ اللهَ تعالى هو الذي عَلَّم الأنبياءَ الكرامَ عليهمُ السَّلامَ العلمَ، وكلُّ نبيٍّ يكونُ قد فازَ بهذا المقام العظيم من العلم قبلَ نزولِ الوَحْي الأوّلِ عليه، بحيث يستطيعُ أن يقرَأَ الوحيَ، بل ويُعلِّمُه أيضًا، يعني: أنه ليس عالمًا بالوحي فقطْ، وإنّما معلِّمٌ له أيضًا، وهذا هو السببُ في أنّ حوالي ١٢٤ ألفَ نبيٍّ الذين جاءوا قبلَ نبيِّ آخِرِ الزّمانِ ﷺ، لم يَقُلْ أحدٌ منهم عندَ نزولِ الوحي عليه: «ما أنا بقارئ»، فلماذا يكونُ النبيُّ ﷺ هو الوحيدَ الذي لا يستطيعُ القراءةَ؟

قراءة سيدنا آدم عليه السلام

لقد ظَلَّ سيّدُنا آدمُ عليه السَّلامُ يبكي سنينَ طِوالًا على الهَفْوةِ التي صَدَرتْ منه، ولكنّه لم يُبشَّرْ بالمغفرة، وذاتَ يوم قال سيّدُنا آدمُ عليه السلام: «يا ربِّ، اسألُك بحقِّ محمّدٍ أنْ غَفَرتَ لي، فقال اللهُ تعالى: يا آدم، كيف عَرَفتَ محمّدًا ولم أخلُقْه بعدُ؟ فقال: يا ربِّ، لأنّك لمّا خَلقْتَني بيدِك ونَفَختَ فيّ من رُوحِك، رَفَعتُ رأسي فرأيتُ على قوائم العرشِ مكتوبًا: لا إله إلّا الله محمّدٌ رّسولُ الله، فعَلِمتُ أنّك لم

تُضِفْ إلى إسمِك إلّا أحبَّ الخَلْقِ إليك، فقال اللهُ تعالى: صَدَقتَ يا آدم، إنّه لَأَحبُّ الخَلْقِ إليّ، وإذ سألتَني بحقِّه فقد غَفَرتُ لك، ولولا محمّدٌ ما خَلقتُك»[١].

قراءة سيدنا موسى عليه السلام

قال اللهُ تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥].

قراءة سيدنا عيسى عليه السلام

جاء في الآيةِ رقم ٣٠ من سُورة مريَم (١٩) أنّ سيّدَنا عيسى عليه السَّلامُ كان في حِجْرِ أُمِّه رضيعًا وقال: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠].

لمحة فكرية

سيّدُنا آدمُ عليه السَّلامُ يقرَأُ الشهادتَيْنِ مكتوبتَيْنِ على العرش، وسيّدُنا موسى عليه السَّلامُ يقرَأُ التوراةَ المكتوبةَ على الألواح، وسيّدُنا عيسى عليه السَّلامُ يقرَأُ الكلامَ الإلهي وهو طفلٌ في حِجْرِ أُمِّه، لكن نبيَّنا الحَبيبَ ﷺ، وهو سيِّدُ الأنبياءِ والمرسَلينَ جميعًا عليهم السَّلام، ولا يستطيعُ أن يقرَأَ كلامَ الله تعالى وهو في الأربعينَ من عمُرِه! كما أنّ الأنبياءَ الآخَرينَ عليهمُ السَّلام عَلَّمهم اللهُ تعالى نفسُه القراءةَ قبلَ إعلانِ نبوَّتِهم، بينَما نبيُّنا الحَبيبُ ﷺ يُعلِّمُه جِبريلُ الأمينُ عليه السَّلامُ القراءةَ بعدَ إعلانِ النُّبوَّة! هذا ممّا لا يَليقُ بشأنِ النبيِّ الكريم ﷺ.

---

(١) المواهب اللدنية، ١: ٨٢، والبداية والنهاية، ١: ٨١، وشرح الزرقاني، ١: ١١٩، والمعجم الأوسط للطبراني، ٧: ٢٥٩ برقم ٦٤٩٨.

هذا أمرٌ آخَرُ، أنْ لا تَظهَرَ من النبيِّ ﷺ معرفةٌ بالقراءةِ والكتابة قبلَ إعلانِ النبوَّة، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، يعني: لو أنّك كنتَ تقرَأُ وتكتُبُ قبلَ إعلانِ النُّبوَّة، لَكان ذلك مَثارًا للشكِّ لدى أهل الباطل، بأنّك قرَأْتَ هذا الكلامَ في الكتُب السابقة وحَفِظتَه، ثم جئتَ لتُسمِعَه للناس الآنَ، ورَغْمَ أنه لوِ اجتَمعَ متعلِّمو ومثقَّفو الدُّنيا كلِّها على أن يأتوا بكتابٍ مِثلِ القرآنِ الكريم فلن يستطيعوا، ولكنّ ذلك على أيِّ حالٍ كان سيُعطي أهلَ الباطل فُرصةً للافتراءِ عليك، ولهذا أبعَدَكَ اللهُ تعالى عن القراءةِ والكتابة قبلَ نزولِ القرآن، أمّا ما قَرأْتَه وما كتَبْتَه بعدَ نزولِ القرآن فهو لا يُنافي هذه الآيةَ، وإنّما قراءتُك وكتابتُك من غيرِ أن تتعلَّمَ من أحدٍ هو معجِزةٌ في ذاتِه[1].

كتابة النبي الكريم ﷺ

عندَما انتشَر الإسلامُ بعدَ إعلانِ النبوَّة، ولم يَعُدْ هناك خطرٌ من أن يتشكَّكَ الناسُ في الأمر، ثَبَتتْ قراءةُ النبيِّ ﷺ وكتابتُه كلاهما، ولاحِظْ واقعةَ صُلح الحُدَيْبيَةِ التي نَقلَها الإمامُ البخاريُّ في «صحيحِه»:

عن البراء ـ رضي الله عنه ـ قال: اعتَمرَ النّبيُّ ﷺ في ذي القَعْدة، (وتَوجَّه إلى مكةَ) فأبَى أهلُ مكّةَ أن يَدَعُوهُ يَدخُلُ مكّةَ، حتّى قاضَاهم (بأنْ يعودَ هذا العامَ دونَ أن يؤدِّيَ العُمرةَ، وأن يعودَ العامَ القادمَ) على أن يُقيمَ بها ثلاثةَ أيّام، فلمّا كَتَبوا الكتابَ كتبوا: «هذا ما قاضَى عليه محمّدٌ رسولُ الله ﷺ». فقالوا: لا نُقِرُّ بها، فلو

(١) تفسير تبيان القرآن، سورة العنكبوت (٢٩): الآية ٤٨.

نعلمُ أنّك رسولُ الله ما مَنَعناكَ، لكن أنت محمّدُ بنُ عبد الله. قال: «أنا رسولُ الله، وأنا محمّدُ بنُ عبدِ الله». ثمّ قال لِعليٍّ: «امْحُ رسولَ الله[1]». (ولأنّ سيّدَنا عليًّا رضي اللهُ عنه هو الذي كانَ يكتُبُ المعاهدةَ، لهذا) قال: لا، والله لا أمحُوكَ أبدًا، فأخَذ رسولُ الله ﷺ الكتابَ، فكتَب: «هذا ما قاضَى عليه محمّدُ بنُ عبد الله»[2]، وفي رواية : فمحاهُ رسولُ الله ﷺ بيدِه[3].

وذَكَر عُمرُ بنُ شَبْبَةَ «في كتابِ: الكتابُ، له، أنّ النبيَّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم كَتَب بيدِه يومَ الحُدَيْبِيَة، وأنه لم يكنْ يَعلَمُ الكتابةَ قبلَ ذلك، وأنّ ذلك من معجزاتِه أنْ عَلِم الكتابَ من وقتِه. وقال أبو الوليد: كان من أوكَدِ معجِزاتِه: أنه يَكتُبُ من غيرِ تعلُّم»[4]، وقد نَقَل العلّامةُ الآلوسيُّ روايةً عن سيّدِنا عُتبةَ رضي الله عنه ـ تأكيدًا لكونِ النبيِّ ﷺ كان يقرَأُ ويَكتُبُ ـ: «ما مات النبيُّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم حتى قَرأَ وكَتَب»[5]، ويُعلَمُ منه أنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه لم يكنْ يَعرِفُ القراءةَ ولا الكتابةَ قبلَ إعلانِ النُّبوّة، وبعدَ البَعْثةِ النَّبويّة عَلَّمه اللهُ تعالى القراءةَ والكتابةَ مثلَما عَلَّمه العلمَ، إلا أنه ﷺ لم يَحتَجْ كثيرًا إلى القراءةِ والكتابةِ في دعوتِه؛ لأنّ أكثرَ العربِ كانوا أُمِّيِّين، وكانوا يحتاجونَ إلى الدَّعوةِ الشَّفهيّةِ فقطْ، وقد ذَكَر شهابُ الدِّين خَفاجي حديثًا للنبيِّ ﷺ بيَّن فيه النبيُّ ﷺ سببَ عَدَم كتابتِه، فقال ﷺ: «لا أُريدُ الخطَّ، لئلا يقَعَ ظِلُّ القَلَم على اسم اللهِ تعالى»، رواه الترمذي، «فجازاه اللهُ تعالى على ذلك أن يَرفَع ظِلَّه عن الأرضِ فلا يوطَأَ»[6].

---

(١) أي: اللفظ فقط.

(٢) البخاري، كتاب الصلح، باب ٦ برقم ٢٦٩٩.

(٣) البخاري، كتاب الصلح، باب ٦ برقم ٢٦٩٨.

(٤) الخصائص الكبرى، ٢: ٢٣٦.

(٥) تفسير روح المعاني، سورة الأعراف (٧): الآية ١٥٧.

(٦) نسيم الرياض، ٢: ٣٩٨، النبي الأمي.

والآنَ يتبادرُ إلى الذِّهن سؤالٌ مُفادهُ: إذا كان القرآنُ الكريمُ قال عن النبيِّ ﷺ: «أُمّيٌّ»، فكيف يمكنُ أن يَقرأَ؟ ولكنّ القرآنَ المجيدَ قال أيضًا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، كما أنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّما بُعِثتُ مُعلِّمًا»[1]، ومَن يجعَلُه اللهُ تعالى معلِّمًا للأُمّةِ كلِّها وأُستاذًا لها، كيف يُعقَلُ أن يكونَ أُمّيًا لا يقرأُ ولا يَكتُب؟ فإن قيلَ عنه قبلَ النُّبوةِ: «أُمّيٌّ»، فهو أمرٌ يمكنُ مناقشتُه، أمّا بعدَ البَعْثةِ النَّبويّة وقد جَعَله اللهُ تعالى معلِّمًا للكتابِ والحِكمة، وعَلَّمه ما لم يكنْ يَعلَمُ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، فلا يصحُّ بعدَ ذلك أن يقالَ عنه: «أمّيٌّ». على أيِّ حال، كلمةُ «أُمّيٍّ» ليس معناها عَدَمَ معرفةِ القراءةِ فقطْ، وإنّما لها معانٍ أخرى أيضًا أَذكُرُ بعضًا منها فيما يلي:

١ - صاحبُ قومٍ أُمّيٍّ

يقالُ: إنّ النبيَّ ﷺ قيل له أُمّيٌّ؛ لأنه ﷺ بُعِثَ إلى قومٍ أُمّيين، مثلَما قال ﷺ: «إنّا أُمّةٌ أُمّيّةٌ لا نكتُبُ ولا نحسَبُ»[2]، ثم قال أيضًا: «إنّي بُعِثتُ إلى أُمّةٍ أُمّيِّينَ»[3]؛ لأنّ التعليمَ بشكلٍ عامٍّ لم يكنْ رائجًا عن العرب، ولكنْ ليس معنى هذا أبدًا أنه لم يكنْ بينَهم من يقرَأُ ويَكتُب؛ لأنّ كتّابَ الوحي كانوا يقرَأونَ ويكتُبونَ قبلَ نزولِ الوحي أيضًا، كما أنّ الأسرى الكفّارَ الذين عُهِد إليهم بتعليم أطفالِ المسلمين في غزوةِ بدرٍ كانوا يقرَأونَ ويكتُبونَ أيضًا، لكنّ أكثريّةَ العربِ كانوا أُمّيِّين، ولهذا قيلَ لهم: «أُمّةٌ أُمّيُّونَ».

---

(١) سنن الدارمي، المقدمة، باب ٣٢.

(٢) البخاري، كتاب الصوم، باب ١٣.

(٣) الترمذي، كتاب القراءات، باب ١١ برقم ٢٩٤٤.

٢ ـ أُمّيٌّ نسبةً إلى الأُمّ

الأُمُّ كلمةٌ عربيّة، وبهذا الاعتبار يمكنُ أن يكونَ معنى «أمّيٍّ» هو: الطِّفلُ الذي بقيَ بعدَ ولادتِه ـ من بطنِ أُمِّه ـ على هذه الحالة، ولم يتعلَّم القراءةَ أو الكتابةَ من أيِّ أُستاذٍ، فيقالُ له: «أُمّيٌّ»، والنبيُّ ﷺ لم يتعلَّم القراءةَ والكتّابةَ من أيِّ أستاذٍ بعدَ ولادتِه، وبالتالي فهو ـ بهذا الاعتبار ـ أُمِّيٌّ.

٣ ـ صاحب الأمة

مثلَما تأتي النِّسبةُ من مكَّةَ «مَكّيٌّ»، كذلك تكونُ النِّسبةُ من أُمَّة: «أُمِّيٌّ»، وكما أنّ الأنبياءَ الكرامَ السابقينَ عليهمُ السَّلامُ كان لكلٍّ منهم أُمّةٌ، كذلك فإنّ للنبيِّ ﷺ أُمّةً، وقد رَوى سيّدُنا ابنُ حِبّانَ في «صحيح ابن حِبّانَ» حديثًا عن سيّدِنا أنسِ بن مالك رضي الله عنه جاء فيه: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ لكلِّ نبيٍّ يومَ القيامة مِنبَرًا من نُورٍ، وإنّي لَعلى أطوَلِها وأنوَرِها، فيجيءُ مُنادٍ، فينادي: أين النّبيُّ الأُمِّيّ؟ قال: فيقولُ الأنبياء: كلُّنا نبيٌّ أُمّيٌّ، فإلى أيِّنا أُرسِلَ؟ فيَرجِعُ الثّانيةَ، فيقول: أين النّبيُّ الأُمِّيُّ العربيُّ؟ قال: فـيَنزِلُ محـمّدٌ حتّى يأتيَ بابَ الجنّة، فيقرَعُه،فيُفتَحُ له، فيَدخُل»[1].

واليومَ إذا قيل لعالِم أو معلِّم: إنه «أُمّيٌّ» يكونُ ذلك بمثابةِ الإهانةِ له، فكيف يقالُ لسيّدِنا محمدٍ ﷺ، وهو أعلمُ الكائناتِ ومعلِّمُ كتابٍ عظيم هو القرآنُ الكريم، كيف يقالُ له: «أُمِّيٌّ» بمعنى: الذي لا يقرَأُ! إنّ هذه لمحةٌ للتدبُّرِ والتفكُّر، فإذا كانت للفظِ «أُمِّيّ» معانٍ عظيمةٌ أخرى، فلا يصحُّ أن نترُكَها ونستعملَ ما هو ناقصٌ من معانيها، فإذا كان نبيُّنا الكريمُ ﷺ أُمِّيًّا بمعنى أنه لا يَعرِفُ القراءةَ، فأيُّ جامعةٍ تَخرَّج

---

(١) ابن حبان، باب الحوض والشفاعة، ٦: ١٠٨ برقم ٦٤٨٩.

فيها الأنبياءُ السابِقونَ عليهمُ السَّلامُ مثلًا! في حينَ أنّ الحقيقةَ هي أنّ اللهَ تعالى نفسَه هو الذي عَلَّم نبيَّ آخِرِ الزمانِ ﷺ مثلَما عَلَّم الأنبياءَ السابقين.

نفي اسم الفاعل

«قارئٌ» في جُملةِ «ما أنا بقارئٍ»: اسمُ فاعل، وعادةً لا يكونُ المرادَ من نَفْي اسم الفاعل نَفْيُ الاستعدادِ والقوّة، مثلَما قيل للكفّارِ في سُورة «الكافرون»: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ [الكافرون: ٤]، ويمكنُ ترجمةُ هذه الآيةِ باعتبارِ اسم الفاعل الموجودِ فيها بثلاثِ طُرُق؛ **الأولى**: أنا لستُ عابِدًا الذي تعبُدون، والثانية: أنا لا أعبُدُ الذي تعبُدون، والثالثةُ: لن أعبُدَ الذي تعبُدون، ولم يُترجِمْها أحدٌ بمعنًى: ليس بداخلي القدرةُ على عبادةِ الأصنام، وبالتالي يكونُ المفهومُ هو أنّ القُدرةَ على العبادةِ موجودةٌ، لكنَّني لا أعبُدُ الأصنامَ لأنّها لا تستحِقُّ العبادةَ؛ لأنه لو لم تكنْ لديهِ قُدرةٌ على العبادةِ أصلًا، فلا فَضْلَ له في قولِ ذلك، ولا ثوابَ له على قولِه هذا، مثلما يقولُ أعمًى على سَبيل المثال: إنّني لم أنظُرْ أبدًا إلى امرأةٍ من غيرِ المحارم، فإنه لا فَضْلَ له في ذلك، ولا ثوابَ له على ما قال، وفي القرآنِ الكريم آياتٌ كثيرةٌ من هذا النوع، منها - على سَبيل المثالِ لا الحصر - قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣].

جاء ذِكرُ قصّةِ قابيلَ وهابيلَ في القرآنِ المجيد، وهذه القصّةُ تجعَلُ فَهْمَ هذه الحقيقةِ سهلًا إلى حدٍّ ما، فعندَما قال هابيلُ لقابيل: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨]، ليس معناه

أنه لا طاقةَ لهابيلَ على أن يَبسُطَ يدَه إلى أخيه، فالحقيقةُ أنّ في يدَيْهِ القُوَّة على ذلك، لكنّه لم يفعَلْ لأنه يخافُ اللهَ ربَّ العالَمين، ويقولُ الإمامُ القُرطبيُّ في تفسيرِ هذه الآية: «قال عبدُ الله بنُ عَمْرٍو وجمهورُ النّاس: كانَ هابيلُ أشدَّ قوّةً من قابيل، وعلى هذا قيل: كان نائمًا فجاء قابيلُ ورَضَخَ رأسَه بحجرٍ على ما يأتي»[١].

الحكمة من عدم قراءة النبي الكريم ﷺ

الحِكمةُ المؤكَّدةُ من وراءِ هذا الأمرِ لا يَعلَمُها تمامَ العلم إلّا اللهُ تعالى، ولكنْ يبدو ـ من الظاهر ـ أنّ النبيَّ ﷺ كان مُستغرِقًا في الذِّكرِ الإلهيِّ في وَحْدتِه في غارِ حِراءٍ إلى درجةِ الاستغراقِ التامِّ، وفي مِثلِ هذه الحالةِ لا يكونُ من السَّهلِ لَفْتُ انتباهِه ﷺ من أيِّ جانبٍ آخَرَ، ولكنْ لأنه كان على سيّدِنا جِبريلَ عليه السَّلامُ أن يؤدِّيَ واجبَه، لهذا عانَقَ النبيَّ ﷺ ثلاثَ مراتٍ بشِدّةٍ بغَرَض لَفْتِ انتباهِه إليه، لكنّ النبيَّ ﷺ كان مُستغرِقًا تمامًا في ذِكرِ خالقِه الحقيقيِّ، وكأنّه كان يقولُ بلسانِ حالِه: يا جِبريل، دَعْني مُستغرِقًا في تصوُّرِ جمالِ المحبوب، ولكنْ حينَ طَلبَ منه سيّدُنا جِبريلُ عليه السَّلامُ القراءةَ باسم ذلك الربِّ الذي كانَ هو مُستغرِقًا في مشاهدةِ جمالِه، خَرَج ﷺ من حالةِ الاستغراقِ هذه، وأنار صدرَه المبارَكَ بالآياتِ الخمسِ الأولى من سُورةِ العلق.

ذاتَ مرة، قال النبيُّ ﷺ: «لي مَع الله وقتٌ لا يَسَعُ فيه مَلَكٌ مُقرَّبٌ، ولا نبيٌّ مرسَلٌ»[٢]، يعني: أنه كانت تطرَأُ على النبيِّ ﷺ في غارِ حِراءٍ حالةٌ رَفَضَ بسببِها القراءةَ.

---

(١) تفسير القرطبي، سورة المائدة (٥): الآية ٢٨.

(٢) نزهة القاري شرح صحيح البخاري، ١: ١٩٢ برقم ٣.

ذاتَ مرة، بقيَ سِنُّ السَّهم في ذراع سيّدِنا عليٍّ رضي الله عنه، وكان يُؤلمُه كثيرًا عندَ نَزْعِه، فقال سيّدُنا عليٌّ رضي الله عنه: دَعُوني أدخُلْ في الصَّلاةِ ثم انزِعُوه، ولن أشعُرَ به، وبالفعل نَزَعوا سِنَّ السَّهم أثناءَ صلاتِه، ولم يَشعُرْ رضي الله عنه بأيِّ ألم[1]. ومثلَما كان سيّدُنا عليٌّ رضي الله عنه مُستغرِقًا في الصّلاة، بحيثُ لم يَشعُرْ بأيِّ ألم جِسمانيٍّ، كذلك كان النبيُّ ﷺ مُستغرِقًا في الذِّكرِ الإلهيِّ بحيث لم يَشعُرْ بوجودِ جِبريلَ الأمينِ عليه السَّلامِ.

يقولُ الإمامُ فَخْرُ الدِّين الرازي: «وفي هذا دِلالةٌ على أنّه يجبُ قراءةُ التّسميةِ في ابتداءِ كلِّ سورةٍ»[2]، والنتيجةُ الحَتْميّةُ لهذا هي أنه لأنّ سيّدَنا جِبريلَ عليه السَّلامُ طلَبَ منه في المراتِ الثلاثِ الأُولى القراءةَ دونَ أن يَذكُرَ اسمَ الله، لهذا قال النبيُّ ﷺ «ما أنا بقارئٍ»، وبألفاظٍ أخرى كان النبيُّ ﷺ يريدُ أن يُخبِرَه بأنّني سأدعو الناسَ جميعًا إلى أن يَذكُروا اسمَ الله تعالى قبلَ أيِّ عملٍ يقومونَ به، فكيف يمكنُ لي أنا أن أبدَأَ القراءةَ بغير أن أَذكُرَ اسمَ ربِّي؟ ولهذا ذَكَر سيّدُنا جِبريلُ الأمينُ اسمَ الله تعالى في المرَّةِ الرابعة، فلم يَمتنع النبيُّ ﷺ من القراءة.

* * *

(١) منهاج البخاري، محمد معراج الإسلام، ١: ٤٤٩.

(٢) التفسير الكبير، سورة العلق (٩٦): الآية ١.

الوحي الأول للقرآن الكريم والسياسة التعليمية في الإسلام

التعليم الإسلامي

القرآنُ المَجِيدُ هو أولُ كتابٍ في تاريخ الأديان يُرغِّبُ أولُ لفظٍ نَزَل منه في التعليم، فيقولُ: «اقرَأْ»، ولكنْ ماذا يقرأُ؟ لم يَذكُرِ القرآنُ الكريمُ هذا الأمرَ، لكنّه اشتَرطَ في القراءةِ أن تكونَ باسم الله، وفيه إشارةٌ إلى أنه ينبغي أولًا أن تَحصُلَ على عِلم اسم ربِّك، ثم بعدَ ذلك يُمكنُك تحصيلُ أيِّ علم آخَرَ، بحيث لا يكونُ فيه معصيةٌ لله تعالى، سواءٌ كان عِلمَ القرآن، أو الحديثِ، أو العلوم التجريبيّةِ، أو التكنولوجيا، أو القانونِ، أو السّياسة، أو التِّجارةِ، أو الزِّراعةِ أو غيرِها، المهمُّ أنّ الإنسانَ الذي يؤمنُ بالله تعالى ويمتلئُ قلبُه خوفًا منه وخَشْيةً، سيَدخُلُ الجنةَ بما تَعلَّم، سواءٌ كان عِلمَ الدِّين أم عِلمَ الدُّنيا؛ لأنّ في قلبِه خوفَ الله تعالى، ولن يَستعمِلَ العِلمَ بشكلٍ خاطئ، وعلى العكس منه فإنّ الإنسانَ الذي لا يؤمنُ بالله تعالى، سواءٌ حصَلَ على عِلم الدِّين أو عِلم الدنيا، فلن ينفَعَه هذا العِلمُ في الآخِرة؛ لأنه لا يؤمنُ بالله تعالى.

وهدفي من هذا التمهيدِ هو أن أقولَ: إنّ التعليمَ الإسلاميَّ مقدَّمٌ على أيِّ شيءٍ آخَرَ، يعني: من الضَّروريِّ لكلِّ مسلم أن يَحصُلَ على علم ربِّه قبلَ أن يَشرَعَ في تحصيل أيِّ عِلم آخَرَ.

التعليم العام

جاء الأمرُ بالقراءةِ في الوحي الأولِ مرَّتَيْنِ بالتّعلُّم: مرةً في الآيةِ الأولى، يعني ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، والمرةُ الثانيةُ في الآيةِ الثالثة، يعني ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾، وجاء الأمرُ بالتعليم مرَّتَيْنِ؛ مرةً في الآيةِ الرابعة، يعني ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾،

والمرةُ الثانيةُ في الآيةِ الخامسة، يعني ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، والجميلُ في هذا الأمرِ أنّ المعلِّمَ في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ هو اللهُ تعالى نفسُه، والمتعلِّمينَ همُ الأنبياءُ الكرامُ عليهمُ السَّلام.

ومرةً ذَكَر القَلَم، يعني الكتابةَ ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾، وتقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي الله عنها: «إنّ أولَ وحيٍ هو ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، والوحيُ الثاني هو ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[1]، يعني قَسَمًا بالقَلَم، وقَسَمًا بما يَكتُبُ القَلَمُ، كما أنّ اسمَ هذه السُّورةِ هو «القَلَم»، ويُمكنُكَ بهذا تصوُّرُ مدى أهميّةِ القراءةِ والكتابة، والحقيقةُ أيضًا هي أنّ للكتابةِ فضلًا على القراءة؛ لأنّ المقروءَ يُنسَى، والمكتوبُ يُحفَظُ، مثلَما قال سيّدُنا عُمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه: «قيِّدوا العِلمَ بالكتاب»[2].

دم الشهيد ومداد القلم

لقد أحدَثَ الحاسبُ الآليُّ (الكمبيوتر) ثورةً في عصرِنا الحاضر، فقد أتَى بمعلوماتِ الدُّنيا كلِّها مجتمِعةً ووَضَعَها أمامَنا على المِنضَدة، والحاسبُ الآليُّ (الكمبيوتر) - في الواقع - ما هو إلا صُورةٌ متطوّرةٌ من صُوَرِ الكتابة، وأمامَ أهميّةِ الكتابةِ هذه قال النبيُّ ﷺ قبلَ ألفٍ وأربعِمائة عام: «يوزَنُ يومَ القيامة مِدادُ العلماءِ ودمُ الشُّهداءِ فيَرجَحُ مِدادُ العلماءِ على دم الشُّهداء»[3]، ولك أن تتخيَّلَ كيف أنّ شهيدًا ضَحّى بدمائه ورُوحِه في سَبيل وطنِه وأُمتِه، وحَصَل على درجةِ الشّهادةِ بفَضْل هذه التَّضحية، لكنّ مِدادَ قَلَم عالِم يَفضُلُ دمَ هذا الشَّهيد، ويبدو - في الظاهرِ - أنّ فَهْم هذا الأمرِ صعبٌ، ولكنّك إنْ تمعَّنتَ في المثالِ التالي سيَسهُلُ فهمُه. يَعلمُ اللهُ

---

(١) تفسير القرطبي، سورة القلم (٦٨): الآية ١.

(٢) سنن الدارمي، المقدمة، باب ٤٣.

(٣) كنز العمال، ١٠: ٤١ برقم ٢٨٨٩٩.

كم من الناسِ قدِ استُشهِدوا في زمنِ الإمامِ البُخاريِّ، فضَحَّوْا بدمائهم، واستَحقُّوا بذلك الجنّةَ، وندعو اللهَ تعالى أن يَرفَعَ درَجاتِهم، لكنّنا لا نعلمُ حتى أسماءَ هؤلاءِ الشُّهداء، أمّا الإمامُ البخاريُّ الذي دَوَّن بمِدادِ قلَمِه أحاديثَ النبيِّ ﷺ، فإنّ هذه الأحاديثَ النَّبويّةَ هي التي تُرشدُ الناسَ وتهديهِم منذُ ألفٍ ومائتَيْ عام، وستَظلُّ كذلك إلى قيام الساعة.

تعليم العلم التجريبي

جاء الأمرُ مرَّتَيْنِ في الوَحْي الأولِ بالتّعلُّم، وذِكرُ التعليم مرَّتَيْنِ، وذِكرُ الكتابةِ مرّةً، وجاء الترغيبُ في البحثِ والعلم التَّجريبيِّ، أي: في العالَم الماديِّ ثلاثَ مرّات، وقد ألَّف المحقِّقُ المعروفُ في هذا العصر موريس بُكيل Maurice Bucaille كتابًا بعنوان: The Bible, The Quran and Science: «الكتابُ المقدَّسُ والقرآنُ والعِلمُ التَّجريبي». يقولُ في صفحة رقم ٢٠٤ من الكتابِ: لقد تحدَّثَ القرآنُ الكريمُ ـ قبلَ ألفٍ وأربعِمائة عام ـ عن مراحلِ خَلْق الطِّفل في بطنِ أُمِّه، واكتَشفَ العلمُ هذا الأمرَ في هذا العصر، ومن بَيْنِ هذه المراحل: مرحلةُ «العَلَقة»، يعني: قطرةُ الماءِ عندَما تتحوَّلُ في بطنِ الأُمِّ دماءً متجمِّدة، وهي المرحلةُ التي يقالُ لها: «العَلَقة».

ويقولُ موريسُ بُكيل: جاء ذِكرُ مراحلِ تخليقِ الطِّفل في بطنِ أُمِّه في خمسةِ مواضعَ في القرآنِ المجيد، أمّا الموضعُ الأولُ منها فهو في الآيةِ الثانية من الوحي الأول: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ [العلق: ٢]، وهذه ليست مرحلةً عاديّةً بسيطةً، وإنّما مرحلةٌ في غايةِ الأهميّة، لدرجةِ أنّها أُطلِقَت على السُّورةِ كلِّها، وفيها إشارةٌ إلى أنْ تَدبَّروا في العَلَقة، هذه القطعةُ الصَّغيرةُ من الدَّم المتماسكِ التي لا رُوحَ فيها، ولا تستطيعُ الحركةَ، ولا الكلامَ، ولا الرُّؤيةَ ولا السَّمعَ، ولا تستطيعُ التفكيرَ أو

الفهمَ والإدراك، هذه القطعةُ التي لا رُوحَ فيها وَضَع اللهُ تعالى فيها حِكَمًا كثيرةً بحيث يتكوَّنُ منها إنسانٌ من ستّةِ أقدامٍ طُولًا، يتكلَّمُ ويَسمَعُ ويمشي أيضًا، وفي هذا ترغيبٌ في البحثِ والتحقيق، بمعنى: أنه مثلَما أنّ في قَطْرةِ الدَّم الجامدةِ هذه إمكانيةً أن تكونَ إنسانًا من ستةِ أقدام طُولًا، كذلك عليكم بالتدبُّرِ في المخلوقاتِ الأخرى في الكائنات، ففيها أيضًا حِكَمٌ لا تُعَدُّ ولا تُحصَى.

أمّا المرّةُ الثانيةُ التي جاء فيها الترغيبُ في التعليم التجريبيِّ فهي في الآيةِ الأُولى من سُورةِ العَلَق ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾، ولكنْ، خَلَق من؟ المفعولُ ليس مذكورًا هنا، وهناك أقوالٌ مختلفةٌ في هذا الصَّدَد، واحدٌ منها هو «الذي خَلَق الإنسانَ»، معَ أنّ الإنسانَ موجودٌ من قبلُ في الآيةِ الثانية، فما الضَّرورةُ إلى ذكرِه مرَّتَيْنِ؟ وأنا أقولُ: نعَمْ، هناك ضرورةٌ لِذكرِه مرَّتَيْنِ؛ لأنّ معنى الآيةِ الثانيةِ: هو «الذي خَلَق الإنسانَ من عَلَق»، وسيّدُنا آدمُ عليه السَّلامُ ليس من بَيْنِ هؤلاءِ؛ لأنه لم يُخلَقْ من عَلَق، وإنّما خُلِق من الطِّين مباشرةً، ولهذا لكي نشمَلَ سيّدَنا آدمَ عليه السَّلام وأولادَه في هذا الأمرِ لا بدَّ أن يكونَ المرادَ من الإنسانِ الأوّلِ هو سيّدُنا آدمُ عليه السَّلام، ومن الإنسانِ الثاني ذُرِّيتُه، وبذا يكونُ مفهومُ الآيةِ كالتالي: «الذي خَلَق آدمَ من ترابٍ، وخَلَق بني آدمَ من عَلَق»، ومثلَما يقولُ موريس بُكيل، بأنّ خَلْقَ الإنسانِ من عَلَق بمثابةِ الترغيبِ في العلم التّجريبيِّ، أقولُ أنا أيضًا: إنّ خَلْقَ الإنسانِ من الترابِ بمثابةِ الترغيبِ في العلم التّجريبيِّ أيضًا، كما قال العلّامةُ البيضاوي: «وهو (أي: التفكُّرُ في الكائنات) أفضَلُ العبادات، كما قال عليه الصَّلاةُ والسَّلام: لا عبادةَ كالتّفكُّر»[1].

---

(١) تفسير البيضاوي، سورة آل عمران (٣): الآية ١٩١.

أمّا الترغيبُ الثالثُ الذي وَرَد في هذه السُّورة فهو في الآيةِ الخامسة ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، فمَن هو الإنسانُ الذي عَلَّمه اللهُ تعالى؟ يقولُ المفسِّرون: إنّ المرادَ منه هو سيّدُنا آدمُ عليه السَّلام، ولكن، ماذا عَلَّم اللهُ تعالى سيّدَنا آدمَ عليه السَّلام؟ يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، يعني: أنه عَلَّمه اسمَ كلِّ شيءٍ في هذا العالَم الماديِّ، وخاصيّةَ الأشياءِ وصِفاتِها وفوائدَها وأضرارَها، وهذا هو ما يقالُ له: العلمُ التَّجريبيُّ: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣١-٣٢]، فأنت لم تُخبِرْنا عن تلك الأشياءِ، ولم تُعلِّمْنا إياها. والآنَ تمعَّنْ قليلًا؛ ملائكةٌ لا حَصْرَ لهم، وهمُ المخلوقونَ من نُورٍ في جانب، وفي جانبٍ آخَرَ إنسانٌ واحدٌ فقطْ، وهو المخلوقُ من الطِّين، وسِباقٌ من العلم يَجري لإثباتِ تفوُّقِ الإنسانِ على الملائكة. أتعرفُ ما هو السُّؤالُ أصلًا؟ السُّؤالُ لم يكنِ العقيدةَ والتوحيد؛ لأنّ الملائكةَ أيضًا يعرفونَ مسائلَ العقيدة والتوحيد، ولهذا فإنّهم يعبُدونَ اللهَ تعالى.

ضرورة العلم التجريبي للإنسان

علومُ العبادةِ والتوحيدِ التي أَنْعم اللهُ بها على الملائكة، أَوْدَعَها فِطرةَ سيّدِنا آدمَ عليه السَّلام، وأولُ علم عَلَّمه له بعدَ خَلْقِه كان عِلمَ تلك الأشياءِ الماديّةِ الذي لم يكنْ لدى الملائكة، ولا الملائكةُ في حاجةٍ إليه، فالملائكةُ مخلوقاتٌ نُورانيّةٌ، ولا تحتاجُ إلى طعام تأكلُه، ولا إلى بيتٍ تسكُنُه، ولا إلى ملابسَ ترتديها، ولا إلى مطايا تركَبُها، أمّا نحن فقد خُلِقْنا من المادَّة، وبالتالي نَحتاجُ إلى هذه الأشياءِ كلِّها، ولهذا لم يُعطِ اللهُ تعالى عِلمَ هذه الأشياءِ للملائكة، وإنّما أعطاهُ للإنسان، حتى

يتأمَّلَ هذه الأشياءَ ويُلبِّي احتياجاتِه. يقولُ الإمامُ الشَّعرانيُّ: «عَلَّم اللهُ تعالى آدمَ ألفَ حِرفةٍ من الحِرَف وقال له: قل لوَلَدِك و ذُرّيّتك: إن لم تَصبروا فاطلُبوا الدُّنيا بهذه الحِرَف ولا تَطلُبوها بالدِّين، فانّ الدِّينَ لي وحدي خالصًا، وَيْلٌ لمَن طلَبَ الدُّنيا بالدِّين وَيْلٌ له»[1].

أمر يستحق التمعن

لم يتحدَّثِ الوحيُ الأولُ عن الصَّلاةِ والصِّيام، وإنّما ذَكَر اللهَ تعالى أولًا، ثم ذَكَرَ التعليمَ ثانيًا، والحاجةُ إليه ماسّةٌ لدرجةِ أنه يُحتاجُ إليه اليومَ بنفسِ القَدْرِ الذي كان يُحتاجُ إليه قبلَ ١٤٠٠ عام، وقد رَفَع السيّدُ تُوني بلير رئيسُ وزراءِ بريطانيا (السابق) شعارَ التعليم بغَرَض الفَوْزِ في الانتخاباتِ قائلًا: التعليم، ثم التعليم، ثم التعليم، وقال كذلك في إحدى خُطَبِه في أُكسفُوردَ في الثالثِ من نوفمبرَ عام ٢٠٠٦م: إنّ من الفَرْض على بريطانيا أن تُرغِّبَ الشبابَ في أن يُصبحوا علماءَ في العلوم الطبيعيّة[2].

وبنفسِ الطريقة، أقولُ: إنّ من الفَرْضِ على القادةِ والزُّعماءِ المسلمينَ أيضًا أن يُشجِّعوا شبابَ المسلمينَ على أن يُصبحوا علماءَ في العلوم الطبيعيَّة، وقد تحدَّثَ توني بلير عن التعليم العامِّ ثلاثَ مرات، ومرةً واحدةً عن التعليم التجريبيِّ، بينَما تحدَّثَ القرآنُ الكريمُ ـ قبل ١٤٠٠ عام في أول وحي ـ خمسَ مراتٍ عن التعليم العامِّ، وثلاثَ مراتٍ عن التعليم التجريبيِّ، والأُمّةُ التي يُركِّزُ كتابُها المقدَّسُ

---

(١) البدر المنير، الإمام الشعراني، ص ٢٨٩ برقم ١٥٠٧، وكنز العمال، ١٠: ٢٠٦ برقم ٢٩٠٩١.

(٢) "Britain must stand up for science, encouraging youngsters to become scientists".

على التعليم في وَحْيِه الأول ثمانيَ مرات، ومعَ ذلك تتخلَّفُ هذه الأُمّةُ عن غيرِها من الأُمم في مجالِ التعليم، فإنه لَأمرٌ يؤسَفُ له غايةَ الأسف، فعندَما حَرِص المسلمونَ على العلم التجريبيِّ جنبًا إلى جَنْبٍ معَ الحِرص على التعليم الدِّيني، وبَذَلوا فيه غايةَ الجَهد، صاروا قوةً عُظمى، ولكنْ حينَ تَخلَّوْا عن هذا الأمرِ ذَلُّوا وخابوا، ولقد أَنْجبَتْ أفغانستانُ كبارَ المُفتينَ والمحدِّثينَ والدُّعاةِ، لكنَّها لم تُنجبْ عالمًا تجريبيًّا يستطيعُ أن يرُدَّ على صورايخ أمريكا الموجَّهةِ إليها، ولهذا هُزِمت أفغانستانُ، ولو كان لدَيْها العلومُ والتكنولوجيا لَكان الوضعُ مختلفًا اليومَ:

ـ لو لم نَنْسَ درسَ القرآن، لَما أرانا الزمانُ هذا الزَّمان

القوة الحقيقية في هذا العصر

المسلمونَ اليومَ مظلومونَ في الدُّنيا، ويقال: إنّ المسلمينَ ليسوا متَّحِدينَ، ولا يعمَلونَ بالإسلام، ولهذا ذاقُوا الذُّلَّ والمَرارَ، وأنا أختلفُ معَ هذا الطَّرح جُزئيًّا، صحيحٌ أنّ هذا سببٌ من الأسباب، ولكنّه ليس الأسبابَ كلَّها، فقد ظَلَّ المسلمونَ في مكّةَ مظلومينَ لثلاثةَ عشَرَ عامًا، وما هو الظُّلمُ الذي لم يَنزِلْ على السيّدةِ سُمَيّةَ رضي الله عنها وسيّدِنا ياسِرٍ وسيّدِنا بلالٍ رضي اللهُ عنهما؟!

فهل يَجرُؤُ أحدٌ على أن يقولَ: إنّ المسلمينَ كانوا مظلومينَ في مكةَ لأنّهم لم يكونوا متَّحِدينَ فيما بينَهم، أو أنّهم لم يكونوا يعمَلونَ بالإسلام؟ الحقيقةُ أنه كانت هناك حاجةٌ في ذلك العصرِ إلى الجهودِ الفَرديّةِ لوَقْفِ هذا الظُّلم؛ لأنه كان زمنَ السَّيف، وكانتِ المعركةُ رجُلًا لرجُل، ولم يكنْ لدى المسلمينَ قوةُ الأفراد، ولهذا وَقَع عليهم الظُّلمُ، وحين تحقَّقت لهم هذه القوةُ في الأفرادِ بعدَ هجرتِهم إلى المدينةِ المنوَّرة، لم يتمكَّنْ أحدٌ من إيقاع الظُّلم بواحدٍ من المسلمينَ. أيُّها القُرّاءُ

الكرام، في ذلك العصرِ كانت قوّةُ الأفرادِ هي منبَعَ القوّةِ وأصلَها، لكنّ منبَعَ القوّةِ اليومَ ليس قوةَ الأفرادِ وحدَها، وإنّما قوةُ العِلم والتكنولوجيا أيضًا، وما لم نتقدَّمْ في ميدانِ العلوم التَّقَنيّة، سنظَلُّ نُواجهُ الهزائمَ المتتاليةَ مثلَما يحدُثُ لنا اليومَ، وقد تخلَّفْنا كثيرًا في هذا العصرِ إلى درجةِ أنه قد لا يُنقِذُنا حتى اتِّحادُنا فيما بينَنا.

ولأُوضِّحَ هذا الأمرَ بشكلٍ أكبرَ من خلالِ مثالٍ آخَرَ، إذا أوقَفْنا مليونًا من الشبابِ المسلم في جانب، وأعطَيْنا كلًّا منهم بُندُقيّةً آليّةً من نوع كلاشِنْكوف، وفي الجانبِ الآخَر أوقَفْنا شيخًا كبيرًا، وفي يدِه زرُّ إطلاقِ قنبلةٍ نَوويّة، فإذا حدَثتْ بيْنَ هذَيْنِ الفريقَيْنِ معركةٌ فمَن يكونُ النَّصرُ حليفَه عندَئذٍ؟ صحيحٌ أنّ قُدرةَ الله لا حدَّ لها، لكنّ سُنّةَ الله في الكونِ في مِثلِ هذه الحالةِ هي أن ينتصرَ هذا الشّيخُ الكبير، وأن يموتَ هؤلاءِ الشبابُ الذين يَبلُغُ عددُهم المليونَ؛ لأنّ العلمَ هيَّأَ لهذا الشّيخ الهَرِم سلاحًا لا يستطيعُ مليونُ شابٍّ مواجهتَه، ويُعلَمُ منه أنّ في العِلم والتكنولوجيا قوةً هائلةً، لا يستطيعُ مواجهتَها مليونُ فردٍ محرومونَ من هذا العِلم وهذه التَّقْنية، وبالتالي لا مفَرَّ لكي نعيشَ في هذه الدُّنيا بكرامتِنا واحترامِنا من أن نتقدَّمَ في العلوم والتكنولوجيا جنبًا إلى جَنْبٍ معَ اتِّحادِ أُمّتِنا والعملِ بأحكام إسلامِنا.

الطلاب البريطانيون المسلمون

طِبقًا لإحدى الإحصائيّاتِ يوجَدُ في الغربِ ثلاثةُ آلافِ شخصٍ يحصُلونَ على درجةِ الدّكتوراهِ في العلوم التَّجريبيّةِ من كلِّ مليونِ شخص، بينَما في دُوَلِ العالَم الإسلاميِّ يحصُلُ شخصٌ واحدٌ فقطْ على درجةِ الدُّكتوراه في نَفْس المجالِ من كلِّ مليونِ شخص، وهذا الأمرُ بمثابةِ اللَّمحةِ الفِكْريّةِ للأُمّةِ الإسلامية، إذ ينبغي لهم أن يُنشِئوا جامعاتٍ ذاتَ مستوًى علميٍّ راقٍ مِثلَ الغرب، ولكنْ أيُّها الطلّابُ

المسلمونَ الذين يقيمونَ في بريطانيا، إنّ الدراسةَ في هذه الجامعاتِ البريطانيّةِ العريقةِ والقويّةِ مُتاحةٌ أمامَكم، ولهذا عليكمُ الاستفادةُ منها استفادةً كاملةً.

يوجَدُ في بريطانيا اليومَ أربعُمائةِ ألفٍ من الطُّلّابِ المسلمينَ والطالباتِ المسلمات تقريبًا، بدايةً من المرحلةِ الابتدائيّة وحتى المرحلةِ الجامعيَّة، ولوِ استطاع واحدٌ فقطْ من هؤلاءِ الحصُولَ على درجةِ الدُّكتوراهِ في العلوم التَّجريبيّة، لَكان لدينا خلالَ العشرينَ عامًا القادمةِ في بريطانيا أربعُمائةٍ من الحاصلينَ على الدُّكتوراهِ في هذا المجال، ولو نَجَح بعضُ هؤلاءِ في اختراع شيءٍ جديدٍ لَأضافَ ذلك إلى كرامةِ المسلمينَ ووقارِهم في بريطانيا، ولو بَدَأَ يظهَرُ لدَيْنا في بريطانيا بعدَ عشرينَ عامًا عدّةُ علماءَ من المسلمينَ كلَّ عام على هذا المِنوال، لَساعَدَ ذلك في تقدُّم بريطانيا نفسِها من جانب، ومن جانبٍ آخَرَ يصبحُ مستقبَلُ المسلمينَ أيضًا مضيئًا.

أبنائي وبناتي الأعزاءُ، أَحِبُّوا اللهَ تعالى ورسولَه ﷺ، وحاوِلوا أن تَسيروا على طريقِ الإسلام، وتقدَّموا في كلِّ مناحي الحياة، وخاصّةً في ميدانِ السّياسةِ والإعلام والعلوم التَّجريبيّةِ والتكنولوجيا، ولوِ استطاعَ أحدُكم إيجادَ علاج للسَّرطان، أوِ اختراعَ سيارةٍ تسيرُ بالماءِ بدلًا من البترولِ مثلًا، فإنّي أؤكِّدُ لكم أنّ الشَّعبَ الإنجليزيَّ سيَحترمُكم كثيرًا عندَما يرى الدَّورَ العظيمَ الذي تلعَبُونَه، وستحترمُكم الحكومةُ الإنجليزيّةُ عندَما ترى أبحاثَكم في العلوم والتكنولوجيا:

ـ أيُّها الشباب، تشَجَّعوا، وسَتَنْجو سفينتُكم من الدَّوّامة، حتى لا يَخرُجَ البُلبلُ باكيًا من الرَّوضة.

الإسلام والعلم التجريبي

قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي

ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وقد قال النبيُّ ﷺ في تفسيرِ هذه الآية: «وَيْلٌ لِمَن قَرَأَها ولم يتفكَّرْ فيها»(١).

- يقولُ سيِّدُنا جابرُ بنُ عبد الله رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «ساعةٌ من عالِمٍ متّكئٍ على فراشِه يَنظُرُ في علمِه خيرٌ من عبادةِ العابِد سبعينَ عامًا»(٢).

- يقولُ سيِّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «التّفكُّرُ في عظَمةِ الله وجنّتِه ونارِه ساعةً خيرٌ من قيام ليلةٍ، وخيرُ النّاس المتفكِّرونَ في آلاءِ الله، وشرُّهم مَن لا يتفكّرُ في آلاءِ الله»(٣).

- يقولُ سيِّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «تَفكَّروا في كلِّ شيءٍ ولا تَفكَّروا في ذاتِ الله تعالى»(٤).

- يقولُ سيِّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «تَفكَّروا في الخَلْق ولا تَفكَّروا في الخالق، فإنّكم لا تَقدِرونَ قَدْرَه»(٥).

- يقولُ سيِّدُنا أبو ذَرٍّ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «تَفكَّروا في خَلْقِ الله ولا تَفكَّروا في اللهِ فتَهلِكوا»(٦)، يعني: أنّكم لن تستطيعوا فَهْمَ حقيقةِ الله تعالى، وسوف تَضِلُّونَ بسببِ تفكيرِكم الخاطئ وحساباتِكم الخاطئة.

---

(١) تفسير القرطبي، سورة آل عمران (٣): الآية ١٩٠.

(٢) كنز العمال، ١٠: ١٥٤ برقم ٢٨٧٨٩.

(٣) جمع الجوامع، ٤: ١٢٧ برقم ١٠٧١٦.

(٤) الجامع الصغير، ١: ٢٠١ برقم ٣٣٤٥.

(٥) الجامع الصغير، ١: ٢٠١ برقم ٣٣٤٦.

(٦) الجامع الصغير، ١: ٢٠١ برقم ٣٣٤٧.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «الكلمةُ الحِكمةُ ضالّةُ المؤمن، فحيث وَجَدَها فهو أحقُّ بها»(١).

ـ يقولُ العلّامةُ البيضاويُّ: «وهو أفضَلُ العباداتِ كما قال عليه الصَّلاةُ والسَّلام: لا عبادةَ كالتَّفكُّر»(٢).

لمحة فكرية

البحثُ لإيجادِ علاج للأمراضِ المُهلِكة، وإعدادُ العلماءِ لحمايةِ البلادِ وتنميتِها، والتفكُّرُ والتدبُّرُ في الكائناتِ لتلبيةِ احتياجاتِ الإنسانِ وإضافةِ المزيدِ من وسائل الراحة إليه عبادةٌ عظيمةٌ فعلًا، وفي رأيي فإنّ تقدَّمَ المسلمينَ في مجالِ العلوم الحديثةِ والتكنولوجيا ليعيشوا حياةً كريمةً في عالَم اليوم ليس أمرًا ضروريًّا فقط، وإنّما هو فَرْضٌ مقدَّمٌ، ومن أفضلِ العبادات.

أمّا غفلتُنا اليومَ عن هذه العبادةِ العظيمةِ فقد بَلَغتْ إلى درجةٍ أنّ غيرَ المسلمينَ صَعِدوا فوقَ القمر، بينَما تحديدُ هلال العيدَيْنِ بالنِّسبةِ لنا لا يزالُ مسألةً عويصة، وغيرُ المسلمينَ بَلَغوا السماواتِ العُلى في العلوم والتكنولوجيا بتدبُّرِهم وتفكُّرِهم في الكائنات، بينَما نحن لا نزالُ يشُدُّ بعضُنا البعضَ إلى الخلفِ على الأرض:

ـ آهٍ من فَشَلِنا، فالقافلةُ ظلَّت تخسَرُ متاعَها، ولم يَعُدْ في قلوبِ أهلِها إحساسٌ بما هم فيه من خسارة.

وطالما كان المسلمونَ يتدبَّرونَ في الكائناتِ ويتفكَّرونَ فيها، ويقدِّمونَ إلى الدنيا اختراعاتٍ جديدةً ومفيدةً، كانت الدُّنيا كلُّها تتغنَّى بمَجْدِهم وعظَمتِهم، ولكنْ منذُ أن خَلا وِفاضُ المسلمينَ من التفكُّرِ والتدُّبر، أصبَح الذُّلُّ والهَوانُ نصيبَهم في الدُّنيا:

---

(١) الترمذي، أبواب العلم، باب ١٩ برقم ٢٦٨٧.

(٢) تفسير البيضاوي، سورة آل عمران (٣): الآية ١٩١.

- كانوا معزَّزينَ في الزمانِ بإسلامِهم، وصِرنا نحن أذِلّاءَ بهجرِ القرآن.

- ولو لم نَنْسَ درسَ القرآن، لَما أرانا الزَّمانُ هذا الزّمان.

الإنسان الكامل

لا يكتملُ الإنسانُ بغيرِ التعليم؛ لأنّ اللهَ تعالى عندَما خَلَق الإنسانَ بقُدرتِه، خَلَقَه متعلِّمًا، وحين خَلَقَه بوسيلةٍ أبوَيْهِ، حَمَّلَهما مسئوليّةَ تعليمِه، وقد خَلَق اللهُ تعالى الإنسانَ ثلاثَ مراتٍ بقُدرتِه:

المرةُ الأُولى: خَلَق اللهُ تعالى سيِّدَنا آدمَ عليه السَّلامُ متعلِّمًا، ولهذا ما أنْ خَلَقَه اللهُ تعالى حتى قَرأَ المكتوبَ على العرش، أي: لا إلهَ إلّا الله، محمدٌ رسولُ الله(١).

المرةُ الثانية: حين اتُّهِمتِ السيِّدةُ مريَمُ بالطِّفل كيف أَنْجَبَتْه وهي لم تتزوَّجْ بعدُ، قالت السيّدةُ مريَمُ: اسأَلوا الطِّفلَ من أين أتى؟ يقولُ القرآنُ الكريم: إنّ سيّدَنا عيسى عليه السَّلامُ قال وهو في حِجْرِ أُمِّه: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠].

المرةُ الثالثة: حين يُبعَثُ الناسُ جميعًا يومَ القيامة أحياءً بقُدرةِ الله تعالى، ستكونُ لُغتُهم جميعًا هي اللُّغةَ العربيَّة، سواءٌ كانوا مسلمينَ أم غيرَ مسلمين، وسواءٌ كانوا رجالًا أم نساءً، وسيكونُ الجميعُ متعلِّمينَ، وستوضَعُ أمامَ كلِّ واحدٍ منهم صحيفةُ أعمالِه، وسيقالُ له: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

---

(١) المواهب اللدنية، ١: ٨٢، والبداية والنهاية، ١: ٨١، وشرح الزرقاني، ١: ١١٩.

سُورَةُ العَلَق (٩٦)،

مكية (١)، آياتها (١٩)، ركوعها (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾

١ ـ نَزَل القرآنُ الكريمُ مُنجَّمًا على ثلاثةٍ وعشرينَ عامًا، ولكنّ الوحيَ الأوّلَ منه هو الخمسُ آياتِ الأُولى من هذه السُّورة، وقد نَزَلت في غارِ حراءٍ، ففي الآيةِ الأولى ترغيبٌ في القراءةِ باسم الله وفي تحصيل العلم، وللتعرُّفِ على تعريفِ الوحي باعتبارِ أنّ هذا هو الوحيُ الأوّلُ، وللتعرُّفِ كذلك على صُوَرِ نزولِ الوحي، وتفاصيلِ نزولِ الوحيِ الأول، وكوْنِ النبيِّ منزَّهًا عن الكُفرِ والشِّرك حتى قبلَ بَعْثتِه، وإيمانِ النبيِّ قبلَ البَعْثةِ، وعلمِه بنُبوّتِه قبلَ بَعْثتِه، وهل كان النبيُّ ﷺ يستطيعُ القراءةَ أم لا، وهل كان النبيُّ ﷺ يَعرِفُ سيّدَنا جِبريلَ الأمينَ عليه السَّلامُ أم لا، وأهميّةِ تحصيلِ العلم وفَضْلِه وغيرِ ذلك يُمكنُك الرجوعُ إلى تعارُفِ هذه السُّورة.

غار حراء

الجَبلُ الذي يوجَدُ في قمَّتِه غارُ حِراءٍ هو جَبلُ النُّور، وغارُ حِراءٍ بطُول أربع ياردات وعَرْض ياردتَيْنِ، وجَبَلُ النُّور وكلُّ ما يُحيطُ به من الجبالِ هي جبالٌ جافّةٌ جَرْداءُ لا زَرْعَ فيها ولا ماء، والطريقُ إلى غارِ حِراءٍ وَعِرٌ وصعبُ المسالك، بحيث يستطيعُ الرجُل القويُّ الوصولَ إليه بمشَقّةٍ شديدة، ورَغْم أنه هناك الآنَ سَلالِمُ تَمَّ بناؤها وتركيبُها بقَطْع الجبلِ وتكسيرِه، لكنّ الوصولَ إلى الغارِ معَ ذلك يستغرقُ ساعةً إلّا رُبُعًا تقريبًا، وجَبَلُ النُّورِ هذا يقَعُ على بُعد ثلاثةِ أميالٍ تقريبًا من الحَرَم، واليومَ امتدَّ عُمرانُ مكةَ حتى وَصَل إلى جَبَل النُّور.

يقولُ أبو العبّاس القَسْطَلّانيُّ: «فإنْ قلتَ: لمَ خُصَّ حِراءٌ بالتعبُّدِ فيه دونَ غيرِه؟ قال ابنُ أبي جَمْرَة: لمزيدِ فضلِه على غيرِه؛ لأنه مُنْزَوٍ مجموعٌ لتحنُّثِه، ويُنظَرُ منه الكعبةُ المعظَّمة، والنظرُ إليها عبادةٌ، فكان له عليه الصَّلاةُ والسّلامُ فيه ثلاثُ عبادات: الخَلْوةُ والتحنُّثُ والنَظرُ إلى الكعبة»(١)، أمّا اليومَ فلا تبدو الكعبةُ من غارِ حراءٍ بسببِ المباني الشاهقة.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾

٢ ـ خَلَق اللهُ تعالى الإنسانَ الأوّلَ، يعني: السيِّدَ الإنسانَ، من طِين، ثم خَلَق بني آدمَ بعدَ ذلك من عَلَق، وفيه تذكيرٌ للإنسانِ بحقيقتِه وأصلِه؛ يعني: كيف خَلَق اللهُ تعالى هذا الإنسانَ الجميلَ من قطرةِ دماءٍ متجمِّدة، ولهذا يجبُ عليه ألّا يتكبَّرَ أو يَطغَى، بل يَشكُرُ اللهَ تعالى، كما أنّ في هذه الآيةِ أيضًا ترغيبًا في تحصيل العلوم التَّجريبيّة. وللتعرُّفِ على تفصيل ذلك راجعْ تعارُفَ السُّورةِ تحتَ عنوان «الوحيُ الأول للقرآنِ وسياسةُ الإسلام التعليميّة».

---

(١) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ١: ١٠٦، كتاب الوحي، باب ٣.

﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾

٣ ـ في هذه الآيةِ تسريةٌ من الله تعالى عن قلبِ نبيِّه الكريم ﷺ بأنه رَغْمَ أنّ القرآنَ المَجيدَ بقَدْره ومنزلتِه وعظَمتِه وجَلالِهِ ثقيلٌ للغاية، بحيث لو أُنزِلَ على الجَبل لَتصدَّعَ وتشَقَّق، لكنْ لا تخَفْ يا رسولَ الله ﷺ، فإنّ ربَّك كريمٌ غايةَ الكرم، وسوف يُيسِّرُ لك قراءَته وتعلُّمَه وتعليمَه.

﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾

٤ ـ في هذه الآيةِ ترغيبٌ في الكتابة، ولو أهمَلْنا في الكتابة، فكيف نستفيدُ اليومَ من علوم وفنونِ القُدامَى من العلماء؟

أهمية القلم

يقولُ سيّدُنا قَتادةُ رضي الله عنه: «القَلَمُ نعمةٌ من اللهِ تعالى عظيمةٌ، لولا ذلك لم يَقُمْ دينٌ، ولم يَصلُحْ عيشٌ»[١].

القرآنُ الكريمُ والحديثُ النَّبويُّ الشّريفُ موجودانِ أمامَنا اليومَ في شكلٍ موثَّقٍ ومكتوب، ومعَ ذلك فإنّ الاختلافاتِ على أشَدِّها، فتصوَّرْ أنت ماذا يمكنُ أن تكونَ عليه اختلافاتُنا إذا لم يكنْ هذانِ المصدرانِ في شكلٍ موثَّقٍ ومكتوب؟!

من هو أول من كتب من بني الإنسان؟

يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ مشيرًا إلى عدّةِ احتمالاتٍ: «أحَدُها: أنّه آدمُ عليه السّلام؛ لأنّه أوّلُ مَن كَتَب، والثّاني: أنّه إدريسُ، وهو أوّلُ من كَتَب»[٢].

---

(١) تفسير القرطبي، سورة العلق (٩٦): الآية ٤.

(٢) المرجع السابق، سورة العلق (٩٦): الآية ٤.

﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾

٥ ـ يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: إنّ المرادَ بالإنسانِ في هذه الآيةِ هو سيّدُنا آدمُ عليه السَّلام، أو النبيُّ الكريمُ ﷺ، أو الإنسانُ العاديُّ، يعني: أنّ الله تعالى عَلَّم الأنبياءَ الكرامَ عليهمُ السَّلامُ العِلمَ، وعَلَّم الأنبياءُ الكرامُ عليهمُ السَّلامُ باقيَ الناس.

علم سيدنا آدم عليه السلام

ـ «عَلَّم اللهُ تعالى آدمَ ألفَ حِرفةٍ من الحِرَف، وقال له: قُلْ لوَلَدِك وذُرّيّتِك: إنْ لم تَصبِروا فاطلُبوا الدُّنيا بهذه الحِرَف، ولا تَطلُبوها بالدِّين، فإنّ الدِّينَ لي وحدي خالصًا، وَيْلٌ لمَن طلَبَ الدُّنيا بالدِّين، وَيْلٌ له»[١].

ـ عَلَّم اللهُ تعالى سيّدَنا آدمَ عليه السَّلامُ أسماءَ الأشياءِ كلِّها، ثم عَرَض هذه الأشياءَ على الملائكةِ وقال لهم: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١]، يعني: أنّ الله تعالى «ألْهَمَه (أي: سيّدَنا آدمَ عليه السَّلامُ) معرفةَ ذواتِ الأشياءِ وأسمائها وخواصِّها ومعارِفِها وأصولَ العِلم وقوانينَ الصّناعات وتفاصيلَ آلاتِها وكيفيّاتِ استعمالاتِها»[٢].

لم يسأَل اللهُ تعالى الملائكةَ عن التوحيدِ والنُّبوّةِ أو العبادةِ حتى يُثبِتَ تفوُّقَ سيّدِنا آدمَ عليه السَّلام، وإنّما سأَل عن أسماءِ الأشياءِ وأسرارِها، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ العبادةَ وحدَها ليست كافيةً للمجتمع الإنسانيّ «وهي متوفِّرةٌ لدى الملائكةِ بمقدارٍ وافر»، وإنّما منَ الضّروريِّ أيضًا أن يكونَ هناك عِلمٌ تفصيليٌّ لكلِّ ما

(١) كنز العمال، ١٠: ٢٠٦ برقم ٢٩٠٩١، والبدر المنير، الإمام الشعراني، ٢٨٩ برقم ١٥٠٧.
(٢) تفسير روح المعاني، سورة البقرة (٢): الآية ٣١.

هو موجودٌ في الكائنات، وهو ما نُطلقُ عليه في أيامِنا هذه العلومَ التَّجريبيّةَ، أمّا علومُ التوحيدِ والعباداتِ الموجودةُ لدى الملائكةِ فقد أَوْدَعَها اللهُ تعالى في فِطرةِ سيّدِنا آدمَ عليه السَّلام، وكان أولَ عِلم عَلَّمه له ـ بعدَ خَلْقِه ـ هو العلومُ الدُّنيويّةُ والتّجريبيّة؛ لأنّ الإسلامَ هو مجموعةُ العلوم: الدِّينيةِ والدُّنيويّة.

والعالِمُ التجريبيُّ هو: ذلك الإنسانُ الذي يَدرُسُ حقيقةَ وخصائصَ شيءٍ ما في هذا العالَم الماديِّ، ويكتشفُ بعضًا من خصائصِ هذا الشيء، ولكنْ كم من خصائصِه لم يُكتشَفْ بعدُ، ولا يَعلَمُه واحدٌ من هؤلاءِ العلماء؟ أمّا سيِّدُنا آدمُ عليه السَّلامُ فقد كان يَعرِفُ حقائقَ الأشياءِ وخواصَّها جميعًا، بالإضافةِ إلى العلوم الدِّينية، ولهذا لا يستطيعُ واحدٌ من العلماءِ التجريبيِّينَ في عصرِنا أن يَطالَ حتى غبارَ طريقِ عِلم سيّدِنا آدمَ عليه السَّلام، وبهذا فإنّ كلَّ عالِم تجريبيٍّ في الحقيقةِ مَدِينٌ لسيّدِنا آدمَ عليه السَّلام؛ لأنّ أصلَ كلِّ تلك الحقائق ظَلَّ ينتقلُ في أولادِ آدمَ، وكلُّ مَن يجتهدُ سيَكتشفُ تلك الحقائقَ بقَدْرِ استعدادِه وامكانيّاتِه، ولأنّ هذه الحقائقَ تتعلَّقُ بالتجارِبِ الماديّةِ التي لا فَرْقَ فيها بينَ مسلم وكافرٍ، لهذا فإنه بقَدْرِ ما يُجري عالِمٌ من تجارِبَ، بقَدْرِ ما يصبحُ عالمًا متميِّزًا.

وفي رأيي هناك حاجةٌ ماسّةٌ للعلوم التّجريبيّة لكي نستطيعَ تطبيقَ الإسلام والحُكمَ بنجاح؛ لأنّنا لا نستطيعُ أن نُواجهَ القنبلةَ النَّوويّةَ والطائراتِ بالسُّيوفِ والخيول، وهذا هو السببُ غالبًا في أنه طالما كان المسلمونَ يهتمُّونَ بالعلوم التجريبيَّة، فإنّهم كانوا يمثِّلونَ قوةً عُظمى في العالَم، كما أنّ أهلَ أوروبا قد تقَدَّموا عندَما تَعلَّموا العلومَ التَّجريبيَّةَ من المسلمين، بينَما أكثرُ من خمسينَ حكومةً مسلمةً اليومَ تَسْتجدي من الآخَرين؛ لأنّها قد أَفْلست في العلوم التَّجريبيّة.

لمحة فكرية

لم يأتِ الأمرُ بالصّلاةِ أو الزّكاةِ أو الحجِّ أو الصّيام في الخمسِ آياتٍ الأُولى التي نَزَلت من القرآنِ المجيد، وإنّما ذُكِر التعليمُ والتّعلُّمُ والكتابةُ، وممّا يؤسَفُ له أنّ الأُمّةَ التي كتابُها الدِّينيُ يُسمَّى القرآنَ، يعني القراءةَ، وأنّ أولَ لفظٍ نَزَل في هذا الكتابِ كان أمرًا بالقراءة، ولكنّ هذه الأُمّةَ اليومَ قد تَخلَّفتْ كثيرًا عن الأُمم الأُخرى في المجالاتِ العلميّة. ولمزيدٍ من التفصيلِ عن أهميّةِ العلوم والفنونِ راجعْ في تعارُفِ هذه السُّورة ما جاء تحتَ عُنوان «الوحيُ الأولُ للقرآنِ وسياسةُ الإسلام التعليميَّة».

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴾

٦ ـ الآياتُ الخمسُ الأُولى من هذه السُّورةِ هي أولُ ما نَزَل من القرآنِ الكريم، أي: أنّ نزولَ القرآنِ الكريم بَدَأ بهذه الآياتِ، أمّا الآياتُ الأربعَ عشْرةَ الباقيةُ فقد نَزَلت بعدَ فترةٍ طويلة؛ لأنّها تتعلَّقُ بأبي جَهْل[1]، والتي يَمنَعُ فيها النبيُّ ﷺ من الصَّلاة، وواضحٌ أنّ هذه الواقعةَ حَدَثت في الفترةِ التي أعلَن فيها النبيُّ ﷺ النُّبوّةَ والدّعوةَ، واشتَدّت فيها معارضةُ أهل مكةَ للنبيِّ ﷺ، وقد نَقَل الإمامُ مسلمٌ في «صحيحِه» هذه الواقعةَ كما يلي:

عن أبي هريرةَ، قال: قال أبو جَهْلٍ: هل يُعفِّرُ محمّدٌ وجهَه بينَ أظهُرِكم؟ قال: فقيل: نعم. فقال: واللّاتِ والعُزَّى، لئن رأيتُه يفعَلُ ذلك لَأطَأنَّ على رَقَبتِه أو لَأُعفِّرَنّ وجهَه في التّراب. قال: فأتَى رسولَ الله ﷺ وهو يُصلّي ـ زَعَم لِيطَأَ على رَقَبتِه ـ قال: فما فَجِئهم منه إلّا وهو ينكُصُ على عَقِبَيْهِ ويتَّقي بيدَيْه، قال: فقيل لهُ:

---

(١) «ويجوز أن يكون خمس آياتٍ من أوّلها أوّل ما نزلت، ثمّ نزلت البقيّة في شأن أبي جهل» تفسيرالقرطبي.

ما لك؟ فقال: إنّ بَيْني وبينَه لَخندقًا من نارٍ وهَوْلًا وأجنحةً. فقال رسولُ الله ﷺ «لو دَنا منّي لَاختَطَفتْه الملائكةُ عُضوًا عُضوًا». قال: فأَنْزل اللهُ عزَّ وجلّ[1].

عندَما يَتقدَّمُ إنسانٌ من ناحيةِ المالِ والثَّروةِ والقوّةِ والسُّلطة، ويصبحُ في غير حاجةٍ إلى أحدٍ فيما يتعلَّقُ بالاحتياجاتِ الحياتيّة، فإنّ هذا الإنسانَ قد يصابُ بالأنانيّةِ والتمرُّد، ويعتقدُ أنه قدِ استغنَى الآنَ، بمعنى: أنه قد لا يُعيرُ الآخَرينَ اهتمامًا مغترًّا بقوّتِه، ولأنّ أبا جهل كان على درجةٍ عاليةٍ من الثَّراء، كما أنه كان يُعَدُّ واحدًا من أهمِّ زعماءِ قبيلتِه، لهذا طَغَى وتجبَّر، حتى أنه هدَّد النبيَّ ﷺ بأن يتوقَّفَ عن أداءِ الصّلاةِ وإلّا اعتدَى عليه، ولكنْ ما أحمقَ هذا الإنسانَ المتمرِّدَ، إذ يغفُلُ عن خالقِه الحقيقيِّ الذي خَلَقَه من قطرةِ ماءٍ مَهِين، والذي سوف يَرجِعُ إليه في نهايةِ الأمر، ويُحاسبُه على طُغيانِه وتجبُّرِه.

﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴾

٧ - لو قَبِلَ أبو جهلٍ دعوةَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، ودَعا الناسَ إلى التقوى، لَكان ذلك خيرًا له، لكنْ ألم يكنْ أبو جهلٍ يَعرِفُ عندَما كذَّبَ النبيَّ ﷺ، وأَعْرضَ عن طاعتِه، أنّ اللهَ تعالى يَرى طُغيانَه وسُوءَ عملِه، وأنه سيُحاسبُه حسابًا عسيرًا على سُوءِ عملِه؟

﴿ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ﴾

٨ - يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: «مَرَّ أبو جهلٍ على النّبيِّ ﷺ وهو يُصلّي عندَ المقام، فقال: ألم أَنْهَكَ عن هذا يا محمّد! فأَغْلَظَ له رسولُ الله ﷺ، فقال أبو جهل: بأيِّ شيءٍ تُهدِّدُني يا محمّد! والله إنّي لَأكثرُ أهل الوادي هذا ناديًا، فأَنْزلَ اللهُ عزّ وجلّ هذه الآياتِ»[2]. في هذه الآياتِ جاء تحذيرٌ

---

(١) مسلم، صفات المنافقين، باب ٦ برقم ٧٠٦٥.

(٢) تفسير القرطبي.

لأبي جَهْل بأنه إن لم يَرجِعْ عن مغالطاتِه وكذبِه وتجبُّرِه، فسوف نَجُرُّه هذا الكاذبَ المخطئَ على الأرضِ من ناصيتِه (أي: من الشَّعرِ أعلى الجبهة)، ولْيَستَدْعِ اليومَ إن شاء جُلساءَه لمساعدتِه، ونحن أيضًا سنَستدعي في ميدانِ الحَشْر ملائكةَ جهنَّم، ونحاسبُه حسابًا عسيرًا، ثم رأتِ الدُّنيا سريعًا يومَ معركةِ بدرٍ، والتي جَرَّ فيها جنودُ الإسلام جثّةَ أبي جَهْل الذي قُتل في المعركة، وألقَوْا بها في حفرةٍ في بدر، وسوف تَجُرُّه ملائكةُ جهنَّمَ أيضًا على وجهِه بنفسِ الطريقةِ في ميدانِ الحَشْر، وتُلقي به في جهنَّم.

﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾

٩ ـ يعني: يا أيُّها النبيُّ ﷺ، لا تُبالِ قطعًا بما يقولُ هذا المخطئُ الكَذّاب، وإنّما استمِرَّ في السجودِ لرِّبك واحصُلْ على القربِ منه بسجودِك.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجدٌ، فأكثِروا الدُّعاءَ»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: سَجَد رسولُ الله ﷺ في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ و﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾[٢]، والمرادُ منه سجودُ التلاوة، ولهذا يجبُ على مَن يقرَأُ هذه الآيةَ أو يسمَعُها أن يَسجُدَ سجودَ التلاوة.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة المغرب من يوم الاثنين ٣ يناير ٢٠١١م
الموافق ٢٨ محرَّم ١٤٣٢هـ.

---

(١) مسلم، كتاب الصلاة، باب ٤٢ برقم ١٠٨٣.
(٢) مسلم، كتاب المساجد، باب ٢٠ برقم ١٣٠٢.

هذا، وقدِ اكتَملَ بفَضْل الله تعالى وكرَمِه تفسيرُ سُورة «العَلَق» في عدّةِ ساعات اليومَ، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

❋ ❋ ❋

بسم الله الرحمن الرحيم

(٩٧) سورة القدر

هذه السُّورةُ مكِّيةٌ، واسمُها: «القَدْر»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى منها.

ليلة القدر

جاء في هذه السُّورةِ بيانٌ لفَضْل القرآنِ المَجيدِ وفَضْل ليلةِ القَدْر، يعني:

- القرآنُ المَجِيدُ ليس من كلام البشَر، وإنّما هو كلامُ الله تعالى، وهو الذي أَنْزلَه.
- بَدَأَ نزولُ القرآنِ المَجيدِ في ليلةِ القَدْر.
- ليلةُ القَدْرِ خيرٌ من ألفِ شهر.
- في هذه اللَّيلة يَنزِلُ سيّدُنا جِبريلُ الأمينُ وعددٌ كبيرٌ من الملائكة، ويَدعُونَ اللهَ تعالى للذين يَعبُدونَ اللهَ في تلك اللَّيلة.
- هذه اللَّيلةُ ـ من غروبِ الشمسِ إلى طلوع الفجر ـ كلُّها سلامٌ في سَلام، ومن يَعبُدُ اللهَ في هذه الليلة فإنّ اللهَ تعالى يُنعِمُ عليه بالسّلام والرحمة.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا.
بعدَ صلاة الفجر من يوم الثلاثاء ٤ يناير ٢٠١١م
الموافق ٢٩ محرَّم ١٤٣٢هـ.

سُورَةُ القَدْرِ (٩٧)،

مكية (٢٥)، آياتها (٥)، ركوعها (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾

١ ـ يعني: أنّ القرآنَ المَجِيدَ ليس من كلام البشَر، وإنّما هو كلامُ الله تعالى، ونحن أَنْزلناهُ في ليلةِ القَدْر، وقد نَقَل العلّامةُ القُرطبيُّ أقوالًا مختلفةً مبيِّنًا أسبابَ إطلاقِ اسم ليلةِ القَدْر على هذه اللّيلة، وخُلاصةُ هذه الأقوال: «وقيل: سُمِّيت بذلك لأنّه أَنْزَل فيها كتابًا ذا قَدْرٍ، على رسُولٍ ذي قَدْرٍ، على أُمّةٍ ذاتِ قَدْرٍ. وقيل: لأنّه يَنزِلُ فيها ملائكةٌ ذَوو قَدْرٍ وخطرٍ. وقيل: سُمِّيت بذلك لأنّ للطّاعاتِ فيها قَدْرًا عظيمًا، وثوابًا جزيلًا. وقيل: سُمِّيت بذلك لأنّ مَن لم يكنْ له قَدْرٌ ولا خطرٌ يصيرُ في هذه اللّيلةِ ذا قَدْرٍ إذا أحياها»[1].

قدر القرآن المجيد ومنزلته

أحدُ جوانبِ قَدْرِ القرآنِ الكريم ومَنزِلتُه أيضًا هو أنّ اللَّيلةَ التي نَزَل فيها

---

(١) تفسير القرطبي.

أصبحَتْ ليلةً ذاتَ قَدْرٍ ومنزِلة، والغارُ الذي بَدَأ نزولُه فيه أصبحَ غارًا ذا قَدْرٍ ومنزِلة، والشَّهرُ الذي نَزَل فيه صار شهرًا ذا قَدْرٍ ومنزِلة، والأوراقُ التي كُتِب عليها أصبحَتْ أوراقًا ذاتَ قَدْرٍ ومنزِلة، وهكذا مَن يعملْ بهذا القرآنِ يصبحْ ذا قَدْرٍ ومنزِلة.

ما الليلة المقصودة بليلة القدر؟

الأمرُ الواضحُ من القرآنِ المَجيدِ هو أنّها ليلةٌ من ليالي شهرِ رمضانَ المبارك؛ لأنّ بدايةَ نزولِ القرآنِ الكريم كانت في شهرِ رمضانَ، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]. لكنّ هناك اختلافًا بينَ العلماءِ في تحديدِ تاريخ هذه اللَّيلة، وإليك في هذا الخصُوص حديثَيْنِ شريفَيْنِ:

ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي الله عنها: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «تَحرَّوْا ليلةَ القَدْرِ في الوِترِ من العَشْر الأواخِرِ من رمضان»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمر رضي الله عنهما: رأى رجلٌ أنّ ليلةَ القَدْرِ ليلةَ سبعٍ وعشرينَ. فقال النّبيُّ ﷺ «أرى رُؤياكم في العَشْرِ الأواخِرِ فاطلُبوها في الوِترِ منها»(٢).

ويُعلَمُ من هذَيْنِ الحديثَيْنِ الشَّريفَيْنِ أنّ ليلةَ القَدْرِ هي إحدى ليالي الوِترِ (٢١، ٢٣، ٢٥، ٢٧، ٢٩) في العَشْرِ الأواخِرِ من شهرِ رمضان، ولكنّها عند جمهورِ العلماءِ: اللَّيلةُ السابعةُ والعشرون من شهرِ رمضانَ المبارك.

ـ يقولُ سيّدُنا زِرُّ بن حُبَيْش رضي الله عنه: سألتُ أُبَيَّ بنَ كعبٍ ـ رضي الله عنه ـ فقلتُ: إنّ أخاك ابنَ مسعودٍ يقولُ: من يَقُم الحَوْلَ يُصِبْ ليلةَ القَدْر. فقال

---

(١) البخاري، كتاب ليلة القدر، باب ٣ برقم ٢٠١٧.

(٢) مسلم، كتاب الصيام، باب ٤٠ برقم ٢٧٦٣.

رحمه الله: أراد أن لا يتّكلَ النّاسُ، أمَا إنّه قد عَلِم أنّها في رمضانَ وأنّها في العَشْرِ الأواخِر وأنّها ليلةُ سبعٍ وعشرينَ. ثمّ حَلَف لا يستثني أنّها ليلةُ سبعٍ وعشرينَ، فقلتُ: بأيّ شيءٍ تقولُ ذلك يا أبا المنذر؟ قال: بالعَلامةِ أو بالآية الّتي أخبَرَنا رسولُ الله ﷺ أنّها تَطلُعُ يومَئذٍ لا شعاعَ لها[١].

على أيٍّ حال، هناك حِكَمٌ عديدةٌ وراءَ عَدَم تحديدِ ليلةِ القَدْر، حتى لا يكتفيَ أهلُ الإيمانِ بالتركيزِ على ليلةِ القَدْرِ فقط في شهرِ رمضانَ المبارك، وإنّما يقومونَ لذِكرِ الله خمسَ ليالٍ على الأقلّ.

﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾

٢ ـ بعضُ الأماكنِ أفضَلُ من البعضِ الآخَر بفَضْل ما يُنسَبُ إليها، وشَدُّ الرِّحال إلى هذه الأماكنِ وعبادةُ الله فيها له فَضْلٌ عظيم، مثلَما يقولُ سيّدُنا أنسُ بن مالكٍ رضي الله عنه، من أنّ النبيَّ ﷺ قال: «صَلاةُ الرّجُل في بيتِه بصلاةٍ، وصَلاتُه في مسجدِ القبائل بخمسٍ وعشرينَ صلاةً، وصلاتُه في المسجدِ الّذي يُجمِّعُ فيه بخمسِمائة صلاةٍ، وصلاتُه في المسجدِ الأقصى بخمسينَ ألفَ صلاةٍ، وصلاتُه في مسجدي بخمسينَ ألفَ صلاةٍ، وصَلاتُه في المسجدِ الحرام بمائةِ ألفِ صلاة»[٢].

وهكذا بعضُ الأوقاتِ يكونُ أفضَلَ من بعضِها الآخَر بسببِ ما يُنسَبُ إليها، والعبادةُ في هذه الأوقاتِ أفضَلُ من غيرِها، ومن هذه الأوقاتِ: شهرُ رمضانَ، ويومُ الجمُعة، وليلةُ القَدْر.

---

(١) مسلم، كتاب الصيام، باب ٤٠ برقم ٢٧٧٧.

(٢) ابن ماجه، أبواب إقامة الصلاة، باب ١٩٨ برقم ١٤١٣.

فضل ليلة القدر

ـ يقولُ الإمامُ مالك: «إنّه سَمِع مَن يثقُ به مِن أهل العلم يقولُ: إنّ رسولَ الله ﷺ أُريَ أعمارَ النّاس قبلَه أو ما شاء اللهُ من ذلك، فكأنّه تَقاصَرَ أعمارَ أُمّتِه أن لا يَبلُغوا من العَمل مِثلَ الّذي بَلَغ غيرُهم في طُولِ العمُر، فأعطاه اللهُ ليلةَ القَدْرِ خيرٌ من ألفِ شهرٍ»[١].

ـ يقولُ مجاهدٌ: «إنّ النّبيَّ ﷺ ذَكَر رجُلًا من بني إسرائيلَ لبِسَ السّلاحَ في سَبيل الله ألفَ شهرٍ، فتعجَّبَ المسلمونَ من ذلك، فأَنْزل اللهُ عزَّ وجلّ هذه السُّورةَ»[٢].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن صام رَمضانَ إيمانًا واحتسابًا غُفِر له ما تَقدَّم من ذَنْبِه، ومَن قام ليلةَ القَدْرِ إيمانًا واحتسابًا غُفِر له ما تَقدَّم من ذَنْبِه»[٣].

ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي الله عنها: قلتُ: يا رسولَ الله، أرأيتَ إن عَلِمتُ أيُّ ليلةٍ ليلةُ القَدْرِ، ما أقول فيها؟ قال: «قولي: اللهُمّ إنّك عفُوٌّ [كريمٌ] تُحبُّ العفوَ فاعفُ عنّي»[٤].

﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾

٣ ـ يعني: أنّ جِبريلَ الأمينَ وعددًا كبيرًا من الملائكةِ يَنزِلونَ بأمرٍ من اللهِ تعالى من أَجْل كلِّ أمرٍ مُقدَّرٍ في تلك الليلة، وهذه اللَّيلةُ ـ من غروبِ الشمس حتى طلوع الفجرِ ـ كلُّها سَلامٌ في سلام، ويَستمرُّ فيها نزولُ الملائكةِ والرَّحماتِ،

---

(١) موطأ الإمام مالك، كتاب الاعتكاف، باب ليلة القدر، ١: ٣٢١.

(٢) شعب الإيمان، ٣: ٣٢٣ برقم ٣٦٦٨.

(٣) البخاري، كتاب فضل ليلة القدر: باب ١ برقم ٢٠١٤.

(٤) الترمذي، كتاب الدعوات: باب ٨٤ برقم ٣٥١٣.

فمن قام هذه اللَّيلةَ تدعو له الملائكةُ بالسَّلامة.

- يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا كان ليلةُ القَدْر نَزَل جِبريلُ عليه السّلامُ في كَبْكبةٍ من الملائكة يُصَلُّونَ على كلِّ عبدٍ قائمٍ أو قاعدٍ يَذكُرُ اللهَ عزَّ وجلّ، فإذا كان يومُ عيدِهم، يعني: يومَ فِطرِهم، باهَى بهم ملائكتَه، فقال: يا ملائكتي، ما جزاءُ أجيرٍ وَفَّى عمَلَه؟، قالوا: ربَّنا، جزاؤه أن يُوفَّى أجرَه، قال: ملائكتي، عبيدي وإمائي قَضَوْا فريضتي عليهم، ثمّ خَرَجوا يَعجُّونَ إليَّ بالدُّعاء، وعِزّتي وجَلالي وكرَمي وعُلُوّي وارتفاع مكاني، لَأُجيبَنَّهم، فيقولُ: ارجِعوا (أي: بعدَ صلاةِ العيد) فقد غَفَرتُ لكم وبَدَّلتُ سيّئاتِكم حسَناتٍ، قال: فيرجِعون مغفورًا لهم»[1]، يعني: أنّ العابِدينَ في ليلةِ القَدْر يُبشَّرونَ يومَ عيدِ الفِطر بهذه البُشرى.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة المغرب من يوم الثلاثاء ٤ يناير ٢٠١١م
الموافق ٢٩ محرَّم ١٤٣٢هـ.

هـذا، وقدِ اكتَمـل بفَضْل الله تعالى وكرَمِه تفسـيرُ سُـورة «القَـدْر» اليومَ، والحمـدُ لله ربِّ العالَميـن، والصّلاةُ والسّـلامُ على سـيّدِ المرسَـلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

* * *

(١) شعب الإيمان، ٣: ٣٤٣ برقم ٣٧١٧، ومشكاة المصابيح، كتاب الصوم، باب ليلة القدر برقم ٢٠٩٦.

بسم الله الرحمن الرحيم

(٩٨) سورة البينة

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها: «البيِّنة»، ولها اسمٌ آخرُ هو ﴿لَمۡ يَكُنِ﴾، والاسمان مأخوذان من الآية الأولى من السورة.

الحاجة إلى رسول عظيم

جاء الإخبارُ في بدايةِ هذه السُّورةِ بأنّ مُشركي الجزيرةِ العربيّةِ وكُفّارَها كانوا قد تَوغَّلوا في كُفرِهم وشُكرِهم، ولم يكونوا ليعودوا عن كُفرِهم وشِركِهم ما لم يأتِهم دليلٌ مضيءٌ غيرُ عاديٍّ، وهكذا أَرسَلَ اللهُ تعالى رسولًا عظيمًا هو سيّدُنا محمدٌ ﷺ الذي كانت حياتُه كلُّها دليلًا مضيئًا غيرَ عاديٍّ؛ لأنّهم هم أنفُسُهم كانوا يقولونَ عن النبيِّ ﷺ: الصادقُ الأمين، وهذا الرسُولُ العظيمُ هو الذي يَتْلو عليهمُ القرآنَ المَجِيدَ المحفوظَ في الصُّحُفِ المطَهَّرةِ، وفيه الأحكامُ الصحيحة.

الدين القويم واحد دائمًا

جاء في الآيةِ رقم ٤ والآيةِ رقم ٥ أنه بالرَّغم من أنّ أهلَ الكتابِ قبلَ بَعْثةِ النبيِّ الكريم ﷺ كانوا مختلفينَ فيما بينَهم من الناحيةِ العقائديّة، لكنَّهم جميعًا كانوا متَّفقينَ على أنّ نبيَّ آخِرِ الزمانِ سيّدَنا محمدًا ﷺ قادمٌ؛ لأنّ أوصافَه كانت

موجودةً بشكلٍ واضح في كتُبِهم، ولكنْ حين بُعِث النبيُّ ﷺ انقَسموا إلى فريقَيْنِ، فآمَنَ البعضُ منهم بالنبيِّ ﷺ، والبعضُ الآخَرُ لم يؤمنْ به رَغْمَ معرفتِه، وهنا إرشادٌ لأهل الكتابِ بأنّ النبيَّ ﷺ لم يأت بدين جديد، إنما هو الدين الذي دعا إليه الأنبياء الكرام السابقون عليهم السلام أقوامهم.

أسوأ الناس وأحسنهم

في آخِر هذه السُّورةِ جاء الإخبارُ بأنّ أسوأَ الناسِ من بَيْنِ المخلوقاتِ جميعًا هم الذين يَكفُرونَ ويُشركونَ، وأنّ أفضَلَ الناس من بَيْنِ المخلوقاتِ جميعًا هم الذين يؤمنونَ ويعمَلونَ الصّالحاتِ، ويتّقونَ اللهَ ويخشَوْنَه، وهؤلاء هم السُّعَداءُ الذين سيَرضَى اللهُ تعالى عنهم وسيَرضَوْنَ عنه.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة الفجر من يوم الأربعاء ٥ يناير ٢٠١١م
الموافق ٣٠ محرَّم ١٤٣٢هـ.

❊ ❊ ❊

سُورَةُ البَيِّنَةِ (٩٨)،

مكية (١٠٠)، آياتها (٨)، ركوعها (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾

١ ـ كان أهلُ الجزيرةِ العربيّة قبلَ بَعْثةِ النبيِّ ﷺ قِسمَيْن: قسمٌ مُشرك، وقسمٌ هم أهلُ الكتابِ من اليهودِ والنَّصارى، وكان بعضُ أهل الكتابِ ثابتًا على التوحيد، بينَما تخَلَّى البعضُ الآخَرُ عن التوحيدِ وابتُلي بالكُفر. وفي هذه الآيةِ جاء ذِكرُ المشركينَ والكُفّارِ من أهل الكتاب، يعني: أولئك الذين كانوا قد توَغَّلوا في كُفرِهم وشِركِهم، ولم يَكونوا ليعودوا عن كُفرِهم وشِركِهم ما لم يأتِهم دليلٌ

مضيءٌ غيرُ عاديٍّ، ثم بعدَ ذلك إن لم يُؤمنوا، ستقومُ الحُجّةُ عليهم، ولن يستطيعوا تقديمَ اعتذاراتِ يومَ القيامة.

﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾

٢ ـ وهكذا أَرسَلَ اللهُ تعالى رسُولًا عظيمًا هو سيّدُنا محمدٌ ﷺ الذي كانت حياتُه كلُّها دليلًا مضيئًا غيرَ عاديٍّ؛ لأنّهم هم أنفُسُهم كانوا يقولونَ عن النبيِّ ﷺ: الصّادقُ الأمينُ، وهذا الرسُولُ العظيمُ هو الذي يَتْلو عليهمُ القرآنَ المَجِيدَ المحفوظَ في الصُّحُفِ المطَهَّرة، وفيه الأحكامُ الصَّحيحةُ، والقرآنُ المَجيدُ والصُّحُفُ المحفوظُ فيها، كلُّها مَنزَّهةٌ عن العَيْبِ والنَّقْص، وأعلى من أيِّ شكٍّ أو شُبهة، وبعيدةٌ كلَّ البُعدِ عن متناوَلِ الشياطين.

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾

٣ ـ يقولُ العلّامةُ ثناءُ الله باني بتي في تفسيرِ هذه الآية: «والحاصلُ أنّ أهلَ الكتابِ وإن كان بعضُهم مُلحِدًا في صفاتِ الله ونسبةِ الولدِ إليه لكنّهم كانوا مجتمعينَ فى أمرِ النبيِّ ـ ﷺ ـ لوضوح بيانِ أمرِه في كتُبِهم»[1]، بل إنّهم كانوا يَدعُونَ اللهَ تعالى بوسيلةِ نبيِّ آخِرِ الزّمانِ ﷺ لكي يَنصُرَهم على أعدائهم، مثلَما يقولُ العلّامةُ الآلوسيُّ: «قبلَ بَعْثةِ نبيِّ آخِرِ الزّمانِ ﷺ اعتاد اليهودُ أنه إذا ما نَشِبت حربٌ بينَهم وبينَ الكفّارِ والمشركين، وتَقِلُّ فُرَصُهم في الانتصار، وَضَعوا التَّوراةَ أمامَهم، وفَتَحوها على الموضِع الذي وَرَد فيه ذِكرُ صفاتِ النبيِّ ﷺ، ويضَعُونَ أيديَهم عليه، ثم يَدْعُونَ اللهَ قائلين: اللّهمّ إنّا نسألُك بحقِّ نبيِّك الّذي وَعدتَنا أن تَبعَثَه

---

(١) التفسير المظهري.

في آخِرِ الزّمانِ أن تَنصُرَنا اليومَ على عدوِّنا، فيُنصَرون[1]. لكنّهم كانوا يتصوَّرونَ أنّ نبيَّ آخِرِ الزّمانِ ﷺ سيكونُ من بني إسرائيلَ، فلمّا بُعِثَ النبيُّ ﷺ من قبيلةِ قُريش، انقَسَموا في هذا الأمرِ إلى قسمَيْنِ، فآمَن بعضُهم بالنبيِّ ﷺ، وكفَر البعضُ الآخَرُ بدافع من تعصُّبه وعنادِه، رَغْمَ معرفتِه الحقيقةَ، مثلَما يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩].

﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾

٤ ـ يعني: أنّ النبيَّ الكريمَ لم يَأْتِ بدينٍ جديد، وإنّما أمَرَ الأنبياءُ السابقونَ عليهمُ السَّلامُ أقوامَهم من قبلُ بأن يُعرِضوا عن كلِّ أنواع الباطل، وأن يَعبُدوا اللهَ تعالى وحدَه بكلِّ إخلاص، وأن يُقيموا الصّلاةَ، ويُؤْتوا الزَّكاةَ، وهذه هي الأشياءُ الأساسيّةُ في العقيدةِ والعمَل والتي يقالُ لها معًا: الدِّينُ القَويم، وقد دَعا كلُّ نبيٍّ إلى هذا الدِّين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾

٥ ـ أسوَأُ الناسِ من بَيْنِ المخلوقاتِ جميعًا هم أولئك الذين يَكفُرونَ ويُشركون، وسوف يَخلُدونَ في جهنَّم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾

٦ ـ يقولُ العلّامةُ غُلام رسُول سَعيدي: «استَدلَّ علماءُ أهل السُّنةِ بهذه الآيةِ على أنّ المؤمنينَ الصّالحينَ أفضَلُ من الملائكة؛ لأنّ اللهَ تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾، والملائكةُ من بَيْنِ المخلوقاتِ أيضًا،

(١) تفسير روح المعاني، سورة البقرة (٢): الآية ٨٩.

ولهذا فإنّ المؤمنينَ الصّالحينَ أفضَلُ من الملائكةِ أيضًا، ومعَ ذلك فهناك تفصيلٌ في هذا بأنّ رُسُلَ البشَر أفضَلُ من رُسُلِ الملائكة، ورُسُلُ الملائكةِ أفضَلُ من عامّةِ المؤمنينَ الصّالحينَ، وعامّةُ المؤمنينَ الصّالحينَ أفضَلُ من عامّةِ الملائكة»[١].

كما أنّ الملائكةَ ليس لدَيْها اختيارُ العصيان، ولهذا فإنّ الطاعةَ مركَّبةٌ في فِطرتِهم، بينَما يوجَدُ لدى الإنسانِ اختيارُ العصيانِ أيضًا، ووساوسُ الشّيطانِ تُرغِّبُه في العصيانِ، وبرَغْم ذلك يختارُ الإنسانُ طريقَ طاعةِ الله تعالى، ويُنفقُ في سَبيل الله تعالى مما يَكسَبُه من كَدِّه وتَعَبِه، ويَصبرُ على المشاكل والصِّعاب، وكلُّ هذه المصاعبِ تُصيبُ الإنسانَ وتَلحَقُ به، ولهذا فهو أفضَلُ الخلائق، بل ومن حقِّه أن يكونَ أفضَلُ من الملائكة.

﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾

٧ ـ الذين يتَّقُونَ اللهَ تعالى ويخشَوْنَه ولا يعصُونَه، وإذا أخطَأوا ذاتَ مرةٍ تابُوا من فَوْرِهم، وعَمِلوا الصّالحاتِ ليعفوَ اللهُ عنهم، وهؤلاءِ هم السُّعداءُ الذين سيُدخلُهم اللهُ تعالى الجنّةَ خالدينَ فيها، وسيَرضَى اللهُ تعالى عنهم عندَما يَرى عبوديَّتَهم، وهم سيَرضَوْنَ عن الله تعالى عندَما يرَوْنَ كرَمَ الله تعالى لعبادِه.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو سَعيدٍ الخُدريُّ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ اللهَ يقولُ لأهل الجنّة: يا أهلَ الجنّة. يقولون: لَبّيْكَ ربَّنا وسَعْدَيْك. فيقولُ: هل رَضِيتُم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضَى وقد أعطَيْتَنا ما لم تُعطِ أحدًا من خَلْقِك؟ فيقولُ: أنا أُعطيكم أفضَلَ

---

(١) تفسير تبيان القرآن، سورة البينة (٩٨): الآية ٧.

من ذلك. قالوا: يا ربِّ، وأيُّ شيءٍ أفضَلُ من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخَطُ عليكم بعدَه أبدًا»(١).

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
وقتَ الضحى من يوم الأربعاء ٥ يناير ٢٠١١م
الموافق ٣٠ محرَّم ١٤٣٢هـ.

هذا، وقدِ اكتَملَ بفَضْل الله وكرَمِه تفسيرُ سُورة «البيِّنة» اليومَ في عدةِ ساعات، والحمدُ لله ربِّ العالمين، والصّلاةُ والسلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

* * *

(١) البخاري، كتاب الرقاق: باب ٥١ برقم ٦٥٤٩.

بسم الله الرحمن الرحيم

(٩٩) سورة الزلزلة

هذه السُّورةُ مكِّيّة، واسمُها: «الزَّلزَلةُ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى منها.

أخبار الأرض

في الآياتِ الخمسِ الأُولى من هذه السُّورةِ جاء الإخبارُ بأنّ الأرضَ ستَتَزَلْزَلُ يومَ القيامة، وفي هذا الزِّلزال ستُخرِجُ الأرضُ من بطنِها بني البشَرِ المدفونينَ فيها، وكذا ذَرّاتِهم المتناثرةَ أحياءً بأمرِ الله تعالى.

في ذلك اليوم عندَما تُخبِرُ الأرضُ بأمرِ ربِّها بكلِّ الأعمال التي حَدَثت فوقَ ظهرِها، وكذا بكلِّ أحوالها، ستُصيبُ الإنسانَ حَيْرةٌ عظيمة، وسيقولُ: ماذا حَدَث لهذه الأرض؟ لقد كانت صامتةً بلا رُوح من قبلُ، واليومَ تتحدَّثُ، وتُحدِّثُ بأخبارِنا وأحوالِنا، في حينَ أنّنا عندَما كنا نقومُ بأيِّ عملٍ فوقَ ظَهْرِها لم يكنْ يَخطُرُ ببالِنا أبدًا أنها ستَشهَدُ علينا.

أعمال الإنسان

في الآيةِ السادسةِ من هذه السُّورةِ جاء بيانٌ أنّ أعمالَ الناسِ ستُعرَضُ عليهم، وأنّهم سيُحاسَبونَ طِبقًا لها، سواءٌ بالإثابةِ أم بالعقاب.

الحسنة الصغيرة والسيئة الصغيرة

في نهايةِ هذه السُّورةِ جاء التنبيهُ على كلِّ إنسانٍ بأنّ أصغَر حسَناتِه وأصغَرَ سيِّئاتِه تُسجَّلُ عليه أيضًا، وستُعرَضُ أمامَ الجميع يومَ القيامة، ولهذا لا تَستصغِروا ذنبًا أبدًا؛ لأنّ مُستصغَرَ النارِ قد يَحرِقُ البيتَ كلَّه أحيانًا، وكذلك لا تُحقِّروا من الحسَناتِ شيئًا؛ لأنّ جُرعةَ ماءٍ قد تُنقذُ حياةَ إنسانٍ أحيانًا.

فضل سورة الزلزلة

يقولُ سيّدُنا أنسُ بن مالك رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن قَرأَ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ عُدِلت له بنصفِ القرآن، ومَن قَرأَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ عُدِلت له بثُلُثِ القرآن، ومَن قَرأَ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ عُدِلت له برُبع القرآن»[١].

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة الفجر من يوم الخميس ٦ يناير ٢٠١١م
الموافقِ الأولَ من صَفَر عام ١٤٣٢هـ.

* * *

(١) الترمذي، أبواب فضائل القرآن، باب ١٠ برقم ٢٨٩٣.

سورة الزلزلة (٩٩)،

مكية (٩٣)، آياتها (٨)، ركوعها (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾

١ ـ عندَما يَنفُخُ سيّدُنا إسرافيلُ عليه السَّلامُ في الصُّورِ لأولِ مرةٍ سيَعتَري الأرضَ زَلزالٌ عظيم، يفنَى منه الناسُ جميعًا، ثم عندَما يَنفُخُ سيّدُنا إسرافيلُ عليه السَّلامُ في الصُّورِ للمرّةِ الثانيةِ بعدَ أربعينَ عامًا سيَحدُثُ زَلزالٌ آخَرُ، وفيه ستُخرِجُ الأرضُ من بطنِها بني البَشَر المدفونينَ فيها وكذا ذَرّاتِهم المتناثرةَ أحياءً بأمرِ الله تعالى. والمرادُ في هذه الآية: الزَّلزَالُ الثاني؛ لأنّ الآياتِ التاليةَ لها تُرجِّحُه.

﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾

٢ ـ يقولُ العلّامةُ البَغَويُّ: «في الآيةِ تقديمٌ وتأخيرٌ تقديره: يومئذٍ تُحدِّثُ الأرضُ أخبارَها فيقولُ الإنسانُ: ما لها؟»[1]، يعني: أنّ الآيةَ الرابعةَ أولًا، ثم تَليها

(١) تفسير البغوي.

الآيةُ الثالثة، وبهذا يكونُ المعنى هو: أنه في اليوم الذي ستُحدِّثُ الأرضُ بأخبارِها سيقولُ الإنسانُ: ما لها؟[١]، لقد كانت صامتةً بلا رُوح من قبلُ، واليومَ تتحدَّث! وتُحدِّثُ بأخبارِنا وأحوالِنا، في أنّنا عندما كنّا نقومُ بأيِّ عمل فوقَ ظَهْرِها لم يكن يَخطُرُ ببالِنا أبدًا أنها ستَشهَدُ علينا.

يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: قَرأَ رسولُ الله ﷺ ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: «أتدرُونَ ما أخبارُها؟». قالوا: اللهُ ورسولُه أعلم. قال: «فإنّ أخبارَها أن تشهَدَ على كلِّ عبدٍ أو أَمَةٍ بما عَمِل على ظَهْرِها، أن تقولَ: عَمِل كذا وكذا يومَ كذا وكذا»، قال: «فهذه أخبارها»[٢].

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾

٣ ـ يعني: أن تُحدِّثَ الأرضُ ليس بالأمرِ العَجَب، فكما أنّ اللهَ تعالى سيَمنَحُ أعضاءَ البدنِ القُدرةَ على الكلام، كذلك ستَشهَدُ الأرضُ بأمرِ الله تعالى وحُكمِه.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾

٤ ـ عندما يَنفُخُ سيّدُنا إسرافيلُ عليه السَّلامُ في الصُّورِ للمرَّةِ الثانية سيُخرَجُ الناسُ أحياءً من قبورِهم، ويتوافَدونَ إلى ميزانِ العدلِ جماعاتٍ جماعات، مثلَما يقولُ اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨].

﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾

٥ ـ سيُجمَعُ الناسُ كلُّهم على ميزانِ العدلِ حتى تُعرَضَ عليهم أعمالُهم.

---

(١) التفسير المظهري.

(٢) الترمذي، أبواب صفة القيامة، باب ٧ برقم ٢٤٢٩.

لو تأمَّلْنا هذه السُّورةَ كلَّها لَوجَدْنا هذه الجملةَ، يعني: ﴿لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَـٰلَهُمۡ﴾ - في رأيي - ذاتَ مكانةٍ أساسيّةٍ وحَيْثيّةٍ مركَزيّة، ولهذا غالبًا قرَّر النبيُّ ﷺ أنّ هذه السُّورةَ تَعدِلُ نصفَ القرآنِ الكريم؛ لأنّ هذه الجُملةَ تكفي لأنْ تَهُزَّ عقلَ الإنسانِ وضميرَه، بمعنى: أنّ الحُكمَ بالإثابةِ أو بالعقابِ مرحلةٌ لاحقةٌ، لكنْ ستُعرَضُ أولًا حسَناتُ أهلِ الجنّة وسيِّئاتُ أهلِ النارِ أمامَ أهلِ مَيْدانِ الحَشْرِ جميعًا، ثم يتَقرَّرُ في ضوئها الثوابُ والعقابُ لهم، وذلك لكي يشاهدَ الإنسانُ نفسَه - ومعَه أهلُ الحشر جميعًا - ماذا كان يفعَلُ في الحياةِ الدنيا؟ مثلَما يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ﴾ [النجم: ٤٠-٤١]، وسواءٌ ارتكبَ الإنسانُ ما فَعَل في الدُّنيا خُفْيةً أم علانيَةً، فإنّ كلَّ أعمالِه ستُكشَفُ يومَ القيامة، وسيَراها الناسُ جميعًا، ثم سيُجزَى الجزاءَ الأَوْفى طبقًا لأعمالِه.

ثلاث طرق لإثبات الجريمة على متهم في العصر الحاضر

الطريقةُ الأولى: البلاغُ المكتوب، فإذا وضَعْنا أمامَ المتَّهم بلاغًا ضدَّه مكتوبًا فيه: إنّك قلتَ هذا الكلامَ، أو: إنك ارتكبتَ هذا الجُرمَ، فإنّ المتَّهَم يستطيعُ أن يُنكرَ هذا المكتوبَ قائلًا: إنّ كاذبًا كتبَه افتراءً عليه، وإنه لم يقُلْ هذا الكلامَ، ولم يرتكبْ هذا الجُرمَ.

الطريقةُ الثانية: شهادةُ الشهود، فإذا قَدَّمنا أمامَ المتَّهم شاهدًا يشهَدُ عليه بأنه قال هذا الكلامَ أمامَه، فإنّ المتَّهمَ يستطيعُ أن يُنْكِرَ هذا أيضًا قائلًا: إنه يكذبُ، وإنه لم يَقُلْ هذا الكلامَ، ولم يَرتكبْ هذا الجُرم.

الطريقةُ الثالثة: التسجيلُ المصوَّر، فإذا عرَضْنا على المتَّهم فيلمًا سجَّلته

كاميراتُ المراقبةِ له وهو يقولُ هذا الكلامَ أو يرتكبُ هذا الجُرمَ، فإنّ المتَّهمَ في هذه الحالةِ لا يستطيعُ الإنكَار، وسيَحني رأسَه نَدمًا على ما فَعَل.

ثلاث مراحل للحكم بالثواب والعقاب يوم القيامة

الأولى: يومَ القيامة ستُقدَّمُ في البدايةِ صحيفةُ الأعمالِ المكتوبة، ويقالُ للإنسان: ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء: ١٤]، ولن يكونَ يومَ القيامة أحدٌ أعمى أو لا يستطيعُ القراءَة، فاللهُ تعالى سيُحيي كلَّ شخصٍ يومَ القيامة وهو يَعرِفُ القراءةَ، وسوف يقرَأُ صحيفةَ أعمالِه بنفسِه.

الثانية: فإذا أنْكر صحيفةَ الأعمالِ مثلَما سيفعَلُ المشركونَ يومَ القيامة قائلين: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وعندما يُقسمُ المشركونَ ـ كذبًا ـ أنهم لم يكونوا مشركين، سيَختمُ اللهُ تعالى على أفواهِهم بعدَ أن يتَّضحَ كذبُهم، ويَسلُبُهم القُدرةَ على الكلام، ويَمنَحُ هذه القُدرةَ لأيديهم وأرجُلِهم. يقولُ تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ [يس: ٦٥].

الثالثة: فإذا أنكَر أولئك الشهودُ أيضًا، أمَرَ اللهُ تعالى ذَرّاتِ الأرض، فتَعرِضُ فيلمًا مصوَّرًا لحياةِ الإنسانِ تُظهِرُ فيه كلَّ ما قام به من أعمالٍ مثلَما يقولُ اللهُ تعالى:

١ ـ ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ ﴾ [النبأ: ٤٠].

٢ ـ ﴿ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ﴾ [النجم: ٤٠].

٣ ـ ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩].

٤ - ﴿لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٦-٨].

عندما كان المفسِّرونَ يقرأونَ هذه الآياتِ قبلَ عدّةِ مئآتٍ من السِّنين بأنّ الأيديَ والأرجُلَ ستشهَدُ، وأنّ أعمالَ الإنسانِ ستُعرَضُ أمام الجميع، لم يكن لِما يقولونَ تأويلٌ عَقْليّ، ولا تبريرٌ منطقيّ، ولا شَرحٌ يعتمِدُ على المنطقِ والفِكر، ورَغْم أنّنا لسنا في حاجةٍ إلى تبريرٍ عَقْليٍّ لأحكام الإسلام، ولكنْ يكونُ الأمرُ أيسَرَ على الفَهْم إنْ وجَدْنا له التوجيهَ المنطقيَّ، ولهذا فإنّ اختراعاتٍ مثلَ الفيديو بالصّوتِ والصُّورة قد يَسَّرتِ الأمرَ على الفَهْم والإدراك، مثلَما توضَعُ الأقراصُ المُدمَجةُ في جهازِ تشغيلها، فتُسمِعُنا صوتَ أحدٍ، وتُرينا شكلَه أيضًا، كذلك ستُسمِعُنا الأيدي والأرجُلُ يومَ القيامة كلامَ الناس، وستُرينا كاميراتُ القُدرةِ الإلهيّةِ أشكالَ الناس وصُوَرَهم.

كاميرات القدرة الإلهية

أصغرُ كاميرا فيديو طبِّيةٍ موجودةٍ اليومَ لا يزيدُ عَرْضَها عن ٢ , ١ مليميتر[١]، وعندَما يُدخِلُ الطّبيبُ هذه الكاميرا الصغيرةَ في جسم الإنسان، فإنّها تصوِّرُ وتُعرِضُ ما يَحدُثُ بالدّاخل، وبنفسِ الطريقة تكونُ الأرضُ ومتعلّقاتُها من الذَّرّات، يعني: الجُدرانُ والأسوارُ، والجبالُ والأشجارُ وغيرُها بمثابةِ كاميراتِ فيديو لله تعالى تسجِّلُ علينا صُوَرَنا وكلامَنا وحركاتِنا وسَكَناتِنا، والجميلُ في هذا الأمرِ أنّها لا تُسجِّلُ أعمالَنا الظاهرةَ فقطْ، وإنّما تسجِّلُ نوايا القلوبِ أيضًا،

---

(١) WWW.medigus.com. On 8th January 2011.

وستَعرِضُ فيلمَ حياتِنا هذا كلَّه يومَ القيامة حين يَأمُرُها اللهُ تعالى بعَرْضِه، وسيكونُ هذا العَرضُ لأحوالِنا كلِّها على شاشاتٍ كبيرةٍ في الحشر.

تسريبات ويكي ليكس

هذه واقعةٌ عجيبةٌ وغريبةٌ حَدَثت في عام ٢٠١٠م، إذ إنّ رؤساءَ الدُّولِ المختلفةِ وسُفَراءها وزُعماءها السياسيِّينَ يتحدَّثونَ فيما بينَهم بأحاديثَ سِرِّيّة يكتُبُها الدِّبلوماسيُّونَ ثم يُرسلونَها إلى حكوماتِهم، فجاء السيِّدُ جُوليان أسانج (Julian Assange) مؤسِّسُ ويكي ليكس وكشَفَ عن هذه الأسرارِ على شبكةِ الإنترنيت «شبكة المعلوماتِ الدَّولية»، وهو ما أثار ضجّةً واسعةً في العالَم، وحَرَّم النَّومَ على كثيرٍ من الزُّعماءِ الكبار، وجَعَلهم يندَمونَ، ويتمنَّوْنَ لو لم يتحدَّثوا بمِثل هذه الأحاديث.

والآنَ ظَهَرت تسريباتُ ويكي ليكس، ظَهَرت في شكلِها المكتوبِ فقط، فأُصيبَ الزُّعماءُ بهَلَعٍ شديد، فماذا يا تُرى سيكونُ حالُهم عندَما يَظهَرُ شهودٌ على كلِّ هذا، وتُنشَرُ التسجيلاتُ المصوَّرةُ أيضًا فيما بعدُ؟

والآنَ، تعالَ بنا بعيدًا عن هؤلاءِ القادة نَنظُرْ في أنفسِنا، هل فكَّرنا أبدًا ذاتَ يوم أنّنا عندَما نغتابُ أحدًا ونحن جالسونَ في حُجرةٍ مغلقة، أو نقومُ بعمل خاطئ، أنّ الملائكةَ تقومُ بتدوينِ كلِّ حركةٍ نتحرَّكُها، وكلِّ كلمةٍ نقولُها في صحيفةِ أعمالِنا، وتصبحُ أيدينا وأرجُلُنا شُهَداءَ علينا، وتُسجِّلُ هذه الجُدرانُ والأسوارُ كلَّ ما يحدُثُ مصوَّرًا، ثم يُقدِّمُ هؤلاءِ الشُّهودُ الثلاثةُ يومَ القيامة لإقامةِ الحُجّة، حتى لا يكونَ هناك اعتراضٌ لمعترِض.

إنّ ما نفعَلُه نحن اليومَ بعيدًا عن الأعيُنِ سيُعرَضُ كلُّه يومَ القيامة في صورةِ صحيفةِ الأعمال، ثم ستَشهَدُ الأيدي والأرجُلُ، وبعدَها يُعرَضُ التسجيلُ المصوَّر، والذي سيَراه آباؤنا وأجدادُنا وأساتذتُنا وتلاميذُنا وأهلُ مدينتِنا وأصدقاؤنا وأعداؤنا. اليومَ أَخْجلَ ويكي ليكسَ الناسَ لا أكثرَ، ولكنْ ماذا سيكونُ الحالُ عندَما تُكشَفُ الحقائقُ يومَ القيامة؟

يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضيَ اللهُ عنهما: كنتُ معَ رسولِ الله ﷺ، فجاءه رجلٌ من الأنصارِ فسَلَّم على النّبيِّ ﷺ ثمّ قال: يا رسولَ الله، أيُّ المؤمنينَ أفضل؟ قال: «أحسَنُهم خُلُقًا». قال: فأيُّ المؤمنين أكيَسُ؟ قال: «أكثرُهم للموتِ ذِكرًا وأحسَنُهم لِما بعدَه استعدادًا، أولئك الأكياس»[1].

وليس معنى هذا الحديثِ أن يَحمِلَ الإنسانُ مِسبحةً ويبدَأَ في ترديدِ وِرْد «يا موتُ، يا موت» كلَّ يوم، وإنّما الهدفُ منه هو أن يَذكُرَ الإنسانُ الموتَ قبلَ إقدامِه على القيام بأيِّ عمل، بمعنى: ألن يُصبحَ هذا العمَلُ الذي سيقومُ به مصيبةً له عندَما يُكشَفُ عنه يومَ القيامة أمامَ الناسِ جميعًا؟ ولهذا ينبغي لكلِّ إنسانٍ أن يخافَ من ذلك اليوم لن يكونَ فيه تسريباتٌ للحقائقِ كتسريباتِ ويكي ليكسَ فقطْ، وإنّما سيُكشَفُ عن الحقائقِ نفسِها.

ما الحكمة من كشف الأعمال أمام الجميع؟

سيَرى الناسُ جميعًا يومَ القيامة كيف كان سيّدُنا بلالٌ رضي الله عنه يؤْذَى، وكيف كان أبو جَهْل يَظلِم، وبعدَ أن يشاهدَ الناسُ جميعًا هذا الأمرَ سيَدخُلُ سيّدُنا بلالٌ الجنةَ، ويَدخُلُ أبو جَهْل جهنَّمَ، عندَئذٍ لن يبقَى عندَ أحدٍ مجالٌ لاعتراضٍ أو شكٌّ أو شُبهةٌ.

---

(١) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ٣١ برقم ٤٢٥٩.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾

٦ ـ هنا تنبيهٌ لكلِّ إنسانٍ بأنّ كلَّ حسَنةٍ يعمَلُها مهما كانت صغيرةً ولو بقَدْرِ ذَرّة، وكلَّ سيّئةٍ يرتكبُها مهما كانت صغيرةً ولو بقَدْرِ ذَرّةٍ يتمُّ تسجيلُها، وستُعرَضُ كلُّها أمامَ الجميع، ولهذا لا تَستصغِروا ذنبًا أبدًا؛ لأنّ مُستصغَرَ النارِ قد يَحرِقُ البيتَ كلَّه أحيانًا، وكذلك لا تُحقِّروا من الحسَناتِ شيئًا؛ لأنّ جُرعةَ ماءٍ قد تُنقذُ حياةَ إنسانٍ أحيانًا.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو ذَرٍّ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال له: «لا تَحقِرَنَّ من المعروفِ شيئًا ولو أن تَلْقى أخاك بوَجْهٍ طَلْقٍ»[١]، ويقولُ سيّدُنا أبو ذَرٍّ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «تبسُّمُك في وَجْهِ أخيك لك صَدَقةٌ»[٢].

ـ يقولُ سيّدُنا عَدِيُّ بنُ حاتم رضي الله عنه: ذَكَر النبيُّ ﷺ النّارَ، فتعوَّذَ منها وأشاحَ بوجهِه، ثمّ ذَكَر النّارَ، فتعوَّذَ منها، وأشاحَ بوجهِه... ثمّ قال: «اتَّقوا النّارَ ولو بشِقِّ تمرةٍ، فإنْ لم تَجِدْ فبكلمةٍ طيّبةٍ»[٣]، وفي بداية هذا الباب يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «الكلمةُ الطّيّبةُ صَدَقةٌ»[٤]، ويقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ الصَّدقةَ لَتُطفئُ غَضَبَ الرّبِّ وتدفَعُ مِيتةَ السُّوء»[٥]، ويقولُ سيّدُنا معاذُ بنُ جَبَل رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «والصَّدَقةُ تُطفئُ الخطيئةَ كما يُطفئُ الماءُ النّارَ»[٦].

---

(١) مسلم، كتاب البر، باب ٤٣ برقم ٦٦٩٠.
(٢) الترمذي، أبواب البر، باب ٣٦ برقم ١٩٥٦.
(٣) البخاري، كتاب الأدب، باب ٣٤ برقم ٦٠٢٣.
(٤) البخاري، كتاب الأدب، باب ٣٤.
(٥) الترمذي، أبواب الزكاة، باب ٢٨ برقم ٦٦٤.
(٦) الترمذي، أبواب الإيمان، باب ٨ برقم ٢٦١٦.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال لأصحابِه: «إنّكم في زمانٍ مَن تَرَكَ منكم عُشْرَ ما أُمِر به هَلَك، ثمّ يأتي زمانٌ من عَمِل منهم بعُشرِ ما أُمِر به نَجا»(١).

وهذا الحديثُ بمثابة شُعاع من الأملِ لأولئك الذين وَفَّقهم اللهُ تعالى بدرجةٍ أو بأخرى إلى العمَل بدِينِه، فعليهم أنْ لا يَستصغِروا عمَلَهم، ولا يترُكوه، وألّا يَقَعوا فريسةً لخِداع الشّيطان، فمَن يدري أيُّ عملٍ من أعمالِنا يُحبُّه اللهُ ويَقبَلُه، فيُحقِّقَ آمالَنا، وخاصةً في العصرِ الحاضرِ الذي يزيدُ فيه الرُّكونُ إلى السَّلبية، وسيكونُ أجرُ الحسَناتِ عظيمًا مثلَما يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه، من أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَن تمسَّك بسُنَّتي عندَ فسادِ أُمّتي، فله أجرُ مائةِ شهيدٍ»(٢).

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
وقتَ الضُّحى من يوم الخميس ٦ يناير ٢٠١١م
الموافق الأولَ من صَفَر ١٤٣٢هـ.

هذا، وقدِ اكتَملَ بفَضْل الله تعالى وكرَمِه تفسيرُ سُورة «الزَّلزَلة» اليومَ في عدّةِ ساعات، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

❋ ❋ ❋

(١) الترمذي، أبواب الفتن، باب ٧٩ برقم ٢٢٦٧.
(٢) مشكاة المصابيح، كتاب الإيمان، باب ٥: الفصل الثاني برقم ١٧٦.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١٠٠) سُورَةُ العَادِيَاتِ

هذه السُّورةُ مكِّيّة، واسمُها: «العادِياتُ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى منه.

الإنسان في غاية الجحود

في الجزءِ الأوّل من هذه السُّورةِ ـ بعدَ أن بَيَّن اللهُ تعالى بعضَ أحوالِ خُيول المجاهدين ـ بَيَّن نقاطَ الضَّعفِ العامِّ عندَ الإنسانِ بأنه في غايةِ الجحود، وهذا ليس ادّعاءً يحتاجُ لإثباتِه دليلًا خارجيًّا، وإنّما يشهَدُ عليه عمَلُه بشكل عامٍّ، وهو أنّ الإنسانَ قد أعماهُ حُبُّه للمالِ إلى درجةِ أنه لم يَعُدْ يُبالي بالمتفضِّل الحقيقيِّ عليه، وانهمَكَ في جَمْع المالِ دونَ تمييزٍ بينَ الحلالِ والحرام.

تذكروا يوم القيامة

في الجزءِ الأخيرِ من هذه السُّورةِ تنبيهٌ للإنسانِ الجاحدِ بأنْ يتذكَّرَ ذلك اليومَ الذي ستُكشَفُ فيه كلُّ أحوالِه: الظاهرةِ والباطنة، وسوف يتقرَّرُ إثابتُه وعقابُه طبقًا لها.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة الفجر من يوم الجمُعة ٧ يناير ٢٠١١م
الموافق ٢ صَفَر ١٤٣٢هـ.

سُورَةُ العَادِيَاتِ (١٠٠)،

مكية (١٤)، آياتها (١١)، ركوعها (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾

١ ـ الخيولُ التي كان المجاهِدونَ يمتَطُونَها في جهادِهم مباركةٌ إلى درجةِ أنّ اللهَ تعالى أَقْسم بأحوالِها المختلفة، يعني: أنّها حينَ تَجري مُسرعةً، يَصدُر من صَدْرِها صوتُ تعالي أنفاسِها، وحين تَضربُ بحوافرِها في الأرضِ الصَّلْدة يخرُجُ الشَّررُ منها، وحين تحمِلُ على العدوِّ في الصَّباح الباكرِ بَغْتةً تخترقُ صفوفَ العدوِّ، ويتطايرُ من الأرضِ الغبارُ والتّراب.

لو أنّ هذه الخيولَ التي تُستعمَلُ في الجهادِ مباركةٌ إلى الحدِّ الذي يُقسمُ اللهُ تعالى بها، فلكَ أن تتصوَّرَ مكانةَ المجاهدينَ أنفسِهم ومقامَهم عندَ الله تعالى، وهمُ الذين يَنزِلونَ إلى ميدانِ الجهاد واضعينَ أرواحَهم على أكُفِّهم.

واليومَ، تُستعمَلُ الدَّباباتُ والطائراتُ والآلاتُ العسكريّةُ الأُخرى في حمايةِ الأوطان والأُمم بَدلًا من الخُيول، وهذه كلُّها مباركةٌ تمامًا مثلَما كانت الخُيولُ مباركةٌ في ذلك العصر.

ـ يقولُ سيّدُنا عُقبةُ بنُ عامر رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ اللهَ لَيُدخِلُ بالسَّهم الواحدِ الثّلاثةَ الجنّةَ:

١ ـ صانعَه يحتسبُ في صنعتِه الخيرَ.

٢ ـ والرّاميَ به.

٣ ـ والمُمِدَّ به»[1].

في ذلك العصرِ كان السَّهمُ من أكثرِ الأسلحةِ الفتّاكة، ولهذا شاركَ النبيُّ ﷺ في تدريباتِ الرَّمي بالسِّهام، ورَغَّب المسلمينَ الآخَرينَ في ذلك، مثلَما يقولُ سيّدُنا الأكوَعُ رضي الله عنه: مَرَّ النّبيُّ ﷺ على نَفَرٍ من أَسْلمَ ينتَضِلُونَ، فقال النّبيُّ ﷺ: «ارموا بني إسماعيل، فإنّ أباكم كان راميًا، ارموا وأنا معَ بني فلانٍ». قال: فأمسَكَ أحدُ الفريقَيْنِ بأيديهم. فقال رسولُ الله ﷺ: «ما لكم لا ترمُونَ؟»، قالوا: كيف نرمي وأنت معَهم؟ قال النّبيُّ ﷺ: «ارموا، فأنا معَكم كلِّكم»[2].

أَخْلُصُ ـ من الاستشهاداتِ المذكورةِ من القرآنِ الكريم والحديثِ الشَّريف ـ إلى نتيجةٍ أنّ صناعةَ الأسلحةِ من أَجْل حمايةِ الوطن والأُمّة، والتدريبِ على استعمالِها، والإسهامَ ماليًّا أو عَمَليًّا في كلٍّ ما يتعلَّقُ بها سببٌ في دخولِ الجنةِ وفَرْضُ كفاية، ويصبحُ فَرْضَ عَيْنٍ في حالةِ اشتدادِ الضَّرورة.

---

(١) ابن ماجه، أبواب الجهاد، باب ١٩ برقم ٢٨١١.

(٢) البخاري، كتاب الجهاد، باب ٧٨ برقم ٢٨٩٩.

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ﴾

٢ ـ في هذه السُّورةِ جاء بيانٌ لنقاطِ الضَّعفِ العامِّ لدى بني الإنسان، وقد أَقْسم اللهُ تعالى خمسَ مراتٍ مؤكِّدًا تمامَ التأكيد على أنّ الإنسانَ في غايةِ الجحودِ لربِّه، وهذا ليس ادّعاءً يحتاجُ لإثباتِه دليلًا خارجيًّا، وإنّما يَشهَدُ عليه عمَلُه بشكلٍ عامٍّ، وهو أنّ الإنسانَ قد أعمَاه حُبُّه للمالِ إلى درجةِ أنه لم يَعُدْ يبالي بالمتفضِّل الحقيقيِّ عليه، وانهَمَكَ في جَمْع المالِ دون تمييزٍ بينَ الحلالِ والحرام.

الخيولُ لم يَخلُقْها الإنسان، وإنّما كلُّ ما يفعَلُه هو أنه يُهيّئُ لها العَلَفَ والماءَ، وفي مقابِل ذلك فإنّها مُطيعةٌ للإنسانِ إلى درجةِ أنها تُعرِّضُ أرواحَها للخطر، وتخترقُ صفوفَ الأعداء، وتُسرعُ إلى حيث يوجِّهُها صاحبُها، وتَثبُتُ في مواجهةِ الأعداء رَغْم أمطارِ الرِّماح التي تتطايَرُ من فوقِها، وعلى العكسِ منها انظُرْ إلى الإنسان، خَلَقَه اللهُ تعالى من قطرةِ ماءٍ مَهِين، وأَنْعم عليه بالعقل والشُّعورِ بحيث يُسخِّرُ الحيَواناتِ كلَّها، لكنّه معَ ذلك لا يؤدِّي شُكرَ الله تعالى.

﴿أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ﴾

٣ ـ ألا يعلمُ ذلك الشَّخصُ الذي يَغفُلُ اليومَ عن المتفضِّل الحقيقيِّ عليه، وينهَمِكُ في عصيانِه، أنه عندَما يُبعَثُ من قبرِه يومَ القيامة، ويوقَفُ في ميزانِ العدل، ويُكشَفُ أمامَ الجميع عن كلِّ النِّفاقِ الذي يُخفيه في قلبِه، أين يمكنُه إخفاءُ وجهِه عندَئذٍ، ومن سيُجيرُه؟

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ﴾

٤ ـ رَغْمَ أنّ اللهَ تعالى يَعلمُ اليومَ أيضًا تمامَ العِلم كلَّ أحوالِ الناس، ولكنّهُ

اليومَ يعفو كثيرًا، وقد سَتَر ذنوبَ الإنسانِ كثيرًا، وفي هذه الآيةِ تنبيهٌ للإنسانِ الجاحد بأنْ يرجِعَ عن عصيانِه وإلّا فمَن يُنقذُه يومَ القيامةِ عندَما يَكشِفُ عن كلِّ أحوالِه الظاهرةِ والباطنة؟

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم
وقتَ الإشراق من يوم الجمُعة ٧ يناير ٢٠١١م
الموافق ٢ صَفَر ١٤٣٢هـ.

هذا، وقدِ اكتَمل بفَضل الله تعالى وكرَمِه تفسيرُ سُورة «العاديَات» اليومَ في ساعتَيْنِ تقريبًا، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

❋ ❋ ❋

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠١) سُورَةُ القَارِعَةِ

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها: «القارعةُ»، وهو أولُ لفظٍ في السُّورة.

في الآياتِ الخمسِ الأولى من هذه السُّورةِ ذُكِرتِ المرحلةُ الأُولى من القيامة، عندَما يَنفُخُ سيّدُنا إسرافيلُ عليه السَّلامُ في الصُّور للمرّةِ الأُولى، ويَختَلُّ نظامُ الكائنات.

وفي الآياتِ الستِّ الأخيرةِ من هذه السُّورة ذُكِرتِ المرحلةُ الثانيةُ من القيامة، عندَما يَنفُخُ سيّدُنا إسرافيلُ عليه السَّلامُ للمرةِ الثانية في الصُّور، ويُبعَثُ الناسُ من قبورِهم أحياءً ليَصِلوا إلى ميزانِ العدل.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة المغرب من يومِ الجمُعة ٧ يناير ٢٠١١م
الموافق ٢ صَفَر ١٤٣٢هـ.

* * *

سُورَةُ القَارِعَة (١٠١)،

مكية (٣٠)، آياتها (١١)، ركوعها (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾

١ ـ القارعةُ: اسمٌ من أسماءِ القيامةِ أيضًا، وهنا سؤالٌ لبيانِ شِدّتِه، أي: ما الذي يَعرِفُه الناسُ عن القيامة، إلى أيِّ مدًى ستكونُ شِدّتُها؟ يعني: أنّ الناسَ لا يستطيعونَ تصوُّرَ شِدّتِها؛ لأنه لم يَحدُثْ مِثلُها من قبلُ في الحياةِ الدنيا، بحيث يمكنُ أن يَتِمَّ بيانُ شِدّةُ القيامةِ قياسًا بها.

﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾

٢ ـ عندَما ينفُخُ سيّدُنا إسرافيلُ عليه السَّلامُ في الصُّورِ للمرةِ الأولى، ويبدَأُ نظامُ الكائناتِ في الاختلال، ستُصيبُ الناسَ عندَئذٍ دهشةٌ عظيمة، وسيُسقَطُ في أيديهم، وسيُهَروِلونَ هاربينَ هنا وهناك مثلَ الفراشاتِ التي تتساقطُ فوقَ المصباح، وتتفتَّتُ الجبالُ وتتطايَرُ في الفضاءِ كأنّها القُطنُ المُلوَّنُ المنفوش.

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾

٣ ـ في الآياتِ الخمسِ الأُولى جاء بيانُ المرحلةِ الأُولى من القيامة، عندَما تفنَى الكائناتُ، ومِن هذه الآيةِ وحتى آخِرِ السُّورة جاء ذِكرُ المرحلةِ الثانيةِ من القيامة، حين يُبعَثُ الناسُ أحياءً ثانيةً ليَصِلوا إلى ميزانِ العدل، وتوزَنَ أعمالُهم، فمَن كانت حسَناتُه أكثرَ من سيّئاتِه، ثَقُلت كِفّةُ حسَناتِه في الميزان، ويُنعِمُ اللهُ تعالى عليه بحياةٍ يطمئنُّ بها ويرضى عنها.

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾

٤ ـ وأمّا من غَلَبت سيّئاتُه على حسَناتِه، يعني: أنّ كِفّةَ ميزانِ حسَناته تصبحُ خفيفةً، فإنه سيُلقَى به في حُفرةٍ في جهنَّم، واسمُها: «الهاوية»، وهي نيرانٌ مشتعلة.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة المغرب من يوم الجمُعة ٧ يناير ٢٠١١م
الموافق ٢ صَفَر ١٤٣٢هـ.

هذا، وقدِ اكتَمل بفَضْل الله تعالى وكرَمِه تفسيرُ سُورة «القارعة» اليومَ في ساعةٍ واحدةٍ تقريبًا، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

❊ ❊ ❊

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١٠٢) سُورَةُ التَّكَاثُرِ

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها: «التكاثُرُ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى منها.

الهوس بجمع المال

في هذه السُّورة تنبيهٌ لعُبّادِ المال والثَّروةِ بأنّ المالَ والثّروةَ قد أغفَلاكم عن الآخِرة، لكنَّكم ستتأكَّدونَ بمجرَّدِ موتِكم من هذا الأمر، ولن تنفعَكم أموالُكم ولا ثَرَواتُكم هذه بشيءٍ، ليتَكم عرَفتُم هذه الحقيقةَ على وَجْه اليقين حالَ كونِكم في هذه الدنيا، ولم تَغفُلوا عن الآخِرة، لَكان ذلك خيرًا لكم.

النعم ابتلاء للإنسان واختبار له

يجبُ على الإنسانِ أن يُفكِّرَ بأنّ النِّعَمَ التي يتكبَّرُ اليومَ مغترًّا بها، ولا يُبالي بالآخَرينَ بسببِها، إنّما هي ـ في الأصل ـ ابتلاءٌ للإنسانِ واختبارٌ له، وسوف يُسأَلُ عن كلِّ نعمةٍ منها ويحاسَبُ عليها.

فضل سورة التكاثر

ـ يقولُ سيِّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «ألا يستطيعُ

أحدُكم أن يقرأَ ألفَ آيةٍ في كلِّ يومٍ؟»، قالوا: ومن يستطيعُ ذلك؟ قال: «أمَا يستطيعُ أحدُكم أن يقرَأَ ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾؟»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا جَريرُ بن عبدِ الله رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّي قارئٌ عليكم سُورةَ ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾»، فمَن بكَى فقد دَخَل الجنّة»، فقرَأَها، فمنّا مَن بكَى ومنا من لم يَبكِ، فقال الّذين لم يَبكُوا: قد جَهِدْنا يا رسولَ الله أن نَبكيَ فلم نَقدِرْ عليه، فقال: «إنّي قارئُها عليكمُ الثّانيةَ، فمَن بكَى فله الجنّة، ومن لم يَقدِرْ أن يبكيَ فلْيتباكَ»[٢].

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة العشاء من يوم الجمُعة ٧ يناير ٢٠١١م
الموافق ٢ صَفَر ١٤٣٢هـ.

* * *

---

(١) المستدرك للحاكم، ١: ٧٥٥ برقم ٢٠٨١.

(٢) تفسير الدر المنثور، سورة التكاثر (١٠٢): ٨: ٦١٠.

سُورَةُ التَّكَاثُرِ (١٠٢)،

مكية (١٦)، آياتها (٨)، ركوعها (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾

١ ـ يعني: أنّ الهَوَسَ بجَمْع المالِ والثَّروة، والتفاخُرَ بهما، قد أغفَلاكم عن الآخِرة، وكانت نتيجتَه أنّكمُ انهَمَكتُم في جَمْع المال دونَ التمييزِ بينَ الحلالِ والحرام، إلى أن جاءكمُ الموتُ ووارَتْكم قبورُكم.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «يقولُ العبدُ: مالي مالي، إنّما له من مالِه ثلاثٌ: ما أكَل فأفنَى، أو لبِسَ فأبلَى، أو أعطَى فاقتنَى، وما سوى ذلك فهو ذاهبٌ وتاركُه للنّاس»[1].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: إنه سَمِع النبيَّ ﷺ يقولُ:

---

(١) مسلم، كتاب الزهد، باب ١ برقم ٧٤٢٢.

«لو كان لابنِ آدمَ واديانِ من مالٍ لَابتغَى ثالثًا، ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدمَ إلّا التّرابُ، ويتوبُ اللهُ على مَن تاب»[1].

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

٢ ـ يعني: أنّ المالَ والثروةَ التي تتفاخَرونَ بها هي ـ في الحقيقة ـ لا تستحِقُّ أن يَفخَرَ بها، وما أنْ يأتيَكم الموتُ، وتُواريكم قبورُكم، حتى تَعرِفوا أضرارَ هذا الهَوَس بجَمْع المال، وأضرارَ تفاخُرِكم به.

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾

٣ ـ ستعلمونَ بعدَ موتِكم أنّكم أخطَأْتُم خطأً جَسِيمًا بغَفْلَتِكم عن الآخِرة، ولكنّ الاعترافَ بالخطأِ في ذلك الوقتِ لن يُفيدَكم بشيءٍ على وجهِ القَطْع، ليتَكم عرَفتُم اليومَ على وجهِ اليقين هذه الحقيقةَ، ولم تَغفُلوا عن الآخِرة، لَكان ذلك خيرًا لكم.

﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾

٤ ـ سيَدخُلُ المتكبِّرونَ والمتفاخِرونَ بالثروة، والغافلونَ عن الآخِرة جهنَّمَ، وسوف يُعرَضُ عليهم الجزءُ الأوّلُ من عذابِ جهنَّمَ في قبورِهم، أمّا في الآخِرة فسيرَوْنَ بعَيْنِ اليقين جهنَّمَ وبشكلٍ كامل.

﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾

٥ ـ أَنْعم اللهُ تعالى على الإنسانِ بنِعَمٍ لا تُعَدُّ ولا تُحصى، مثلَ: الأعيُنِ والآذانِ والأموالِ والثَّرواتِ والأولادِ وغيرِها، وسوف يَسأَلُهم يومَ القيامةِ عن

---

(١) البخاري، كتاب الرقاق، باب ١٠ برقم ٦٤٣٦.

كلِّ هذه النِّعم؛ مَن منَ الناسِ استعمَل هذه النِّعَم طبقًا لأحكام الله تعالى، ومَن منَ الناسِ لم يُقدِّرْها حقَّ قَدْرِها، مثلَما يقولُ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

- يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «لا تَزولُ قَدَما ابنِ آدمَ يومَ القيامة من عندِ ربِّه حتّى يُسأَلَ عن خمسٍ:

١ - عن عُمُرِه فيما أفناهُ (أي: في الخيرِ أم في الشرِّ)؟

٢ - وعن شبابِه فيما أبلاه (أي: في الخيرِ أم في الشرِّ)؟

٣ - وعن مالِه مِن أين اكتَسَبه (أي: من حلالٍ أم من حرام)؟

٤ - وفيما أنفَقَه (أي: في أعمالِ الخيرِ أم في أعمال الشرِّ)؟

٥ - وماذا عَمِل فيما عَلِم (أي: كم عَمِل بهذا العلم؟)»[1].

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة العشاء من يوم الجمُعة ٧ يناير ٢٠١١م
الموافق ٢ صَفَر ١٤٣٢هـ.

هذا، وقد اكتَملَ بفَضْل الله تعالى وكرمِه تفسيرُ سُورة «التكاثُر» اليومَ في ساعةٍ ونصفٍ تقريبًا، وهكذا اكتَملَ اليومَ تفسيرُ ثلاثِ سُوَرٍ هي: سُورة «العاديات»، وسُورة «القارعة»، وسُورة «التكاثر»، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيِّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

(١) الترمذي، أبواب القيامة، باب ١ برقم ٢٤١٦.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٣) سُورَةُ العَصْرِ

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها: «العَصْرُ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأولى منها.

في هذه السُّورةِ جاء بيانٌ لعقائدِ الإسلام الأساسيّة، وكذا الأعمالُ والمعامَلاتُ البَيْنيّةُ بأسلوبٍ مختصَرٍ وجامع، ولهذا قال الإمامُ الشافعيُّ: إنّ هذه السُّورةَ جامعةٌ لعلوم القرآنِ المَجيدِ كلِّها.

فضل سورة العصر

ـ يَروي الإمامُ الطَّبرانيُّ، عن عُبيدِ الله بن حِصْن، أنه قال: «كان الرّجُلانِ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ إذا التَقَيا، لم يتفرّقا إلّا على أن يَقرَأَ أحدُهما على الآخَرِ «سورةَ العَصْر» إلى آخِرِها، ثمّ يُسلِّمُ أحدُهما على الآخَر»[١].

ـ يقولُ الإمامُ الشافعيُّ: «لو لم يَنزِلْ غيرُ هذه السُّورةِ لَكَفتِ الناسَ؛ لأنها شمِلت جميعَ علوم القرآن»[٢].

---

(١) تفسير ابن كثير، سورة العصر (١٠٣).

(٢) تفسير روح المعاني، سورة العصر (١٠٣).

ـ يقولُ الإمامُ الشافعيُّ: «لو تَدبَّر النّاسُ هذه السُّورةَ، لَوَسِعَتْهم»[١].

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة الفجر من يوم السبت ٨ يناير ٢٠١١م
الموافق ٣ صَفَر ١٤٣٢هـ.

❋ ❋ ❋

(١) تفسير ابن كثير، سورة العصر (١٠٣).

سُورَةُ العَصرِ (١٠٣)،

مكية (١٣)، آياتها (٣)، ركوعها (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾

﴿وَٱلْعَصْرِ﴾

١ - بيَّن المفسِّرونَ أقوالًا عديدةً فيما يتعلَّقُ بكلمةِ «العَصْر»، وأكتفي هنا ببيانِ اثنَيْنِ منها:

١ - المرادُ بالعَصْر عصرُ النبيِّ ﷺ:

يقولُ العلّامةُ فَخْرُ الدِّين الرازي: «﴿وَٱلْعَصْرِ﴾، أي: والعصرِ الّذي أنتَ فيه، فهو تعالى أَقْسم: بزمانِه في هذه الآية، وبمكانِه في قوله: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البلد: ٢]، وبعُمرِه في قولِه: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ [الحجر: ٧٢]، فكأنّه قال: وعصرِك وبلدِك وعمُرِك، وذلك كلُّه كالظّرفِ له، فإذا وَجَب تعظيمُ حالِ الظّرفِ فقِسْ حالَ المظروف»[1]. ويُعلَمُ منه أنه كما أنّ حياتَك أفضَلُ من حياةِ الناسِ جميعًا، كذلك عصرُك أفضَلُ من جميع العصورِ أيضًا.

---

(١) التفسير الكبير، سورة العصر (١٠٣): الآية ١.

يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «خيرُ أُمّتي القَرْنُ الّذين بُعِثتُ فيهم ثمّ الّذين يَلُونَهم»[١].

٢ ـ المرادُ بالعَصْرِ الزَّمنُ:

الزَّمنُ يسيرُ بسُرعتِه المحدَّدةِ له بشكلٍ مستمرٍّ، ويَنقُصُ من أعمارِنا في كلِّ لحظة، فإذا ضاعتْ أيُّ لحظةٍ من العمُرِ في عمَلٍ خاطئٍ، وتمنَّى صاحبُها لو عادت هذه اللحظةُ ثانيةً، فلا يُضيِّعُها في عملٍ خاطئ، فإنّ هذا ليس من الممكنِ قطعًا، ولهذا على الإنسانِ قبلَ أن يُقْدمَ على أيِّ عمل أن يفكِّرَ جيِّدًا حتى لا يَندَمَ فيما بعدُ.

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي الله عنهما: أخَذ رسولُ الله ﷺ بمَنكِبي فقال: «كنْ في الدّنيا كأنّك غريبٌ، أو عابرُ سَبيلٍ». وكان ابنُ عُمرَ يقولُ: إذا أمسَيْتَ فلا تنتظرِ الصّباح، وإذا أصبحتَ فلا تنتظرِ المساءَ (فمَن يدري في أيِّ وقتٍ يأتيه الموت)، وخُذْ من صحّتِك لمرضِك، ومن حياتِك لموتِك[٢].

ـ أيها النائمونَ، اسجُدوا لربِّكم قبلَ أن تناموا، فمن يدري، تنهَضُونَ صباحًا أم لا.

ـ ومَن يدري، هل سيَطلُعُ الصَّباحُ أم لا، وإذا طَلَع ستكونُ أنت تحتَ التراب.

يقولُ أهلُ العلم: إنّ حياةَ الإنسانِ ثلاثةُ أنفاس؛ نَفَسٌ مَرَّ ومضَى ولا يمكنُ أن يعود، ونَفَسٌ في المستقبَل ولا يستطيعُ أحدٌ أن يضمَنَ إن كان سيأتي أم أنّ مِصباحَ حياتِه سينطفئُ قبلَ أن يأتيَ، ولهذا فإنّ حياةَ الإنسانِ في الحقيقة هي ذلك النَّفَسُ الذي يعيشُه الإنسانُ في لحظتِه الحاليَّة، وينبغي له أن يُقدِّرَ هذا النَّفَسَ حقَّ قَدْرِه، وألا يرتكبَ فيه أيَّ خطأٍ:

ـ أيُّها الغافلُ، إنّ كلَّ ساعةٍ تنادي، لقد أنقَصَ الفَلَكُ (الله) من العمُرِ ساعةً.

---

(١) مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب ٥٢ برقم ٦٤٧٣.

(٢) البخاري، كتاب الرقاق، باب ٣ برقم ٦٤١٦.

وهناك مَثَلٌ إنجليزيٌّ يقول: الأمسُ (الماضي) أصبح تاريخًا، والغَدُ (المستقبَل) لُغزٌ، واليومُ (الحاضر) هديّةٌ، ولهذا يقالُ له في الإنجليزية (present)، ومن معاني هذا اللفظ أيضًا (الهديَّة)[١].

ويَنقُلُ العلّامةُ فخرُ الدِّين الرازي في تفسيرِ هذه الآيةِ قولًا حكيمًا لأحدِ السَّلف: «تعلَّمتُ معنى السُّورة من بائع الثّلج، كان يَصيحُ ويقول: ارحَموا مَن يذوبُ رأسُ مالِه، ارحَموا مَن يذوبُ رأسُ ماله، فقلتُ: هذا معنى: إنّ الإنسانَ لَفي خُسرٍ، يمُرُّ به العصرُ فيَمضي عمُرُه ولا يكتسبُ فإذا هو خاسرٌ»[٢]، يعني: مثلَما أنّ الثلجَ يذوبُ من نفسِه في فَصْل الصَّيف، كذلك تمضي حياةُ الإنسان، ومَن لم يستفِدْ منها في الوقتِ المناسب، وأنفَقَها في الأعمالِ الخاطئة، هو الذي يكونُ في خسارة، وإليك بعضَ الأقوالِ الحكيمةِ فيما يتعلَّقُ بالحياة:

١ - الحياةُ مِثلُ الآيسِ كريم، استمتعْ به قبلَ أن يذوب[٣].

٢ - الحياةُ مِثلُ ركوبِ دراجة، يجبُ على من يركبُها أن يواصلَ الحركةَ حتى يحفَظَ توازنَه[٤].

٣ - حتى إذا كنتَ على الطريقِ الصَّحيح فسيَدهَسُك المارَّةُ إذا بقِيتَ جالسًا[٥].

٤ - الحياةُ بدون سعي كمَن يَدخُلُ مَنجَمَ ذهبٍ ويَخرُجُ خاليَ الوِفاض[٦].

---

(١) "Yesterday is history, tomorrow is mystery and today is a gift. That is why it is called present".

(٢) التفسير الكبير، سورة العصر.

(٣) Life is like an ice cream, enjoy it before it melts.

(٤) Life is like riding a bicycle. To keep your balance you must keep moving.

(٥) Even if you are on the right track you will get run over if you just sit there.

(٦) Life without endeavor is like entering a jewel mine and coming out with empty hands.

٥ ـ نِمتُ ورأيتُ في الحُلُم أنّ الحياةَ كانت جميلةً، واستيقظتُ فوجَدتُ الحياةَ واجبًا[١].

٦ ـ إنك تعيشُ مرةً واحدة، ولكنْ إن عشتَها بشكلٍ صحيح فمرّةٌ واحدةٌ تكفي[٢].

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾

٢ ـ فترةُ الحياةِ كَنْزٌ ثمين، وأكثرُ الناسِ لا يُقدِّرونَها حقَّ قَدْرِها، ولهذا هم في خسارةٍ دائمًا.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾

٣ ـ في هذه الآية جاء بيانُ صفاتِ أولئك الذين لن يكونوا في خسارةٍ باعتبارِ الحياة، يعني: أنّ الذين يؤمنونَ بالله تعالى، ويعمَلونَ الصّالحاتِ، ويتواصَوْنَ فيما بينَهم بالحقِّ، وينصَحُ بعضُهم بعضًا بالصَّبرِ على المصاعبِ التي تُواجِهُهم في طريقِ الحقِّ، هؤلاءِ الناسُ سينجَحُونَ في امتحانِ الحياةِ ويُفلحونَ فيه.

والصِّفتانِ الأُولَيانِ تتعلَّقانِ بالحياةِ الفَرْديّة، أمّا الصِّفتانِ الأُخرَيانِ فتتعلَّقانِ بالحياةِ الاجتماعيّة، وذلك حتى يعيشَ المجتمعُ كلُّه في أمنٍ وأمانٍ واطمئنان.

ـ يقولُ سيِّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي الله عنهما: إنه سَمِع النبيَّ ﷺ يقولُ: «كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسئولٌ عن رعيّتِه، الإمامُ راعٍ ومسئولٌ عن رعيّتِه، والرّجلُ راعٍ

---

(١) I slept and dreamed that life was beauty, I awoke and found that life was duty.

(٢) You only live once, but if you work it right, once is enough.

في أهلِه وهو مسئولٌ عن رعيّـتِه، والمرأةُ راعيةٌ في بيتِ زوجِها ومسئولةٌ عن رعيّتِها، والخادمُ راعٍ في مالِ سيّدِه ومسئولٌ عن رعيّتِه ـ قال: وحَسِبتُ أنْ قد قال ـ والرّجلُ راعٍ في مالِ أبيه ومسئولٌ عن رعيّتِه، وكلُّكم راعٍ ومسئولٌ عن رعيّتِه»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا صُهَيْبٌ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «عجبًا لأمرِ المؤمن، إنّ أمرَه كلَّه خيرٌ، وليس ذاك لأحدٍ إلّا للمؤمن، إن أصابَتْه سَرّاءُ شَكَر فكان خيرًا له، وإن أصابَتْه ضَرّاءُ صَبَر فكان خيرًا له»[٢]، ويقولُ أهلُ العلم: النِّعمةُ التي يَعقُبُها شكرٌ، والمصيبةُ التي يَعقُبُها صَبرٌ، كلاهُما (أي: النِّعمةُ والمصيبة) فضلٌ من الله تعالى، والنِّعمةُ التي يَعقُبُها تكبُّر، والمصيبةُ التي لا يَعقُبُها صبرٌ، كلاهما (النِّعمةُ والمصيبة) عذابٌ من الله تعالى.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة المغرب من يوم السبتِ ٨ يناير ٢٠١١م
الموافق ٣ صَفَر ١٤٣٢هـ.

هذا، وقدِ اكتَمل بفَضْل الله تعالى وكرَمِه تفسيرُ سُورة «العَصْر» اليومَ، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

* * *

(١) البخاري، كتاب الجمعة، باب ١١ برقم ٨٩٣.
(٢) مسلم، كتاب الزهد، باب ١٣ برقم ٢٩٩٩.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١٠٤) سُورَةُ الهُمَزَة

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها: «الهُمَزةُ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى منها.

في هذه السُّورةِ جاء ذَمُّ ذلك الثَّريِّ الذي يَنهمكُ في جَمْع المالِ وعَدِّه والاحتفاظِ به، بحيث لا يَتذكَّرُ الموتَ أصلًا، ويتصوَّرُ أنّ هذا المالَ سيبقَى عندَه إلى الأبدِ ولن يفنَى أبدًا، ومن علاماتِ هذا الشَّخصِ في الدُّنيا: أنه لا يُبالي بأيِّ شخصٍ مغترًّا بالمالِ والثَّروة، وينشغلُ بالطَّعن في الناسِ والبحثِ عن عيوبِهم، وسيُلقَى به يومَ القيامة في نارٍ تحيطُ به مِن كلِّ جانبٍ كأعمدةٍ طويلةٍ من النِّيران.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة العشاء من يوم السبت ٨ يناير ٢٠١١م
الموافق ٣ صَفَر ١٤٣٢هـ.

* * *

سُورَةُ الهُمَزَة (١٠٤)،

مكية (٣٢)، آياتها (٩)، ركوعها (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾

١ ـ يعني: سواءٌ طَعَن أحدٌ في شخصٍ أمامَه أم أخَذ يُنقِّبُ في عيوبِه من وراءِ ظهرِه، فهو ـ في الحالتَيْنِ ـ يستحِقُّ الهلاكَ والعذاب.

﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾

٢ ـ هذا الشَّخصُ يَهمِزُ ويَلمِزُ بسببِ التكبُّر، باعتبارِ أنه جَمَع مالًا كثيرًا، وينهمكُ في عدِّ المالِ وحسابِه إلى درجةٍ لا يَذكُرُ معَها الموتَ أصلًا، وفي نفسِ الوقت يتصوَّرُ أنّ هذا المالَ سيبقَى عندَه إلى الأبد، وأنه لن يفنَى أبدًا.

﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾

٣ ـ الشَّخصُ المتكبِّرُ والبخيلُ يظُنُّ أنّ هذا المالَ سيبقَى عندَه إلى الأبد،

وهذا سوءُ فَهْم كبيرٌ منه؛ لأنّ هذا من المستحيل أصلًا، بل إنه سيأتي يومَ القيامة بيدَيْنِ خاليتَيْنِ، وسوف يُلقَى به في وادي الحُطَمةِ في جهنَّم، وهو وادٍ مشتعلٌ بنار من الله تعالى لا تَحرقُ أجسادَ أهل جهنَّم فقطْ، وإنّما تَحرِقُ حتى قلوبَهم، وستُحيطُ بهم أعمدةٌ طويلةٌ من النارِ من كلِّ جانب، بحيثُ لا يستطيعونَ منها فرارًا.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة العشاء من يوم السبت ٨ يناير ٢٠١١م
الموافق ٣ صَفَر ١٤٣٢هـ.

هذا، وقدِ اكتَمل بفَضْل الله تعالى وكرَمِه تفسيرُ سُورة «الهُمَزة» اليومَ في ساعةٍ ونصفِ الساعةِ تقريبًا، وهكذا اكتَملَ تفسيرُ سورتَيْنِ، أي: «العَصْرِ» و«الهُمَزةِ» في يوم واحدٍ فقط، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيِّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

❊ ❊ ❊

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١٠٥) سُورَةُ الفِيلِ

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها: «الفِيل»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأولى منها.

قصة أصحاب الفيل

جاءتْ هذه القصّةُ تفصيلًا في كتُبِ التاريخ والتفاسير، وأنا هنا أُدرجُ خُلاصتَها:

عيَّن مَلِكُ الحبشة أَبْرهةُ حاكمًا على اليمن، ورَأى أَبْرهةُ أنّ أهلَ الجزيرةِ العربيّة يُقدِّسونَ بيتَ الله، ويَحُجُّونَ إليه كلَّ عام، وفي نفسِ الوقت يحمِلونَ معَهم البضائعَ بغَرَضِ التِّجارة، وهكذا يَستفيدُ أهلُ مكةَ من الناحيةِ الماليَّة، ويَلقَوْنَ الاحترامَ والتبجيلَ لكونِهم القائمينَ على خدمةِ بيتِ الله، فأقام أَبْرهةُ معبَدًا عظيمًا جميلًا (كنيسةً) في مدينةٍ خضراءَ جميلةٍ من مدُنِ اليمن هي صنعاءُ، حتى يتَخلَّى الناسُ عن الذَّهابِ إلى مكةَ المدينةِ الجَرْداءِ، ويترُكوا الكعبةَ المَبْنيَّة من الأحجارِ السَّوداء، ويَحُجُّو إلى معبدِ صنعاءَ هذا، وبذلك ترتفعُ مكانتُنا وتزدادُ ثروتُنا. وهكذا، أَرسَلَ أَبْرهةُ مُناديًا يُنادي في الجزيرةِ العربيّةِ كلِّها بأنّني (أي: أَبْرهةَ) قد بَنيْتُ لكم بيتًا جميلًا للعبادةِ في صنعاءَ، فحُجُّوا إليه، واستمتِعوا بطَقْسِ صنعاءَ اللطيف، ونحن سنُحسنُ ضيافتَكم، لكنّ الناسَ تجاهلوا بيتَ العبادةِ الذي بناه أَبْرهةُ، فتألَّم أَبْرهةُ لهذا كثيرًا، وأَقْسم لَيهدِمَنَّ الكعبةَ، وفي تلك الأثناءِ حدَثتْ

حادثةٌ، وهي: أنّ رجلًا من بني كِنانةَ قضَى حاجتَه ليلًا في بيتِ العبادةِ هذا، وكأنّ هذا كان بمثابةِ سَكْبِ الزّيتِ على النارِ المشتعلة، فأعلَن أَبْرهةُ حملتَه على الكعبةِ انتقامًا للإهانةِ التي تَعرَّض لها معبَدُه الذي أقامَه. واتَّجَه إلى مكةَ بصُحبةِ جيشٍ يبلُغُ تَعدادُه ستِّينَ ألفًا، ومعَه كتيبةٌ من الأفيالِ أيضًا، وكان أهلُ الجزيرةِ العربيّة متفرِّقينَ في قبائل، ويقيمونَ في مدُنٍ وقُرًى صغيرةٍ متناثرة، ولم يكونوا قد رأَوْا جيشًا عظيمًا كهذا من قبلُ، كما لم يكونوا قد رأَوا الفِيَلةَ من قبلُ أيضًا، ولهذا ما أنْ سَمِع أهلُ مكةَ بقدوم هذا الجيشِ حتى أصابَهم الخوفُ، ولم يجرُءوا على مواجهةِ الجيش. وعندَما اقتربَ جيشُ أَبْرهةَ من مكةَ قام جنودُه بنَهْبِ أنعام ومواشي أهلِ مكّةَ بغَرَض بثِّ الرُّعبِ في قلوبِهم، وكان من بَيْنِ ما نَهَبوه مائتا ناقةٍ لسيّدِنا عبدِ المطَّلب، واستَدعَى أبَرْهةُ سيّدَنا عبدَ المطَّلب سيّدَ مكةَ، وحين حَضَر سيّدُنا عبدُ المطَّلب عندَ أَبْرهةَ عظَّمَه أَبْرهةُ وأجَلَّه كثيرًا، وأَجْلسه بجانبِه قائلًا: لقد جئتُ لهَدْم الكعبةِ فقطْ، فإذا لم يقاوِمْني أهلُ مكةَ لن أتعرَّضَ لهم بالأذى، وإن قاوَموني سأُدمِّرُهم. ثم سألَ أَبْرهةُ سيّدَنا عبدَ المطَّلب: ألكَ رغبةٌ في شيء؟ فقال سيّدُنا عبدُ المطَّلب: لقدِ استولَى جنودُك على مئتَيْ ناقةٍ لي، فأعِدْها إليَّ. دَهِشَ أَبْرهةُ كثيرًا وقال: أتنزعجُ من أَجْل نياقِك ولا يُزعجُك هَدمُ الكعبة، وهي التي يحترمُكم الناسُ من أَجْلِها؟ فقال سيّدُنا عبدُ المطَّلب: أمّا النُّوقُ فهي لي، وأنا مسئولٌ عن حمايتها، وأمّا البيتُ فله ربٌّ يحميه.

بعدَ هذا الحوارِ عاد سيّدُنا عبدُ المطَّلبِ بنياقِه إلى مكةَ، وقال لأهلِها: اخرُجوا من مكةَ، والجَأوا إلى الجبال؛ لأنّنا لا نستطيعُ أن نُواجهَ جيشًا كبيرًا كهذا، ثم تَوجَّه هو معَ عددٍ من الناسِ إلى الكعبةِ ودَعا قائلًا: يا الله، كلُّ شخصٍ يحمي بيتَه ويحفَظُه، فاحفَظْ أنت أيضًا بيتَك واحمِه، فلا يَغلِبَنَّ صليبُه ولا تدبيرُه تدبيرَك، فإنْ كنتَ تريدُ أن تترُكَ القِبلةَ عليه فافعَلْ ما تشاء.

وبعدَ هذا الدُّعاءِ خَرَج سيّدُنا عبدُ المطَّلبِ أيضًا معَ أهل مكةَ إلى الجبال، وأخَذوا يَرقُبونَ الموقفَ عن بُعد، ويشاهدونَ ماذا سيفعَلُ جيشُ أَبْرهةُ، وفي الصَّباح التالي أمَرَ أَبْرهةُ جيشَه بالهجوم على الكعبة، ولكنْ حين وَجَّه أكبرَ الأفيالِ تُجاهَ الكعبةِ جَلَس مكانَه ولم يتحرَّكْ أو ينهَضْ رَغْم المحاولاتِ المستميتة في سَبيل ذلك، وعندَما وُجِّه إلى الجهةِ الأخرى نَهَض وجَرى، وفي تلك الأثناءِ جاءت أسرابٌ من الطُّيورِ الصَّغيرة من ناحيةِ البحر، وكان كلٌّ منها يحملُ في مِنقارِه وبَيْنَ مَخالبِه حَصَاةً صغيرةً في حَجْم حبّة الحِمِّص وحبّةَ العَدَس، وأمطَروا بهذه الحَصَى جيشَ أَبْرهةَ كقِطَع الثلج، فكانت تعمَلُ عمَلَ الرصاصِ فيهم، فتخترقُ أجسادَهم من جانبٍ وتَخرُجُ من الجانبِ الآخَر، وهكذا ارتَبك الجيشُ كلُّه وحَدَث هَرَجٌ ومَرَجٌ بيْنَ أفرادِه، ومات منهم الكثيرُ، أمّا مَن نَجَح منهم في الهربِ والعَودةِ معَ أَبْرهةَ من حيث جاءوا، فقدِ ابتُلوا بأمراضٍ ناتجةٍ عن الآثارِ السامّةِ لتلك الحَصَى، فلم يَعيشوا طويلًا بعدَها، وقد لقيَ أَبْرهةُ وباقي جيشِه حتفَهم متأثِّرينَ بهذه الأمراض.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة الفجر من يوم الأحد ٩ يناير ٢٠١١م
الموافق ٤ صَفَر ١٤٣٢هـ.

❋ ❋ ❋

سُورَةُ الفِيلِ (١٠٥)،

مكية (١٩)، آياتها (٥)، ركوعها (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴿٥﴾

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾

١ ـ في هذه السُّورةِ إشارةٌ إلى واقعةِ أصحابِ الفيل، وهي التي ذكَرْناها في تعارُفِ السُّورة، وقد قال الماوَرديُّ في تفسيرِه: إنّ النبيَّ ﷺ قد وُلِد بعدَ هذه الواقعةِ بخمسينَ يومًا، يعني: يومَ الاثنَيْنِ الثانيَ عشَرَ من ربيعٍ الأول[1]، ومعنى هذا أنها حدَثتْ في السابعَ عشَرَ من محرَّم من السّنةِ التي وُلِد فيها النبيُّ ﷺ، وعندَ بَعْثةِ النبيِّ ﷺ لم يكنِ الزّمنُ قد تَقادَم على هذه الواقعةِ بعدُ، وكان بعضُ مَن شاهدوا هذه الواقعةَ بأعيُنِهم، ورأَوْا هلاكَ أصحابِ الفيل، لا يزالُ على قَيْدِ الحياة، ولهذا كان كلُّ طفلٍ من أطفالِ العربِ على يقينٍ من هذه الواقعةِ كأنه شاهَدَها بعَيْنِه، وهذا هو السببُ في أنه عندَما بُعِث النبيُّ ﷺ بعدَ أربعينَ سنةً منها، ثم أعلَن عن هذه الواقعةِ بعدَ ذلك، لم يُنكِرْها أحدٌ؛ لأنّ الجميعَ كانوا يعلَمونَ أنّها حدَثتْ بالفعل،

---

(١) تفسير القرطبي.

ولهذا قال اللهُ تعالى: يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ، ألم تَرَ ماذا فَعَل ربُّك بأصحابِ الفيل؟ يعني: أنك تَعلمُ جيِّدًا ماذا حَدَث لأصحابِ الفيل.

في هذه السُّورةِ جاء تذكيرٌ لكفّارِ مكّةَ بواقعةِ أصحابِ الفيل من جانب؛ أي مَن أنقَذَ الكعبةَ من أصحابِ الفيل، وهي التي يحترمُكم العربُ جميعًا من أَجْلِها؟ إنه اللهُ تعالى الذي أنقَذَها بطَيْرٍ أبابيلَ من الغَيْب، والآنَ أنتم تُكذِّبونَه، وإن لم تَرجِعوا عن عصيانِكم، فما وزنُكم لديْه، وهو الذي دَمَّر أصحابَ الفيل وأهلَكَهم؟ ومن جانبٍ آخَرَ تَسْريةً عن قلبِ النبيِّ ﷺ بأنْ لا تنزعجَ يا رسولَ الله ﷺ من كثرةِ الكفّارِ ولا من إيذائهم لك، فكما حَفِظنا الكعبةَ من أصحابِ الفيل، سنَحفَظُك أنت أيضًا، ولن يستطيعَ هؤلاءِ أن يمَسُّوا ولو شعرةً منك بسُوء.

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾

٢ ـ كان أَبْرهةُ قد أعلَن أنه بما أنّ الذي أهان بيتَ العبادةِ الذي بناهُ في صنعاءَ رجلٌ ممَّن يُقدِّسُونَ الكعبةَ، لهذا فإنّي قادمٌ لهَدْم الكعبة انتقامًا لهذهِ الإهانة، وهذا ـ في الظاهر ـ لا يبدو أنه مؤامرةٌ خَفِيّةٌ أو مكرٌ وخِداع، لكنّ القرآنَ المجيدَ قرَّر أنه مكرٌ وخداع؛ لأنّ أبرهةَ كان يَحسُدُ بيتَ الله ويحقِدُ عليه، حتى لا يتوجَّهَ إليه الناسُ، لكنّ اللهَ تعالى أفشَلَ مكْرَهُ وخِداعَه الخَفيَّ، وكذا حمَلتَه الظاهرةَ، فلم يستطعْ هدمَ بناءِ الكعبة، كما لم يستطع انتزاعَ احترام وتبجيل الكعبةِ من قلوبِ الناس.

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾

٣ ـ أرسَلَ اللهُ تعالى أسرابًا من الطُّيورِ الصَّغيرةِ من ناحيةِ البحر، وكان كلٌّ منها يحملُ في مِنقارِه وبينَ مخالبه حَصَاةً صغيرةً في حَجْم حبّة الحِمِّص وحبّةِ العَدْس، وأمطَروا بهذه الحَصَى جيشَ أَبْرهةَ كقِطَع الثلج، فكانت تعمَلُ عمَلَ

الرصاصِ فيهم، فتخترقُ أجسادَهم من جانبٍ وتَخرُجُ من الجانبِ الآخَر، ومزَّقتْ أجسادَهم، فأصبحتْ كأنّها العُشبُ الجافُّ المتناثر (التِّبْن).

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
وقتَ الضحى من يوم الأحد ٩ يناير ٢٠١١م
الموافق ٤ صَفَر ١٤٣٢هـ.

هذا، وقدِ اكتَملَ بفَضْل اللهِ تعالى وكرَمِه تفسيرُ سُورة «الفيل» اليومَ في عدةِ ساعاتٍ فقط، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمَعين.

❋ ❋ ❋

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١٠٦) سُورَةُ قُرَيْشٍ

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها: «قُرَيْشٌ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى منها.

لم تكنْ في مكّةَ زراعةٌ ولا بساتينُ وحدائقُ، ولهذا كانت التِّجارةُ هي وسيلةَ كسبِ العيش الوحيدةَ لدى قُريشٍ، ولم يكنِ السَّفرُ للتِّجارةِ آمِنًا في شبهِ الجزيرةِ العربيّة؛ لأنّ السَّلبَ والنَّهبَ والقتلَ والإغارةَ كان رائجًا، فاللصُوصُ وقُطّاعُ الطُّرقِ كانوا يَنصِبُونَ أكمِنتَهم في كلِّ مكان، وكانوا يُغيرونَ على القوافل نهارًا جِهارًا وينهَبُونَها، لكنّ اللهَ تعالى أَنْعم على قُريشٍ بمكانةٍ واحترام بسببِ الكعبة، فلم يكنِ الناسُ يرفَعونَ أيديَهم عليهم، وكانوا يسافرونَ للتِّجارةِ في أمنٍ وأمانٍ خلالَ فصلِ الصَّيفِ إلى الشام؛ لأنّ الطّقسَ في الشام لطيفٌ في فَصْل الصيف، أمّا خلالَ فصلِ الشتاءِ فكانوا يسافرونَ إلى اليمن، لأنّ الطّقسَ في اليمنِ حارٌّ في فصلِ الشّتاء، وكانوا يعودونَ من أسفارِهم هذه بالغِلال وغيرِها أغذيةً لأهل مكةَ، ولو لم يتفضَّل اللهُ تعالى على أهل مكَة، وهَدَم أَبْرهةُ الكعبةَ، لَما بقيَ لقُريشٍ أيُّ احترام أو مكانةٍ بيْنَ العرب، ولَما كانت أسفارُهم التِّجاريّةُ أيضًا آمنةً، ولهذا جاء التذكيرُ بأفضالِ الله تعالى على قُريشٍ في هاتَيْنِ السُّورتَيْنِ، بأنه لو لم يَجعَل اللهُ تعالى أسفارَهم التِّجاريَّة هذه آمنةً لَماتوا من الجُوعِ، ولهذا ينبغي لهم أن لا يَجْحَدوا نِعَمَ اللهِ عليهم، وأن يَعبُدوا ربَّ البيتِ، أي: اللهَ تعالى، الذي أَنْعم عليهم

بالأمنِ والأمانِ في أسفارِهم بسببِ الكعبة، وقَيَّض لهم وسيلةَ التِّجارةِ لتحميَهم من الجُوع.

يقولُ سيّدُنا واثلةُ بنُ أَسْقعَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ اللهَ اصطَفى من وَلَدِ إبراهيمَ إسماعيلَ، واصطَفى من وَلَدِ إسماعيلَ بني كِنانَة، واصطَفى من بني كِنانَة قُريشًا، واصطَفى من قُريشٍ بني هاشمٍ، واصطفاني من بني هاشم»[1].

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة الظهر من يومِ الأحد ٩ يناير ٢٠١١م
الموافق ٤ صَفر ١٤٣٢هـ.

* * *

(١) الترمذي، أبواب المناقب، باب ١ برقم ٣٦٠٥.

سُورَةُ قُرَيْشٍ (١٠٦)،

مكية (٢٩)، آياتها (٤)، ركوعها (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾

١ ـ في هذه السُّورةِ ذَكَّر اللهُ تعالى قُريشًا بنِعَمِه عليهم، يعني: أنه لم تكنْ في مكةَ زراعةٌ ولا بساتينُ وحدائقُ، ولهذا كانت التِّجارةُ هي وسيلةَ كَسْبِ العيشِ الوحيدةَ لدى قُريش، ولم يكنِ السَّفَرُ للتِّجارةِ آمنًا؛ لأنّ السَّلبَ والنَّهبَ والقتلَ والإغارةَ كان رائجًا، فاللُّصوصُ وقُطّاعُ الطُّرُقِ نَصَبوا أكمِنَتهم في كلِّ مكان، وكانوا يُغِيرونَ على القوافل نهارًا جِهارًا وينهَبُونَها، لكنّ اللهَ تعالى أَنْعم على قُريشٍ بمكانةٍ واحترام بسببِ الكعبة، فلم يكنِ الناسُ يرفَعونَ أيديَهم عليهم، وكانوا يسافرونَ للتِّجارةِ في أمنٍ وأمانٍ خلال فَصْل الصَّيفِ إلى الشام؛ لأنّ الطَّقسَ في الشام لطيفٌ في فَصْل الصَّيف، أمّا خلالَ فَصْل الشتاءِ فكانوا يسافرونَ إلى اليمن؛ لأنّ الطّقسَ في اليمنِ حارٌّ في فَصْل الشتاء، وكانوا يعودونَ من أسفارِهم هذه بالغِلال وغيرِها أغذيةً لأهل مكةَ، ولو لم يتفضَّل اللهُ تعالى على أهلِ مكةَ،

وهَدَم أَبْرهةُ الكعبةَ، لَما بقيَ لقُريشٍ أيُّ احترام أو مكانةٍ بينَ العرب، ولَما كانت أسفارُهم التِّجاريّةُ أيضًا آمنةً، يعني: أنّ اللهَ تعالى خَلَق فيهم الرَّغبةَ في الأسفارِ التِّجاريّةِ بفَضْل الأمنِ والأمان الذي جَعَله فيهم.

﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾

٢ ـ يعني: لو لم يجعَل اللهُ تعالى أسفارَهم التِّجاريةَ هذه آمنةً لَماتوا من الجُوع، ولهذا ينبغي لهم أن لا يَجحَدوا نِعَمَ الله عليهم، وأن يَعبُدوا ربَّ البيتِ، أي: اللهَ تعالى، الذي أَنْعم عليهم بالأمنِ والأمانِ في أسفارِهم بسببِ الكعبة، وقَيَّض لهم وسيلةَ التّجارةِ لتحميَهم من الجُوع.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ الظهر من يوم الأحد ٩ يناير ٢٠١١م
الموافق ٤ صَفَر ١٤٣٢هـ.

هذا، وقدِ اكتَملَ بفَضْل الله تعالى وكرَمِه تفسيرُ سُورة «قُريش» اليومَ في ساعةٍ واحدةٍ فقط، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسَّلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

❊ ❊ ❊

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١٠٧) سُورَةُ المَاعُونِ

هذه السُّورةُ مكِّيّة، واسمُها: «الماعونُ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأخيرةِ منها.

نَقَل العلّامةُ سيِّد محمود الآلوسيُّ ثلاثةَ أقوالٍ فيما يتعلَّقُ بكونِ هذه السُّورةِ مكِّيّةً أم مدَنيّةً:

١ ـ قولُ الجمهورِ: إنّها مكِّيّة.

٢ ـ قولُ سيّدِنا عبدِ الله بن عبّاس وسيّدِنا قَتادةَ رضي الله عنهما: إنّها مدَنيّةٌ.

٣ ـ قولُ هبةِ الله: إنّ نِصفَها نَزَل في مكةَ، ونَزَل النِّصفُ الآخَرُ في المدينة.

ومضامينُ هذه السُّورةِ تؤيِّدُ القولَ الثالثَ؛ لأنه جاء في النِّصفِ الأوّلِ منها ذِكرُ مُنكري الإسلام ومُنكري القيامةِ، وهؤلاءِ كانوا كثيرينَ في مكّةَ، وفي الجزءِ الأخيرِ منها جاء ذِكرُ المنافقينَ الذين يغفُلونَ عن صَلاتِهم، ويُراءونَ الناسَ، وكان المنافقونَ في المدينةِ فقطْ، إذْ لم يكنْ في مكةَ منافقٌ واحد؛ لأنه لا مجالَ لأنْ يُصلِّيَ أهلُ مكةَ مراءاةً للناس، فقد كان معظَمُهم كُفّارًا، أمّا المسلمونَ منهم فكانوا يُصَلُّونَ بعيدًا عن أعيُنِ الناس؛ لأنّ الصَّلاةَ علانيَةً في ذلك الوقتِ كانت تعني تعريضَ أرواحِهم للخَطَر، ولهذا فأنا أعتقدُ أنّ هذه السُّورةَ مكِّيّةٌ لأنّ نزولَها بَدأَ في مكةَ.

في هذه السُّورةِ جاء بيانٌ لصِفتَيْنِ من صفاتِ الكُفّار، يعني: أنّهم كانوا لا يُعامِلونَ اليتيمَ معاملةً حسَنةً، وكانوا لا يُرغِّبُ بعضُهم بعضًا في إطعام المساكين. وذَكَرتِ السُّورةُ ثلاثَ صفاتٍ من صفاتِ المنافقين، يعني: أنّهم كانوا يغفُلونَ عن الصَّلاة، وكانوا يُصَلُّونَ مُراءاةً للناس، ولا يَجُودونَ حتى بالأشياءِ البسيطةِ المستعمَلةِ استعمالًا عامًّا.

ينبغي للمسلمينَ اجتنابُ المثالبِ الخمسِ التي ذَكَرتْها هذه السُّورةُ للكفّارِ والمنافقين، يعني: عليهم أن يُعامِلوا اليتيمَ والمسكينَ معاملةً حسَنةً، وألّا يغفُلوا عن صَلاتِهم، وأن يتجنَّبوا الرِّياءَ، وأن يتَعاونوا معَ جيرانِهم الفقراءِ ويَعطِفوا عليهم.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة المغرب من يوم الأحد ٩ يناير ٢٠١١م
الموافق ٤ صَفَر ١٤٣٢هـ.

* * *

سُورَةُ المَاعُون (١٠٧)،

مكية (١٧)، آياتها (٧)، ركوعها (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾

١ - الخطابُ في هذه السُّورةِ - في الظاهر - للنبيِّ ﷺ، لكنّ المرادَ أُمَّتُه، يعني: يا رسولَ الله ﷺ، سَلْ أُمَّتَك: هل يَعرِفونَ ذلك الشَّخصَ الذي يُكذِّبُ بيوم الحسابِ وبدينِ الإسلام؟ وأَخْبِرِ الذين لا يَعرِفونَه بأنّ إحدى علاماتِ مُنكِر القيامةِ أنه يَنهَرُ اليتيمَ ويَطرُدُه إذا جاءه سائلًا على بابِه، ولو أصبح أحدٌ من أقاربِه يتيمًا لا يتورَّعُ عن اغتصابِ حقِّه في الميراث، والعلامةُ الثانيةُ هي أنه لو كان من بيْنِ جيرانِه مسكينٌ جائعٌ لا يُطعمُه هو، ولا يَحُثُّ غيرَه على إطعامِه.

وهو لا يساعدُ اليتامَى ولا المساكينَ؛ لأنهم محتاجونَ ولا مُعينَ لهم، ولو ساعَدَهم لَما أمكَنَ لهم أن يَرُدُّوا إليه الجميلَ، ولكنْ لو كان هذا يؤمنُ بالقيامةِ لَعطَفَ على اليتامَى والمساكينِ يقينًا، ولَعقَدَ الأملَ على الأجرِ العظيم عندَ اللهِ تعالى.

يقولُ سيّد محمود الآلوسيُّ في تفسيرِ هذه الآية: «وقيل: هو أبو جَهْل، وكان وصيًّا ليتيم فأتاهُ عُريانًا يسألُه من مالِ نفسِه، فدَفَعه دفعًا شنيعًا»[١]. ويتحدَّثُ العلاّمةُ إسماعيلُ حقّي عن الواقعةِ نفسِها فيُضيفُ قائلًا: «فأَيِسَ الصبيُّ، فقال له أكابرُ قُريش: قل لمحمدٍ يشفَعْ لكَ، وكان غَرَضُهم الاستهزاءَ به، وهو عليه السَّلامُ ما كان يرُدُّ محتاجًا، فذَهَب معَه إلى أبي جَهْل، فقام أبو جَهْل (تعظيمًا للنبيِّ ﷺ رغمًا عنه)، وبَذَل المالَ لليتيم، فعيَّره قُريشٌ وقالوا: أَصَبَوْتَ؟ فقال: لا والله ما صَبَوْتُ، ولكنْ رأيتُ عن يمينِه وعن يسارِه حَرْبةً خِفتُ إن لم أُجِبْه أن يَطعَنَها فِيّ»[٢].

كفالة اليتيم

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «خيرُ بيتٍ في المسلمينَ بيتٌ فيه يتيمٌ يُحسَنُ إليه، وشَرُّ بيتٍ في المسلمينَ بيتٌ فيه يتيمٌ يساءُ إليه»[٣].

إطعام المسكين

ـ يقولُ سيّدُنا أبو سَعيدٍ الخُدريُّ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «أيُّما مسلمٍ كَسَا مسلمًا ثوبًا على عُرْيٍ كَسَاهُ اللهُ من خُضْرِ الجنّة، وأيُّما مسلمٍ أطعَمَ مسلمًا على جُوعٍ أطعَمَه اللهُ من ثمارِ الجنّة، وأيُّما مسلمٍ سَقَى مسلمًا على ظمإٍ سَقاهُ اللهُ من الرَّحيقِ المختوم»[٤].

ـ ذاتَ مرة، صَنَع سيّدُنا عُمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه حَلْوى من التَّمرِ

---

(١) تفسير روح المعاني.

(٢) تفسير روح البيان.

(٣) ابن ماجه، أبواب الأدب، باب ٦ برقم ٣٦٧٩.

(٤) أبو داود، كتاب الزكاة، باب ٤١ برقم ١٦٨٢.

واللَّبن، وبينَما هو كذلك إذْ أَقْبَل مسكينٌ، فأعطاهُ سيّدُنا عُمرُ بن الخطابِ رضي الله عنه الحَلوى، فقال له واحدٌ من الجالسينَ عندَه: يا أميرَ المؤمنين، ماذا يَعرفُ هذا المسكينُ المحتاجُ عن قَدْرِ هذه الحَلْوى اللَّذيذة؟ فقال سيّدُنا عُمرُ رضي الله عنه: لكنّ ربَّ هذا المسكينِ يَعرِفُ ما هي[1].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ رجُلًا شَكَا إلى النّبيِّ ﷺ قَسْوةَ قلبِه، فقال: «إنْ أردتَ أن يَلينَ، فامسَحْ رأسَ اليتيم، وأطعِم المسكينَ»[2].

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾

٢ ـ في الآياتِ الثلاثِ الأُولى من هذه السُّورةِ جاء بيانُ علامتَيْنِ من علاماتِ مُنكِر القيامة، وفي الآياتِ الأربع الأخيرةِ جاء بيانُ ثلاثِ علاماتٍ من علاماتِ المنافق، وهي السببُ في أنّ هؤلاءِ يستحِقُّونَ العذابَ والهلاكَ.

الغفلة عن الصلاة

إنّهم يغفُلونَ عن الصّلاة، يعني: هم يُصَلُّونَ، ولكنّهم لا يُراعُونَ آدابَ الصّلاةِ ومتعلِّقاتِها الظاهرةَ والباطنةَ.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو قَتادةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «أسوأُ النّاسِ سرقةً: الّذي يَسرِقُ صَلاتَه». قالوا: يا رسولَ الله، وكيف يَسرقُ صَلاتَه؟ قال: «لا يُتِمُّ ركوعَها ولا سجودَها»[3].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو ذَرٍّ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «لا يزالُ اللهُ عزَّ وجلّ

---

(١) تفسير ضياء القرآن، سورة المزمل (٧٣)، الآية ٢٠، ٥: ٤١١.
(٢) تفسير القرطبي، سورة الضحى (٩٣): الآية ٩.
(٣) سنن الدارمي، كتاب الصلاة، باب ٧٨.

مُقبِلًا على العبدِ وهو في صَلاتِه ما لم يَلتفتْ، فإذا التَفَت انصَرفَ عنهُ»[١].

ـ يَروي الإمامُ ابنُ أبي شَيْبةَ رضي الله عنه، عن سيّدِنا أبي هريرةَ رضي الله عنه، أنه قال: «إذا صَلَّيتَ فإنّ ربَّك أمامَك، وأنت مُناجيه، فلا تلتفِتْ. قال عطاءٌ: وبَلَغَني أنّ الربَّ يقولُ إلى مَن يلتفتُ: يا ابنَ آدم، أنا خيرٌ لك ممَّن تلتفتُ إليه»[٢].

صلاة الرياء

وهم يُصَلُّونَ الصَّلاةَ رياءً، يعني: لا يكونُ مقصِدَهم من وراءِ الصَّلاة هو رضا الله تعالى، وإنّما لكي يَرى الناسُ أنّهم يُصَلُّونَ، حتى يعتقدوا فيهم الصَّلاحَ ويمدَحُوهم.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو سعيدٍ رضي الله عنه: إنّه سَمِع النبيَّ ﷺ يقولُ: «(في اليوم الذي) يَكشِفُ ربُّنا عن ساقِه، فيَسجُدُ له كلُّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ، ويبقَى مَن كان يَسجُدُ في الدُّنيا رياءً وسُمعةً، فيذهَبُ ليَسجُدَ فيعودُ ظهرُه طَبَقًا واحدًا»[٣].

البخل حتى بالأشياء العادية في الاستعمال العام

يعني: لو طَلَب منه جارٌ فقيرٌ ـ على سَبيل المثال ـ ملحًا، أو ماءً، أو أيَّ شيءٍ آخَرَ من الأشياءِ العاديّةِ في الاستعمالِ العامِّ بشكلٍ مؤقَّت، تَراهُ يبخَلُ به ويصيرُ في غايةِ الأنانية، بحيث أنه يَرفُضُ أن يُعطيَ حتى جارَه الفقيرَ مِثلَ هذه الأشياء.

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَمْرٍو رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «اتَّقوا الظُّلم؛ فإنّ الظُّلمَ ظُلُماتٌ يومَ القيامة، واتَّقوا الفُحشَ، فإنّ الله لا يُحبُّ الفُحشَ ولا

---

(١) أبو داود، كتاب الصلاة، باب ١٦٥ برقم ٩٠٩.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة، ١، ٤٩٢ برقم ٤٥٣٨.

(٣) البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة القلم (٦٨): باب ٢ برقم ٤٩١٩.

التَّفحُّشَ، وإيّاكم والشُّحَّ (أي: البُخلَ)؛ فإنّه (أي: البُخلَ) أهلَكَ مَن كان قبلَكم، أمَرَهم بالظُّلم فظَلَموا، وأمَرَهم بالفُجورِ ففَجَروا، وأمَرَهم بالقَطيعةِ فقَطَعوا»[1].

ينبغي للمسلمينَ اجتنابُ المثالبِ الخمسِ التي ذَكَرتْها هذه السُّورةُ للكفَّارِ والمنافقين، يعني: عليهم أن يُعامِلوا اليتيمَ والمسكينَ معاملةً حسَنةً، وألا يَغفُلوا عن صلاتِهم، وأن يتجنَّبوا الرِّياءَ، وأن يتعاونوا معَ جيرانِهم الفقراءِ ويَعطِفوا عليهم.

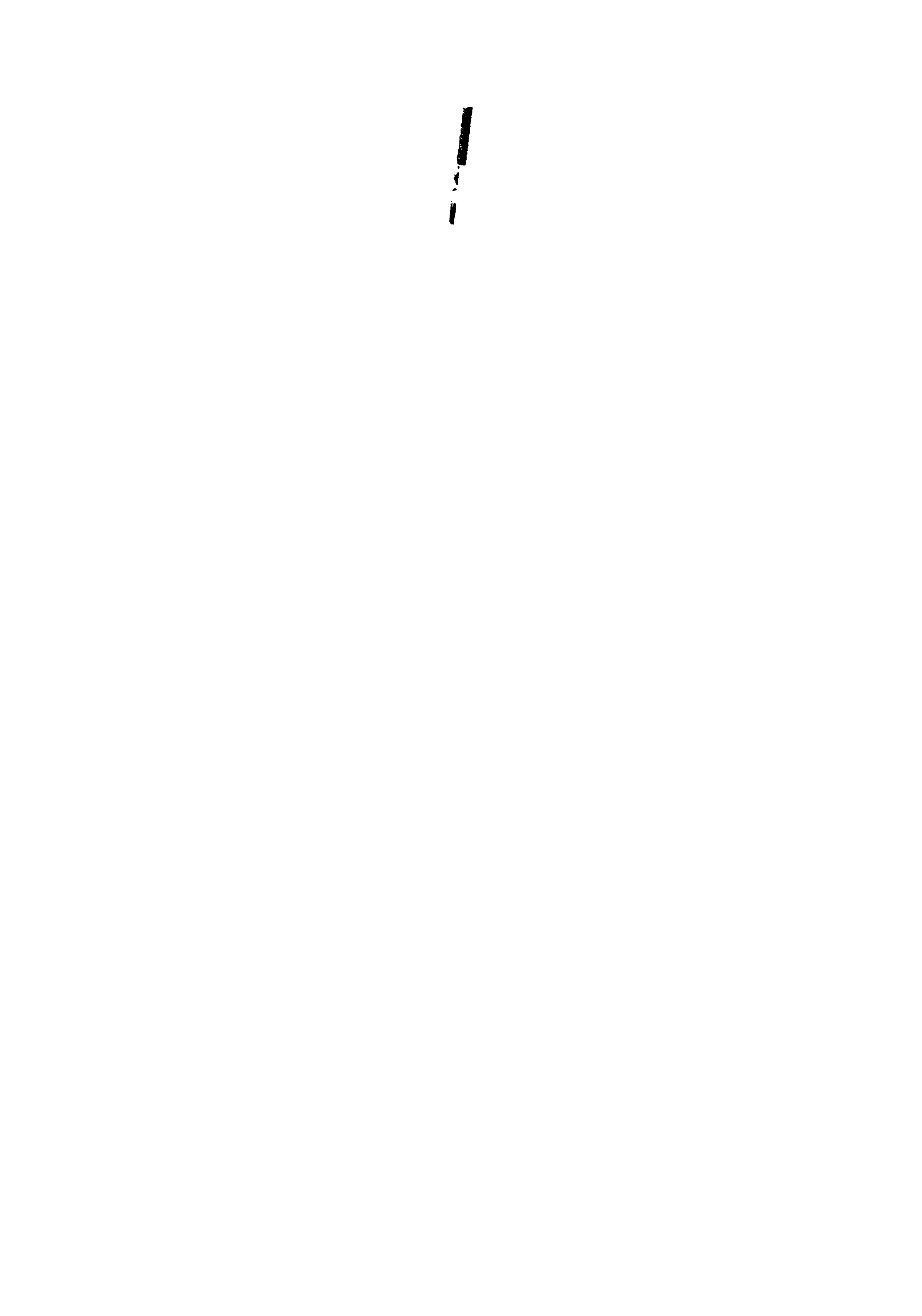
الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة المغرب من يوم الأحد ٩ يناير ٢٠١١م
الموافق ٤ صَفَر ١٤٣٢هـ.

هذا، وقدِ اكتَملَ بفَضْل الله تعالى وكرَمِه تفسيرُ سُورة «الماعُون» بعدَ مغربِ اليوم في ساعتَيْنِ تقريبًا، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

❋ ❋ ❋

---

(١) تفسير ابن كثير، سورة الحشر (٥٩): الآية ٩.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١٠٨) سُورَةُ الكَوْثَر

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها: «الكوثَرُ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى منها.

سبب النزول

يقولُ العلّامةُ القُرطبيّ: «وكانت العربُ تُسمِّي مَن كان له بَنُونَ وبناتٌ، ثمّ ماتَ البَنُونَ وبقيَ البناتُ: أبتَرَ. فيقال: إنّ العاصِ وَقَف معَ النّبيّ ﷺ يُكلِّمُه، فقال له جَمْعٌ من صناديدِ قُريشٍ (أي: بعدَ أنْ فَرَغ): معَ مَن كنتَ واقفًا؟ فقال: معَ ذلك الأبتر (يعني: النبيَّ ﷺ)، فنَزَلتْ هذه السُّورة»[1]؛ لأنّ النبيَّ ﷺ كان متزوِّجًا في ذلك الوقتِ من السيِّدةِ خديجةَ رضي اللهُ عنها، وكان له منها أربعُ بناتٍ على قَيْدِ الحياة (يعني: السيِّدةَ زينبَ والسيّدةَ رُقيَّةَ والسيِّدةَ أُمَّ كلثوم، والسيّدةَ فاطمةَ رضي الله عنهُنَّ جميعًا)، بينَما توفِّي طفلاهُ الذُّكورُ منها في سنٍّ صغيرةٍ (يعني: سيّدَنا القاسمَ وسيّدَنا عبدَ الله رضي الله عنهما)، وفي ذلك الوقتِ كانت السيّدةُ خديجةُ رضي الله عنها قد تَقدَّمت في السِّنِّ بحيث لا تَلِدُ بعدَها.

كان الإسلامُ ينتشرُ بدعوةِ النبيِّ ﷺ، وكانت قُريشٌ في غايةِ الانزعاج من ذلك، وكانوا يفكِّرونَ: كيف يُمكنُ وَقْفُ انتشارِ الإسلام؟ وعليه قال العاصِ بنُ

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الكوثر (١٠٨): الآية ٣.

وائل: إنّ محمدًا ﷺ أَبترُ، يعني: لا يعيشُ له أولادٌ ذكورٌ يحمِلونَ اسمَه بعدَ وفاتِه، ولهذا عندَما يُتوفَّى النبيُّ ﷺ سينقطعُ ذِكرُه، وتُكتَبُ النَّجاةُ لأهل مكةَ منه، وعندَئذٍ نَزَلت هذه السُّورةُ.

يقولُ العلّامةُ محمد عليّ الصَّابوني: «أَخْبَر تعالى أنّ هذا الكافرَ هو الأبتَرُ وإن كان له أولادٌ؛ لأنه مبتورٌ من رحمةِ الله، أي: مقطوعٌ عنها، ولأنه لا يُذكَرُ إلّا ذُكِر باللَّعنة، بخلافِ النبيِّ ﷺ فإنّ ذِكرَه خالدٌ إلى آخِرِ الدَّهر، مرفوعٌ على المآذنِ والمنابر، مقرونٌ بذِكرِ اللهِ تعالى، والمؤمنونَ من زمانِه إلى يوم القيامة أَتْباعُه، فهو كالوالدِ لهم صَلَواتُ الله وسَلامُه عليه»[1]، كما أنّ اللهَ تعالى قد جَعَل نَسْلَ النبيِّ ﷺ يمتدُّ من السيِّدةِ فاطمةَ رضي الله عنها، وهذه الذُّرِّيةُ موجودةٌ اليومَ في كلِّ أنحاءِ الدنيا.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة العشاء من يومِ الأحد ٩ يناير ٢٠١١م
الموافق ٤ صَفَر ١٤٣٢هـ.

* * *

(١) صفوة التفاسير، سورة الكوثر (١٠٨): الآية ٣.

سُورَةُ الكَوْثَر (١٠٨)،

مكية (١٥)، آياتها (٣)، ركوعها (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾

١ ـ يقولُ سيِّد محمود الآلوسيُّ مُشيرًا إلى وَزْنِ الكوثر: «وهو فَوْعَلٌ، من: الكثرة، صيغةُ مبالغةٍ: الشَّيءُ الكثيرِ كثرةً مُفرِطةً»[1].

ويقولُ العلّامةُ القُرطبي: «والعربُ تُسمِّي كلَّ شيءٍ كثيرٍ في العدَدِ والقَدْرِ والخَطر: كَوْثَرًا»[2].

في هذه الآيةِ قال اللهُ تعالى لنبيِّه الكريم ﷺ: لقد أعطَيْناك الكَوْثَر يقينًا (أي: شيئًا كثيرًا للغاية)، والآنَ هنا ذِكرٌ للصِّفة، ولكنْ ليس للموصوفِ ذكرٌ، يعني: ما هو الشيءُ الكثيرُ الذي أعطاهُ اللهُ تعالى كثيرًا له؟ يقولُ العلماءُ في الإجابةِ عن هذا السؤال: لو أنّ اللهَ تعالى أعطَى نبيَّه الحَبيبَ ﷺ شيئًا ما كثيرًا للغايةِ لَذكَرَه، لكنّ الحالَ هنا هو أنّ اللهَ تعالى قد أَنْعم على نبيِّه الكريم ﷺ بنِعَمٍ وكراماتٍ عظيمةٍ ورفيعةٍ من حيثُ تَعدادُها وقَدْرُها وقيمتُها ومكانتُها وأهميَّتُها، بحيث لا يمكنُ لأحدٍ أن يتصوَّرَها.

---

(١) تفسير روح المعاني، سورة الكوثر (١٠٨).

(٢) تفسير القرطبي، سورة الكوثر (١٠٨).

وقد نَقَل المفسِّرونَ أقوالًا عديدةً في تفسيرِ الكَوْثَر، وأنا هنا أكتفي بذكِرِ اثنَيْنِ منها فقط:

١ - نَهَرٌ في الجنَّة

- يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضي الله عنه: لمّا عُرِجَ بالنّبيِّ ﷺ إلى السّماءِ قال: «أَتَيْتُ على نَهَرٍ حافَتَاهُ قِبابُ اللُّؤلؤِ مُجَوَّفًا، فقلتُ: ما هذا يا جِبريل؟ قال: هذا الكَوْثَر»[١].

- يقولُ سيّدُنا أبو عُبيدةَ رضي الله عنه: سألتُ السيّدةَ عائشةَ رضي اللهُ عنها عن قولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ قالت: نَهَرٌ أُعطِيَه نبيُّكم ﷺ، شاطئاهُ عليه دُرٌّ مُجَوَّفٌ آنيتُه كعدَدِ النُّجوم[٢].

٢ - حَوْضُ الكَوْثَر

- يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه: سألتُ النّبيَّ ﷺ أن يَشفَعَ لي يومَ القيامة، فقال: «أنا فاعلٌ». قال: قلتُ: يا رسولَ الله، فأين أَطلُبُكَ؟ قال: «اطلُبْني أوّلَ ما تطلُبُني على الصّراط». قال: قلتُ: فإن لم ألقَكَ على الصّراط؟ قال: «فاطلُبْني عندَ الميزان». قلتُ: فإنْ لم ألقَكَ عندَ الميزان؟ قال: «فاطلُبْني عندَ الحَوْضِ، فإنّي لا أخطئُ هذه الثّلاثَ المواطن»[٣].

- يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «والأخبارُ في حوضِه في الموقفِ كثيرةٌ، ذكَرْناها في كتاب «التَّذكِرة»، وأنّ على أركانِه الأربعة خُلفاءَ الأربعة، رضوانُ الله عليهم. وأنّ مَن أبغضَ واحدًا منهم لم يَسقِه الآخَرُ»[٤].

---

(١) البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة الكوثر (١٠٨) برقم ٤٩٦٤.

(٢) المرجع السابق، كتاب تفسير القرآن، سورة الكوثر (١٠٨) برقم ٤٩٦٤.

(٣) الترمذي، أبواب صفة الجنة، باب ٩ برقم ٢٤٣٣. وقوله: «الثلاث»: روي على صيغة التذكير والتأنيث، والتذكير ظاهر، وأما التأنيث فباعتبار البقعة. شرح المشكاة، للطيبي، ١١، ٣٥٤٣.

(٤) تفسير القرطبي، سورة الكوثر (١٠٨).

- يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي اللهُ عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال لأبي بكرٍ رضي الله عنه: «أنت صاحبي على الحَوْضِ وصاحبي في الغار»[1].

- يقولُ سيّدُنا عُقبةُ بنُ عامرٍ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ خَرَج يومًا فصَلّى على أهلِ أُحُدٍ صلاتَه على الميّت، ثمّ انصَرفَ إلى المِنبَر، فقال: «إنّي فَرَطُكم، وأنا شهيدٌ عليكم، وإنّي والله لَأنظُرُ إلى حَوْضيَ الآنَ، وإنّي قد أُعطِيتُ مفاتيحَ خزائنِ الأرض - أو مفاتيحَ الأرض - وإنّي والله ما أخافُ عليكم أن تُشركوا بعدي، ولكنّي أخافُ عليكم أن تَنافَسوا فيها»[2].

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾

٢ - في الآيةِ الأُولى ذَكَر اللهُ تعالى أفضالَه العظيمةَ، والآنَ في الآيةِ الثانية يُرشدُ إلى أداءِ الشُّكرِ على هذه الأفضالِ، يعني:

أ‌. الصلاة

لم يتوانَ النبيُّ ﷺ عن تنفيذِ أيِّ أمرٍ من أوامرِ الله تعالى وأحكامِه، فإذا أخَذْنا الصّلاةَ وجَدْناهُ ﷺ يُمضي اللَّيلَ كلَّه في الصّلاةِ إلى أن تتورَّمَ قَدَماهُ الشّريفتانِ.

- تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي الله عنها: إنّ نبيَّ الله ﷺ كان يقومُ من اللَّيل حتّى تتفطَّر قَدَماهُ، فقالت عائشةُ: لمَ تصنَعُ هذا يا رسولَ الله وقد غَفَر اللهُ لك ما تقَدَّم من ذنبِك وما تأخَّر؟ قال: «أفلا أُحبُّ أن أكونَ عبدًا شَكُورًا»[3].

---

(١) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٣٩ برقم ٣٦٧٠.
(٢) البخاري، كتاب الرقاق، باب ٧ برقم ٦٤٢٦.
(٣) البخاري، كتاب التفسير، سورة الفتح (٤٨) برقم ٤٨٣٧.

النحر

النبيُّ ﷺ ـ فيما يتعلَّقُ بالعَمل بهذا الأمرِ ـ لا مثيلَ له، فقد ضَحَّى بيدَيْه الشّريفتَيْنِ ـ يومَ حَجّةِ الوداع فقطْ ـ بثلاثةٍ وستِّينَ جملًا.

ـ يقولُ العلّامةُ نورُ الدِّين الحَلَبي: «ثُم انصَرفَ ﷺ إلى المِنحَر بمِنًى فنَحَر ثلاثًا وستِّينَ بدنةً؛ لأنّ عُمُرَه ﷺ كان في ذلك اليوم ثلاثًا وستِّينَ سنةً، فنَحَر ﷺ بيدِه الشّريفةِ لكلِّ سنةٍ بدَنةً، ثم أمَرَ ﷺ عليًّا كرَّم اللهُ وجهَه فنَحَر ما بقِيَ، وهو تمامُ المائة»[1]. وهنا يَنقُلُ الإمامُ محمَّد بن يوسُفَ قائلًا: «فإنّ المائةَ لم تُقرَّبْ إليه جُملةً، وإنّما كانت تُقرَّبُ إليه أرسالًا، فقُرِّبَ منها خمسُ بَدَناتٍ رسُلًا، وكان ذلك الرَّسَلُ[2] يُبادِرْنَ ويتقرَّبْنَ إليه، لكي يبدَأَ بكلٍّ واحدةٍ منهنَّ. قلتُ: وضَحَّى رسولُ الله ـ ﷺ ـ عن نسائه بالبقر»[3].

ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي الله عنها: إنّ رسولَ الله ﷺ أمَرَ بكبشٍ أَقْرنَ يَطَأُ في سَوادٍ ويَبرُكُ في سَوادٍ ويَنظُرُ في سَوادٍ، فأُتِيَ به ليُضحِّيَ به، فقال لها: «يا عائشة، هَلُمِّي المُدْيَة». ثمّ قال: «اشحَذيها بحَجَرٍ». ففَعَلتْ، ثمّ أخَذَها وأخَذ الكبشَ فأَضْجَعَه ثمّ ذَبَحه ثمّ قال: «باسم الله، اللّهُمَّ تقبَّلْ من محمّدٍ وآلِ محمّدٍ ومن أُمّةِ محمّدٍ»[4]، ولاحِظْ تصرُّفَ سيّدِنا عليٍّ رضي اللهُ عنه جوابًا عن هذا، فيقولُ سيّدُنا حَنَشٌ رضي الله عنه: رأيتُ عليًّا يُضحِّي بكبشَيْن، فقلتُ: ما هذا؟ فقال: إنّ رسولَ الله ﷺ أوصَاني أن أُضحّيَ عنه، فأنا أُضحّي عنه[5].

---

(١) السيرة الحلبية، ٣: ٣٧٧.

(٢) محركة، وهو القطيع من كل شيء، جمعه: أرسال. تاج العروس (رسل).

(٣) سبل الهدى والرشاد، ٨: ٦٥٥.

(٤) مسلم، كتاب الأضاحي، باب ٣ برقم ٥٠٩١.

(٥) أبو داود، كتاب الضحايا، باب ١ برقم ٢٧٩٠.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾

٣ ـ كان الإسلامُ ينتشرُ بدعوةِ النبيِّ ﷺ، وكانت قُريشٌ في غايةِ الانزعاج من ذلك، وكانوا يُفكِّرون: كيف يُمكنُ وقفُ انتشارِ الإسلام؟ وعليه قال العاصِ بنُ وائل: إنّ محمدًا ﷺ أبترُ، يعني: لا يعيشُ له أولادٌ ذكورٌ يحمِلونَ اسمَه بعدَ وفاتِه، ولهذا عندما يُتوفَّى النبيُّ ﷺ سينقطعُ ذِكرُه، وتُكتَبُ النَّجاةُ لأهل مكةَ منه، وعندَئذٍ نَزَلت هذه السُّورة.

يقولُ العلّامةُ محمَّد علي الصَّابوني: «أَخْبر تعالى أنّ هذا الكافرَ هو الأبتَرُ، وإن كان له أولادٌ؛ لأنه مبتورٌ من رحمةِ الله، أي: مقطوعٌ عنها، ولأنه لا يُذكَرُ إلا ذُكِر باللَّعنة، بخلافِ النبيِّ ﷺ فإنّ ذِكرَه خالدٌ إلى آخِرِ الدَّهر، مرفوعٌ على المآذنِ والمنابر، مقرونٌ بذِكرِ الله تعالى، والمؤمنونَ من زمانِه إلى يوم القيامة أَتْباعُه، فهو كالوالدِ لهم صَلَواتُ الله وسَلامُه عليه»[1]، كما أنّ اللهَ تعالى قد جَعَل نَسْلَ النبيِّ ﷺ يمتَدُّ من السيّدةِ فاطمةَ رضي اللهُ عنها، وهذه الذُّرِّيةُ موجودةٌ اليومَ في كلِّ أنحاءِ الدنيا.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة العشاء من يوم الأحد ٩ يناير ٢٠١١م
الموافق ٤ صَفَر ١٤٣٢هـ.

هذا، وقدِ اكتَملَ بفَضْل الله تعالى وكرَمِه تفسيرُ سُورة «الكَوْثَر» اليومَ بعدَ صلاة العشاءِ في ثلاثِ ساعاتٍ تقريبًا، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّد المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

---

(١) صفوة التفاسير، سورة الكوثر (١٠٨): الآية ٣.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١٠٩) سُورَةُ الكَافِرُونَ

هذه السُّورةُ مكِّيّة، واسمُها: «الكافرون»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى منها.

سبب النزول

نَزَلت هذه السُّورةُ في مجموعةٍ من قُريشٍ قالوا للنبيِّ ﷺ: تَعبُدُ أنت آلهتَنا عامًا، ونحن نَعبُدُ إلهَك عامًا، فقال لهم النبيُّ ﷺ: إنّني لم أُشرِكْ أبدًا حتى قَبْلَ إعلانِ النُّبوة، فكيف أُشركُ الآنَ؟ فَنَزلت هذه السُّورةُ، وأَخْبرهم النبيُّ ﷺ بشكل واضح تمامًا قائلًا: على أيِّ حال لقد كنتُ من قبلُ ثابتًا على ديني، وسوف يظَلُّ هذا هو ديني إلى الأبدِ أيضًا، فإنْ لم تقبَلوا الإسلامَ، وظَلَلتُم قائمينَ على دينِكم، فهذا قرارُكم أنتم، وأنتم المسئولونَ عنه.

فضل سورة «الكافرون»

ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن قرأَ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ عُدِلَتْ له بنصفِ القرآن، ومن قرأَ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ عُدِلَت له برُبعِ القرآن، ومن قرأَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ عُدِلت له بثُلُثِ القرآن»[١].

---

(١) الترمذي، أبواب فضائل القرآن، باب ١٠ برقم ٢٨٩٣.

ـ يَروي سيّدُنا فَرْوةُ بن نَوْفَل، عن أبيهِ رضي الله عنهما، أنّ النبيَّ ﷺ قال لنَوْفَل: «اقرَأْ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ ثمّ نَمْ على خاتمتِها، فإنّها براءةٌ من الشِّرك»[1].

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة الفجر من يوم الاثنين ١٠ يناير ٢٠١١م
الموافق ٥ صَفَر ١٤٣٢هـ.

* * *

---

(١) أبو داود، كتاب الأدب، باب ٩٨ برقم ٥٠٥٥.

سورة الكافرون (١٠٩)،

مكية (١٨)، آياتها (٦)، ركوعها (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾

﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾

١ - يقولُ المفسِّرونَ: «﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ خطابٌ لجماعةٍ مخصُوصةٍ سألوا المسالمةَ قد عَلِم اللهُ منهم أنهم لا يومنون»[1]، وهذا هو الذي حَدَث فيما بعدُ، فمات هؤلاءِ الكفّارُ المتعصِّبونَ المعانِدونَ على الكُفر، وهكذا فإنّ هذه السُّورةَ أيضًا دليلٌ على صِدقِ نُبوّةِ النبيِّ ﷺ؛ لأنّ الذين أَخْبَر عنهمُ النبيُّ ﷺ أنّهم لن يؤمنوا، لم يؤمنوا بالفعل، وماتوا على الكُفرِ، والمخاطَبونَ بهذه السُّورةِ ليسوا الكفّارَ جميعًا، لأنّ منَ الكفّارِ من تَرفَّعوا عن التعصُّب، وتَدبَّروا القرآنَ، فآمَنوا في ذلك الوقتِ، ولا يزالُ أمثالُهم يؤمنونَ حتى يومِنا هذا.

يقولُ العلّامةُ البَغَويُّ عن هذه السُّورة: إنّها «نَزَلت في رَهْطٍ من قُريشٍ، منهم: الحارثُ بنُ قَيْسٍ السَّهميُّ، والعاصِ بنُ وائلٍ والوليدُ بن المُغيرة، والأسوَدُ بنُ عبدِ يَغُوثَ، والأسودُ بنُ المطَّلبِ بن أسدٍ، وأُمّيّةُ بن خَلَفٍ، قالوا: يا محمّد، هَلُمَّ

---

(١) التفسير المظهري، وتفسير القرطبي.

فاتَّبِعْ دينَنا ونتَّبِعْ دينَك ونُشرِكْكَ في أمرِنا كلِّه، تعبُدُ آلهتَنا سنةً ونعبُدُ إلهَك سنةً، فقال: معاذَ الله أن أُشركَ به غيرَه، فأنْزلَ اللهُ عزَّ وجلّ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ إلى آخِرِ السُّورة، فغَدا رسولُ الله ﷺ إلى المسجدِ الحرامِ وفيه الملأُ من قُريش، فقام على رءوسِهم ثمّ قَرأَها عليهم حتّى فَرَغَ من السُّورة، فأَيِسوا منه عندَ ذلك (وكانت قُريشٌ قبلَ نزولِ السُّورةِ تأمُلُ في أن تَعقِدَ اتّفاقيّةً معَ النبيِّ ﷺ) وآذَوْه وأصحابَه»[1].

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾

٢ ـ تكرارُ بعضِ الجُمل في هذه السُّورةِ جاء للتأكيد، مثلَما جاء مِن قبلُ في سُورةِ الرَّحمن (٥٥)، وسُورة المرسَلات (٧٧)، والعربُ تُكرّرُ بعضَ الألفاظِ أو الجُمل في شِعرِها ونَثْرِها بغَرَضِ التأكيدِ على المعنى.

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾

٣ ـ يعني: أنّني على أيِّ حالٍ كنتُ من قبلُ ثابتًا على ديني، وسوف يظَلُّ هذا هو ديني إلى الأبدِ أيضًا، فإنْ لم تقبَلوا الإسلامَ، وظَللتُم قائمينَ على دينِكم، فهذا قرارُكم أنتم، وأنتم المسئولونَ عنه، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [فصلت: ٤٠].

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
وقتَ الضُّحى من يوم الاثنين ١٠ يناير ٢٠١١م
الموافق ٥ صَفَر ١٤٣٢هـ.

(١) تفسير البغوي، سورة الكافرون (١٠٩).

هذا، وقدِ اكتَملَ بفَضْل الله تعالى وكرَمِه تفسيرُ سُورة «الكافرون» اليومَ في عدّةِ ساعات، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١١٠) سُورَةُ النَّصۡرِ

هذه السُّورةُ مدَنيّة، واسمُها: «النَّصرُ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى منها.

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: «آخِرُ سُورةٍ نَزَلتْ منَ القرآنِ جميعًا: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾»[1]، يعني: أنها نَزَلت بعدَها آياتٌ عديدة، لكنْ لم تَنزِلِ السُّورةُ كلُّها، مثلَما أنّ سُورةَ الفاتحة هي أولُ سُورةٍ نَزَلت كاملةً، رَغْمَ أنّ آياتٍ عديدةً نَزَلت قبلَها أيضًا.

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي الله عنهما: «هذه السُّورةُ نَزَلتْ على النّبيِّ ﷺ أوسَطَ أيّام التّشريق بمِنًى وهو في حَجّةِ الوداع ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ حتّى خَتَمها فعَرَفَ رسولُ الله ﷺ أنّه الوداعُ»[2].

السور المكية والسور المدنية

السُّوَرُ التي نَزَلت قبلَ الهجرةِ النَّبويّة، سواءٌ نَزَلت في مكّةَ أو خارجِها، تُسمَّى «مكّيّةً»، والسُّوَرُ التي نَزَلت بعدَ الهجرةِ النّبويّة، سواءٌ نَزَلت في المدينةِ المنوَّرةِ أو

---

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) تفسير الدر المنثور.

خارجَها، تُسمَّى «مَدَنيّةً»، وبهذا فإنّ هذه السُّورةَ مَدَنيّةٌ رَغْم أنها نَزَلتْ في مكّةَ، وذلك لأنّها نَزَلت بعدَ الهجرةِ النَّبويّة.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة العصر من يوم الاثنين ١٠ يناير ٢٠١١م
الموافق ٥ صَفَر ١٤٣٢هـ.

❋ ❋ ❋

سُورَةُ النَّصۡرِ (١١٠)،

مدنية (١١٤)، آياتها (٣)، ركوعها (١)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴿١﴾ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴿٢﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴿١﴾ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾

١ ـ المرادُ بنَصْرِ الله تعالى في هذه السُّورة: غَلَبَةُ الإسلام، والمرادُ بالفَتْح: فتحُ مكّةَ؛ لأنّ الناسَ كانوا يَدخُلونَ في الإسلام بشكلٍ فَرْديٍّ ومتقطِّع قبلَ فَتْح مكة، أمّا بعدَ فَتْح مكّةَ فكان الناسُ يَدخُلونَ في دينِ الله جماعاتٍ بل وقبائلَ بأَسْرِها.

ورَغْم أنّ هذه السُّورةَ نَزَلت في حَجّةِ الوداع بعدَ فَتْح مكّةَ بعامَيْنِ كاملَيْنِ، ولكنْ جاء فيها التذكيرُ بفَتْح مكّةَ، يعني: أنّ النبيَّ الكريمَ ﷺ قد رَأى بعينَيْهِ أنّ الناسَ يدخُلونَ في دينِ الله أفواجًا، بحيث أنّ رايةَ الإسلام رَفْرفَتْ على معظَم أنحاءِ شبهِ الجزيرةِ العربيّة خلالَ عامَيْنِ لا أكثرَ، ومنه عَلِم النبيُّ ﷺ أنّ رسالتَه قدِ اكتَمَلت، وأنّ وقتَ الرحيل قد حان.

﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾

٢ ـ عندما يحقِّقُ زعيمٌ من أهلِ الدُّنيا نجاحًا كبيرًا فإنه يحتفلُ بهذا النَّجاح،

ولا تَسَعُه الدُّنيا من الفرحة، وفي بعضِ الأحيان يصابُ بالكِبْر ولا يتورَّعُ عن الظُّلم والعُدوان، ويبدأُ في احتقارِ الآخَرينَ، لكنّ اللهَ تعالى في هذه الآية أرشَدَ النبيَّ ﷺ إلى أن يُسبِّحَ بحمدِ الله تعالى ويُثنيَ عليه لهذا النَّجاح العظيم الذي حقَّقه، وإلى أن يَطلُبَ الغُفرانَ منه تعالى، ومعنى طلبِ المغفرةِ هنا هو أن يَغفرَ اللهُ تعالى لمَن أذنَبَ، وأن يَرفَعَ درجاتِ الصّالحين، ولهذا فإنَّ معنى استغفارِ النبيِّ ﷺ وتوبتِه هو رَفْعُ درجاتِه ﷺ.

ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي الله عنها: ما صَلَّى النّبيُّ ﷺ صلاةً بعدَ أنْ نَزَلت عليه ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ إلّا يقولُ فيها: «سبحانَك ربَّنا وبحَمْدِك، اللّهُمَّ اغفِرْ لي»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنه سَمِع النبيَّ ﷺ يقولُ «والله إنّي لَأستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه في اليوم أكثرَ من سبعينَ مرّةً»[٢].

ـ تقولُ السيِّدةُ أُمُّ سَلَمَةَ رضي الله عنها: كان رسولُ الله ﷺ في آخِرِ أمرِه لا يقومُ ولا يقعُد، ولا يذهَبُ ولا يجيءُ إلّا قال: «سبحانَ الله وبحَمْدِه»، فقلتُ: يا رسولَ الله، إنك تُكثرُ من سبحانَ الله وبحَمْدِه، لا تذهبُ ولا تجيءُ، ولا تقومُ ولا تقعُدُ إلّا قلتَ: سبحانَ الله وبحَمْدِه، قال: «إنّي أُمِرتُ بها»، فقال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ إلى آخِرِ السُّورة»[٣].

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة المغرب من يوم الاثنين ١٠ يناير ٢٠١١م
الموافق ٥ صَفَر ١٤٣٢هـ.

(١) البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة النصر (١١٠) برقم ٤٩٦٧.
(٢) البخاري، كتاب الدعوات، باب ٣ برقم ٦٣٠٧.
(٣) تفسير ابن جرير الطبري، سورة النصر (١١٠).

هذا، وقدِ اكتَملَ بفَضْل الله تعالى وكرَمِـه تفسيرُ سُورة «النَّصر» اليومَ في ساعتَيْنِ ونصفِ الساعةِ تقريبًا، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

❋ ❋ ❋

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١١١) سُورَةُ المَسَدِ

هذه السُّورةُ مكِّيّة، واسمُها: «اللَّهَبُ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى منها، ولها اسمٌ آخَرُ هو «المَسَدُ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأخيرةِ منها.

سبب النزول

عندَما جَمَع نبيُّنا الحَبيبُ سيّدُنا محمَّدٌ ﷺ قُريشًا فوقَ جَبَلِ الصَّفا ودعاهُم إلى الإسلام، قال له أبو لَهَب: ألهذا جمعتَنا؟ تبًّا لكَ! فنَزَلت هذه السُّورةُ في ذلك الوقت، ويمكنُكَ التعرُّفُ على تفصيل ذلك في تفسيرِ السُّورة.

عاقبة أبي لهب وزوجته

كان مصيرُ كلٍّ من أبي لَهَبٍ وزوجتِه في الدُّنيا مثيرًا للعِبرة، وينتظرُهما في الآخرةِ عذابُ النار.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة العشاء من يوم الاثنين ١٠ يناير ٢٠١١م
الموافق ٥ صَفَر ١٤٣٢هـ.

سُورَةُ المَسَد (١١١)

مكية (٦)، آياتها (٥)، ركوعها (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾

١ ـ أَرسَلَ اللهُ تعالى سيّدَنا محمّدًا ﷺ نبيًّا ورسولًا إلى البشَرِ كافةً، ولكنّ دعوتَه ﷺ تشتملُ على ثلاثِ مراحلَ؛ فقد دَعا النبيُّ ﷺ في بدايةِ الأمرِ أقاربَه الأقرَبينَ إلى الإسلام، ثم بعدَ ذلك دَعا العربَ الآخَرينَ، وبعدَها دعا مَن هم من خارج الجزيرةِ العربيّة. يُبيِّنُ لنا سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما المرحلةَ الأولى عندَما بَدأَ النبيُّ ﷺ بدعوةِ أقربائه الأقرَبينَ قائلًا لمّا نَزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ صَعِد النّبيُّ ﷺ على الصَّفا فجَعَل يُنادي: «يا بني فِهرٍ، يا بني عَدِيٍّ» لبُطونِ قُريشٍ حتّى اجتمَعوا، فجَعَل الرّجلُ إذا لم يستطعْ أن يَخرُجَ أرسَلَ رسُولًا لينظُرَ ما هو، فجاء أبو لَهَبٍ وقُريشٌ فقال: «أرأيتُكم لو أَخبرتُكم أنّ خَيلًا بالوادي تريدُ أن تُغِيرَ عليكم، أكنتُم مُصَدِّقيَّ؟». قالوا: نَعمْ، ما جَرَّبْنا عليكَ إلّا صِدقًا. قال: «فإنّي نَذيرٌ لكم بينَ يدَيْ عذابٍ شديد». فقال أبو لهبٍ: تبًّا لكَ سائرَ اليوم، ألهذا جمعتَنا؟

فنَزَلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾[١].

مصير أبي لهب

كـان اسمُ أبي لَهَبٍ هو عـبدَ العُزّى، وكان مشهورًا بكُنيةِ «أبي لَهَبٍ» بسببِ لونِ وجهِه المائل إلى الحُمرة، وكان عمًّا شقيقًا للنبيِّ ﷺ، وكان كذلك عدوًّا لَدُودًا له.

يقولُ سيّد محمود الآلوسيُّ: «وهَلَك أبو لَهَبٍ نفسُه بالعَدَسةِ[٢] بعدَ وَقْعة بدر لسبعِ ليال، فاجتَنَبَه أهلُه مخافةَ العَدْوَى، وكانت قُريشٌ تتَّقيها كالطاعون، فبقي ثلاثًا حتى أَنْتَن، فلمّا خافوا العارَ استَأْجَروا بعضَ السُّودانِ فاحتَمَلوه ودَفَنوه. وفي روايةٍ: حَفَروا له حُفرةً ودَفَعوهُ بعُودٍ حتى وَقَع فيها فقَذَفُوهُ بالحجارةِ حتى وارَوْه»[٣].

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾

٢ ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: «لمّا أَنْذَر رسولُ الله ﷺ عشيرتَه بالنّار، قال أبو لَهَبٍ: إنْ كان ما يقولُ ابنُ أخي حقًّا فإنّي أَفْدي نفسي بمالي ووَلَدي، فنَزَل: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾»[٤]. يعني: عندَما جاء عذابُ الله تعالى لم يُغْنِ مالُه عنه شيئًا، حتى أنّ أبناءه تَرَكُوه في مرَضِه وحيدًا ووَلَّوْا بعيدًا عنه، ورَفَضوا دَفْنَه بعدَ موتِه، وهذه النِّهايةُ المثيرةُ للعبرةِ كانت في الدنيا، أما في الآخِرة فينتظرُه لهيبُ النِّيران.

---

(١) البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة الشعراء (٢٦) برقم ٤٧٧٠.

(٢) العدسة: ثبرة صغيرة شبيهة بالعدسة (حبة العدس) تخرج بالبدن مفرَّقة كالطاعون فتقتل غالبًا، وقلما يسلم منها، وقد عدس (بالبناء للمفعول) فهو معدوس. تاج العروس (عدس).

(٣) تفسير روح المعاني، سورة المسد (١١١).

(٤) تفسير القرطبي، سورة المسد (١١١).

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾

٣ ـ كان بيتُ أبي لَهَبٍ مُلاصِقًا لبيتِ النبيِّ ﷺ، وكانت زوجتُه تجمَعُ الأخشابَ ذاتَ الأشواكِ من الصَّحراءِ وتأتي بها، وباللَّيل تضَعُها في طريقِه ﷺ حتى تُؤذيَه[1].

﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾

٤ ـ قال الشَّعبيُّ ومُقاتل: «هو الحَبلُ الّذي كانت تَحتطبُ به، فبينَما هي ذاتَ يومٍ حاملةٌ حُزمةً فأَعْيَتْ فقَعَدتْ على حَجَرٍ تستريحُ، فأتاها مَلَكٌ فجَذَبَها من خَلْفِها فأهلكَها»[2].

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة العشاء من يوم الاثنين ١٠ يناير ٢٠١١م
الموافق ٥ صَفَر ١٤٣٢هـ.

هذا، وقدِ اكتَملَ بفَضْل الله تعالى وكرَمِه تفسيرُ سُورة «المسَد» اليومَ في ساعتَيْنِ تقريبًا، وبهذا أكونُ قد أكمَلتُ تفسيرَ ثلاثِ سُورٍ اليومَ فقط وهي: سُورة «الكافرون» وسُورة «النَّصر» وسُورة «المَسد»، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّد المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

❋ ❋ ❋

(١) «كانت تحمل الشّوك والعضاه فتطرحه في طريق رسول الله ﷺ وأصحابه لتعقرهم» تفسير البغوي والقرطبي».

(٢) تفسير البغوي، سورة المسد (١١١).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١١٢) سُورَةُ الإخْلَاصِ

هذه السُّورةُ مكِّية، ولها أسماءٌ عديدةٌ، لكنّ أشهَرَها هو «الإخلاصُ»، والسببُ في ذلك هو أنّ هذه السُّورةَ تتحدَّثُ عن التوحيدِ الخالصِ لله تعالى، وهو أساسُ الإسلام وأهمُّ عقيدةٍ فيه.

سبب النزول

يقولُ سيّدُنا أُبيُّ بنُ كعبٍ رضي الله عنه: «إنّ المشركينَ قالوا لرسُول الله ﷺ: انسُبْ لنا ربَّك. فأنْزلَ الله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾، فالصّمدُ: الذي لم يلِدْ ولم يولَدْ؛ لأنّه ليس شيءٌ يولَدُ إلّا سيموتُ، وليس شيءٌ يموتُ إلّا سيورَثُ، وإنّ اللهَ عزَّ وجلّ لا يموتُ ولا يورَثُ، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ قال: «لم يكنْ له شَبيهٌ ولا عِدْلٌ وليس كمِثلِه شيءٌ»[1].

فضل سورة الإخلاص

ـ يقولُ سيّدُنا أبو الدَّرداءِ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «أيعجِزُ أحدُكم أن يقرأَ في ليلةٍ ثُلُثَ القرآن؟» قالوا: وكيف يَقرَأُ ثُلُثَ القرآن؟ قال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تَعدِلُ ثُلُثَ القرآن»[2].

---

(١) الترمذي، تفسير القرآن، باب ١١٢، سورة الإخلاص (١١٢) برقم ٣٣٦٤.

(٢) مسلم، كتاب فضائل القرآن، باب ٤٥، سورة الإخلاص (١١٢) برقم ١٨٨٦.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: خَرَج إلينا رسولُ الله ﷺ فقال: «أقرَأُ عليكم ثُلُثَ القرآن؟». فقرَأَ «﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتّى ختَمَها»[١].

ـ تقولُ السِّيدةُ عائشةُ رضي الله عنها: إنّ النّبيَّ ﷺ بَعَث رجلًا على سَريّةٍ، وكان يقرَأُ لأصحابِه في صَلاتِه فيَختِمُ بـ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فلمّا رَجَعوا ذَكَروا ذلك للنّبيِّ ﷺ فقال: «سَلُوه لأيِّ شيءٍ يصنَعُ ذلك؟». فسألوه فقال: لأنّها صفةُ الرّحمن، وأنا أُحبُّ أن أقرَأَ بها. فقال النّبيُّ ﷺ: «أخبِروه أنّ اللهَ يُحبُّه»[٢].

ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه: كان رجلٌ من الأنصارِ يؤُمُّهم في مسجدِ قُباءٍ، وكان كلَّما افتَتَح سُورةً يقرَأُ بها لهم في الصّلاةِ ممّا يقرَأُ به افتَتَح بـ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتّى يَفرُغَ منها، ثمّ يقرَأُ سُورةً أخرى معَها، وكان يصنَعُ ذلك في كلِّ ركعةٍ، فكلَّمَه أصحابُه فقالوا: إنّك تفتتحُ بهذه السُّورة، ثمّ لا تَرى أنّها تُجزئُك حتّى تقرَأَ بأخرى، فإمّا أن تقرَأَ بها وإمّا أن تدَعَها وتقرَأَ بأخرى. فقال: ما أنا بتاركِها، إن أحببتُم أن أؤمَّكم بذلك فعَلتُ، وإن كرِهتُم تركتُكم. وكانوا يرَوْنَ أنّه من أفضلِهم، وكرِهوا أن يؤمَّهم غيرُه، فلمّا أتاهم النّبيُّ ﷺ أخبَروه الخَبرَ فقال: «يا فلان، ما يمنَعُكَ أن تفعَلَ ما يأمُرُك به أصحابُك، وما يحمِلُك على لزوم هذه السُّورةِ في كلّ ركعةٍ؟». فقال: إنّي أُحبُّها، فقال: «حبُّك إيّاها أدخَلَك الجنّةَ»[٣].

ـ يقولُ سيّدُنا عليٌّ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن مَرَّ على المقابرِ فقرَأَ فيها إحدى عشرةَ مرّةً ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثمّ وَهَب أجرَه الأمواتَ أُعطيَ من الأجرِ بعددِ الأموات»[٤].

---

(١) مسلم، كتاب فضائل القرآن، باب ٤٥، سورة الإخلاص (١١٢) برقم ١٨٨٩.

(٢) البخاري، كتاب التوحيد، باب ١ برقم ٧٣٧٥.

(٣) البخاري، كتاب الأذان، باب ١٠٦ برقم ٧٧٤.

(٤) كنز العمال، ١٥: ٦٥٥، برقم ٤٢٥٩٦.

- يقولُ سيّدُنا سَهلُ بن سَعْد الساعِديُّ: شَكَا رجلٌ إلى رسولِ الله ﷺ الفقرَ وضِيقَ المعيشة، فقال له رسولُ الله ﷺ: «إذا دخَلتَ البيتَ فسلِّمْ إن كان فيه أحدٌ، وإن لم يكنْ فيه أحدٌ فسلِّمْ علَيَّ، واقرَأْ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ مرّةً واحدةً»، ففعَلَ الرّجلُ، فأدرَّ اللهُ عليه الرّزقَ، حتّى أفاضَ على جيرانِه(١).

- يقولُ القاضي عِيَاضٌ: «وقال عَمْرُو بن دينار، هو إمامٌ وعالِمٌ حُجّةٌ أَخْرج له الأئمةُ السِّتةُ في قولِه (أي: اللهِ سبحانه): ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١] أي: على أهليكم ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ (قال) ابنُ دينار: (إن لم يكنْ في البيتِ أحدٌ فقل: السّلامُ على النّبيِّ ورحمةُ الله وبركاتُه) أي: لأنّ رُوحَه عليه السَّلامُ حاضرٌ في بيوتِ أهل الإسلام»(٢).

- يَنقُلُ الإمامُ فَخْرُ الدِّين الرازي في تفسيرِ هذه السُّورةِ روايةً تقولُ: «كان جِبريلُ عليه السّلامُ معَ الرّسُول عليه الصّلاةُ والسّلام، إذْ أَقْبلَ أبو ذَرٍّ الغِفاريُّ، فقال جِبريلُ: هذا أبو ذرٍّ قد أَقْبل، فقال عليه الصّلاةُ والسّلام: أو تعرِفونَه؟ قال: هو أشهَرُ عندَنا منه عندَكم، فقال عليه الصّلاةُ والسّلام: بماذا نالَ هذه الفضيلةَ؟ قال: لصِغَرِه في نفسِه وكثرةِ قراءتِه ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾»(٣).

وأعتقدُ أنّ من المناسبِ فيما يتعلَّقُ بالتوحيدِ الخالصِ أن أتحدَّثَ عن عقيدةِ التوحيدِ هنا بشيءٍ من التفصيل.

الإيمان بالله تعالى

المرادُ بالإيمانِ بالله تعالى هو: أن يُقِرَّ الإنسانُ بلسانِه ويُصدِّقَ بقلبِه أن:

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الإخلاص (١١٢).

(٢) شرح الشفاء، فصل في المواطن التي يستحب فيها الصلاة والسلام، ٢: ١١٨.

(٣) التفسير الكبير، سورة الإخلاص (١١٢).

* اللهَ واحد. * ولا شريكَ لهُ ولا مَثِيل. * وهو وحدَه المستحِقُّ للعبادة. * وأنه الأولُ والآخِر، يعني: من الأزَلِ إلى الأبد. * وهو متَّصفٌ بكلِّ كمال، ومنَزَّهٌ عن كلِّ عَيْب. * وهو خالقُ الكائناتِ كلِّها ومالكُها. * وهو ربُّ كلِّ شيءٍ ورازقُه. * وهو الحيُّ الذي لا يموتُ، وحياةُ الجميع وموتُهم في قبضةِ قُدرتِه. لا والدَ له ولا وَلَد. * ولا تأخُذُه سِنَةٌ ولا نَوْم. * وهو المستغني، والكائناتُ كلُّها محتاجةٌ إليه. * وعِلمُه مُحيطٌ بكلِّ ذَرّةٍ في الكائنات. * يَعلَمُ الظاهرَ والباطنَ تمامَ العلم، كما يَعلمُ ما يَدُورُ في أعماقِ قلبِ الإنسان من أفكار. * وهو موجودٌ في كلِّ مكان. * لا يُرى ولكن يُعرَفُ من قُدرتِه. * وأنه هو الرَّحمنُ الرَّحيم والعفوُّ الغَفور. * وأنه هو القويُّ على الإطلاقِ، والمحِبُّ على الإطلاق.

الأسماء الحسنى

اللهُ تعالى واحد، واسمُ ذاتِه أيضًا واحدٌ، وصفاتُه كثيرةٌ للغاية، ولهذا فإنّ أسماءَ صفاتِه أيضًا كثيرةٌ للغاية، مثلًا: الرَّحمنُ، الرَّحيمُ، الرزّاقُ، الخالقُ، القُدُّوسُ، السَّلامُ، العزيزُ، العليمُ، القديرُ، السَّميعُ، البصيرُ، الحَكيمُ، الغَفُورُ، الشَّكورُ وغيرُها، وكلُّها مذكورةٌ في القرآنِ المجيدِ والحديثِ الشَّريف، وكما أنّ ذاتَ اللهِ تعالى منزَّهةٌ عن كلِّ نَقْصٍ وعَيْب، كذلك أسماؤه الحُسنى أيضًا منزَّهةٌ عن كلِّ نقصٍ وعَيْب.

وكما أنّ ذاتَ الله تعالى مباركةٌ فإنّ أسماءه أيضًا مباركةٌ، ولهذا يُعلِّمُنا الإسلامُ أنّ على كلِّ مسلم أن يبدَأَ كلَّ عملٍ جائزٍ باسم الله، حتى تَحِلَّ برَكةُ اسم الله في هذا العمل.

بركة الأسماء الحسنى

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ لله تسعةً وتسعينَ اسما، مائةً إلّا واحدًا، مَن أحصاها دَخَل الجنّةَ»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بن عَمْرِو بن العاصِ رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ اللهَ سيُخلِّصُ رجلًا من أُمّتي على رءوسِ الخلائق يومَ القيامة فينشُرُ عليه تسعةً وتسعينَ سجِلًّا كلُّ سِجِلٍّ مِثلُ مدِّ البصَر، ثمّ يقولُ: أتُنكرُ من هذا شيئًا؟ أظَلَمَك كتَبَتي الحافظونَ؟ فيقول: لا يا ربّ. فيقولُ: أفلَكَ عُذرٌ؟ فيقول: لا يا ربِّ. فيقولُ: بلى، إنّ لك عندَنا حسَنةً فإنّه لا ظُلمَ عليك اليومَ، فتُخرَجُ بطاقةٌ فيها أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلّا الله وأشهدُ أنّ محمّدًا عبدُه ورسولُه، فيقولُ: احضُرْ وزنَك، فيقولُ: يا ربِّ، ما هذه البطاقةُ مع هذه السِّجِلّات؟ فقال: إنّك لا تُظلَمُ. قال: فتوضَعُ السِّجلاّتُ في كِفّةٍ والبطاقةُ في كفّةٍ فطاشَت السِّجِلاّتُ وثَقُلتِ البطاقةُ فلا يَثقُلُ معَ اسم الله شيءٌ»(٢).

تصور التوحيد

إنّ تصَوُّرَ الإلهِ الواحدِ موجودٌ في فِطرةِ كلِّ إنسان، مثلَما يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه، من أنّ النبيَّ ﷺ قال: «ما من مولودٍ إلّا يولَدُ على الفِطرة، فأبواه يُهوِّدانِه أو يُنصِّرانِه أو يُمجِّسانِه، كما تُنتجُ البهيمةُ بهيمةً جَمْعاءَ، هل تُحِسُّونَ فيها من جَدْعاء؟». ثمّ يقولُ أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]»(٣)، ويُعلَمُ منه أنّ اللهَ تعالى

(١) البخاري، كتاب الشروط، باب ١٨ برقم ٢٧٣٦.

(٢) الترمذي، أبواب الإيمان، باب ١٧ برقم ٢٦٣٩.

(٣) البخاري، كتاب الجنائز، باب ٧٩ برقم ١٣٥٩.

أَوْدَعَ في فِطرةِ بني الإنسانِ جميعًا صلاحيَةَ قَبولِ التوحيد، ولا فَرْقَ في هذا بينَ مسلم وغيرِ مسلم، ولو لم يُودِع اللهُ تعالى صلاحيَةَ قَبولِ التوحيدِ في فِطرةِ أبي جَهْل وأبي لَهَب، لَما صحَّتْ دعوتُهما إلى الإسلام، ثم الحُكمُ بأنّهما يستحِقّانِ جهنَّمَ.

استدلال الإمام جعفر الصادق على الله الواحد

يقولُ العلّامةُ فَخْرُ الدِّين الرازي: «يُحكى أنّ واحدًا قال لجعفرٍ الصّادق: اذكُرْ لي دليلًا على إثباتِ الصّانع، فقال: أَخْبِرْني عن حِرفتِك: فقال: أنا رجلٌ أتَّجرُ في البحر، فقال: صِفْ لي كيفيّةَ حالِك، فقال: رَكِبتُ البحرَ فانكسَرتِ السَّفينةُ وبَقِيتُ على لوحٍ واحدٍ من ألواحِها، وجاءت الرّياحُ العاصفةُ، فقال جعفرٌ: هل وَجَدتَ في قلبِك تضرُّعًا ودعاءً؟ فقال: نعم، فقال جعفرٌ: فإلهُك هو الّذي تَضرَّعتَ إليه في ذلك الوقت»[١]. والإنسانُ غالبًا يتأثَّرُ من بيئتِه ووالدَيْه، فيضغَطُ هذه الفِطرةَ، لكنّها تَظهَرُ عندَ المصائبِ وتكشِفُ عن نفسِها، ولهذا عندَما كانت المصائبُ تُحيطُ بالمشركين، فإنّهم كانوا يَلجَأونَ إلى الله تعالى ويَستغيثونَ به بدَلًا من الأصنام.

الرجوع إلى إله واحد

يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «وفي هذا دليلٌ على أنّ الخَلْقَ جُبِلوا على الرُّجوع إلى الله في الشّدائد، وأنّ المُضْطَرّ يجابُ دعاؤه، وإن كان كافرًا، لانقطاع الأسبابِ ورجوعِه إلى الواحدِ ربِّ الأرباب»[٢]، ولهذا عَلَّمَنا النبيُّ ﷺ أن نتَّقيَ دعوةَ المظلوم. يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «اتَّقوا دعوةَ المظلوم، وإن كان كافرًا، فإنّه ليس دونَها حِجابٌ»[٣]، ويُقبَلُ دعاؤه سريعًا.

---

(١) التفسير الكبير، سورة يونس (١٠): الآية ٢٢.

(٢) تفسير القرطبي، سورة يونس (١٠): الآية ٢٢.

(٣) مسند أحمد، ٣: ١٥٣.

قبول سيدنا عكرمة رضي الله عنه الإسلام

يُروى أنه عندَما فُتِحت مكّةُ المكرَّمةُ فَرَّ عِكرِمةُ بنُ أبي جَهْل منها، ورَكِبَ سفينةً لتنقُلَه إلى بلدٍ آخَر، «فأصابَتْهم عاصفٌ، فقال أصحابُ السّفينة: أخلِصُوا، فإنّ آلهتَكم لا تُغني عنكم شيئًا ها هنا. فقال عِكرِمةُ: والله لئن لم يُنجِّني من البحرِ إلّا الإخلاصُ لا يُنجِّيني في البَرِّ غيرُه، اللّهُمّ إنّ لك عليّ عهدًا إن أنت عافيتَني ممّا أنا فيه أن آتيَ محمّدًا ﷺ حتّى أضَعَ يدي في يدِه فلأجِدَنّه عَفُوًّا كريمًا. فجاء فأَسْلَمَ»(١).

وقد بَيَّن ابنُ سَعْدٍ هذه الواقعةَ قائلًا: «لمّا رَكِب السَّفينةَ أخذَتْهم الرِّيحُ، فجَعَلوا يَدْعُونَ اللهَ تعالى ويُوحِّدونَه، قال: ما هذا؟ فقالوا: هذا مكانٌ لا ينفَعُ فيه إلا اللهُ تعالى، قال: فهذا إلهُ محمدٍ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم الذى يَدعُونا إليه فارجِعوا بنا، فرَجَع وأَسْلَم»(٢).

الكتاب المقدس والتوحيد

إنّ التعاليمَ الأساسيّةَ والمِحوَريّةَ في كلِّ كتابٍ سَماويٍّ هي أنّ اللهَ واحد، ولا تليقُ العبادةُ إلّا به، وهو متفرِّدٌ ليس كمِثلِه شيءٌ من كلِّ اعتبار، ولو تأمَّلْنا الكتابَ المقدَّسَ الموجودَ الآنَ لوَجَدْنا فيه تصوُّرَ اللهِ الواحدِ في مواضعَ لا حَصْرَ لها منه، وأمامي الآنَ «الكتابُ المقدَّسُ الحَيُّ: The Living Bible)، طبعة ١٩٧٥م، وإليك بعضَ الاستشهاداتِ منه:

١ ـ أيُّها اللهُ الربُّ، إنك في غايةِ العظَمةِ والرِّفعةِ بحيث أنّنا لم نسمَعْ عن إلهٍ غيرِك مِثلِك، ولا يوجَدُ إلهٌ سواك(٣).

---

(١) سنن النسائي، كتاب تحريم الدم، باب ١٤.
(٢) تفسير روح المعاني، سورة يونس (١٠): الآية ٢٢.
(٣) ٢ صمويل:
"How great are you. Lord god! We have never heard of any other god like you. And there is no other god". (2 Samuel: 7: 22: P. 313).

٢ ـ أنت، وأنت فقطِ اللهُ الواحدُ، أنت الذي خَلقتَ السَّماواتِ والجِنانَ والأرضَ والبحرَ وكلَّ شيءٍ يَسكُنُ في محيطِها، وأنت ربُّ الجميع، والملائكةُ كلُّها تعبُدُك(١).

٣ ـ ثم أخَذَه (أي: سيّدَنا عيسى عليه السَّلامُ) الشَّيطانُ إلى قمةِ جَبَل في غايةِ الارتفاع، وأراه الأُممَ في العالَم أجمَعَ، وكذا عظَمَتهم وشوكتَهم، ثم قال له: إذا انحنَيْتَ وعبدتَني أنا فقط، فسوف أُعطيكَ هذا كلَّه. فقال له سيّدُنا عيسى عليه السَّلامُ: اغرُبْ عنِّي أيُّها الشّيطان؛ لأنّ الصُّحُفَ المقدَّسةَ تقولُ أنِ اعبُدِ اللهَ ربَّك فقطْ، وأطِعْه هو، ولا تُطعْ سواه(٢).

٤ ـ سأل أُستاذٌ من أساتذةِ الدِّين سيّدَنا عيسى عليه السَّلامُ: ما أهمُّ حُكم من بينِ الأحكام كلِّها؟ فأجابَه سيّدُنا عيسى عليه السَّلام: اسمَعْ يا إسرائيل، أولًا: ربُّنا اللهُ واحد، وعليك أن تُحبَّ اللهَ من كلِّ قلبِك ورُوحِك وعقلِك، وبكلِّ قوّتك... فقال الأستاذ: سيِّدي، رائع، لقد قلتَ الصِّدقَ بأنّ اللهَ واحد، ولا شيءَ سِواه(٣).

---

(١) You alone are god. You have made the skies and the heavens, the earth and the seas, and everything in them. You preserve it all, and all the angels of heaven worship you. (Nehemiah: 9: 6: P. 491).

(٢) Next Satan took him to the peak of a very high mountain and showed him the nations of the world and all their glory. "I'll give it to you," he said, "if you will only kneel and worship me."
"Get out of here, Satan." Jesus told him. "The Scriptures say, "Worship only the Lord God. Obey only him." (Matthew: 4: 8 to 10: P. 886).

(٣) One of the teachers of religion asked. "Of all the commandments, which is the most important?" Jesus replied, "The one that says, "Hear, O Israel! The Lord God is the one and only God. And you must love him with all=

٥ ـ (ذاتَ مرةٍ خَطَب سيّدُنا عيسى عليه السَّلام، ثم رَفَع وجهَه إلى السَّماءِ مخاطبًا اللهَ عزَّ وجل): إنَّ الطريقَ للحصُولِ على الحياةِ الخالدةِ أن يؤمنَ الإنسانُ بأنك واحدٌ، وأنك حقٌ، وأنّ المسيحَ رسولٌ منك على الأرض[1].

بعض الدلائل العقلية على التوحيد

١ ـ خالقُ الكائناتِ هو اللهُ تعالى فقطْ

لو سَلَّمْنا بأنّ هناك أكثرَ من إلهٍ، لَبرَزَ سؤالٌ فَحْواه: هل خَلَق هذه الكائناتِ إلهٌ واحدٌ أم ساعَدَتِ الآلهةُ بعضَها بعضًا في خَلْقِها؟ فإنْ كان الذي خَلَق الكائناتِ إلهًا واحدًا فما الداعي لأن نؤمنَ بباقي الآلهةِ إذًا؟ ولو أنّ الآلهةَ كلَّها خَلَقتْها بمساعدةِ بعضِها بعضًا، فليس من بَيْـنِهم إذًا من يستحِقُّ أن يكونَ إلهًا؛ لأنّ الذي يحتاجُ المساعدةَ من الآخَرينَ كيف سيُساعدُ مخلوقاتِه؟

٢ ـ اللهُ تعالى لا يَحتاجُ إلى أحدٍ

لو أنّ مِن بَيْنِ الآلهةِ مَن هو كاملُ القُدرة، ويَحتاجُ الآخَرونَ إلى مساعدةٍ منه، فما الذي يَجعَلُ هذا الإلهَ الكاملَ يُشركُ باقيَ الآلهة معَه في خَلْقِ هذه الكائناتِ العظيمة؟ على سَبيل المثال: لو أنّ عالمًا يستطيعُ وحدَه اختراعَ شيءٍ ما، فإنه لن يَقبَلَ أن يُشاركَه أحدٌ في هذا الشَّرف؟

= your heart and soul and mind and strength ..."
The teacher of religion replied, "Sir, you have spoken a true word in saying that there is only one God and no other." (Mark: 12: 28 to 32: P. 941).

(١) And this is the way to have etemal life – by knowing you, the only true God, and Jesus Christ, the one you sent to earth. (John: 17: 3: P. 1018).

٣ ـ اللهُ تعالى هو الأقوى على الإطلاق

لو أنّ الآلهةَ كلَّها تملِكُ نَفْسَ القوةِ والاختيار، فمنَ الحَتْميِّ أن تَنشَبَ بينَهم الاختلافاتُ، وعندَما يواجهُ أحدُ الآلهةِ الآخَرَ في صراع فسوف يَختَلُّ نظامُ الكائنات، مثلَما يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

٤ ـ اللهُ تعالى هو الذي يُسيِّرُ نظامَ الكائنات

لو افترَضْنا أنّ الآلهةَ كلَّها تعمَلُ بتنسيقٍ كاملٍ فيما بينَها، ولا يختلفونَ معَ بعضِهم، فهل يَستغرقُ تسييرُ الكائناتِ قوّتَهم جميعًا، أم قوّةَ واحدٍ منهم فقط؟ لو كانت قوّةَ واحدٍ فقطْ هي المستعمَلةُ في تسييرِ الكائنات، فإنّ الباقينَ لا فائدةَ منهم إذًا، ولو أنّ قوّتَهم جميعًا تُستخدَمُ في تسييرِ نظام الكائنات، فسيَبرُزُ سؤالٌ وهو: هل يستطيعونَ تسييرَ نظام الكائناتِ كلٌّ على حِدَةٍ، أم لا؟ فإن لم يكونوا يستطيعونَ ذلك، فكلُّهم عاجزٌ ومحتاجٌ إذًا، وهو ما لا يَليقُ بشأنِ الله وعظَمتِه، أمّا إن كان كلٌّ منهم يستطيعُ تسييرَ نظام الكائناتِ وحدَه، ومعَ ذلك يجتمعونَ معًا على تسييرِه، فإنّ هذا معناه ضَياعٌ للوقتِ واستعراضٌ بلا سبب.

٥ ـ اللهُ تعالى ليس عاجزًا

يقولُ العلّامةُ القُرطبيّ: «لو كان فيهما إلهانِ لَفَسَد التدبيرُ؛ لأنّ أحدَهما إن أراد شيئًا والآخَرَ ضدَّه كان أحدُهما عاجزًا»[1]، يعني: لو أنّ إلهًا أراد اليومَ أن يجعَلَ الشمسَ تُشرقُ من المغرِب، وأراد الآخَرُ أن تُشرقَ من المشرِق، وطَلعتِ

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الأنبياء (٢١): الآية ٢٢.

الشمسُ من المغرب، فمعناه أنّ الثانيَ عاجزٌ، وإنْ لم تَطلُعْ من المغربِ فمعناهُ أنّ الأولَ عاجزٌ، والعاجزُ لا يمكنُ أن يكونَ إلهًا، فلَزِم أن يكونَ الإلهُ واحدًا.

٦ ـ ليس هناك إلهٌ سوى الله تعالى:

يقولُ العلّامةُ إسماعيلُ حقِّي: « ليس لجسَدٍ قلبانِ، ولا لبدَنٍ نفسانِ، ولا للسماءِ شمسان، شَهِد الإخبارُ بواحد، وهو منتَهى الأعيان، لو حصَلَ شمسانِ لانطمَسَتِ الأركان، أبىَ النظامُ شمسًا أُخرى، فكيف لا يأبَى إلهًا آخَرَ؟ إن كان للقَيُّوم شريكٌ فأين شمسُه؟»[١]، وهذه حقيقةٌ بَدَهيّةٌ تمامًا، مثلَما هو واقعٌ في دُنيانا اليومَ من أنّ كلَّ بلدٍ أو مصنَع أو مدرسةٍ لها رئيس، والذي يَملِكُ قوةَ اتّخاذِ القرارِ هو الذي يكونُ رئيسًا وحدَه، وإلّا فَسَدت الإدارةُ التي يقودُها.

٧ ـ مَن كان قبلَ اللهِ تعالى؟

سألَ أحدُ الدَّهريِّين (مُنكِري اللهِ تعالى) الإمامَ أبا حنيفةَ رحمه الله: لو أنّ اللهَ واحد، فمَن كان قبلَه؟ فقال الإمامُ أبو حنيفةَ رحمه الله: إنْ كنتَ تَعرِفُ العَدَّ فعُدَّ، وهكذا أخَذَ الدَّهريُّ يَعُدُّ حتى وَصَل إلى ثلاثة، فسأَله الإمامُ أبو حنيفةَ رحمه الله: قل لي، ماذا قبلَ ثلاثة؟ فقال: اثنان. فسأَلُه: وماذا قبلَ اثنَيْنِ؟ قال: واحدٌ. فقال الإمام أبو حنيفةَ رحمه الله: وماذا قبلَ واحد؟ فقال: صِفر، يعني: لا شيءَ. فقال الإمامُ أبو حنيفةَ رحمه الله: وهذا هو ما نقولُه، أي: أنّ اللهَ واحدٌ، وليس قبلَه شيء.

٨ ـ اللهُ في كلِّ مكان

سألَ أحدُ الدَّهريِّينَ الإمامَ أبا حنيفةَ رحمه الله: من الضَّروريِّ أن يكونَ لكلِّ موجودٍ مكانٌ يقيمُ فيه، فأين يُقيمُ اللهُ؟ فطلَبَ الإمامُ أبو حنيفةَ إناءً مليئًا باللَّبنِ وقال

---

(١) تفسير روح البيان، سورة الأنبياء (٢١): الآية ٢٢.

للدَّهريِّ: هل في هذا الإناء زُبدة؟ فقال الدَّهريُّ: نعَمْ. سألهُ الإمامُ أبو حنيفةَ: في أيِّ جزءٍ من اللَّبَنِ توجَدُ الزُّبدة؟ قال الدَّهريُّ: لا يمكنُ أن نُحدِّدَ ركنًا معيَّنًا؛ لأنّ الزُّبدةَ توجَدُ في كلِّ قطرةٍ من اللَّبَن. فقال الإمامُ أبو حنيفةَ: هكذا اللهُ، موجودٌ في كلِّ مكان، ولا يمكنُ أن نُحدِّدَ له مكانًا بعَيْنِه.

٩ ـ اللهُ موجود

كان هناك عجوزٌ في الزمنِ القديم تَغزِلُ بمِغزَلِها، أي: تَغزِلُ الخَيْطَ من القُطن، وفي نفسِ الوقت كانت تُردِّدُ الشهادتَيْنِ دائمًا، فسألَها أحدُ عابري السَّبيل: هل لديكِ دليلٌ على وجودِ الإلهِ الذي تَذكُرينَ؟ قالت العجوزُ: نعَمْ. مِغزَلي هذا دليلٌ على وجودِ الله. فقال عابرُ السَّبيل: وكيف هذا؟ قالتِ المرأة: حين أُديرُ هذا المِغزَلَ يدُورُ، وإن لم أُحرِّكْه لا يتحرَّك، وبما أنّ نظامَ الكائناتِ في حركةٍ دائمة، فإنّ هذا دليلٌ على أنّ هناك مَن يُحرِّكُه ويُسيِّرُه، وهو اللهُ الواحدُ خالقُ الكائناتِ كلِّها ومالكُها.

١٠ ـ اللهُ واحدٌ فقط

سأل عابرُ السَّبيل المرأةَ ثانيةً: هل لديكِ دليلٌ على أنّ من يُسيِّرُ الكائناتِ إلهٌ واحدٌ؟ فقالتِ العجوز: دليلُه مِغزَلي أيضًا؛ لأنّي إذا أَدرتُه وحدي دارَ بشكلٍ صحيح، وإذا أدارَه اثنانِ انقطَع الخيطُ (مثلَما أنّ السيّارةَ إن يَقُدْها واحدٌ فقط، تسِرْ بشكلٍ صحيح، وإن يَقُدْها اثنانِ في نفسِ الوقت فهناك إمكانٌ لأنْ تتعرَّضَ لحادث)، وبما أنّ نظامَ الكائناتِ كلَّه يدورُ بنَسَقٍ معيَّن وبكلِّ سرعتِه، فإنّ هذا يعني أنّ الذي يُسيِّرُه واحدٌ فقط، ولو كان هناك أكثرُ من إلهٍ لَانفَرطَ عَقْدُ نظام الكائناتِ بسببِ اختلافِهم فيما بينَهم، وقد قال اللهُ تعالى في القرآنِ المجيد: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

١١ ـ اللهُ لا يُرى

قال أحَدُ المدرِّسينَ الدَّهريِّينَ للتلاميذِ في الفَصْل: هل أبدو لكمُ الآن؟ فقال التلاميذ: نعَمْ. فقال المدرِّسُ: هذا يعني أنّي موجود. ثم سألَ التلاميذَ بنفسِ الطريقةِ عن الكُرسيِّ والمِنضَدة، وبعدَها سألَهم: هل اللهُ يبدو لكم؟ فقالو: لا. قال المدرِّس: هذا يعني أنّ اللهَ ليس موجودًا، ولو كان موجودًا لَبدا لكم. فوَقَف أحدُ التلاميذِ وقال مخاطبًا باقيَ زملائه: هل يَبدو لكُم عقلُ المدرِّس؟ فأجابَ التلاميذُ بالنَّفي. فقال التلميذُ: هذا يعني أنه لا عقلَ للمدرِّس. وهكذا هناك أشياءُ كثيرةٌ لا نَراها ولكنَّنا نؤمنُ بوجودِها، مِثلَ: الرُّوح والهـواءِ والصّـوتِ والإخلاصِ والنِّفاقِ وغيرِها.

١٢ ـ لَيس مِن الضَّروريِّ أن يتَراءى لنا كلُّ شيءٍ موجودٍ

سألَ رجلٌ أحدَ المشايخ: لقدِ ارتقَى العِلمُ في أيامِنا هذه وتَطوَّر، بحيث يمكنُ رؤيةُ الأشياءِ البعيدةِ بالمنظارِ المقرِّب، والأشياءِ الدَّقيقةِ بالمنظارِ المعظِّم، ولو كان اللهُ موجودًا لَأمكَن رؤيتُه أيضًا.

قال الشّيخُ: لقد تَسلَّل الشّيطانُ إلى عقلِك، فتجنَّبْ وساوسَه إليك، وهو نفسُه سوف يَحترقُ بنارِ جهنَّم، لكنَّه سيأخُذُك معَه. فقال السائل: الشّيطانُ مخلوقٌ من نارٍ، فكيف ستَضُرُّ النارُ النارَ؟ أمسَكَ الشّيخُ بقطعةٍ من الطِّين الجافِّ ورماهُ بها فجَرَحتْ قدمَه، فصاحَ السائلُ مُستنكِرًا: انظُرْ، لقد جَرَحتَني، أيُّ ظلمٍ هذا؟

قال الشّيخ: إنّ أصلَك من الطِّين، فكيف يؤْذي الطِّينُ الطِّين؟ فقال السائل: إنّ الدمَ يسيلُ من قَدَمي، وقَدَمي تؤلمُني الآنَ. قال الشّيخ: أرِني، أين هذا الألَمُ؟

إنّني أرى الدمَ والجُرح، ولكنّي لا أرى ألمًا. وبهذا الاستدلالِ والإقناع خَجِل الرَّجلُ من أنّ أسئلتَه بالفعلِ لم تكنْ ذاتَ قيمةٍ، ولهذا ليس من الضَّروريِّ أن يتَراءى لنا كلُّ شيءٍ موجودٍ، كما أنه ليس منَ الضَّروريِّ أنْ لا يؤْذيَ شيءٌ شيئًا آخَرَ من جنسِه.

١٣ ـ حوارٌ بينَ مُسلم وكافرٍ

سألَ كافرٌ مسلمًا: لماذا تؤمنُ بإلهٍ لا يبدو لك؟ فسألَهُ المسلمُ عن اسم جَدِّه الأعلى وقال: هل رأيتَ جَدَّك الأعلى؟ قال الكافرُ: إنّني لم أرَ حتى قبرَه؛ لأنه كان يقيمُ في بلدٍ آخَرَ بعيد. قال المسلم: أليس من الممكنِ أن يَكذبَ عليك أولئك الذين أخبَروك عن جَدِّك الأعلى؟ ولكنّنا سَمِعنا عن اللهِ تعالى من إنسانٍ صادقٍ (سيِّدِنا محمدٍ ﷺ) شَهِدَ بصِدقِه حتى أعداؤه، وكان كلُّ من يَعرِفُه ومَن لا يَعرِفُه يُناديه بالصّادقِ الأمين.

١٤ ـ نَحتاجُ إلى الله

ذاتَ مرةٍ اشتَركَ وَفْدٌ من الشّبابِ والفَتَياتِ من أديانٍ مختلفةٍ في نقاشٍ على شاشةِ تلفزيونِ (بي بي سي)، وكان موضوعُ النِّقاش: هل هناك حاجةٌ إلى الله؟ قالت فتاةٌ: يمكنُ أن يَقَع الخطأُ من أيِّ إنسان، وحينَ يُخطئُ الإنسانُ لأولِ مرةٍ في حياتِه يَلومُه ضميرُه، وفي بعضِ الأحيان يكونُ الخطأُ مُخجِلًا وفَظيعًا بحيثُ لا يُحبُّ الإنسانُ أن يُخبرَ به حتى والدَيْه، ولا يَرى من المناسِب كذلك أن يُخبرَ أصدقاءه عنه، ويبقَى وحدَه في قلقٍ شديدٍ يكادُ يُفجِّرُ دماغَه، وفي مِثل هذه الأحوالِ قد يَضْطربُ الإنسانُ لدرجةٍ تجعَلُهُ يقبِلُ على الانتحار، أو أن يَسيرَ طيلةَ عمُرِه على طريقِ الإجرام.

ولكنْ إن كان هذا الإنسانُ مؤمِنًا باللهِ تعالى، فعليه أن يَختَليَ بنفسِه ويبكيَ أمامَ الله تعالى ما أراد اللهُ له أن يَبكيَ، ويعترفَ بذَنْبِه، ويتوبَ إلى الله منه، ويَعزِمَ على أنْ لا يرتكبَ هذا الذَّنبَ مستقبَلًا، ويأمُلَ في أن يَغفرَ اللهُ له ذنبَه برحمتِه، ويبدأَ انطلاقةً جديدةً في رحلةِ حياتِه، ولهذا يَحتاجُ كلُّ إنسانٍ إلى الله تعالى لكي يَنْجوَ من المصائبِ والقلق.

١٥ ـ مُناظرةٌ حولَ وجودِ الله تعالى

تَقرَّرَ عقدُ مناظرةٍ بينَ الإمام أبي حنيفةَ وأحدِ الدَّهريِّينَ حولَ وجودِ الله تعالى، ووَصَل الإمامُ إلى مكانِ انعقادِ المناظَرةِ متأخرًا، فسألهُ الدَّهريُّ عن سببِ تأخيرِه، فقال: أنا أسكُنُ في الجانبِ الآخَر من النَّهر، وقد وَصَلتُ إلى النهرِ قبلَ الموعدِ المحدَّد، ولكنّ الملّاحِينَ جميعًا جاءوا إلى هنا لسَماع المناظَرة، ولهذا لم يكنْ هناك ولا ملّاحٌ واحد. قال الدَّهريُّ: إنّ المناظَرةَ لم تبدَأْ بعدُ، وتقولُ: إن الملّاحينَ جميعًا هنا الآنَ. فكيف عبَرتَ أنت النهرَ إذًا؟ قال الإمامُ أبو حنيفة: كنتُ أقفُ قَلِقًا، فرأيتُ شجرةً تسقُطُ من شاطئِ النهرِ، وتحوَّلتْ هكذا من نفسِها إلى ألواح من الخشَب، اتَّصلَتْ ببعضِها وصارَتْ مركَبًا، وسار المركَبُ بغيرِ مَلّاح واقتَربَ منِّي، ثم أَرْكَبني على مَتْنِه وأوصَلَني إلى الشاطئِ الآخَر. وعندَئذٍ صاحَ الدَّهريُّ قائلًا: إنّ هذا مخالفٌ للفِطرة، إذْ كيف يمكنُ أن تَسقُطَ الشَّجرةُ من نفسِها، ثم تتحوَّلَ إلى ألواح من الخشَب دونَ أن يقومَ أحدٌ بذلك، ثم تتحوَّلَ إلى مركَب، ثم تعبُرَ بك النهرَ بغيرِ مَلّاح؟ هذا مستحيلٌ. عندَئذٍ قال الإمامُ أبو حنيفةَ: إذا كان مركَبٌ صغيرٌ بسيطٌ لا يمكنُ أن يوجَدَ من نفسِه، ويحتاجُ إلى صانع يُركِّبُه ألواحًا، فكيف يمكنُ أنْ لا يكونَ لهذه الكائناتِ العظيمةِ صانع؟ ونظامُ الكائناتِ كلُّه يسيرُ طِبقًا لقواعدَ وقوانينَ معيَّنة، ولا يَحدُثُ فيه خَلَلٌ أبدًا، فالشمسُ إذا

طَلَعتِ اليوم في لُندن في السابعةِ صباحًا، فإنّها ستطلُعُ بعدَ عشْرِ سنواتٍ في نفسِ الموعِد أيضًا، ونظامُ الكائناتِ وترتيبُه هذا دليلٌ في ذاتِه وشاهدٌ على أنّ مِن وَرَائه ذاتًا مدبِّرةً تُسيِّرُ الكائناتِ طبقًا لقواعدَ معيَّنة، وهذه الذاتُ المدبِّرةُ هي اللهُ تعالى.

ولا يمكنُ لصاحبِ عقل سَليم أن يُسلِّمَ بأنّ هذا النِّظامَ المرتَّبَ بهذا الشَّكل لا يوجَدُ صانعٌ له ومدبِّر، وأنه يسيرُ وحدَه ومن نفسِه، إذْ سيكونُ هذا كذبةٌ كبرى، كأنْ يقولَ أحدٌ: إنه حَدَث انفجارٌ ضخمٌ في المِطبعة، فأصبح القاموسُ جاهزًا، في حينَ أنه لطباعةِ القاموس يـتِمُّ ترتيبُ الألفاظِ ترتيبًا خاصًّا طِبقًا للحروفِ الهجائيّة، وهو ما لا يمكنُ أن يَحدُثَ هكذا من نفسِه، بينَما نظامُ الكائناتِ أكثرُ غموضًا بكثيرٍ من مسألةِ إعدادِ قاموسٍ هذه، فكيف يمكنُ أن يَسيرَ هذا النِّظامُ هكذا من نفسِه.

١٦ ـ اللهُ تعالى لا يَنامُ

ذاتَ مرةٍ سألَ سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ الملائكةَ من أَجْل اطمئنانِ القلب: هل تأخُذُ اللهَ تعالى سِنَةٌ أو نومٌ؟ فجاء الأمرُ من اللهِ تعالى أنْ خُذْ بيدِك زُجاجتَيْنِ مليئتَيْنِ بالماء، ففَعَلَ سيّدُنا موسى عليه السَّلام، وبعدَ فترةٍ أخذَتْه سِنَةٌ من النَّوم، فسقَطَتِ الزجاجتانِ من يدِه وتَحطَّمتا، ونَزَل الوحيُ: أنْ يا موسى، إذا كنتَ لم تستطعْ أن تحفَظَ توازُنَ زُجاجتَيْنِ وأنت نائم، فكيف أحفَظُ أنا السماءَ والأرضَ إنْ غَلَبَني النَّوم؟

١٧ ـ الإمامُ الشافعي

كان الإمامُ الشافعيُّ يقفُ أمامَ شجرةِ تُوت، وسأَلَه أحدُ الناسِ عن وجودِ الله تعالى، فقال الإمامُ: انظُرْ إلى شجرةِ التُّوتِ هذه، لو أكلَتْ أوراقَها شاةٌ فإنّها تُنتجُ لبنًا، وإن أكلَتْها نحلةٌ أنتَجَتْ عَسلًا، وإنْ أكلَتْه دُودةُ القزِّ أنتَجَت خُيوطًا من الحرير، وإنْ أكَلَها الغَزالُ أنتجَ مِسكًا، وحقائقُ هذه الأشياءِ الأربعةِ وآثارُها مختلفةٌ، في

حينَ أنّ مقتَضياتِ أوراقِ التُّوتِ واحدةٌ؛ لأنّ مقتَضياتِ طبيعةٍ واحدةٍ تكونُ واحدةً أيضًا، فإذا كان مقتضَى هذه الأوراقِ هو اللَّبَنَ، فكيف يمكنُ أن يَنتُجَ عنها العَسلُ والمِسكُ؟ وهكذا إذا كان مقتضَى طبيعةِ هذه الأوراقِ هو الحريرَ، فيكف يَنتُجُ عنها الأشياءُ الأخرى؟

ويبدو أنّ هذه الأوراقَ لا تقتضي شيئًا في ذاتِها، واللهُ تعالى هو خالقُ كلِّ شيء، فإذا أرادَ وَضْعَ هذه الأوراقِ في فم الماعزِ وأَخْرجَ منها لبنًا، وإن أرادَ أَطْعَم النَّحلَ هذه الأوراقَ وأَخْرج منه عسَلًا، وإن شاء أطعَمَها الغزالَ وأحالَها إلى مِسكٍ فَوّاحٍ، وإن شاء جَعَل هذه الأوراقَ غذاءً لدُودِ القَزِّ وأَخْرجَ منها حريرًا.

١٨ ـ اللهُ تعالى هو الخالقُ الحقيقيُّ

«تُوماس إيديسن» أحدُ علماءِ أمريكا المعروفينَ عالميًّا، وقدِ اختَرع أكثرَ من ألفِ اختراع. ذاتَ يوم قال: الناسُ يقولونَ عنِّي: إنّني مُخترعٌ عظيم، وهذا خطأٌ تمامًا، فأنا ـ بالقَطْع ـ لستُ مخترِعًا يستحِقُّ أن يُذكَرَ، وعندَما أُفكِّرُ بأنّني لستُ قادرًا على صُنع إنسانٍ أحمقَ يتحدَّثُ كالحمقَى، بَلْهَ صُنعَ إنسانٍ ذكيٍّ، ومعَ ذلك إذا قيل: إنّني مُخترع، فهذا في منتَهى الظُّلم. ثم أشار إيديسنُ بأصبعِه إلى السَّماءِ وقال: إن ذاتَه هي المُخترعُ الحقيقيُّ[1].

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
قبلَ صلاة الفجر من يوم الثلاثاء ١١ يناير ٢٠١١م
الموافق ٦ صَفَر ١٤٣٢هـ.

---

(١) "That is the real inventor". - مجلة دايجست ريدرز، عدد أغسطس ١٩٧٣م.

سُورَةُ الإخلاص (١١٢)،

مكية (٢٢)، آياتها (٤)، ركوعها (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾

١ ـ كان أهلُ مكّةَ يعبُدونَ آلهةً كثيرةً، وعندَما دعاهمُ النبيُّ ﷺ إلى عبادةِ إلهٍ واحدٍ سألوه: ما صفاتُ ربِّك، وما نَسَبُه؟ فنَزَلت هذه السُّورةُ ردًّا عليهم، يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، قلْ لهم: إنه اللهُ، وهو واحدٌ أحد، ليس كمِثلِه شيءٌ، وهو المعبودُ وحدَه، ولا تَليقُ العبادةُ بسواه.

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾

٢ ـ هو المستغني، والكائناتُ كلُّها محتاجةٌ إليه في وجودِها وبقائها، لكنّه هو ليس في حاجةٍ إلى أحد.

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾

٣ ـ كان المشركونَ يعتقدونَ أنّ اللهَ مِثلُ المخلوقاتِ جِنسٌ بَعْينِه، ولهذا قالوا

عن الملائكة: إنّهم بناتُه، ولهذا سأَلوا النبيَّ ﷺ: ما هو نَسَبُ ربِّك؟ فجاء الجوابُ عليهم في هذه الآيةِ بأنه إذا كان اللهُ تعالى ليس له جِنس، فكيف سيكونُ له أولادٌ وزوجةٌ؟ ولهذا قالَ اللهُ تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

كما أنّ الوالدَيْنِ يكونان في حاجةٍ إلى أولادِهما حتى يساعدوهما في شيخوختِهما، ويَرِثُوهما، لكنّ اللهَ تعالى منذُ الأزَل، ودائمٌ إلى الأبد، ولا حاجةَ له إلى وارثٍ، فهو القادرُ المطلَق، ولا يَحتاجُ إلى أحد.

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾

٤ ـ اللهُ تعالى لا كُفؤَ له، يعني: لا مَثيلَ له في ذاتِه ولا صفاتِه ولا أفعالِه، مثلَما يقولُ تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

التوحيد الخالص

للشِّركِ عدّةُ أقسام: الشِّركُ في العدَد، والشِّركُ في المنصِبِ والرُّتبة، والشِّركُ في الحَسَبِ والنَّسَب، والشِّركُ في القوةِ والتأثير، وقد نَفَت هذه السُّورةُ كلَّ أنواع الشِّرك، فجاء نفيُ شِركِ العدَدِ في الآيةِ الأولى، أي: أنه واحدٌ أحد، وجاء نفيُ الشِّركِ في المنصِبِ والرُّتبةِ في الآيةِ الثانية، أي: ليس في الدُّنيا مَن يتربَّعُ على عَرْشِ الاستغناءِ، وجاء نفيُ الشِّركِ في الحَسَبِ والنَّسبِ في الآيةِ الثالثة؛ لأنه لا كُفؤَ له، وجاء نفيُ الشِّركِ في القوةِ والتأثيرِ في الآيةِ الرابعة؛ لأنه القادرُ المطلَق، وليس كمِثلِه أحدٌ. وباختصار: فإنّ هذه السُّورةَ قد نَفَتْ كلَّ الأفكارِ الشِّركيّة، وعلَّمتْنا درسًا في التوحيدِ الخالص، ولهذا فإنّ اسمَها هو سُورةُ «الإخلاص».

إعلان التوحيد الخالص

يحتوي مضمونُ سُورةِ الإخلاصِ على التوحيدِ الخالِص، ولم يَنسُبْها اللهُ تعالى إلى نفسِه، وإنّما أمَرَ لسانَ النُّبوّةِ والرِّسالة أن يُعلنَ التوحيدَ الخالصَ للهِ تعالى حتى يَعلمَ الناسُ أنّ أمينَ كلام الله تعالى ووسيلةَ عِرفانِه هو لسانُ المصطفَى ﷺ، فإذا قال هذا اللِّسانُ: إنّ هذا كلامُ ربِّي فهو قرآنٌ إذًا، وإذا قال هذا اللِّسانُ: إنّ هذا كلامي فهو حديثٌ، ومَن كانت هذه هي عظَمةَ لسانِه، فما بالُك بمقام ذاتِه؟ سبحانَ الله!

مقام لسان النبوة والرسالة

إنّ لسانَ النبيِّ ﷺ المبارَكَ هو مِعيارُ الحقِّ، وكلَّما نَطَقَ لم يَخرُجْ منه سوى شيئَيْنِ فقطْ، يعني: القرآنَ المجيدَ والحديثَ الشَّريفَ، ولا ثالثَ لهما، ويمكنُ مناقشةُ سندِ حديثٍ من الأحاديث، يعني: إن كان الحديثُ ثابتًا عن رسولِ الله ﷺ أم لا، لكنّ ما يقولُه النبيُّ ﷺ لا يمكنُ أن يكونَ خطأً؛ لأنه لو كان كلامُه ﷺ - والعياذُ بالله - خطأً، فإنّ هذا يعني أنّ القرآنَ الكريمَ كلَّه خطأٌ، ونحن نؤمنُ أنّ القرآنَ الكريمَ كلامُ الله تعالى، والدَّليلُ على ذلك هو لسانُ رسولِ الله ﷺ فقط، إذ إنّ جِبريلَ الأمينَ واللهَ تعالى لم يُنزِلاهُ علينا مباشرةً.

يقولُ اللهُ تعالى عن هذا اللِّسانِ المبارك: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣-٤]، وتأمَّلْ ما قالهُ النبيُّ ﷺ نفسُه: يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَمْرٍو رضي الله عنهما: كنتُ أكتُبُ كلَّ شيءٍ أسمَعُه من رسولِ الله ﷺ أريدُ حِفظَه، فنَهتْني

قُريشٌ، وقالوا: تكتُبُ كلَّ شيءٍ سَمِعتَه من رسولِ الله ﷺ، ورسولُ الله ﷺ بشَرٌ يتكلَّمُ في الغضَبِ والرِّضا؟ فأمسَكتُ عن الكتابِ، فذَكرتُ ذلك لرسولِ الله ﷺ، فأَوْمأَ بإصبعِه إلى فيه، وقال: «اكتُبْ، فوالّذي نَفْسي بيدِه، ما خَرَج منه إلّا حقٌّ»[١].

العلامة محمد إقبال

اشتُهِرَ عن العلّامةِ محمّد إقبال أنّ أحدًا من غيرِ المسلمينَ سألَه: إنّكم تؤمنونَ بإلهٍ لا ترَوْنَه، فما الدَّليلُ لديكُم على وجودِه؟ فأجابَه العلّامةُ محمَّد إقبال قائلًا: لقد سَمِعنا به من لسانٍ يشهَدُ لصِدقِه الأعداءُ قبلَ الأصدقاء.

شهادة فردية

يقولُ العلّامةُ المَقريزيُّ: «إنّ الأخنَسَ خَلا بأبي جَهْل (أي: قبلَ بدايةِ معركةِ بدر) وقال: أَترى محمدًا يكذبُ؟ فقال أبو جَهْل: كيف يكذبُ على اللهِ وقد كنّا نُسمِّيه الأمينَ لأنه ما كَذَب قطُّ! ولكنْ إذا كانت في عبدِ منافٍ السِّقايةُ والرِّفادةُ والمَشُورةُ، ثم تكونُ فيهم النُّبوةُ، فأيّ شيءٍ بقيَ لنا؟ فحينَئذٍ انْخَنَس الأخنَسُ عن بدر»[٢].

شهادة جماعية

يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: صَعِد النّبيُّ ﷺ الصَّفا ذاتَ يوم فقال: «يا صباحاهُ» فاجتَمَعتْ إليه قُريشٌ، قالوا: ما لك؟ قال: «أرأيتُم لو أَخبرتُكم أنّ العدوَّ يُصبِّحُكم أو يُمسِّيكم أَما كنتُم تُصدِّقوني؟». قالوا: بلى. قال: «فإنّي نذيرٌ لكم

---

(١) سنن الدارمي، المقدمة، باب ٤٣.

(٢) إمتاع الأسماع، ١: ٩١.

بينَ يدَيْ عذابٍ شديدٍ». فقال أبو لَهَبٍ: تبًّا لك! ألهذا جمعتَنا؟ فأَنْزلَ اللهُ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ (أي: فلْتُكسَرْ يدا أبي لهبٍ ولَيْهلِكْ)[1].

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة المغرب من يومِ الثلاثاءِ ١١ يناير ٢٠١١م
الموافق ٦ صَفَر ١٤٣٢هـ.

هذا، وقدِ اكتَملَ بفَضْل الله تعالى وكرمِه تفسيرُ سُورة الإخلاص اليومَ، وقد أورَدْنا فيه ما جاء تحتَ عُنوان عقيدةِ التوحيد؛ الكتابَ المقدَّسَ والدَّلائلَ العَقْليّةَ على التوحيدِ من كتابٍ لهذا العبدِ الفقير إلى الله بعنوان «العقائدُ الإسلاميّة»، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.



(١) البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة سبأ (٣٤): باب ٢ برقم ٤٨٠١.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١١٣) سُورَةُ الفَلَقِ

هذه السُّورةُ مَدَنيّةٌ، واسمُها: «الفَلَقُ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى منها.

سبب النزول

إنّ سببَ نزولِ آخِرِ سورتَيْنِ من القرآنِ الكريم هو تلك الواقعةُ التي سَحَر فيها لَبِيدُ بن الأعصَم اليهوديُّ وبناتُه النبيَّ ﷺ، وشَعَر النبيُّ ﷺ على إثرِها ببعضِ الضَّعف في جسَدِه الطاهر، وعندَها نَزَل سيِّدُنا جِبريلُ الأمينُ عليه السَّلامُ بهاتَيْنِ السُّورتَيْنِ، وتلاشَى معَ تلاوتِهما الضَّعفُ الذي أصابَه ﷺ، وانتَهى معَه أثَرُ السِّحر[1].

فضل السورتين الأخيرتين من القرآن الكريم

ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي الله عنها: كان رسولُ الله ﷺ إذا أَوَى إلى فراشِه نَفَث في كَفَّيْه بُقل هو اللهُ أحَدٌ وبالمعوِّذتَيْنِ جميعًا، ثمّ يَمسَحُ بهما وجهَه وما بَلَغتْ يداهُ من جسَدِه. قالت عائشةُ: فلمّا اشتكَى كانَ يأمُرُني أن أفعَلَ ذلك به[2].

---

(١) «سبب نزول المعوذتين قصة لبيد بن الأعصم الذي سحر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأنزل الله تعالى هاتين السورتين وأمره أن يتعوذ بهما، فقرأهما النبي صلى الله عليه وآله وسلم ووجد خفّة وقام ليس به بأس». تفسير القرطبي، سورة الفلق (١١٣).

(٢) البخاري، كتاب الطب، باب ٣٩ برقم ٥٧٤٨.

ـ يقولُ سيّدُنا عُقبةُ بن عامرٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «ألم ترَ آياتٍ أُنزِلت اللّيلةَ لم يُرَ مثلُهنّ قطُّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»[1].

ـ يقولُ سيّدُنا ابنُ عابس الجُهَنيُّ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال له: «يا ابنَ عابسٍ، ألا أدُلُّك ـ أو قال: ألا أُخبِرُك ـ بأفضلِ ما يتعوَّذُ به المتعوِّذونَ؟»، قال: بلى يا رسولَ الله، قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ هاتَيْنِ السُّورتَيْنِ»[2].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو سَعيد الخُدريُّ رضي الله عنه: كان رسولُ الله ﷺ يتعوَّذُ من الجانِّ وعَيْنِ الإنسان حتّى نَزَلت المعوِّذتان، فلمّا نَزَلتا أخَذ بهما وتَرَك ما سواهما[3].

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة الفجر من يوم الأربعاء ١٢ يناير ٢٠١١م
الموافق ٧ صَفَر ١٤٣٢هـ.



(١) مسلم، كتاب فضائل القرآن، باب فضل قراءة المعوذتين برقم ١٨٩١.
(٢) النسائي، كتاب الاستعاذة، باب ١ برقم ٥٤٣٤.
(٣) الترمذي، أبواب الطب، باب ١٦ برقم ٢٠٥٨.

سُورَةُ الفَلَقِ (١١٣)،

مدنية (٢٠)، آياتها (٥)، ركوعها (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾

١ ـ في هاتَيْنِ السُّورتَيْنِ (الأخيرتَيْنِ من القرآنِ الكريم) عَلَّم اللهُ تعالى نبيَّه الحبيبَ ﷺ، وعَلَّم أُمتَه كلَّها عن طريقِه أن يتوكَّلوا على اللهِ تعالى ويعتمِدوا عليه، يعني: أنْ يبدَأوا أعمالَهم باسم الله تعالى حتى تَحِلَّ فيه البركةُ، وأن يَستعيذوا به حتى لا يُمكنَ لأيِّ شِرِّيرٍ أن يُصيبَهم بشرِّه، ولهذا فإنّ هاتَيْنِ السُّورتَيْنِ هما أفضَلُ استعاذةٍ للنَّجاةِ من كلِّ أنواع السِّحر والحسَد، ومن كلِّ أنواع الآفاتِ والأمراضِ: الرُّوحيّة والجسَديّة.

والمرادُ بالفَلَق هنا هو: ذلك الوقتُ الذي ينقشعُ فيه ظلامُ اللَّيل، وينتشرُ فيه نورُ النَّهار في كلِّ جانب، ويقضي نُورُ النَّهارِ على كلِّ مخاوفِ اللّيل ومخاطرِ شروره، ولهذا يا أهلَ الإيمان، عليكُم أن تَستعيذوا بربِّكم الذي أزالَ ظلامَ اللّيل، وهيَّأَ لكم نُورَ النَّهار، وذلك حتى يُخرجَكم من ظلام شرِّ مخلوقاتِه، ويُنعمَ عليكم بنورِ الأمنِ والسلام.

﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾

٢ ـ في الآيةِ السابقة جاءتِ الاستعاذةُ من شرِّ كلِّ مخلوقٍ من مخلوقاتِ الله تعالى، ومنها ظلامُ اللَّيل، والنَّفّاثاتُ في العُقَد، وكذا الحاسدونَ، ولكنّ اللهَ تعالى ذَكَرَها هنا بصفةٍ خاصّةٍ لأنّ شرَّها منتشِرٌ وخَطيرٌ للغاية، على سَبيل المثال: فإنّ الوحوشَ المفترِسةَ، والحيَواناتِ الضّارِيةَ واللُّصوصَ وقُطّاعَ الطُّرُقِ والجِنَّ والشياطينَ ينشَطونَ في ظلام اللَّيل في الغالب، ويؤْذُونَ الآخَرينَ، مثلَما يقولُ سيّدُنا جابرٌ رضي الله عنه، من أنّ النبيَّ ﷺ قال: «لا تُرسِلوا فَواشيَكم وصِبيانَكم إذا غابتِ الشّمسُ حتّى تذهبَ فَحمةُ العِشاء، فإنّ الشّياطينَ تُبعَثُ إذا غابَت الشّمسُ حتّى تذهبَ فَحْمةُ العِشاء»[1].

﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ ﴾

٣ ـ عندَما كان السَّحرةُ العربُ يريدونَ إيذاءَ أحدٍ فإنّهم كانوا يأتُونَ بخَيْطٍ ويعقِدونَ فيه عُقَدًا، ثم يقرَأونَ تعاويذَ السِّحر، وينفُثونَ في كلِّ عُقدةٍ عَقَدوها، وكما أنّ للقرآنِ الكريم آثارًا طيِّبة، فإنّ للتعاويذِ الشّيطانيّةِ آثارًا سيِّئة، ولأنه عندَما يَسحَرُ عدوٌّ أو كارهٌ أحدًا، لا يكونُ المسحورُ على علمٍ بمن يَسحَرُه، ولهذا ينبغي له أن يستعيذَ بربِّه فقطْ حتى يَحفَظَه من شرِّ هذا السِّحر، ورَغْمَ أنّ بعضَ الرجالِ كانوا يشتغلونَ بالسِّحرِ في ذلك الوقت، لكنّ النِّساءَ هنَّ اللائي كُنَّ يَشتغلْنَ به في الغالب، ولهذا جاءتْ نسبةُ السِّحرِ في هذه السُّورةِ إلى النساء.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «اجتَنِبوا السَّبعَ المُوبقات». قالوا: يا رسولَ الله، وما هُنَّ؟ قال:

---

(١) مسلم، كتاب الأشربة، باب ١٢ برقم ٥٢٥٣.

١ ـ «الشّركُ بالله.

٢ ـ والسِّحر.

٣ ـ وقتلُ النَّفْس الّتي حَرَّم اللهُ إلّا بالحقّ.

٤ ـ وأكلُ الرّبا.

٥ ـ وأكلُ مالِ اليتيم.

٦ ـ والتَّولّي يومَ الزَّحْف.

٧ ـ وقَذْفُ المحصَناتِ المؤمناتِ الغافلات»[1].

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾

٤ ـ أنْ تَسعَدَ برؤيةِ شخصٍ في حالٍ منعَّمة، وتتمنَّى أن تكونَ مِثلَه، وتحاولَ ذلك، فإنه يقالُ له: غِبطةٌ، وهي أمرٌ محبَّبٌ، ولكنْ أن تَغتاظَ لرؤيةِ شخصٍ في حالٍ منعَّمة، وتتمنَّى أن تزولَ عنه النِّعَم، وتحاولَ تحقيقَ ذلك، فإنه يقالُ له: حسَدٌ، وهو أمرٌ في غايةِ السُّوء، والحسَدُ في المراحلِ الأُولى يكونُ في قلبِ الكارهِ فقط، ويحاولُ هذا قَدْرَ جَهْدِه أن يَكيدَ سِرًّا، ولا يَعلمُ من يَجري حسَدُه منَ الذي يحسُدُه، لكنّ اللهَ تعالى يَعلمُ تمامَ العلم مَن يحسُد، ولهذا ينبغي للإنسانِ أن يَستعيذَ بالله تعالى حتى يحفَظَه من حسَدِ الحاسدين.

ذم الحسد

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إيّاكم والحَسَد،

---

(١) البخاري، كتاب الوصايا، باب ٢٣ برقم ٢٧٦٦.

فإنّ الحسَدَ يأكُلُ الحسَناتِ كما تأكُلُ النّارُ الحطَبَ»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «لا يجتمعانِ في جَوْفِ مؤمنٍ غبارٌ في سَبيل الله وفَيْحُ جهنَّمَ، ولا يجتمعانِ في قلبِ عبدٍ الإيمانُ والحسَدُ»[٢].

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة الظهر من يوم الأربعاء ١٢ يناير ٢٠١١م
الموافق ٧ صَفَر ١٤٣٢هـ.

هذا، وقدِ اكتَملَ بفَضْل الله وكرَمِه تفسيرُ سُورة «الفَلَق» اليومَ، وقد بَدأَ هذا العبدُ الفقير إلى الله تعالى تفسيرَ «إمْدادُ الكرَم» في جامعةِ الكرَم بعدَ صلاةِ المغربِ من يوم السَّبت ٣٠ سبتمبر عام ٢٠٠٠م، وأكمَلَه حتى سُورةِ «الفَلَق» بعدَ صلاة ظهرِ اليوم الأربعاء ١٢ يناير ٢٠١١م، أي: بعدَ عشْرِ سنواتٍ وثلاثةِ شهور واثنَيْ عشَرَ يومًا، ولو أردتُ لَأكملتُ بفَضْل الله تعالى وكرَمِه تفسيرَ سُورة «الناس» اليومَ أيضًا، ولكنّي أريدُ أن أذهبَ إلى العُمرةِ في الشهرِ القادم، وأن أجلسَ أمامَ بيتِ الله الحرام وأكتُبَ تفسيرَ آخِرِ سُورةٍ من القرآنِ حتى يباركَ اللهُ فيه، ثم أتَّجهَ إلى المدينةِ المنوَّرة، وأجلسَ بالقُرب من رَوْضةِ الرسول ﷺ، وأبدَأَ في كتابةِ «شَرْحُ إمدادِ البخاري» على صحيح البخاريِّ إن شاء اللهُ تعالى، والحمدُ لله ربِّ العالمين * الرَّحمنِ الرَّحيم * مالكِ يوم الدِّين.

اللهُمَّ صلِّ وسلِّمْ على حبيبِك الكريم، وحبيبِنا الكريم، سيّدِنا محمدٍ عليه التحيّةُ والتسليم، وعلى آلِه وأصحابِه أجمَعين، وعلى أتباعِه إلى يوم الدِّين.

---

(١) أبو داود، كتاب الأدب، باب ٤٤ برقم ٤٩٠٣.
(٢) النسائي، كتاب الجهاد، باب ٨ برقم ٣١١١.

بسم الله الرحمن الرحيم

(١١٤) سورة الناس

هذه السُّورةُ مدَنيّة، واسمُها: «الناسُ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأولى منها.

في السُّورةِ السابقة «سُورةِ الفَلَق» جاء الإرشادُ إلى الاستعاذةِ من شرِّ الخَلْق عمومًا، وبصفةٍ خاصّة من شرِّ ظُلُماتِ اللّيل والسَّحَرةِ والحُسّاد، أمّا في هذه السُّورة فقد عَلَّمنا اللهُ تعالى دعاءَ الحفظِ من شرِّ أكبر حاسدٍ، يعني: الشَّيطانَ.

رَغْم أنّ الخطابَ في هذه السُّورة أيضًا جاء للنبيِّ ﷺ مَثَلُها مَثَلُ السُّورة السابقة، لكنّ الحقيقةَ هي أنّ أُمةَ النبيِّ ﷺ أيضًا داخلةٌ فيه.

الشَّيطانُ عدوٌّ مُبينٌ للإنسان، ويُرافقُ الإنسانَ في كلِّ وقت، وكلَّما رأى الفُرصةَ سانحةً حاوَلَ بكلِّ جُهدِه أن يُضِلَّ الإنسانَ، ولهذا ينبغي للإنسانِ أن يكونَ محتاطًا من الشّيطانِ دائمًا.

- يَروي سيّدُنا شُعَيبٌ رضي الله عنه، عن أبيه، عن جدِّه، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا فَزِعَ أحدُكم في النَّوم فلْيقُلْ: أعوذُ بكلماتِ الله التّامّةِ من غضَبه وعقابه وشرِّ عبادِه، ومن هَمزاتِ الشّياطين، وأن يَحضُرونِ. فإنّها لن تَضُرَّه». قال: وكان عبدُ الله بنُ عَمرٍو يُلقِّنُها مَن بَلَغ من وَلَدِه ومَن لم يَبلُغْ منهم، كَتَبها في صكٍّ ثمّ عَلَّقها في عنُقِه[1].

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، بريطانيا

---

(١) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ٩٤ برقم ٣٥٢٨.

سُورَةُ النَّاسِ (١١٤)،

مدنية (٢١)، آياتها (٦)، ركوعها (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾

﴿ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾

١ ـ رَغْمَ أنّ اللهَ تعالى هو ربُّ المخلوقاتِ جميعِها، وهو مالكُها ومعبودُها، ولكنّ النِّسبةَ للإنسانِ هنا بغَرَضِ إظهارِ فَضْل الإنسانِ وشَرفِه؛ لأنّ الإنسانَ ـ بالفعل ـ هو أشرَفُ المخلوقاتِ وأفضَلُها على الإطلاق.

﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾

٢ ـ الوَسواسُ: أحدُ أسماءِ الشّيطان[1].

والخَنّاسُ: صفةٌ من صفاتِ الشّيطان، وقد شَرَحه سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَبّاس رضي الله عنهما قائلًا: «الشّيطانُ جاثمٌ على قلبِ ابن آدم، فإذا سَهَا وغَفَل وَسْوسَ، وإذا ذَكَر اللهَ خَنَس»[2]، ولهذا ينبغي للإنسانِ أن يجدِّدَ الإيمانَ في قلبِه بذِكرِ الله تعالى حتى لا يتمكَّنَ الشّيطانُ من الوَسْوسةِ إليه.

---

(١) «الوسواس: اسم من أسماء الشيطان» البحر المحيط في التفسير.

(٢) تفسير ابن جرير الطبري: سورة الناس (١١٤).

مع كل إنسان شيطان

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «ما منكم من أحدٍ إلّا وقد وُكِّل به قَرينُه من الجنّ». قالوا: وإيّاك يا رسولَ الله؟ قال: «وإيّايَ، إلّا أنّ اللهَ أعانَني عليه فأَسْلَم فلا يأمُرُني إلّا بخيرٍ»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا عليُّ بنُ الحَسَن رضيَ الله عنهما: «إنّ صَفيَّة، زوجَ النّبيّ ﷺ، أخبَرَتْه أنّها جاءتْ رسولَ الله ﷺ تَزُورُه في اعتكافِه في المسجدِ في العَشْرِ الأواخِر من رمضانَ، فتحدَّثتْ عندَه ساعةً، ثمّ قامَتْ تنقلبُ، فقام النّبيُّ ﷺ معَها يقلُبها، حتّى إذا بَلَغتْ بابَ المسجدِ عندَ بابِ (حُجرةِ) أُمِّ سَلَمةَ مرَّ رجُلانِ من الأنصار، فسَلَّما على رسولِ الله ﷺ (أي: وواصَلا سيرَهما مُسرِعَيْنِ، وكان الوقتُ ليلًا) فقال لهما النّبيُّ ﷺ: «على رِسْلِكما، إنّما هي (زوجتي صَفِيّةُ) صَفِيّةُ بنتُ حُيَيٍّ»، فقالا: سبحانَ الله يا رسول الله (أي: وهل نشُكّ فيك أبدًا يا رسولَ الله؟). وكَبُر عليهما. فقال النّبيُّ ﷺ: «إنّ الشّيطَانَ يَبلُغُ من الإنسانِ مبلَغ الدّم، وإنّي خَشِيتُ أن يَقذِفَ في قلوبِكما شيئًا»(٢).

﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾

٣ ـ عَمَلُ الشياطينِ هو أن يُوسْوِسوا في قلوبِ الناس، وهؤلاءِ الشياطينُ في الجنِّ وفي الإنسانِ أيضًا، لكنّ وَسْوسةَ أشباهِ الشياطينِ من البشَر تكونُ في غايةِ الخطورة؛ لأنّهم يَظهَرونَ لك في صورةِ صَديقٍ متعاطِفٍ معَك، ثم يَحُضُّك على

---

(١) مسلم، كتاب المنافقين، باب ١٦ برقم ٢٨١٤.

(٢) البخاري، كتاب الاعتكاف، باب ٨ برقم ٢٠٣٥.

معصيةِ الله تعالى بكلامِه المعسول. وهناك واقعةٌ مشهورةٌ فَحْواها: أنه عندَما كان سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ ذاهبًا بابنِه سيّدِنا إسماعيلَ عليه السَّلامُ إلى ميدانِ مِنًى بغَرَضِ ذَبْحِه، ظَهَر له الشّيطانُ اللَّعينُ في صُورةِ صديقٍ حَمِيم متعاطِفٍ معه، وبَذَل قُصارى جُهدِه في أن لا يُنفِّذُ سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ حُكمَ الله تعالى، لكنّ الذين يستعيذونَ بالله تعالى ويتوكَّلونَ عليه، لا يمكنُ للشّيطانِ أن يُضِلَّهم، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٩٩]، ولو حَدَث ـ لا قَدَّر اللهُ ـ ووَقَع أحدٌ فريسةً لخِداع الشيطانِ وأخطَأَ، فعليه أن يَرجِعَ إلى ربِّه فورًا ويتوبَ إليه توبةً نصوحًا.

فضل التوبة والاستغفار

ـ يقولُ سيّدُنا أبو سَعيدٍ الخُدريُّ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ إبليسَ قال لربِّه: بعِزّتِك وجَلالِك، لا أبرَحُ أُغوي بني آدمَ ما دامتِ الأرواحُ فيهم، فقال له الله: فبِعزّتي وجَلالي، لا أبرَحُ أغفِرُ لهم ما استغفَروني»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «كلُّ ابن آدمَ خَطّاءٌ، وخيرُ الخَطّائينَ التّوّابون»[٢].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «لو أخطَأتُم حتّى تبلُغَ خطاياكُم السَّماءَ ثمّ تُبتُم لَتابَ عليكم»[٣].

---

(١) مسند أحمد، ٣: ٤١.

(٢) الترمذي، صفة القيامة، باب ٤٩ برقم ٢٤٩٩.

(٣) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ٣٠ برقم ٤٢٤٨.

استعيذوا بالله والجأوا إليه

عَلَّمنا اللهُ تعالى في أولِ سُورةٍ من القرآنِ المَجِيد، أي: سُورةِ الفاتحة، هذا الدُّعاءَ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، وحين يَسيرُ الإنسانُ على الصِّراطِ المستقيم، فإنّ الشّيطانَ يحاولُ بكلِّ ما يستطيعُ أن يُضِلَّه، ولأنّ الشّيطانَ في غاية المكرِ والدَّهاء، ويُزيِّنُ السُّوءَ للإنسانِ ويُقدِّمُه له في صورةِ الحسَنة، لهذا أرشَدَنا اللهُ تعالى في آخِرِ سُورةٍ من القرآنِ المَجِيد، أي: سُورةِ الناس، أن نَستعيذَ بالله تعالى ليحفظَنا من وساوسِ الشّيطان.

يقولُ ذو النُّون المِصريُّ: «إنْ كان هو يَراك من حيثُ لا تراه، فاستعِنْ بمَن يَراه من حيثُ لا يَراهُ، وهو اللهُ القَهّارُ السَّتّار»[1]. أعوذُ بالله من الشَّيطانِ الرجيم، آمين.

اكتمال التفسير

اليومُ هو يومٌ أفخَرُ به في حياتي، إذ إنّني أجلسُ الآنَ في المسجدِ الحرام أمام بيتِ الله تعالى وأُكملُ تفسيرَ كلام الله تعالى، وسأتوجَّهُ غدًا إن شاء اللهُ تعالى إلى المدينةِ المنوَّرةِ لأشرَع في كتابةِ شَرْح صحيح البُخاريِّ.

أماميَ الآنَ على الجانبِ الأيمن: الحَطِيمُ، وميزابُ الرَّحمة، وعلى الجانبِ الأيسر: بابُ الكعبةِ المكرَّمة والحَجَرُ الأسود، وآلافٌ من السُّعداءِ من الرِّجال والنِّساء المنهمكونَ في الطّوافِ حولَ الكعبة، وأنا أجلسُ على مسافةِ عشرينَ مترًا خلفَ مقام إبراهيمَ أكتُبُ تفسيرَ سُورةِ «الناس» بعدَ صلاةِ العصر، ورَغْمَ أنّ

---

(١) التفسير المظهري، سورة الأعراف (٧): الآية ٢٧.

الجوَّ كان حارًّا، لكنّه لم يكنْ إلى درجةٍ لا يمكن تحمُّلُها، اختَرتُ أن أجلسَ في هذا المكان؛ لأنه لم يكنْ هناك أحدٌ آخَر، ولكنْ بعدَ فترةٍ وجيزةٍ غَطَّت السُّحبُ وجهَ الشمس، وهَبَّ النَّسيمُ البارِدُ، وامتَلأَ المكانُ من حَوْلي بالناس، وعندَما اكتَملَ تفسيرُ سُورةِ «الناس» قبلَ صلاةِ المغرب، أخذَت قَطَراتُ المطرِ تتساقطُ من السَّماء، فاعتَبرتُ هذا علامةً على قَبولِ تفسيري هذا، ووضَعتُ كُرّاسةَ التفسيرِ التي معي في مِنديلي حتى لا يُبلِّلَها المطرُ فيُفسَدَ ما كتَبتُ، ثم انهَمَر المطرُ بقوةٍ في تلك اللّيلةِ بعدَ صلاةِ العشاء.

يا ربَّ العالَمين، مثلَما وفَّقتَ هذا العبدَ المذنبَ قليلَ العِلمِ الفقيرَ إليك إلى كتابةِ تفسيرِ كلامِك، أَضرَعُ إليك يا إلهي أن تَقبَلَه منه، وأن تَجعلَ منهُ وسيلةً لهدايةِ الناس، ووسيلةً لنجاتي في الآخِرة، وبحقِّ بيتِك هذا، وأدعوكَ يا إلهي بحقِّ جاهِ حبيبِك النبيِّ الكريم ﷺ الذي طَهَّر بيتَك هذا من مئآتِ الأصنام، أن تُكرمَني، وتُكرمَ والديَّ وأولادي وأساتذتي ومشايخي وتلاميذي من الطلَبةِ والطالبات، وكلَّ أصدقائي والمُحبِّينَ لي، وإخوتي وأخَواتي في الطريقة، والقائمينَ معي على أمرِ جامعةِ الكرَم، وكلَّ العاملينَ فيها وأساتذتَها وطلّابَها وطالباتِها ووالديهم، وجمعيةَ المسلم الخَيْريّةَ والعاملينَ فيها والقائمينَ على أمرِها معي، والعلّامةَ محمَّد دِين سيالوي الذي تَولَّى أمرَ مراجعةِ هذا التفسير، وابنيَ الأكبرَ بَخْتِيار حَيْدر بيرْزاده الذي يقومُ بترجمةِ هذا التفسير إلى اللُّغةِ الإنجليزيّة، وابنيَ الأصغرَ منهُ ذا الفَقّار حَيْدر بيرْزاده الذي يُدرِّسُ الدّرسَ النِّظاميَّ في جامعة الكرَم، وأفرادَ أُسرتي الذين جاءوا معي لأداءِ العُمرة (يعني: ابنيَ الصَّغيرَ جُنَيد كل بيرْزاده، ومعروفَ كل بيرزاده، وحفيدي أُسامةَ علي حُسين، وزوجتي نَسيم أَختر، وابنتيَ الصُّغرى سَعْديّةَ بيرْزاده وحفيدتي أقصَى حُسين)، وعزيزي محمَّد أنور صَدّيقي الذي قَدَّم لي كلَّ التسهيلاتِ

في رحلتي في المملكةِ العربيّةِ السعودية، وكلَّ أحبابِه وعائلاتِهم، وكلَّ السيِّداتِ والسادةِ الذين طلَبوا منِّي الدعاءَ لهم، وكلَّ قُراءِ هذا التفسير، بل وكلَّ المؤمنينَ والمؤمنات، والعالَمَ الإسلاميَّ بأكملِه، وأضرَعُ إليك يا إلهي أن تحفَظَنا من وساوِس الشيطان، وأن تُيسِّرَ لنا كلَّ المصاعبِ والعقَبات الدِّينيةَ والدُّنيوية، وأن تُنعمَ علينا بالحَسناتِ والبركاتِ في الدُّنيا والآخِرة، وألتمسُ من كلِّ مَن يستفيدُ من هذا التفسيرِ أن يشمَلَ كلَّ هؤلاءِ الذين ذكَرتُهم آنفًا في دَعَواتِه. اللهُمَّ آتِنا في الدُّنيا حسَنةً، وفي الآخِرة حسَنةً، وقِنا عذابَ النار، بجاهِ حبيبِك الكريم عليه التَّحيّةُ والتسليم.

الفقيرُ إلى الله: محمّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
مؤسِّس وعميدُ جامعةِ الكرم، بريطانيا،
ومؤسِّسُ ورئيسُ جمعيةِ المسلم الخَيْريّة بالمملكةِ المتحدة.
بعدَ صلاة العصر من يوم الاثنين ٧ مارس ٢٠١١م
الموافق ٢ ربيع الثاني ١٤٣٢هـ.

هذا الفقيرُ إلى الله بَدأَ في تفسيرِ إمْدادُ الكرم في ٣٠ سبتمبر عام ٢٠٠٠م، وقدِ اكتَملَ بفَضْل الله تعالى وكرَمِه هذا التفسيرُ اليومَ ٧ مارس ٢٠١١م في المسجدِ الحرام بمكةَ المكرَّمة، أي: أنّ تفسيرَ القرآنِ الكريم كلَّه قدِ استغرَقَ تقريبًا عشْرَ سنواتٍ ونصفًا. والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّد المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه وأتباعِه إلى يوم الدِّين.

* * *

فهرس المطالب التفصيلي
للمجلد السابع
(من سورة المرسلات إلى سورة الناس)

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
الله تعالى مُحِبٌّ	٨٥	١٤	٧	١١٠
فضل الرحمة بالناس	٩٠	١٧	١٤	١٦٤
من لا يرحم لا يُرْحَم	٩٠	١٧	١٤	١٦٤
متفرقات				
رؤية الله تعالى في الآخرة	٨٣	١٥	٦	٩١
قال سيدنا أبو بكر رضي الله عنه: طبيبي هو الله تعالى	٨٥	١٦	٨	١١٠
لله تسعة وتسعون اسمًا، من حفظها دخل الجنة	٨٩	٣	٣	١٤٣
الله وترٌ، ويُحِبُّ الوتر	٨٩	٣	٣	١٤٣
الله تعالى بالمرصاد	٨٩	١٤	٩	١٤٦
محمد رسول الله ﷺ				
أحبوا العرب لثلاث	٨١	١٠	٩	٦٩
كان في رأس النبي ﷺ ولحيته ١٤ شعرة بيضاء	٩٣	١	١	١٨٩
لم يكن النبي ﷺ يكذب حتى وهو طفل	٩٣	٦	٥	١٩٨
كان النبي ﷺ في طفولته يقرأ باسم الله قبل الطعام	٩٣	٦	٥	١٩٨
النبي منزه عن الكفر والشرك حتى قبل بعثته	٩٣	٧	٦	١٩٩
النبي يكون مؤمنًا حتى قبل بعثته	٩٣	٧	٦	١٩٩
لم يقل النبي ﷺ: لا أبدًا	٩٣	١٠	٩	٢٠٥
الله تعالى يُعْطِي وأنا أُقَسِّمُ	٩٣	١٠	٩	٢٠٥
القسم بزمن النبي ﷺ	١٠٣	١	١	٣٢٣

المصادر والمراجع

أولًا: كتب التفاسير

(١) تفسير ضياء القرآن: الشيخ محمد كرم شاه الأزهري، دار نشر ضياء القرآن، لاهور، باكستان ١٩٩٥م (٥ مجلدات).
(٢) الدر المنثور: الإمام جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت ١٩٩٣م (٨ مجلدات).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي): محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان (١٠ مجلدات).
(٤) التفسير الكبير: الإمام فخر الدين الرازي، دار الفكر، بيروت، لبنان (١٦ مجلدًا).
(٥) حاشية الصاوي على الجلالين: الشيخ أحمد الصاوي المالكي، دار الفكر، بيروت، لبنان (٣ مجلدات).
(٦) في ظلال القرآن: الشهيد سيد قطب، دار الشروق، مدينة نصر، القاهرة، مصر (٦ مجلدات).
(٧) جامع البيان (تفسير الطبري/ تفسير ابن جرير): أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٨٤م (١٥ مجلدًا).
(٨) تفسير روح البيان: الإمام إسماعيل حقي، دار الفكر، بيروت، لبنان (١٠ مجلدات).
(٩) صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان ١٩٨١م (٣ مجلدات).
(١٠) تفسير البيضاوي: الإمام ناصر الدين البيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٨٨م (مجلدان).
(١١) تفسير فتح العزيز (تفسير عزيزي: أردو)، شاه عبد العزيز الدهلوي، مطبعة عليمي، دهلي، الهند.
(١٢) تفسير ابن كثير: الحافظ إسماعيل بن كثير، دار القلم، بيروت، لبنان (٤ مجلدات).
(١٣) التفسير المظهري: القاضي محمد ثناء الله باني بتي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(١٤) تفسير نعيمي: المفتي أحمد يار خان نعيمي، المكتبة الإسلامية، الكجرات، باكستان.

(١٥) تفسير روح المعاني: الإمام شهاب الدين السيد محمود البغدادي، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٧٨م (١٠ مجلدات).

(١٦) تفسير الشعراوي: محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة، مصر ١٩٩١م (١٤ مجلدًا).

(١٧) تفسير الحسنات: العلامة أبو الحسنات القادري، دار نشر ضياء القرآن، لاهور، باكستان (٧ مجلدات).

(١٨) تفسير الخازن: الإمام علاء الدين البغدادي، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٧٩م (٧ مجلدات).

(١٩) تنوير المقياس: عبد الله بن عباس، المكتبة الشعبية، القاهرة، مصر ١٩٧٢م.

(٢٠) البحر المحيط: محمد بن يوسف الغرناطي، دار الفكر، بيروت، لبنان (١١ مجلدًا).

(٢١) مدارك التنزيل (تفسير النسفي): الإمام عبد الله بن أحمد النسفي، دار النفائس، بيروت، لبنان ١٩٩٦م.

(٢٢) خزائن العرفان: سيد محمد نعيم الدين مرادآبادي، حفيظ بك دبو، الهند.

(٢٣) أحكام القرآن: الإمام أحمد بن علي الجصاص، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

(٢٤) زهرة التفاسير: محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر.

(٢٥) تفسير المنار: محمد رشيد رضا، دار الفكر، بيروت، لبنان.

(٢٦) تفسير الكشاف: محمود بن عمر الزمخشري: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان ١٩٨٧م.

(٢٧) فتح القدير: محمد بن علي الشوكاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

(٢٨) تفسير القرآن العظيم، حافظ بن أبي حاتم، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان (١٤ مجلدًا).

(٢٩) تفسير الجيلاني: محي الدين عبد القادر الجيلاني الحسني الحسيني، شركة التمام، بيروت، لبنان.

(٣٠) التفسير المنير: دكتور وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، الشام (١٧ مجلدًا).

(٣١) زاد المسير: عبد الرحمن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (٨ مجلدات).

(٣٢) تفسير الماجدي: عبد الماجد دريا آبادي، تاج كمپنى لميتد، لاهور، كراتشي، باكستان (مجلدان).

(٣٣) تفسير أحكام القرآن: أبو بكر بن العربي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (مجلدان).

(٣٤) تفسير معارف القرآن: مفتي محمد شفيع، إدارة المعارف، كراتشي، باكستان (٨ مجلدات).

(٣٥) تفهيم القرآن: سيد أبو الأعلى المودودي، مركزى مكتبه إسلامى ببلشرز، نيو دلهي، الهند (٦ مجلدات).
(٣٦) تفسير عثماني: شبير أحمد عثماني، دار الإشاعت، أردو بازار، كراتشي، باكستان (مجلدان).
(٣٧) تفسير البغوي: الحسين بن مسعود البغوي، دار الفكر، بيروت، لبنان، حاشية تفسير الخازن (٧ مجلدات).
(٣٨) تفسير تبيان القرآن: العلامة غلام رسول سعيدي، فريد بك ستال، اردو بازار، كراتشي، باكستان.
(٣٩) تفسير أبي السعود: القاضي محمد بن محمد، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٤٠) تفسير حقاني: العلامة عبد الحق حقاني، مير محمد كتب خانه، آرام باغ، كراتشي، باكستان.
(٤١) تفسير المراغي: أحمد مصطفى المراغي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

ثانيًا: كتب الأحاديث

(٤٢) صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٤٣) صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج القشيري، دار الدعاء، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٤٤) سنن الترمذي: محمد بن عيسى، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٤٥) سنن ابن ماجه: محمد بن يزيد القزويني، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٤٦) سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٤٧) سنن النسائي: أحمد بن شعيب، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٤٨) مسند أحمد: الإمام أحمد بن حنبل، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٤٩) الموطأ: الإمام مالك بن أنس، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٥٠) مشكاة المصابيح: محمد بن عبد الله التبريزي، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٥١) المعجم الكبير: سليمان بن أحمد الطبراني، مطبعة الزهراء الحديثة، الموصل، العراق ١٩٨٤م (٢٥ مجلدًا).
(٥٢) المستدرك: الإمام الحاكم النيشابوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٩٠م (٤ مجلدات).
(٥٣) الجامع الصغير: محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية، بيروت، لبنان ١٩٩٠م (مجلدان).

(٥٤) رياض الصالحين: يحيى بن شرف النووي الشافعي، دار القلم، بيروت، لبنان ١٩٧٠م.
(٥٥) سنن الدارقطني: علي بن عمر الدارقطني، عالم الكتب، بيروت، لبنان ١٩٩٣م (٤ مجلدات).
(٥٦) شعب الإيمان: أحمد بن الحسين البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٩٠م.
(٥٧) الترغيب والترهيب: عبد العظيم المنذري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان ١٩٦٨م.
(٥٨) السنن الكبرى: أحمد بن الحسين البيهقي، نشر السنة، الملتان، باكستان (١٠ مجلدات).
(٥٩) المعجم الأوسط: سليمان بن أحمد الطبراني، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية (١١ مجلدًا).
(٦٠) صحيح ابن حبان: دار الفكر، بيروت، لبنان (٦ مجلدات).
(٦١) سنن الدارمي: الإمام عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، دار الدعوة، استنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٦٢) مصنف عبد الرزاق: الإمام عبد الرزاق بن همام الصنعاني، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان (١١ مجلدًا).
(٦٣) مصنف ابن أبي شيبة: عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٦٤) المعجم الصغير: الإمام الطبراني، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٦٥) جمع الجوامع: الإمام جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(٦٦) الجامع الصغير: الإمام جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

مراجع أخرى:

(٦٧) معجزات الرسول: محمد متولي الشعراوي، المكتبة الإسلامية الشعراوية، القاهرة، مصر.
(٦٨) الخصائص الكبرى: الإمام جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٧٥م (مجلدان).
(٦٩) السيرة النبوية: عبد الملك بن هشام، دار الجيل، بيروت، لبنان (٤ مجلدات).
(٧٠) البداية والنهاية: الحافظ إسماعيل بن كثير، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٨٢م (٧ مجلدات).
(٧١) المفردات: الإمام راغب الأصفهاني، مكتبة مصطفى البابي، مصر ١٩٦١م.
(٧٢) لسان العرب: ابن منظور، دار المعارف، القاهرة، مصر (٨ مجلدات).

(٧٣) المنجد: دار المشرق، بيروت، لبنان ١٩٧٥م.
(٧٤) شرح المواهب اللدنية: الإمام محمد بن عبد الباقي الزرقاني المالكي، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٧٥) دلائل النبوة: أحمد بن الحسين البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ٢٠٠٢م (٧ مجلدات).
(٧٦) كتاب المبسوط: شمس الدين السرخسي، دار المعرفة، بيروت، لبنان ١٩٨٠م (١٥ مجلدًا).
(٧٧) الفتاوى العالمگيرية: العلامة نظام الدين، بلوچستان بك دبو، كويته، بلوشستان، باكستان ١٩٨٥م (٦ مجلدات).
(٧٨) فتاوى قاضي خان: حسن بن منصور الفرغاني الحنفي، بلوچستان بك دبو، كويته، بلوشستان، باكستان ١٩٨٥م (٦ مجلدات).
(٧٩) رد المحتار: ابن عابدين، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٧٩م (٨ مجلدات).
(٨٠) حاشية الطحطاوي: الإمام أحمد الطحطاوي، مير محمد كتب خانه، كراتشي، باكستان.
(٨١) مراقي الفلاح: حسن بن عمار الحنفي، مير محمد كتب خانه، كراتشي، باكستان.
(٨٢) فتاوى أفريقيه: الإمام أحمد رضا القادري، مدينه پبلشنگ كمپنى، كراتشي، باكستان.
(٨٣) بهارِ شريعت: ربيع الشريعة: العلامة محمد أمجد علي، شيخ غلام علي ايند سنز، لاهور، باكستان.
(٨٤) إمداد الفقه: محمد إمداد حسين بيرزاده، دار السلام، القاهرة، مصر ٢٠٠٣م.
(٨٥) اسلامى عقائد: العقائد الإسلامية: محمد إمداد حسين بيرزاده، الكرم پبلى كيشنز، ايتن هال، نوتنجهام شاير، المملكة المتحدة ١٩٩٩م.
(٨٦) كنز العمال: العلامة علاء الدين البرهانبورى، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان ١٩٨٥م (١٦ مجلدًا).
(٨٧) مجمع الزوائد: علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٨٨م (١٠ مجلدات).
(٨٨) نزهة المجالس: عبد الرحمن الصفوري الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(٨٩) نور الإيضاح: الشيخ حسن بن علي، كتب خانه مجيديه، ملتان، باكستان.
(٩٠) قصيدة البردة: الإمام البوصيري، الترجمة الإنجليزية: محمد إمداد حسين بيرزاده، الكرم پبلى كيشنز، ايتن هال، نوتنجهام شاير، المملكة المتحدة.

(٩١) السيرة النبوية: الحافظ إسماعيل بن كثير، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٩٢) ضياء النبي: بير محمد كرم شاه الأزهري، دار نشر ضياء القرآن، لاهور، باكستان ١٤١٥هـ (٧ مجلدات).
(٩٣) الصراط المستقيم: شاه إسماعيل الدهلوي، اسلامي اكيدمي، لاهور، باكستان.
(٩٤) القول الجميل (أردو): شاه ولي الله، مدينه پبلشنگ كمپنى، كراتشي، باكستان.
(٩٥) سبل الهدى والرشاد: الإمام محمد بن يوسف الشامي، وزارة الأوقاف، القاهرة، مصر (١٢ مجلدًا).
(٩٦) المنتظم في تواريخ الملوك والأمم: الإمام عبد الرحمن الجوزي، دار الفكر، بيروت، لبنان (١٣ مجلدًا).
(٩٧) تاريخ الإسلام: المؤرخ شمس الدين الذهبي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان (٥٢ مجلدًا).
(٩٨) إمتاع الأسماع: تقي الدين المقريزي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (١٥ مجلدًا).
(٩٩) حلية الأولياء: الإمام أبو نعيم الأصفهاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (١٢ مجلدًا).
(١٠٠) الفقه الإسلامي وأدلته: وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، الشام ١٩٨٩م (٨ مجلدات).
(١٠١) الفقه الحنفي وأدلته: الشيخ صاغر جي، دار الكلم الطيب، دمشق، الشام ٢٠٠٠م (٣ مجلدات).
(١٠٢) الفقه على المذاهب الأربعة: عبد الرحمن الجزيري، دار الفكر، بيروت، لبنان (٥ مجلدات).
(١٠٣) لسان الميزان: ابن حجر العسقلاني، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان ٢٠٠٢م، (١٠ مجلدات).
(١٠٤) الأدب المفرد: الإمام البخاري، مكتبة الآداب.
(١٠٥) السيرة الحلبية: نور الدين الحلبي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (٣ مجلدات).
(١٠٦) شرح الشفاء: القاضي عياض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (مجلدان).
(١٠٧) طبقات ابن سعد: مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر ٢٠٠١م، (١١ مجلدًا).
(١٠٨) بدائع الصنائع: علاء الدين الكاساني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ٢٠٠٣م (١٠ مجلدات).
(١٠٩) الموسوعة الإسلامية: الفيصل ناشران، اردو بازار، لاهور، باكستان (مجلدان).

(١١٠) تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، (١٠ مجلدات).
(١١١) الهداية: علي بن أبي بكر الفرغاني، مكتبة شركة علمية، خارج بوابة بوهر، الملتان، باكستان (مجلدان).
(١١٢) فقه السنة: السيد سابق، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٨٢م (ثلاث مجلدات).
(١١٣) عمدة القاري، العلامة بدر الدين عيني، دار الفكر، بيروت، لبنان (٢٥ مجلدًا).
(١١٤) فتح الباري: الإمام ابن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت، لبنان (١٣ مجلدًا).
(١١٥) الأحكام الفقهية: أحمد محمد عساف، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان.
(١١٦) جامع بيان العلم وفضله: يوسف بن عبد الله القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ٢٠٠٠م.
(١١٧) المقاصد الحسنة: شمس الدين السخاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٨٧م.
(١١٨) الفاروق: العلامة شبلي النعماني، مشتاق بك كارنر، أردو بازار، لاهور، باكستان.
(١١٩) المواهب اللدنية: الإمام أحمد القسطلاني، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان (٤ مجلدات).
(١٢٠) الحاوي للفتاوي: الإمام جلال الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (مجلدان).
(١٢١) الكواكب السائرة: الشيخ نجم الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (٣ مجلدات).
(١٢٢) الفوائد المجموعة: محمد بن علي الشوكاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(١٢٣) حقوق الأولاد: محمد شريف الصواف، دار الفكر، دمشق، الشام.
(١٢٤) الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان ١٩٨٨م (٤ مجلدات).
(١٢٥) سيرة النبي: سيد سليمان الندوي، ناشران قرآن لميتد، أردو بازار، لاهور، باكستان.
(١٢٦) الخطبة العصرية: إبراهيم محمد الجمل، مكتبة القرآن، القاهرة، مصر.
(١٢٧) كتاب الخراج: الإمام أبو يوسف، مكتبة الأزهر للتراث، القاهرة، مصر.
(١٢٨) شرح شمائل الترمذي: سليمان بن عمر الأزهري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(١٢٩) البدر المنير: الإمام الشعراني، مكتبة عالم الفكر، القاهرة، مصر.
(١٣٠) الكامل لابن الأثير، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
(١٣١) إرشاد العباد: عبد العزيز محمد سلمان، مطابع الخالد، الرياض، المملكة العربية السعودية.
(١٣٢) نسيم الرياض: شهاب الدين خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(١٣٣) أسد الغابة: أبو الحسن الجزري، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
(١٣٤) الإصابة: الحافظ ابن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(١٣٥) جلاء الأفهام: ابن قيم الجوزية، دار الحديث، القاهرة، مصر.
(١٣٦) سيرة عمر بن الخطاب: أبو الفرج بن الجوزي، دار الدعوة الإسلامية، القاهرة، مصر.
(١٣٧) الفاروق عمر: محمد حسين هيكل، دار المعارف، القاهرة، مصر.
(١٣٨) فيوض القرآن: سيد حامد حسن بلكرامي، فيروز سنز لميتيد، لاهور، باكستان.
(١٣٩) نزهة القاري شرح البخاري: مفتي محمد شريف الحق أمجدي، دائرة البركات، كهوسي، اعظم كرهـ، يوبي، الهند.
(١٤٠) منهاج البخاري: محمد معراج الإسلام، عرفان القرآن، أعوان تاون، لاهور، باكستان.
(١٤١) إرشاد الساري شرح البخاري: شهاب الدين قسطلاني، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(١٤٢) أيها الولد: الإمام الغزالي، Awakening Publications 200 UK Swansea.
(١٤٣) دلائل النبوة: أبو نعيم الأصبهاني، دار ابن كثير، بيروت.

ثالثًا: المراجع الإنجليزية

(144) Miracles of the Qur'an: Muhammad Mutawali ash-Sha'raawi, published by Daar-ul-Taqwa Ltd. London.
(145) Encyclopedia Britannica: peter B. Norton, Joseph Espsito, USA, 1995.
(146) Islam & the West: H.R.H. Charles Prince of Wales, printed by Uniskill Ltd. Eynsham, Oxford, UK.
(147) Muhammad at Madinah: Montgomery Watts. Oxford University Press, 2006.
(148) Oxford Encyclopedia Dictionary: published by Oxford University Press, USA, 1991.
(149) Shari'ah the Islamic Law: Abdur Rahman Doi (Zia-un-Nabi).
(150) The Holy Bible: published by Collins, London, 1954.
(151) The Living Bible: British Edition, 1975.
(152) The Hutchinson Encyclopedia: 1999 Edition.

(153) The New Universal Encyclopedia: Caxton publishing Co, Ltd, London.

(154) The English Pig: published by The Hambledon Press, London 1998.

(155) American Government: Lowi & Ginsberg. Published by W.W. Norton Publication 1998.

(156) Fream's Agriculture: printed by Butler & Tanner Ltd, London. 16th Edition 1983.

(157) Oxford Advanced Learner's Dictionary: 4th Edition 1989.

(158) The Hans Wehr Dictionary of Modern Written Arabic: Edited by J. M. Cowan, 3rd Edition.

(159) The 100: Michael H. Hart, Citadel Press, 1987, New Jersey, USA.

(160) The Bible, the Qur'an and Science: Maurice, 1979, North America, Trust Publication, USA.

